

تأليف

ﻫ . و . كارلس — ديفز
H. W. C. DAVIS
الأستاذ بجامعة أكسفورد سابقاً

نقله إلى العربية

الدكتور السيد الباز العريني
الأستاذ المساعد لتاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب — بجامعة القاهرة

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي بالقاهرة



هذه ترجمـــة كتاب :

Charlemagne

(Charles the Great)

By

H.W. Carless Davis

London & New York

G.P. Putman's Sons

1929

من ســـلسلة :

Heroes of The Nations

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

مقدمة

اجتمع لشارل أثناء حياته من الألقاب والنعوت ، ما تعتبر بالغة الروعة ، شديدة الوقع . فاشتهر بأنه لامع ، مجيد ، مظفر ، وأنه حكيم . غير أن لقباً آخر أطلقته عليه الأجيال التالية ، فاق كل ما سبق من الألقاب ، وهذا اللقب الذي اشتهر به ، وهو الكبير أو العظيم ، لم يلبث أن ارتبط باسمه . فى فقرة من فقرات قصة ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، وردت عبارة Karolus magnus فى لفظة واحدة ، فصارت Carlemaines أو Charlemaines ، التى أضحت « شارلمان » .

والواقع أن هذه العظمة إنما استمدها شارل من أسرته ، التى تعتبر من أشهر أسرات الفرنجة ، والتى حازت فى آخر عهد الميروفنجيين شهرة فائقة بسبب ارتباطها بالكنيسة والدولة . فأرنولف الجد الأكبر لشارلمان ، أعجبه والدان شريفان ، اشتهرا بالثراء الضخم ، والإيمان المتين ، وهو الذى تولى أسقفية متز من سنة ٦١٣ حتى سنة ٦٢٧ م . أما ببين حفيد ارنولف ، فيعتبر من أكبر دهاة الفرنجة ، ومن خيرة مستشاريهم ، وصار حاجباً للقصر زمن داجوبرت ، وهو الذى وحد دولة الفرنجة بعد أن أوشكت على الزوال ، وظل فى منصبه ٢٧ سنة . واشتهر ابنه شارل مارتل بكفايته الحربية والإدارية ، وهو الذى زاد فى متانة وحدة الدولة . وتم فتح أكيتانيا زمن شارل القصير .

وبفضل هذه السلسلة الطويلة من الشجعان والدهاة ، نهضت دولة الفرنجة ، واتسعت رقعتها ، فلم تعد تشتمل فحسب على ممالك استراسيا ونوستريا وبرجنديا ، التى تألفت منها أساساً مملكة الفرنجة Regnum Francorum ، والتى امتدت حتى بلغت نهر الإلب ، بل إن فتح اكيتانيا جعلها تتاخم جبال البرانس . غير أن

هذه الحدود لم تلبث أن تغيرت ، إذ صار بيبن يحكم فيما وراء الراين ، ما يقع من ألمانيا بين سكسونيا ونهر الدانوب ونهر الراين ونهر السال ، ويفصل بين التورنجيين والسوراب ، واشتهر سكان هذا الجزء باسم الجرمان الشرقيين ، وحكم أيضاً ألمانيا ، يضاف إلى ذلك ما وجهه أجداده وآباؤه من الحملات ضد السكسون والباڤاريين واللومبارديين .

واعتنق هؤلاء المحاربون الأشداء من الأفكار ما يدل على الذكاء النادر وبعد النظر السياسي ، فأدركوا ، بفضل ما اشتهروا به من التقوى ، وفي زمن سيطرت فيه الديانة على سلوك الناس وحياتهم ، أن حكمهم السياسي ينبغي أن يقوم أساساً ، في داخل البلاد وخارجها ، على العقائد المسيحية ، فجعلوا كل اعتمادهم على رجال تولوا نشر الدين وتوطيد قواعده ، كالقديس ويليبرود ، والقديس بونيفاس ، لجرى عقد المجامع الدينية بعد أن مضى زمن طويل دون أن تنعقد ، وبذلك تم تنظيم الكنيسة ، والتخلص مما تبقى بين الجرمان من آثار الهرطقة القديمة ، ونشر المسيحية بين من تبقى من الوثنيين في هس وثورنجيا . وأدرك البابوات والمبشرون أنه سوف لا تتحقق أغراضهم ، إلا إذا حظوا بتأييد ملك الفرنجة ، ومن الدليل على ذلك ، ما أشار إليه بونيفاس من « أنه لا يستطيع ، دون تأييد ملك الفرنجة ، أن يحكم الرعايا المؤمنين ، أو يتكفل بأمر الرهبان والراهبات ، أو يجتث من ألمانيا الشعائر الوثنية ، أو يمنع تقديم القرابين للأصنام » .

وما أصاب نظم الفرنجة السياسية والإدارية من انهيار زمن الميروفنجيين ، لم يلبث أن تبدد ، فعاد إلى هذه النظم القوة والنشاط ، بعد أن دخل عليها من التعديل ما تقتضيه الأحوال .

والواقع أن ما قام به أجداد شارلمان من أعمال ، تجاوزت آثارها حدود دولة الفرنجة ، وأسهمت في مستقبل العالم . فما قام به شارل مارتل من المحافظة على أملاك الدولة ، وما أجراه ابناؤه من تنظيم الكنيسة ، حفظ المسيحية التي لم تكن

وقتذاك سوى المدنية والحضارة . وهذا هو السر فى أن المعاصرين رأوا أن فى اتخاذ هؤلاء الرجال ألقاب حجاب القصر أو الدوق ، لا يتناسب مع أعمالهم وجهودهم ، فأحلوا مكانها لقب الأمير أو نائب الملك ، وهذا هو السر أيضاً فيما حدث فى نوفمبر سنة ٧٥١ من أن المملكية لم تستند فحسب إلى رضا ما يخضع لها من الأقوام ، بل استمدت قوتها أيضاً من صفة دينية ، بما نالته من موافقة زعيم الكنيسة ، الذى لم يكتف بتأييد بيبن فى ولاية الحكم ، بل قدم بنفسه سنة ٧٥٤ لرسمه ملكا على الفرنجة ، وحرّم الحكم على كل من لم يكن من هذه الأسرة ، التى ارتقت العرش بفضل التقوى ، والعناية الالهية ، وبسعى الرسل المقدسين ، وعلى يدى قسيسهم السيد البابا .

وما حدث ، بعد أن تولى العرش الأمراء الذين يصح أن يتخذ كل منهم لقب عظيم ، من اختصاص شارل بهذا اللقب ، إنما يدل على أهمية حكمه . فما اشتهر به شارل من أنه قاهر اللومبارديين والسكسون والآفار ، وناشر المسيحية فى شمال ألمانيا ، وصديق وحليف البابوات ، وملوك بريطانيا واشتوربس ، والخلفاء المسلمين ببغداد ، وأباطرة بيزنطة ، ومصلح الإدارة المدنية والقضاء ، وحامى العقائد الأرثوذكسية ضد الأساطير والهرطقات ، ومبتدع اللاهوت والطقوس الدينية ، ومنظم المبعوثين ، ورئيس الدولة والكنيسة ، وأمبراطور الرومان ، جعله يفوق جميع أجداده ، فأضحت دولة الفرنجة قطب المدنية فى العصور الوسطى فى الغرب ؛ وصار شارل يعتبر واحداً من أولئك الذين غيروا تاريخ العالم . على أن المؤرخين الألمان جعلوه أميراً ألمانياً ، وأن كل ما عمله يعتبر ألمانياً ، إذ أن توحيد كل العناصر الجرمانية فى مملكته ، كان الغرض الذى سعى إليه ، وجعله نصب عينيه ، منذ بداية الحرب السكسونية ، لأنه كان يرى أن قوة المملكة تركزت فى أقوامه من الجرمان . على أن بعض المؤرخين يرى أن ما دفع شارل إلى الاهتمام بالعنصر الجرمانى لم يكن سوى الرغبة فى الحد من قوة العنصر اللاتينى .

على أنه ينبغى أن تعرف أن شارلمان إنما يمثل مجتمعاً سادت فيه العناصر الجرمانية، غير أنه لا زالت تسوده أيضاً روح غاله، وروح روما الأمبراطورية والمسيحية. فلم يكن شارل فرنسياً ولم يكن ألمانياً، فإذا كان تعليمه جذبه إلى اللاتين، فإن أصله ربطه بالتيوتون، وإذا جاز أن تكون آماله وميوله لاتينية، فإن تقاليد الحياة السياسية والاجتماعية، التى يدين بها، تعتبر من غير شك تيوتونية، وهاتان الصفتان اجتمعتا واختلطتا فى طبيعته المتعددة الجوانب، والواقع أن شارل انتمى إلى الأمة الوحيدة، التى كانت زمنه جديرة باسمها، إلى تلك الأمة التى انعدمت فيها الاختلافات المحلية والعنصرية، وهى أمة الكنيسة الكاثوليكية »[1].

على أن شارلمان لم يكن من الأشخاص الذين نستطيع أن نتعرف إليهم من دراسة أعمالهم حسب ترتيبها الزمنى، إذ أنه لم يجر فى أعماله وفقاً للأحوال أو الأطماع الشخصية، إنما ألزم نفسه بنظام خاص وخطة معينة، يضاف إلى ذلك أنه لم يقف ساكنا إزاء ما يجرى أمامه من مناقشات ومناظرات، عن المشاكل الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة، إنما شارك فى كل ذلك.

وعلى الرغم من أن امبراطورية شارلمان قد تحطمت، ولم يمض على وفاته ثلاثون عاما، فإنها تركت أثراً بلغ من الشد والقوة، أنه توافر فى نظم كل من الدول الجديدة وقوانينها والنظام الكنسى بها، وحضارتها، من العوامل ما يكفى للإبقاء على المدنية الأوربية فى العصور الوسطى.

ولذا وجه الأستاذ ديفز، مؤلف هذا الكتاب، كل اهتمامه إلى دراسة البيئة التى نشأ فيها شارلمان، والأوضاع السياسية المختلفة فى أوربا، والأصول التى أرسى شارلمان عليها أعماله السياسية والدينية، إذ أن ما وضعه من الخطط انعكست فى الحروب والإدارة، وما تم من تطور اقتصادى واجتماعى وفكرى عند الفرنجة.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ هنرى وليم كارلس ديفز H. W. C. Davis

(1) أنظر ما يلى ص ٢٨٦.

من أعلام مؤرخى العصور الوسطى فى انجلترا. تخرج فى كلية باليول بجامعة اكسفورد سنة ١٨٩٥ ، ثم صار زميلا بكلية أول سولز فى اكسفورد (١٨٩٥—١٩٠٢)، وتولى التدريس فى نيو كولدج باكسفورد ١٨٩٧، وفى باليول ١٨٩٩ ، ثم صار من أعضاء كلية باليول سنة ١٩٠٢، وأسهم فى أعمال تتعلق بالمجهود الحربى بانجلترا (١٩١٥—١٩١٩) . ثم عاد إلى أكسفورد ليستأنف التدريس بها ، ثم عين أستاذا بجامعة مانشستر سنة ١٩٢١، ثم رجع من جديد إلى اكسفورد فأصبح من أعضاء كلية أوريل سنة ١٩٢٥ .

ومن أشهر آثاره التاريخية، كتاب حياة شارلمان الذى ظهر فى مجموعة أبطال العالم «Heroes of the Nations» سنة ١٩٠٠، وهو هذا الكتاب الذى نقلته إلى العربية، وكتاب تاريخ أوربا فى العصور الوسطى الذى ظهر فى مجموعة HomeUniversityLibrary والذى نقله سنة ١٩٥٨ إلى اللغة العربية صديق وزميل الدكتور عبد الحميد حمدى محمود الأستاذ المساعد لتاريخ العصور الوسطى، بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . أما كتابه عن تاريخ انجلترا زمن النورمان والانجويين والذى ظهر سنة ١٩٠٥ فيعتبر المرجع الأساسى لتلك الفترة من تاريخ انجلترا، حتى وصل عدد طبعاته ثلاث عشرة فى سنة ١٩٤٩ . وأخرج ديفز فى سنة ١٩١٣ الجزء الأول من كتابه المعروف باسم Regesta Regum Anglo - Normanorum ، ثم صدر فى سنة ١٩٥٧ (أى بعد وفاته) الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ومن مؤلفاته أيضا كتابه عن انجلترا فى عصر جراى وبيل The Age of Grey&Peel واشتمل على محاضراته التى ألقاها فى اكسفورد ، وصدر هذا الكتاب فى سنة ١٩٣٠ ، يضاف إلى ذلك طائفة كبيرة من الأبحاث التاريخية التى نشرها فى المجلة التاريخية الانجليزية .واشترك الأستاذ ديفز فى نشر الجزء الخاص من قاموس تراجم المؤلفين من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٢١ .

وانتهت حياة هذا العالم والمؤرخ فجأة سنة ١٩٢٨ .[1]

---

(١) ما ورد فى هذه الترجمة مستمد من قاموس تراجم المؤلفين Dictionary of National Biograpny ، ومن مقدمة الترجمة العربية لكتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى.

ولما لهذا الكتاب من أهمية فى دراسة تاريخ أوربا العصور الوسطى من الناحيتين السياسية والحضارية ، نقلته إلى اللغة العربية ، وأضفت إليه من الحواشى ما يجلى ما غمض من المصطلحات ، ومن الملاحق ما يشرح العلاقات بين الفرنجة والمسلمين ، فضلا عن المصادر والمراجع التى تفيد الباحث ، والتى لم يتيسر المؤلف الوقوف عليها .

ولا يسعنى إلا أن أزجى الشكر خالصا للزملاء والأصدقاء الذين أفدت من ملاحظاتهم فى ترجمة الكتاب وحواشيه ، والله ولى التوفيق .

السيد الباز العرينى

القاهرة فى صفر سنة ١٣٧٩
أغسطس ١٩٥٩

تصدير

فى الصفحات التالية حاولت أن أعطى فكرة عن شخصية أول امبراطور فى الغرب ، وأثره فى التاريخ الأوربى. وفى معالجة النظم والتطور الاجتماعى والأدبى التزمت بتلك الحقائق التى تلقى ضوءاً على حياته . على أن ضروريات الحيز المقرر أرغمتنى على أن أجعل هذه الدراسات عن أصول حياته فى نطاق حدود ضيقة . وجعلت قصتى ترتكز على دراسة التواريخ والوثائق والآداب التى تتعلق بهذا العهد . أما النهج التاريخى فجريت فيه على نهج كتاب رختر المعروف بالحوليات. Richter : Annales (Halle 1885). فإلى هذا الكتاب ، وإلى كتاب آخر أكثر شمولا ألفه ابل وسمسون Abel & Simson ، أدين كثيراً فى نواحى عديدة. وأفدت من المراجع والمصادر الإنجليزية والفرنسية والألمانية فى تفسير المصادر الأصلية . ولا يسعنى إلا أن أقر بصفة خاصة بفضل مؤلفات فايتز Waitz ، ومولباخر Muhlbacher وجرنجوريوس ، ودوللنجر ، وفوستل دى كولانج ، وهوروه ، وفيوليه ، ومن المؤلفين الإنجليز أمثال الدكتور مومبرت ، ج . باس موللنجر ، والدكتور هودجكين . وحينما شرعت فى تأليف هذا الكتاب لم أكن أعلم أن الدكتور هودجكين يقوم بمثل هذه الدراسة . ولما قاربت الفراغ من الكتاب اطلعت على الترجمة التى ألفها عن حياة شارلمان ، والتى صدرت فى مجموعة رجال السياسة الأجانب، وتقبلت رأيه شاكراً فى موضع أو موضعين . وإنى لواثق بأن كتابى ،الذى يعالج الموضوع من زاوية أخرى ، لا أقصد به المقارنة بكتاب مؤلف حجة ثبت فى هذا الموضوع .

وإنى لأتقدم بالشكر العميق إلى السادة شارل أومان ، وجرانت روبونسون ، و هـ . هنسلى هنسون ؛ لما بذلوه من مساعدة ونصائح قيمة . على أنه من دواعى الإنصاف لهؤلاء السادة أن أقرر بأنهم غير مسئولين عما ورد فى الصفحات التالية من الأخطاء فى الحقائق أو الأسلوب .

اكسفورد (كلية أول سولز)

الفصل الأول

أوروبا قبيل ظهور شارلمان

من العسير أن نتصور حالة أوربا منذ ١٢١٠ سنة حين كان شارل الكبير ما زال فى المهد صبياً ، إذ أنه منذ ذلك التاريخ شمل التغيير كثيراً مما هو معروف عن جغرافية أوربا الطبيعية من الحقائق الثابتة ، وتغيرت أيضاً معالمها عند الناس . فما هو معروف اليوم من أقاليم تعتبر عند الغرب أعظم المناطق إنتاجاً وأوفرها غلة ، لم تكن وقتذاك إلا أقاليم غطتها الغابات الكثيفة ، وتخللتها المستنقعات الآسنة ؛ وما بها اليوم من جبال وأنهار يجتازها مئات الناس فى يسر وسهولة لم تكن وقتذاك إلا حواجز مانعة بين أمة وأمة ، أو بين جماعات مختلفة من أمة واحدة . أما الطرق فكانت قليلة نادرة ، وقلما استخدمها الناس فى تنقلاتهم السلمية . فالخوف من اللصوص وجامعى المكوس ، ألزم كل من يحاول السفر البقاء فى موطنه . ولم يكن وقتذاك بأوربا إلا عدد قليل من الأنهار الكبيرة التى اشتهرت بوفرة ما يقع عليها من المدن مثلما هو حادث اليوم . على أن هذه المدن لم يقم بها من المبانى العامة والآثار إلا ما كان تقليداً سيئاً لفن العمارة الرومانية ، ولم يقدم الناس إلى المدن إلا التماساً للمأوى أو للمقايضة التجارية أو ليشهدوا احتفالا ، أو يحضروا قداساً ، أو يستمعوا لإعلان تولية الملك ، أو يحضروا ما يجرى عقده كل شهر من المحاكم . غير أن زياراتهم كانت متقطعة وقصيرة . فما جروا عليه من التقاليد ، وما درجوا عليه من الركون إلى الدعة والراحة ، وما اشتهروا به من أذواق خاصة ، كلّ ذلك جعلهم أوفياء لحياة الريف . فالمحراث والمنجل هما حرفتهم وصناعتهم ، والكلاب والخيول هى كل ما يمارسونه من الرياضة كل يوم . يعيش الناس جميعاً على الزراعة . أما الملوك فإن اهتمامهم باقتصاد ضيعاتهم لم يقل

عن اهتمامهم بإدارة ممالكهم . وما أصاب الماشية من طاعون كان ذلك من أسباب الفقر ، وما حدث من نقص فى المحصول كان ينذر بحدوث المجاعة ، ولذا فإن المؤرخين يعطون فى تدوين أخبار الصقيع والجفاف من الأهمية ما يعطونه فى تدوين أخبار حملات الأمبراطور .

وما نبت فى هذه الحياة من عقول وأفكار إنما اتسمت بالبلادة والركود ، ولا تقبل التغيير والتطور ، ولا تميل إلى الابتكار والطموح . فالفلاح قانع بأنه سوف لا يكون أحكم من أسلافه ولا أسعد منهم حالا ، ولا يطمع فى أكثر من أن يضيف إلى حقله حقلا جديداً ، وكل ما عنده من معرفة وإدراك لا يتعدى علمه بأوقات الأعياد والمواسم وتقلبات الطقس ، وتغيير الفصول . ونظراً لأنه لا يخشى المنافسة ، ولاطمئنانه إلى أسوأ المقادير عنده وهو معيشة الكفاف ، عاش مستقلا عن رفاقه ، لا يكترث بأسرار الطبيعة . أما المبادىء والمثل فإنه ، إذا كان لديه منها شيء ، طرحها وراء ظهره ، ولم يجعلها نصب عينيه .

والعصر الزاهر عند رجال القرن الثامن الميلادى لا يتمثل إلا فى الأمبراطورية الرومانية ؛ التى ما زالت لغتها مستعملة فى كنائسهم ومحاكمهم ، وما زالت صورتها وما يتعلق بها من نقش تزين عملتهم . وما زالت آدابها منبع الإلهام الذى ينتهل منه خير معلميهم وأحكمهم . ومع ذلك فإنهم فى الواقع لم يدركوا ما لتلك الأمبراطورية من صفات عالية ، إذ أن خيالهم لم يثره من القصص إلا ما يتعلق منها بالقياصرة الذين حكموا من الفرات إلى أعمدة هرقل (جبل طارق)، وفى ظل حمايتهم ارتحل التجار براً وبحراً يحملون ثروتهم ، وقام الفلاحون بحصد ما زرعوه من المحصولات . على أنهم لم يتطلعوا إلى عودة أيام الرخاء والخصوبة . فالأمبراطورية ليست سوى كائن زائل ، خلقها الله ، ثم لم يلبث أن أزالها ، فإذا قضى بنزع نعمته ، لم يستطع الرومان ومن كان قبلهم من المتجبرين ، بما بذلوه من

فكر وجهد أن يقاوموا عملية التداعى والانهيار . وكيف يستطيع اليوم الضعفاء من القوم أن يعيدوا بناء ما عجز عمالقة الماضى عن المحافظة عليه .

على أن العصور المظلمة استبد بها الأسى والحزن على ما أصاب الأمبراطورية من ضعف ، ونعى كتابها ما وقع من زوال « فتوة العالم » فى وقت ازدادت فيه الهمم نشاطاً واشتدت الأحاسيس حدة وانفعالا . وعلى الرغم من أن الماضى لم يعد له قيمة فى حد ذاته ، فإن كل أثر من آثار ذلك الماضى ازداد التعلق به لما ينطوى عليه من ارتباطات كثيرة .

على أن العصور المظلمة آثرت العاصمة القديمة (روما) على كل شىء باعتبارها رمزاً للوحدة التى اختفت . فروما الزاهرة ، وروما سيدة العالم ، اتجهت إليها كل الأنظار باعتبارها شيئاً أكبر من الطوب والحجارة التى يتكون منها شكلها الظاهر ، وباعتبارها كائناً حياً ، وفكرة قائمة . وبدت المدينة الخالدة فى أذهان الناس على أنها حجر الزاوية الذى يتحكم فى مصير العالم ويبقى عليه . وتنبأت بذلك أغنية ترجع إلى القرن الثامن :

فما بقى الكوليزيوم بقيت روما .

فإذا هوى الكوليزيوم هوت روما .

وإذا سقطت روما سقط العالم والناس أجمعون .

ومضى ما يزيد على أربعة قرون على ما قام به قسطنطين من نقل بلاطه وإدارته إلى شواطىء البوسفور ، هوت أثناءها روما ، وانحطت إلى مرتبة مدينة إقليمية ، ليس لها من الأهمية إلا أنها عاصمة لدوقية تحمل اسمها ، وأنها مقر بطريرك الغرب . أما صولجان العالم المتمدين فما زال يدعيه أباطرة القسطنطينية . وعلى الرغم من أن هؤلاء الأباطرة انحدروا من أصلاب الفلاحين الايسوريين ، وأنهم يونانيون لغة وديناً ، وشرقيون فى مدنيتهم وسياستهم ، وأنهم لم يتخذوا

جيوشهم ومواردهم إلا من العناصر المختلفة التي تنزل على حافة شاطئ، بحر إيجة والبحر الأسود، وأنهم اخرجهم من اسبانيا وأفريقيا، القوط الغربيون والوندال ثم العرب، وطردهم من غالة الفرنجة، ومن بانونيا الهون، فإنهم ما زالوا الورثة الشرعيين لأكتافيوس ووقلديانوس، ولقسطنطين وجستنيان. ومن الناحية النظرية، اعتبر هؤلاء الأباطرة شبة جزيرة إيطاليا من أملاكهم. والواقع أنه على الرغم من نزول اللومبارديين بإيطاليا، فإن الجند البيزنطى ما زالوا مرابطين فى البندقية واستريا ونابولى وصقلية وكالابريا ثم رافنا (التى بقوا بها حتى سنة ٧٥٠م)، والبطريق ارخون رافنا كان يعتبر من كبار الموظفين البيزنطيين، ويمثل فى إيطاليا عظمة الأمبراطورية. أما البابوات الذين انتقل إليهم عفوا حكومة دوقية روما، فإنهم اسهموا فى التعلق بطيف السلطة الأمبراطورية، فأرخوا وثائقهم بسنوات حكم الأمبراطور، واعتبروا البطريق ارخون رافنا وليا لهم ونصيرا، وبلغ من شدة تأثرهم وتعلقهم به أن ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم إلا إذا أقر هذا الموظف انتخابهم باسم سيده الأمبراطور البيزنطى.

وعلى هذا النحو استمرت روما الجديدة (القسطنطينية) تعكس ظلها على روما القديمة. غير أن عواطف الغرب ما زالت جامدة لم تتغير. ففى نظر الغاليين والإيطاليين لم يكن الباسيليوس (الأمبراطور البيزنطى) ورعاياه سوى يونانيين من عنصر شرقى، وهو عنصر لم يجد قبولا فى غرب بحر الادرياتى منذ أيام يوفنال. وما اشتهر به اليونانى من الطباع اللينة، والمزاج المادى، والجبن وعدم التدين، يرجع كثيراً ما لتفوقه الفكرى من احترام وتقدير غير منكور. ويذكر التاريخ أن الأمبراطورية البيزنطية ما زال لديها، برغم ذلك كله، بقية من الفضائل؛ إذ أن أقاليمها، لا العاصمة، ما زالت تشتهر بالاقتصاد والبسالة والمحبة العائلية والحماسة الدينية، والاعتقاد فيما للدولة المسيحية من رسالة رائعة، والاستعداد للموت فى سبيل خدمتها. ولذا استمرت القسطنطينية قرونا عديدة يتخذ سلطانها مركزاً وسطاً بين أوربا

و بين الأقوام القلقة من الروس والبلغاريين والمسلمين الذين هددوا بتدمير الحضارة الناشئة فى الغرب . ففى آسيا الصغرى وتراقيا اشتهر اليونانى ببطولته و بسالته ، أما فى صقلية و إيطاليا حيث اتصل اليونانى بأمم تدين بمذهبه ، فإن الجانب السيء من خلقه ظهر على حقيقته ، فما جرى اتخاذه من أساليب لصد العدو ، واعتبروها مشروعة ، أضحت بغيضة حين صار استخدامها لتحقيق غرض شخصى . ووقع فى القرن الثامن الميلادى حوادث ترتب عليها افتراق العنصر اليونانى عن العنصرين اللاتينى والجرمانى . إذ حدث أول الأمر الإنشقاق الدينى ؛ فما اشتهر به ليو الأيسورى من الحماس اللأيقونى (٧٤٠ م) لم يجد قبولا فى روما ، ولا فى بطريركية روما . ولما أطمأنت كل من غالة و إيطاليا على نفسها من اذلال المسلمين لها ، والتدخل فى عقيدتها ، رمت بالهرطقة ذلك الأمبراطور الذى يحكم بالقسطنطينية ، و يريد أن يسلبها الصور المقدسة ، ليتجنب تقريعاً وتأنيباً لم تدرك كل منهما أثرة وقوته . على أن ارخونية رافنا لم تلبث أن أصبحت فريسة لملك اللومبارد إيستولف (٧٥١ م) . ولم يلبث ببين القصير ملك الفرنجة أن انتزع من إيستولف المدن التى استولى عليها . غير أنه بدلا من أن يعيدها إلى القسطنطينية ، أعطاها للبابا على أنها هبة ، واتخذ بناء على دعوة وليه ونصيره (البابا) سنة ٧٥٤ ، لقب بطريق الذى لا يمنحه شرعاً سوى الأمبراطور . أما ما تبقى من الأقاليم البيزنطية فلم تكن بنجوة من الخطر ، وترتب على ذلك أن العلاقات الدبلوماسية بين الأمبراطورية والبابوية كادت تنقطع وأوشكت على النهاية .

و إذ أنقذت هذه الحوادث روما والبطريرك الرومانى (البابا) من الخضوع والأذعان لأية سلطة بشرية ، كان لزاما عليهما أن يتوليا توجيه رأى غرب أوربا فى كل ما يتعلق بالمصلحة العامة من مشاكل . فمن روما خرج أولئك الأبطال الذين نشروا لواء السلام الرومانى Pax Romana براً و بحراً ، وجعلوا البحر المتوسط بحيرة رومانية . وفى روما اشتد عذاب الشهداء ، وأضحت روما مثوى

ومستقرا لأجسادهم ، وبفضل دمائهم ودموعهم اتخذت الامبراطورية جانب المسيح ، وصار بروما مشهد القديس بطرس ، وصار بمفاتيحه قوة العقد والحل . وما أحرزه الصليب من انتصارات على الأريوسيين فى غالة وإيطاليا ، وعلى الوثنية التيوتونيةفى بريطانياو إقليم الراين. إنما ارتبطت باسم روما ارتباطا وثيقا. فروما كانت أم كنائس الله فى جميع العالم ، ذلك كان التعبير الشائع المألوف . وربما أدعت أنها أكبر من ذلك ، فانتمى إليهـا حقا وشرعاً سيف الجسد (السلطة الدنيوية) الذى لا يقل أهمية عن سيف الروح (السلطة الروحية) . وما زالت أسطورة قسطنطين والبابا سلفستر حتى وقتذاك جارية على ألسنة رجال الكنيسة لا فى إيطاليا وحدها . فزعامة الأمبراطورية على الغرب وسيادتهـا على إيطاليا[1] ، هما ما زعم البابا أنه تلقاهما من أيدى الأمبراطور الحاكم ، ولذا جرت المناقشة فى منطق عنيف ، بأنه ليس فى استطاعة أية سلطة علمانية أو كنسية أن تبق قانونا فى الغرب دون موافقة جمهورية روما ،التى بسببمكانتها صار يجرى تعيين البابا وأولئك الذين يختارون البابا ، أى رجال الدين وأهل مدينة روما . على أن هذه النظرية وما انطوت عليها من مشاكل ظاهرة ، لم يكن لها سند تاريخى ، ولم يجر تطبيقها فى مجال السياسة العملية . ومع ذلك فإن ما اشتهرت به هـذه النظرية من الغموض الشديد كان مصدراً من مصادر قوتهـا . فرجال السياسة الدهاة،وفلاسفة الدين،لم يجدوا مفراً من التسليم بها والخضوع لها. إذ أثارت فى بيبن من الجسارة والقوة ما جعله ينزل العقاب باللومباديين ، وحرضت شارل الكبير على القضاء عليهم ، وكفلت للفرنجة الانتصار على الباقاديين دون إراقة الدماء ، وفى طوال القرن الثامن كانت عاملا دائما فى دبلوماسية أوربا .

ولهذا السبب جاز اعتبار أوربا وقتذاك مجتمعاً واحدا ، إنما لم يكن ذلك لهذا السبب وحده . فما حدث وقتذاك هو الذى يحدث الآن ، وهو أن سكانها ارتبطوا

(١) هذه الهبة اتخذت صورتها الحالية فى النصف الثانى من القرن الثامن وورد ذكرها فى كتاب البابا فى سنة ٧٧٦ أنظر : Cod. Carolinum elis .

فيما بينهم بروابط الجنس واللغة والثقافة . وفى جميع هذه النواحى ما عدا الأولى منها ازداد اقترابهم ، أكثر من أى زمن مقبل ، إلى أن تنشأ بينهم وحــدة متصلة غير مقطوعة ، فاللاتينية كانت اللغة الوحيدة للآداب والطقوس الدينية . أما القوانين والعلوم والعرف فإنها ارتبطت سويا بالعرف الرومانى . أما العناصر الحاكمة التى بفضلها جرى الاحتفاظ بهذا الأثر فإن أصولها ترجع إلى التيوتونيين .

على أنه كان مجتمعاً يختلف اختلافا كبيراً عن المجتمع الأورى فى اليوم . فالبلاد السكنديناوية ألفت نظاماً مستقلا . فالشماليون الوثنيون لم يصل خبرهم إلى الجنوب إلا عن طريق السماع والأشاعة ، وبما يمارسونه من التجارة مع التجار الفريزيان عبر الحدود ، وبما يحدث من حين لآخر من ظهور سفنهم الطويلة فى البحار الشمالية . وفى جنوب دانمرقة زخرت هولشتين والأقليم الواقع بين نهر الراين ونهر الإلب بقبائل من الأنجاد السكسونى . ولما كانوا وثنيين شأن جيرانهم من الشماليين ، فإنهم تعرضوا باستمرار للاعتداء من جهة الغرب، غير أنهم ظلوا حتى ذلك الحين محافظين على استقلالهم بما بذلوه من وعود كاذبة بدفع الجزية . أما روسيا وما يقع من ألمانيا شرق نهر الإلب ونهر السال ، ومورافيا ، وبوهيميا وبولندا وسيليزيا ، فكانت كلها فى أيدى الصقالبة . وهم قوم ذوو عيون زرقاء ، اشتهروا بممارسة الرعى والزراعة ، واقتفوا أثر الجموع التيوتونية المرتحلة ، ليغرسوا الحدائق والبساتين حيث جعل التيوتون الأراضى فلاة بعد مغادرتها . وفى بانونيا استقر الآفار التيبريون ، وهم من عنصر مغولى ، اشتهروا بأنوفهم المستقيمة ، وبروز عظام خدودهم ، كما عرفوا بتربية الخيول والمهارة فى الرماية ، وعاشوا وراء أسوار شيدوها من اللـبن، لا يبرحونها إلا لاستباحة الخلجان الايطالية أو حوض الدانوب الأدنى . أما الذين ينزلون من ورائهم بشبه جزيرة البلقان فما زالوا يخضعون من الناحية الإسمية للأباطرة البيزنطيين . ولا يصح اعتبار اسبانيا وقتذاك جزءا من أوربا. ففى أوائل القرن الثامن الميلادى سقطت اسبانيا فى أيدى المسلمين ، ولم يغنمهم من

بسط سلطانهم وامتداده حتى نهر اللوار إلا قوة شارل مارتل ، فأضحت أسبانيا منذئذ إمارة مستقلة عاصمتها قرطبة ، تولى حكمها الأسرة الأموية المعروفة . وعلى الرغم من أنه كان بأسبانيا مسيحيون ، لم يكن بها من الإمارات المسيحية إلا مملكة أشتوريس الصغيرة ، التي قامت بجبال كنتبريان وارتبطت بأواصر القرابة والنسب مع غالة و إيطاليا . وفي داخل هذه الحلقة من الأعداء والأجانب ، عاشت كل غالة القديمة ، والجانب الأكبر من وسط ألمانيا وجنوبها وشبه جزيرة إيطاليا ، فيما عدا ماسبق ذكره من المعاقل والحاميات البيزنطية . ولم يكن من أقاليم البطريركية الرومانية ماهو أشهر من انجلترا في الأرثوذكسية وفي الثقافة الفكرية ؛ إذ تردد تجارها إلى موانى غالة ، وهرع حجاجها في تيار متدفق مستمر عبر جبال الألب قاصدين روما ، وأسهم المبشرون الإنجليز أكثر من سائر العناصر في إقامة الكنيسة الألمانية . غير أن انجلترا ظلت منعزلة عن كل ما جرى بالقارة من سياسات وحياة عامة : وذلك راجع من جهة إلى وضعها باعتبارها جزيرة ، ومن جهة أخرى إلى أن أحدا من الملوك لم يقم بتوحيد جميع أقاليمها في ظل سيادة قوية . إذ هوت نورثمبريا في غمار الفوضى ، بينما ظلت وسكس راكدة جامدة ، أما مرقيا فإن حكومتها لم تصبح تحت زعامة أوفا القادر إلا في عصر متأخر .

وفي هذه المرحلة اقتسم الزعامة في أوربا دولتان : هما الفرنجة واللومبارديون . وهاتان المملكتان يفصل بين قيامهما حقبة من الزمان قدرها مائة سنة ، إذ أن أول زعيم كبير للفرنجة وهو كلوفيس تولى عرش تورناى سنة ٤٨١ ، إنما لم تتوطد سيادة بيته على كل غالة إلا عند وفاته سنة ٥١١ ، أما الملك اللومباردى الذى يقابله ، وهو البوين ، فإنه أغار على إيطاليا سنة ٥٦٨ ، ولم ينته القرن السادس الميلادى حتى اتخذ لمملكة اللومبارديين ما صار لها آخر الأمر من الحدود . ولم يكن التشابه بينهم وليد الصدفة فحسب ، إذ أن اللومبارديين يشبهون الفرنجة في أنهم مثلهم حالفون من إتحاد من قبائل تيوتونية جمع بينها حب الفتح والغارة . وبدأ اللومبارديون

رحيلهم من باردنجاو على الشاطئ الأيسر لنهر الإلب ، بينما سار الفرنجة ، إذا صدقت روايتنا ، من منابع نهر السال . وتشابهوا أيضاً ، منذ مبدأ أمرهم ، فى العادات الإجتماعية والقانون الخاص والنظم . غير أن إختلافهم فى اللغة بلغ من الشدة ما يكفى لمنع قيام علاقات ودية بينهم،ووقف تبادل الأفكار الحرة . وما حدث أثناء فترة وجيزة فى نهاية القرن السادس من قلق اللومبارديين وارتحالهم،وما اشتهرت به الأمبراطورية من مؤامرات ودس ، فيما يبدو ، فى الفرنجى كراهية مستمرة لجيرانه بالجنوب . غير أن الخطر لم يلبث أن زال بسقوط السيادة الأمبراطورية فى إيطاليا . ومع ذلك فإن هاتين الأمتين أخذتا منذئذ تفترقان إحداهما عن الأخرى . إذ أن وجود جبال الإلب الضخمة حاجزاً بينهما أدى إلى أن كلا من الأمتين أخذت تتطور وفقاً لما درجت عليه،ولم يشتد حرصهما على إقامة تحالف بينهما، ولم تحفلا بأن يجرى بينهما شىء من التنافس القوى .

ومن أوجه التشابه الشديد بين الدولتين اللومباردية والفرنجة ، أن الملك فى كل منهما تنتخبه الأمة من بين أفراد البيت الملكى ، وفى كليهما تتقيد الملكية بقوة نفوذ نبلاء الأقاليم ، وفى كليهما من الأقاليم ما يصر أهلها على إنكار الإذعان والتسليم لأية سيطرة أجنبية ، وفى كليهما أخذ النزاع بين الحاكم والمحكوم يتطور حتى أصبح نزاعاً بين العناصر اللاتينية والتيوتونية . ومع ذلك فإن ما بينهما من وجوه شبه عامة انطوت على إختلافات عديدة . فطبقا لقواعد القانون الخاص عند التيوتون ، تعرضت مملكة الفرنجة مرات عديدة إلى أن يجرى تقسيمها بين أبناء الملك المتوفى ، بينما بقيت مملكة اللومبارديين ، من الناحية النظرية ، مملكة واحدة غير قابلة للانقسام . ويختلف اللومباردى عن الفرنجى فى أنه علمانى خالص. فعلى الرغم من أن اللومبارديين ظلوا أريوسيين حتى القرن الثامن الميلادى ، فإنهم استمروا ، بعد تحولهم عن الأريوسية ، على حقدهم للكنيسة الرومانية ، ولم يقبلوا أن تكون أسقفياتهم خاضعة لسلطة أخرى. كما أنه لم يكن بشمال جبال الألب طبقة

ارستقراطية واحدة ، بل طبقات عديدة ، كل منها تعتبر فئة قائمة بذاتها ، وتمت كل منها بصلة النسب والعواطف إلى مملكة من الممالك السالفة التي استولت عليها دولة الميروفنجيين ، وكل منها ادعت لنفسها ، بل استأثرت فعلا ، احتكار ما في إقليمها الأصلي من جاه وشرف . أما في جنوب الإلب فإن الطبقة الحاكمة داخل شبه الجزيرة كانت متجانسة في أصلها ومصالحها . وتحتم على الميروفنجيين أن يدخلوا في نزاع مع الباقاريين والألمانيين والبرجنديين والأكيتانيين ، واشتبك البوين في نضال مع المنافسين له ، الذين يمتون له بصلة الدم واللغة .

وترتب على ذلك أن العداء بين التيوتون واللاتين اتخذ صورة مختلفة في كل من الاقليمين ، إذ أن الرومان بأكيتانيا اشتهروا بما نالوه من حكم ذاتي والاعتماد على النفس ، بينما تحتم على أولئك الذين بالدوقيات الواقعة بجنوب إيطاليا على أن يحافظوا على استقلالهم بما أثاروه من نضال بين سادتهم ، وبمناصرتهم لزعمائهم المحليين ضد سادة باڤيا .

ولم يكن لرجال جنوب غالة حلفاء ، على حين أن رجال جنوب إيطاليا وجدوا في الدولة البيزنطية المتاخمة لهم استعدادا لتأييدهم ونصرتهم . وترتب على ذلك أن ما حدث في أكيتانيا من سخط لم تتعد أهميته حدود الإقليم ، بينما الذي حدث في بنيفنتو وسالرنو ازداد تعقيدا منذ العصور المتقدمة ، بفضل ما تأصل من العداء بين اليونانيين واللومبارديين ، وبين الشرق والغرب . ومع ذلك فإنه على الرغم من أن دوقات جنوب إيطاليا اشتد تمسكهم وتعلقهم بالملابس اللومباردية واللغة اللومباردية ، فإنهم اتخذوا من تلقاء أنفسهم ما للامبراطورية من افكار سياسية ودينية ، ولم تكن اماراتهم الأ معاقل باڤيا ، وهددوا بأنها سوف تكون معاقل القسطنطينية .

هذه كانت القوى التي أضحى في أيديها مصير أوربا المسيحية . وتعتبر سنة ٧٥٠ م خاتمة مرحلة طويلة من الحياد ، واستهلت بنضال طويل في سبيل

الوصول إلى السيادة . أما القوة التى أوجدت هذا التغيير فى السياسة فهى الكرسى الرسولى بروما ، الذى صار ينظر إلى الفرنجة بشىء من الاهتمام ، وينظر إلى اللومبارديين بشىء من الكراهية والبغض . على أن الأحوال ظلت تعمل زمنا طويلا لخلق هذا التحالف وهذه العداوة . إذ أن روما كانت تأمل خيرا كثيرا من الفرنجة ، بينما كان لديها من الأسباب ما يجعلها تخشى اللومبارديين . والمعروف أن ما جرى فى غالة لا يقل عما حدث فى إيطاليا من نشوب نضال دنيوى بين السلطتين الزمنية والروحية .

لم يكن المقصود بالهجوم إلا الكنيسة القومية فى مملكة الفرنجة ، إذ أن مقدارا كبيرا من الأرض وقع فى أيدى الأساقفة والمؤسسات الدينية . وما أحرزه هؤلاء من كسب يعتبر خسارة للأمة ، ذلك أن أراضى الكنيسة صارت تدعى لنفسها الحصانة من دفع جميع أنواع الضرائب ، كما أن مقطعى أراضى الكنيسة لم يعودوا يخضعون لقضاء المحاكم العادية ، فبينما جرى فى جهة غنى فاحش ، حدث فى الجانب الآخر شكاوى مريرة ، ويعتبر شارل مارتل المذنب الأول ، إذ اعتبر الاسقفيات اقطاعات للتاج ، ولم يتردد فى أن يجعل عليها رجالا علمانيين ، وأنزل فريقا من اتباعه المخلصين باراضى الأديرة الغنية ، يؤدون إيجارها أو لا يؤدون عنها شيئا . غير أن ما ارتكبه من جريمة ، جلبت له لعنة اسقفية الفرنجة ، ووجد شارل، قائد الفرنجة فى معركة تور ، نفسه معتبرا العدو الأكبر للمسيحية . غير أن هذه السرقات لم تكن فى نظر روما سوى سرقات تافهة يجوز التغاضى عنها ، فسعت البابوية إلى صداقة شارل مارتل ، ودعته إلى أن يهاجم ليتوبراند اللومباردى ولم تكن جريمة ليتوبراند سوى جريمة شارل مارتل ، غير أن ليتوبراند تعرض لطائفة مختلفة من المصالح . إذ أن نهمه تركز فى الحصول على تراث القديس بطرس الذى يعتبر نواة ضخمة لامارات تمتد من أقصى إيطاليا إلى

أقصاها ، والذى عهدت به الأجيال السالفة بسبب تقواها وورعها ، إلى الكرسى الرسولى بروما ، ليقوم عليه بالنيابة عن الكنائس والفقراء .

على أن الاختلاف بينهما كان اختلافا جوهريا ، إذ استطاع البيت الكارولنجى فى الوقت المناسب أن يهدىء ثائرة الأساقفة الذين وقع عليهم الاعتداء ، بينما أثار اللومبارديون عدوا لا ينسى شيئا ، ولا يتسامح فى شىء . ولم تكن سلطة الكنيسة الفرنجية إلا فى الدرجة الثانية من الأهمية عند البابا ، بينما قام إيستولف وديديه بخطط بلغت من صلتها والتصاقها به مايدعو إلى الإثارة . فانطوى السلطان الروحى فى الغرب على كراهية شديدة للومبارديين ، على حين أنه احتضن الفرنجى الذى رأى فيه منذ زمن كلوفيس تابعا ، يُكِنّ له الاحترام والتقديس . وفى الوقت الذى استطاعت فيه روما أن تصف أعداءها بأنهم منبوذون وخارجون عن رعوية العالم المسيحى ، وأن تؤيد حكمها بالاتجاه إلى التقاليد الأمبراطورية التى لا تقل أهمية عن التقاليد الدينية ، اجتاز اللومبارديون أرضها ، فكتبوا بذلك على أمتهم صك الدمار والفناء ، وتأجل عقابهم ما يقرب من جيل من الزمان . ورفض مارتل الحكيم أن يتولى تنفيذ العقاب ، إذ ظل على علاقات ودية مع بافيا (عاصمة اللومبارديين) . أما أبناؤه وأحفاده فكانوا أكثر منه جرأة ، أو أقل منه حكمة . فتدخل ببين وحده أكثر من مرة فى أمر إيطاليا ، وترتب على تدخله أن نشأت الإمارة البابوية التى أضحت بامتدادها ، مثل الأرخونية ، من البحر إلى البحر ، اسفينا بين سهل البو وجنوب إيطاليا (٧٥٦ م) وتدخل شارل أيضا فى شئون إيطاليا ، ماذا كان يقصد من هذا التدخل ؟ هذا ما يأتى الرد عليه فى الصفحات التالية .

أما النتيجة النهائية لهذا التغيير فى سياسة الفرنجة ، فهى أن المملكة الكارولنجية أصبحت تطابق حدودها أطراف أوربا المسيحية ، وأن أوربا المسيحية لم تلبث أن

أدركت أهميتها ، وركزت اهتمامها نحو التوسع شرقا Drang nach Osten غير أن الدولة التى تكونت على هذا النحو لم تعش طويلا ، إذ أنه فى القرن العاشر الميلادى قام على انقاضها عدد كبير من الإمارات الصغيرة المتعادية . ومع ذلك فإن نتائج قيامها استمرت زمنا طويلا ، إذ هيأت لأمم أوربا الحديثة الشعور بما بينها من التزامات ومسئوليات متبادلة ، وصلات دينية وسياسية لم تمحها ماحدث من منازعات أسرية وعنصرية وتجارية .

ويعتبر شارل الكبير هو الذى قاد الفرنجة للنصر ، وبذلك أسس أوربا الحديثة . والمعروف أن التطورات القومية حدثت مستقلة عن الجهد الفردى . غير أنه لولا شارل وأسطورة شارل لكان لأوربا تاريخ مختلف وطابع مختلف ، إذ ربما تأجل نضوج حضارتها ، وربما احتاجت من العناصر ما تحوزه الآن . أما بناة الكاتدرائيات فى العصور الوسطى فإنهم أصابوا بما قاموا به من نقش أعمال الأمبراطور العظيم على عمائرهم التى تدل على ما اشتهروا به من عقائد وأخيلة سامية ، ولم تخطىء الكنيسة الكاثوليكية بما قامت به من كتابة اسمه فى سجل أولئك الذين كانت لهم الصدارة فى إقامة مملكة الله على الأرض ، ولم تخطىء أيضا التقاليد القومية حين رأت فيه صانع السياسة الصليبية التى جعلت من العالم المسيحى معسكرا مسلحا المحارب الدينى ، وحين نسبت إليه أصول النظام الاقطاعى ، وقواعد الحكومة المركزية المعادية للنظام الاقطاعى ، وعزت اليه الآمال القومية التى لا تقل عن الآمال الأمبراطورية . والاتحاد بين الكنيسة والدولة . والعداء الذى تكنه الدولة للكنيسة . واستطاع شارل فى سياسته أن يجعل كل هذه الميول المختلفة تتآلف وتتناسق .

وما أسداه الفرنجة من فضل للحضارة الحديثة يعتبر أمرا روحيا غير محسوس . وفى هذا يختلف شارل عن سائر الغزاة أمثال الاسكندر الفاتح المقدونى وقيصر القائد الرومانى اللذين تركا آثارا بارزة لأقدامهم فى أوربا والبلاد المجاورة . فلم

بشيد القرنجى مدنا ضخمة . ولم يترك من الآثار مايدل على وجوده . ولم يضارع اليونانى بما أضافه للعالم من فن وأدب وعلم . إذ وجد أن ما أدخره الجنس البشرى من موارد مادية وفكرية قد نفدت . وما قام به من محاولات لسد هذا النقص لم يحظ إلا بنجاح ضئيل . وليس علينا إلا أن نجعل تقديرنا له على أساس أنه رجل سياسى . غير أنه ليس إلا رجلا سياسيا من النوع الساذج . على أن يصح أن يكون ثمة وجه المقارنة بين شارل والاسكندر ويوليوس قيصر بما اشتهر به من مبادىء ومثل سامية . غير أنه لا شك فى أنه يقل عنهما مكانة فى محاولته تطويع الوسائل وجعلها ملائمة لأغراضه . ومع ذلك فإن امبراطوريته جديرة بالدراسة . إذ أنها لم تكن صورة باهتة لنوع يونانى أو رومانى . بل كانت محاولة جريئة لحل مشكلة تعتبر غريبة على العالم الحديث. فهى امبراطورية مسيحية ، تعتبر دولة من جهة ، وتعتبر كنيسة من جهة أخرى . والسلطة العليا فى كلا النوعين فى أيدى رجل واحد . لانستطيع أن نعتبرها صورة للنظام الذى أقامه قسطنطين وخلفاؤه . إذ أن الدولة عندهما ، التى كانت فعلا بالغة التنظيم شديدة التماسك ازدادت قوة بما اتخذته من ستار دينى . أما شارل فإنه وجد من ناحيته أن الكنيسة تتيه كثيرا على الامارات القبيلية الصغيرة ، وما يمتاز به عمله الخالد أنه أقام دولة بما أجراه من اتساع للكنيسة ، فمزج بين أقوام لم يكن بينهم حتى ذلك الحين من أسباب التحالف إلا حظا ضئيلا ، أو كانت كل منها مستقلة عن الأخرى ، فجعل سلطته تمثل سلطة الديانة التى اعتنقوها جميعا .

أما مملكة الكنيسة الجامعة فإنها كانت من المفاهيم السابقة على عصر شارلمان . إذ طرأت على ذهن كلوفيس وكثير من الفاتحين والغزاة ، لو تحققت هذه الفكرة فى صورة بالغة الاختلاف على يد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

كما أن فكرة الجامعة الهلينية كانت سابقة على عصر الإسكندر ، وفكرة العالم المختلط كانت أيضا سابقة على عصر يوليوس قيصر . ولم يختلف شارل عن سابقيه ،

مما اتخذه من أفكار غيره من الناس ، وعمل على تحقيقها . على أنه قلما يجتمع في شخص واحد أقوى مؤثرين مثل التفكير والعمل ، ولم يكن شارل خارجا على هذه القاعدة العامة . ويكفيه فخراً أنه عالج خير ما كان في عصره من أفكار ، وفي هذه الناحية يقف شارل على قدم المساواة مع كبار أبطال العصر القديم ، بل أنه يعلو على أولئك الغزاة الفاتحين الذين لم يهدفوا إلا إلى الطموح الشخصي .

———

الفصل الثانى

الفرنجة قبل ظهور شارل

٤٠٠ — ٧٦٨ م

و بفضل ما اشتهر به شارلمان من أنه أعاد تنظيم أوربا، جاز اعتباره من أبطال العالم ، إذا اجتمع فيه من روح النظام والعمل للصالح العام ، ما يشتهر به كل سياسى مهما كان جنسه أو عصره . على أن هذه الميول الفطرية برغم ما تنطوى عليه من صفة عامة ينبغى أن تعالج مادة تعتبر خاصة ومحلية وطارئة . والمادة هى التى تحدد طبيعة النتيجة . ومهما بلغ الرجال من العظمة ، فلن يستطيعوا أن يتصرفوا مجردين من عواطف وآمال ومخاوف الجيل الذى نشأوا فيه . واستمدت سياسة شارل أصولها من بيئة الفرنجة. ومادفعه إلى أن يبدأ حياة الغزو والفتح إلا رغبته فى ترقية مصالح الفرنجة ، وبقى شارل حتى آخر حياته واحداً من الفرنجة ، حتى بعد أن أقام امبراطورية مغايرة للقومية . ولذا جرى تخصيص هذا الفصل لدراسة العنصر الذى نشأ منه شارل وتربى فيه ، والذى تشبع شارل بتقاليده ، وبفضل أسلحته أحرز انتصاره .

على أن عملية التنظيمات ظلت تجرى وراء مسرح الحياة اليومية ، أو أنها لم تكن فى الغالب سوى مرحلة طارئة . فالطباع واللغة والملابس ، والخصائص تعتبر الحقائق الأولى التى تسترعى التفات الشاهد للعاصر ، إذ يحرص على أن يتعرف إلى صفات وخصائص أولئك الناس الذين يجد أنهم يختلفون عن جيرانهم . على أنه سوف يجد أن الفرنجة فى القرن الثامن يسببون له الحيرة ، إذ سوف يجد بين كل شخص وآخر ما لا حد له من أوجه الاختلاف ، بينما لايجد من أوجه التشابه

إلا القليل النادر . فالفرنجي الخالص ، المنحدر من الغزاة الأوائل يعتبر من نفس العنصر ، سواء عاش في الشرق أو في الغرب ، في اكيتانيا أو تورنجيا — أشقر اللون ، أصفر الشعر ، رياضي الجسم ، طويل الشارب ، حليق اللحية ، يرتدي سترة شديدة الالتصاق بجسمه ، ويتخذ في وسطه منطقة يعلق فيها سيفه ، ثم فوق ذلك كله يرتدي عباءة ، ويلبس حذاء طويل الرقبة ، ويلبس الجوارب الطويلة الحمراء ، ويربطها بأشرطة متقاطعة تصل حتى الركبة . غير أن هذا النوع من الفرنجة لا يسود إلا في أقصى الشرق . أما في غرب نهر الراين فلا يشهد المرء إلا خليطاً مضطرباً من العناصر ازداد بعضها تفرقاً ، بينما استقر بعضها في منطقة معينة . وأقرب مثال لما كان حادثاً وقتذاك ، بلاد الهند زمن الحكم البريطاني . ففي الهند ، كما في غالة ، كانت التفرقة بين العناصر أمراً يقره القانون . فمهما بعد الرجل عن مسقط رأسه ، وارتحل بعيداً عنه ، فإنه بفضل نزعته الدينية يحتفظ بنسبه ، الذي يثبت به أصله ، ويجعل له الحق في أن تجرى محاكمته وفقاً لقانونه الخاص به . ولم ينجح الفرنجة في المحافظة على سيادتهم إلا بما يولونه من احترام بالغ للمؤثرات الاقليمية . يقول أحد كتابهم « تجد منهم خمسة جالسين معا ، ولا تجد من بينهم اثنين يخضعان لقانون واحد » .

ومن هذه القوميات الصغيرة ينبغي ألا نغفل ذكر ما لا يقل عن سبعة منها:

١ — نزل الاكيتانيون بين نهر اللوار ونهر الجارون . وعلى الرغم من أنهم تعرضوا بسبب موقعهم الجغرافي لهجوم المغيرين من الشمال ، فإنه ازداد تمسكهم باستقلالهم وتقاليد مملكة القوط الغربيين . أما مدنية سنت Saintes فإنها أضحت عاصمة لدوقية لم تعترف منذ قيامها ، في أوائل القرن الثامن الميلادي ، بسيادة الفرنجة إلا في نصوص وشروط عامة غير محدودة .

٢ — أقام البرجنديون زمن هجرات المتبربرين في وادي نهر الرون ، دولة غدت منذ أول أمرها أكبر من منافس لأمة الفرنجة ، التي انشقت على نفسها ،

وبرغم ما أنزله كلوفيس ، ومن أعقبه من الملوك ، بهذه الدولة من إذلال أحط بمكانتها إلى ما دون المماليك ، فإن دولة البرجنديين ظلت محتفظة بحقوق سيادتها كاملة ، ولم تكن وثيقة الصلة بالحكومة المركزية ، واستمرت حتى زمن ببين هرستال يحكمها حجاب القصر الذين جرى اختيارهم من النبلاء المحليين . ومع ذلك فإن نزعة الاستقلال ركدت ريحها وضعف شأنها ، وصار حتما أن يشهد القرن التاسع قيام مملكة برجنديه جديدة تفوق المملكة الأولى شهرة .

٣ — وإلى الشمال من برجنديا واكيتانيا يقع إقليم نوستريا ، الذى يحده من جهة الغرب غابات الطرف البريتانى ومستنقعاته ، وفى الشرق يفصله عن استراسيا، وعن الوطن الأصلى للفرنجة، نهر الشلدت والمجرى الأعلى لنهر الميز . أما باريس أكبر مدن نوستريا فأضحت المقر الذى يؤثره الملك . وظل النوستريون زمناً طويلا مسئولين عن مصائر البيت الميروفنجى ، فالارستقراطية جاءت من الفرنجة ، بينما انحدر معظم عامة الناس من سكان الأقاليم من الرومان . غير أن الفرنجة النوستريين ظلوا فى عداء دائم مع الاستراريين فى أعالى نهرى الميز والراين . وهذا العداء كان من العوامل المستمرة فى تاريخ العصر الميروفنجى ، وأسهم أكثر من مرة فى إشعال ثورات بالغة الأهمية . وكان لكل من نوستريا واستراسيا حاجب من حجاب القصر ، واستطاع الكارولنجيون أن يصلوا إلى الحكم بعد أن جمعوا هاتين الوظيفتين فى أيديهم .

٤ — وفى وادى الدانوب الأعلى أقام البافاريون دولة قوية التنظيم ، تولى حكمها دوقات من بيت أجيلولف (٥٥٥ — ٧٨٨ م) . وهذا البيت ارتبط بالكارولنجيين بروابط المصاهرة والتبعية ، غير أنه قلما أدى لهم ما يطلبونه من الخدمة الحربية . واحتفظ البافاريون فى أمورهم الداخلية باستقلال ذاتى[1] .

---

(١) على الرغم من أن دوقية بافاريا اعترفت فى منتصف القرن الثانى بسيادة ملوك الفرنجة فإن هذه السيادة كانت شكلية ، مع أن تاسيلو (٧٤٩ — ٧٨٧) لم ينل دوقيته إلا بفضل الكارولنجيين .

٥ — أقام الفرنجة التورنجيون فى وادى نهر الماين .

٦ — استقر الألمانيون فى سوابيا ، ولم يكن لكل منهم امتيازات خاصة ، إذ جرت تجزئة بلادهم إلى دوقيات ، وصارت تعتبر جزءاً لا يتجزأ من مملكة الفرنجة . غير أن هؤلاء الكونتات جرى اتخاذهم عادة من أسرات محلية ، وكلما تهيأت لهم الأحوال ، أظهروا روح المقاومة العنيفة للسيادة الملكية .

٧ — أما البريتون فإنهم ظلوا منذ أيام داجوبرت الأول (٦٢٨ — ٦٣٨) يعتبرون اتباعا للميروفنجيين ، غير أنهم خضعوا لحكم زعماء منهم ، وصاروا يدفعون الجزية أو لا يدفعونها وفقاً لما تمليه الأحوال ، ولم يظهروا خارج حدودهم إلا على أنهم لصوص يغيرون على الحدود وينهبونها .

والفئات الثلاث الأولى من هذه المجموعات تغلب عليها الصفة اللاتينية ، إذ طغى الأثر الإقليمى على المغير الجرمانى ، ولم تكن لغتهم إلا لهجة من لهجات اللاتينية . أما ملابسهم فإنها تشبه ما كان يلبسه الرومان ، على أقل تقدير زمن هونوريوس واركاديوس ، إن لم يكن أيضاً زمن قيصر وشيشرون . ومايخصونهم بالمحبة من الأبطال هم القادة الذين صمدوا حتى آخر رمق فى حياتهم يناصرون السيادة الرومانية ضد طغيان سيل المتبربرين . واستمدوا قانونهم من قانون القوط الغربيين الذين أخذوه عن قانون تيودوسيوس .

أما الفئات الثلاث التى تليها فكلها تيوتونية ، وتعتبر آخر من انتصرت عليهم المدنية ، إذ لم يعتنقوا المسيحية إلا زمن شارل مارتل وبين القصير ، ويعتبرهم جيرانهم فى الغرب حتى الآن شبه متبربرين مع أنهم لا يفضلونهم إلا قليلا .

والفرنجة الذين أطلقوا اسمهم على المملكة التى تضم هذه العناصر المختلفة ، كانوا يعيشون فى القرن الثالث على امتداد الجزء الأوسط من الحدود الرومانية .

واشتملت أراضيهم على ثورنجيا وما يليها مباشرة جهة الغرب من الأراضى ، وزعموا أن الأمة تكونت بما حدث من تحالف بين قبيلتى شاتى Chatti ، وشيروسكى Cherusci ، وسائر القبائل التى استوطنت هذه الجهات زمن تاكيتوس. وكيفما كان الأمر ، لم يظهر عند الفرنجة أى شعور واحساس بالاتحاد أثناء هجراتهم . ومن هذه الجموع، استقر قوم اشتهروا باسم الريبوار يين،أى النازلين على الشاطىء ، فى وادى نهر الراين بين كوبلنتز والبحر ، بعد أن انسحب منه الرومان . ومنهم أيضاً الساليون نسبة إلى نهر السال الذى يعتبر واديه موطنهم الأصلى ، واستقروا حوالى سنة ٤٤٥ فى المدن الثلاث : كامبراى ، تيرُوين ، وتورناى وما يجاورها من الجهات ، ولم يستطع أيتيوس آخر قادة الرومان أن يطاردهم منها ، وأضحت هذه المدن الثلاث زمن ميروفيك ، أو بعد مضى زمن قصير على وفاته ، حواضر لأمارات مستقلة متنازعة . إذ كانت تورناى مقر أسرة ميروفيك ، الذى انحدر منه مباشرة كلوفيس . وما كاد كلوفيس يتولى العرش وهو فى الخامسة عشرة من عمره حتى شن الحرب على جيرانه من اللاتين والتيوتون ، وأحرز من الانتصار ما أدى إلى أنه جرى عند وفاته تقسيم غالة كلها بين أولاده ، إذ قهر زعيمى كامبراى وتيروين وسيجاريوس الوالى الرومانى على سواسون ، والريك الثانى ملك القوط الغربيين باكيتانيا . وعمل على اغتيال ملك الريبواريين ، ووضع خطة أدت إلى انتخابه بدلا منه ، وأرغم الثورنجيين والألمانيين والبرجنديين على الاعتراف بسيادته . ولم ينجب الفرنجة من رجال السياسة قبل زمن بيبن القصير من هو أعظم من كلوفيس . وأظهر كلوفيس بصيرة نافذة ،وحرصاً غريزياً على ماتمبن على جنسه من الرسالة ، بما قام به من اعتناق المسيحية ، والتحالف مع الكنيسة الرومانية ضد الأريوسيين فى أكيتانيا ، وبما بذله من جهود ليصبح وريث الأمبراطورية ، ونصير الثقافة اللاتينية ، وبما أقامه من دولة صمدت لتقلبات الزمن . ولم يظهر من الفرنجة من يجرؤ على منازعة البيت الميروفنجى حقه الإلهى

إلا بعد أن مضى على وفاة كلوفيس (سنة ٥١١ م) نحو مائتى سنة . وما قام به من الاستيلاء على الأراضى والممتلكات وتوحيدها ، ظل دليلا على الوحدة السياسية برغم ماحدث باستمرار من تقسيم ممتلكاته ، ومن حروب داخلية خطيرة .

ولم تكن عهود أخلافه من الملوك حتى منتصف القرن السابع الميلادى خالية تماما من الأعمال الجيدة ؛ فعلى الرغم من أنهم عاشوا فى زمن يعتبر فيه الفتح والغزو سبيلهم فى الحياة ، فإنهم لم يعملوا أكثر من المحافظة على سلامة حدودهم .

ولم يحتفظ منهم بالسلطة كاملة بعد وفاة كلوفيس سوى ثلاثة ملوك : والأخير من هؤلاء الملوك وهو داجوبرت (٦٢٨ — ٦٣٨) اشتهر بأنه حكيم الفرنجة . وساد المملكة بعد وفاته من الانقسام والاعتلال ما استمر مدة خمسين سنه ، واتخذت المنازعات العنصرية قوة جديدة ، فما كاد النبلاء يتحررون من السلطة المركزية حتى انغمسوا فى حياة النهب والحروب الداخلية . أما الكنيسة فإنها كلما ازدادت ثروتها وقوى نفوذها فى البلاد ، كلما أمعنت فى الجهل وسوء الخلق ، وانغمست فى السياسة الدنيوية . وركد الفن والأدب لقصور الأفكار أو انعدامها . وأصاب التجارة والصناعة الضعف والاعتلال بسبب الافتقار إلى الأمن الطمأنينة . أما الزراعة فوَلِى شأنها القِنّ والمالك الحر الصغير . وما جرى بانتظام من تعاقب المجاعات والأوبئة إنما يدل على ما أصاب الأساس الاقتصادى للمجتمع من الاضطراب وعدم الأمن .

البيت الكارولنجى :

ولم يخلص الفرنجة ورعاياهم من هذا البؤس إلا بيت القديس ارنولف : على أن ظهور هذا البيت يلقى ضوءا شديدا على ماسار عليه فيما بعد من سياسة ، ويزيد فى توضيح حال المجتمع الفرنجى ما نورده من التفصيل عن ظهور البيت الكارولنجى .

ترتب على استمرار تجزئة أملاك الفرنجة أن أصبحت ممالكهم تتألف من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف : وهذه هي :

استراسيا : واشتملت على وادى نهر الميز ، والجزء الأدنى من إقليم الراين الذى يضم الفريزيين والثورنجيين والألمانيين والبافاريين .

ونوستريا : التى تولى ملكها حكم ما هو معروف باسم جزيرة فرنسا Isle of France وكذا نومنديا ، على أن سلطته على اكيتانيا لم تكن قوية .

برجنديا : وتشمل الأراضى الواقعة بين الرون وجبال الألب .

على أن الحدود بين الممالك الثلاث لم تكن معلومة أو واضحة ، إنما صارت تتذبذب من جهة إلى أخرى من حين إلى آخر . ومع ذلك لم يكن ثمت فى أى عهد من العهود عوامل للوحدة ، لأن كلا من هذه الممالك احتفظت ببلاط يعتبر موطن حكومة إدارية بسيطة ، وارتبطت طبقة النبلاء فى كل منها بروابط المصاهرة ووحدة المصالح ، و بالكراهية المشتركة لكل دخيل أجنبى .

وهذه الأحقاد القومية تفاوتت فى درجاتها ، ففى برجنديا ونوستريا ، ترتب على تفوق الأثر الغالى الرومانى أن قام بين التيوتون والسكان الأصليين قدر من العطف والحنان ، بينما سادت كراهية التيوتون بأستراسيا . وأعقب ذلك قيام تحالف بينهما (برجنديا ونوستريا) وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن برجنديا وهى أضعف الإمارتين أصبحت مجرد اقطاع لنوستريا . ونلمس فى هذا الاتحاد الشطر الأول لما حدث فيما بعد من تفرقة بين العنصرين الفرنسى والجرمانى . ولم يحفظ الأثر القديم للقرابة ، حتى ذلك الحين ، سوى ما وقع من ضغط القوى الخارجية : أمثال القوط الغربيين والمسلمين من جهة الغرب ، والسكسون والصقالبة والآفار فى الشرق . ولا يكاد المؤرخون يدركون ظهور هذا الفاصل بين الفرنسى والجرمانى ، لأنهم لم يتعلموا كيف يدرسون هذه الظاهرة . على أن

الأستاذ كولانج يستخلص من سكوتهم أن عملية الانفصال لم تكن قد بدأت . وهذا الاستدلال السلبي لم يضف شيئا لأولئك الذين لم يقتنعوا ، وتجاهل الكاتب (الأستاذ كولانج) طائفتين من الحقائق : الطائفة التي تثبت ما يكنه الفرنجة الاستراسيون من الكراهية « للرومان » بالغرب ، والطائفة التي تثبت الفجوة الواسعة التي تفصل بين العنصرين الروماني والتيوتى في القرن التاسع . والطائفة الأخيرة من الحقائق تؤدى إلى انهيار تقرير كولانج ، فالقوميات لاتترعرع وتنمو في سنوات قليلة أو في قرن واحد ، كما أنها في المرحلة الأولى من تطورها لا تفشل على الأقل في الابقاء على مابين العنصرين الروماني والتيوتونى من كراهية سلبية .

وليس من العسير أن نعرف الأسباب التي أدت إلى هذه التفرقة : ذلك أن الميروفنجيين شاركهم في المصير اسرات عديدة ، غير أنها تقل عنهم مجدا وتفوقا ، وترتب على انتقالهم إلى قلب مدنية تمتاز بشيء من الترف والرفاهية ، أنهم استنفدوا قوتهم في الاستهتار والتبذل ، ولم يكسبوا من رعاياهم إلا الرذائل ، أو أنهم أصهروا إلى سكان الأقاليم المحليين ، فلم يلبثوا أن قطعوا كل ماله صلة بتقاليد أسلافهم . وفي تلك الأثناء كان أقاربهم في استراسيا اتخذوا لأنفسهم طريقا في الحياة أكثر سلامة وقومية ، لأن الأثر الجرماني كان فعلا قويا في اقليم الراين قبل انسحاب الرومان ، فظلوا بذلك محتفظين بما اشتهروا به من الاقدام والبسالة في الحرب ، كما ازدادت اعدادهم . وفي الغرب بقي السكان الأصليون مدة طويلة محافظين على سلامة عنصرهم ، أو أنهم اندمجوا في الفرنجة ، بينما كانت العملية عكسية في الغرب فاتخم الفرنجي لنفسه .

وارتقى بيت ارنولف إلى السلطة في استراسيا بعد اندماج البيتين الاستراسيين ، إذ ظهر ببين لاندن[1] مؤسس مجدهم زمن كلوثير الثاني على أنه كاتب أمين . فلما قام سيده بتوحيد نوستريا واستراسيا (٦١٤ م) ، أضحى حاجب بلاط

(١) اسم لم يرد في التواريخ المتقدمة ، بل جاء في القصص الشعبي الذي أورده الكتاب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

استراسيا . وعاش إلى ما بعد وفاة كلوتير ، ثم مات سنة ٦٣٩ ، فخلفه ابنه جريمغالد فى وظيفته . ونجح جريمغالد فى إدارة استراسيا مدة سبع عشرة سنة ، غير أنه حين مات سيجبرت الثالث ، سعى إلى نقل التاج إلى ابنه ، ولكنه لم يصب شيئاً من النجاح بل جرى قتله . على أن بيبن ابن اخت جريمغالد وهو حفيد ارنولف أسقف متز ، ورث ما تركه من أراضى وسلطان ، وفى أثناء فترة الشغور التى أعقبت وفاة شلدريك الثانى الاستراسى (٦٧٠ م) انقسم استراسيا مع الدوق مارتن ، فشن عليه الحرب أبروين أعظم حجاب نوستريا وأشهرهم ، ولقى مارتن مصرعه سنة ٦٨٠م : وترتب على وفاة إبروين فى السنة التالية أنه لم يعد ثمت من ينافس بيبن ، فأضحى بعد معركة تسترى (٦٨٧ م) سيداً على المملكتين ، لكنه لم يجرؤ على أن يتخذ لقب ملك ، فأبقى فى نوستريا أميراً ميروفنجيا صار يرد ذكر اسمه فى تواريخ الوثائق والعهود ، وصار يظهر أمام الناس فى أيام المواكب . وأشار أجينهارد إلى هؤلاء الملوك الضعفاء فى فقرة قصيرة واضحة : لم يعد للملك سوى الإسم ، والعقائص من الشعر المتهدّل ، واللحية الطويلة ، يجلس على عرشه ، ويعبث بالإدارة والحكومة ، يستقبل السفراء ثم يصرفهم بما تلقنه من إجابات أو أمر بها . أما حاجب القصر فإنه ، على ما هو معروف ، أبقى له اللقب الملكى ووفر له ضروريات الحياة ، ولم يكن للملك من الممتلكات سوى ضيعة صغيرة اتخذ بها مقره ، وليس له إلا حاشية صغيرة العدد . ويرتحل الملك ، كلما اقتضت الأحوال ذلك ، فى عربة يجرها الثيران ، ويقودها راعى بقر على النحو المألوف فى عربات الفلاحين . وعلى هذه الهيئة يجئ إلى القصر ، وإلى الاجتماع السنوى للجمعية الوطنية ، بينما يتولى الحاجب الإشراف على الإدارة ، فيقرر كل ما يتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية من أمور[١] .

---

(١) تخطىء اجينهارد فى اعتبار هذا من الأمور المشينة ، إذ تطالب العرف الدينى الأبيض سيغالوم فى تنقلاته إلا فى هذه العربة الساذجة . ولم يكن الميروفنجيون إلا كهنة لقومهم . وهذا هو السر فيما اشتهروا به من الشعور المهدلة واللحية الطويلة ، ويشبه لبس الحديد عندهم ، وهو معنى لم يكن معروفا لكافة أمة الفرنجة ، إفسادا لقداسة أشخاصهم . ويجرى شىء من هذا عند كهنة روما حين حرم عليهم إزالة الشعر من وجوههم إلا بقطعة من البرونز .

ولم تلبث الرعية أن بادرت إلى التخلص من طيف لا معنى له . إذ أن شارل مارتل ابن بيبن هرستال وخليفته ، جعل العرش شاغراً أكثر من أربع سنوات (٧٣٧ — ٧٤٢ م) . غير أن الرأى العام لم يؤيد رغباته ، وما حدث من شجار بينه و بين الكنيسة ، حرمه من الحصول على إقرار دينى لما نواه من ثورة . أما بيبن فإنه عرف جيداً كيف ينتظر دوره . إذ ظل عشر سنوات يعمل على تقوية الأسرة السابقة . ثم وجه فى سنة ٧٥٢م إلى البابا زكريا سؤالا : أليس من الأصوب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكما رسمياً كذلك ؟ وكانت البابوية حريصة على الحصول على مساعدة الفرنجة ضد بيزنطة واللومبارديين . ولا تستطيع أن تنكر فضل بيبن فى إصلاح كنيسة غاله ، وتنظيم الكنيسة الجرمانية . فرد زكريا رداً طيباً . أما البابا ستيفن الذى خلفه فاجتاز جبال الألب وقام بتتويج بيبن وولديه شارل (الكبير) وكارلومان (٢٨ يوليه سنة ٧٥٤) ومسحهم بالزيت المقدس وجعل سلالتهم فى حماية القديس بطرس . « إذ أن الكرسى الرسولى أمر الأمة جميعها ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف الأمر ، بألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى » . وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية بعد أن مضت عشرة سنوات على ولادة شارلمان ، وقبل أن يلى الحكم بست عشرة سنة .

وهذه الثورة دلت على انتصار الأفكار التيوتونية على الأفكار اللاتينية ، وانتصار استراسيا على نوستريا وأكيتانيا ، والتمس نسابة القرن التاسع الميلادى للارنولفيين أصلا فى أكيتانيا ، ورأى لويس التقى أن له من المصالح ما يجعله ينتمى إلى موطن رعاياه فى الجنوب (أكيتانيا) ، على أن ما استخرجه من الوقائع لتأييد رأيه حاطه الشك والظن . ومهما يكن أصل البيت الكارولنجى ، فالواقع أنه منذ بداية القرن السابع تركزت ضيعاتهم ونفوذهم السياسى فى الأراضى الواقعة بين نهرى الراين والميز ، إذ أن بروم ومتز واستابلو و اخترناخ تعتبر المواضع

التى ارتبطوا بها ، وذلك اعتماداً على الأدلة الواردة فى أقدم ما هو معروف من وثائقهم . وأساس قوتهم وسلطانهم ظهر لأول مرة فى حجابة بلاط استراسيا ، فشغلوا تلك الوظيفة على أنهم أشد أرستقراطية الفرنجة تيوتونيه ، وظلت استراسيا مقرهم ، وفى استراسيا وحدها لم يجدوا من ينازعهم السلطه والنفوذ .

السياسة الكارولنجية :

ومن الناحية السياسية تكررت نفس القصة التى جرت فى الزمن المبكر للبيت الكارولنجى . ففى زمنهم أضحت الخدمة العسكرية مرة أخرى فرضاً عاماً على السكان . وجرى إحياء ما درج عليه الناس من الاجتماعات السنوية التى تنظر فى التشريع والحرب . وما حدث فى الأزمنة السالفة عند الفرنجة ، حدث أيضاً فى العصر الكارولنجى ، إذ أن السلطات المحلية : من الدوقات والكونتات وكذا رؤساء الأبروشيات وحكام المقاطعات صاروا باعتبارهم قادة الجيش الوطنى يرابطون دائماً فى الأراضى التى فتحوها . وأقر الميروفنجيون ماحدث من تحول النظم القديمة ، مثل الرفاق والاقطاع ، عن طابعها الأصلى ، فادعى حرس الملك وأمناؤه لأنفسهم حقوقاً لم يؤدوا مقابلها أية واجبات . وما تقرر منحه من ضياع مدى الحياة وفق شروط معينة ، اعتبرها الحائزون لها ملكاً حراً خالصاً لهم . وفى هذا دلالة على الرجوع إلى الأفكار القديمة ، غير أنه تحتم على الأمناء الآن أن يخدموا سيدهم فى البلاط والمعسكر ، أما الاقطاع فليس إلا دليلا على أن حيازته غير ثابتة . ولم يدخروا وسعاً فى زيادة عدد أولئك الذين التزموا بهذه القيود الشخصية . وكيفما كان الأمر فإننا نلمس الرجوع إلى ما كان معروفاً عند جموع المهاجرين من نظام ، حيث التزم كل رجل ذى مكانة لقائده العام بعقد شخصى ، وكان للتقاليد التيوتونية أيضا نفس الاحترام فى السياسة الخارجية .

نبى سلالة كلوفيس ما وضعه من خطة تقضى بجعل غاله وجرمانيا الرومانية فى دولة واحدة ، ولم يستطيعوا أن يوطدوا سلطانهم فى شرق نهر الراين ،

وخرجت اكيتانيا من أيديهم . أما الأسرة الجديدة فإنها جعلت استعادة الخسائر أول هدف للفرنجة . فقام بيبن هرستال ، وشارل مارتل ، بشن حروب عديدة ، غير أنهم فى كل هذه الحروب لم يفعلوا أكثر من إخضاع الثائرين بالمملكة الميروفنجية . كالباڤاريين والألمسانيين والسكسون والفريزيين والبرجنديين والأكيتانيين . ولم يكن شارل مارتل فى حملته على المسلمين يبتغى إلا غرضاً دفاعياً . فالمعروف أن هدفه الثابت لم يكن إلا استعادة ما وضعه كلوفيس لمملكته من حدود .

ونشأ الكارولنجيون فى أرض تيوتونيه ، فترك موطنهم الأصلى فى سياستهم آثارا ظلت باقية ، غير أنه منذ السنة التى تم فيها تتويج بيبن ، دخلت عوامل جديدة . فما أنكره بيت أرنولف من أفكار لاتينية ، لأنها استترت فى ثوب توستري ، لم تلبث أن لقيت ترحيباً حين تقدمت بها روما وكنيسة روما . ففى كل ما يجرى فى الحياة اليومية ، بل وفى كل تفاصيل العمل الإدارى ، وما اشتهر به من التزمت الشديد فى المحافظة على القديم ، لم يعد البيت جرمانياً خالصاً . على أن التغيير كان تغييرا فى الروح أكثر منه تغييرا فى الشكل . فالدولة القبلية القديمة أصبح لها مطامع أوسع أفقاً ، وآمال كاثوليكية استعمارية ، فاستمدت منها حياة جديدة . وترتب على ذلك أن الفرنجة بدأوا بعد سنة ٧٥٤ يلعبون دوراً ملحوظاً فى تاريخ العالم ، إذ التزموا بأن ينشروا فى أوربا حضارة اتحدت فيها العوامل القديمة والعوامل الجديدة . فقهروا أوربا وحكموها بوسائل ، ترجع من جهة إلى بيزنطة ومهارة القياصرة السياسية ، ومن جهة أخرى تتعلق بكلوفيس وما عند التيوتون من قوانين القبائل القديمة .

وفى وسط صدام العناصر والاحتكاك المتبادل بين مدنيتين مختلفتين فى جوف مجتمع واحد ، يكمن كل سر التاريخ العام للفرنجة ، ولا سيما الحوادث التى وصل الكارولنجيون بفضلها إلى الحكم .

حكومة الفرنجة

ولكيلا نتعرض إلى سوء الفهم ، تحتم أن نشرح هذا التعميم بقاعدة أخرى . فمن جهة ليس ثمت من المجتمعات ماهو أشد اختلافا واضطرابا في تركيبه من مجتمع الفرنجة ، ومن جهة أخرى نستطيع أن نقول أنه ليس ثمت من المجتمعات مايفوق مجتمع الفرنجة في تماثله ووحدته . ففى كل مكان لم يكن ثمة إلا اختلافات تافهة في القانون واللهجة والملابس ، ومع ذلك ظهر في كل مكان نفس المستوى من التطور الفكرى ، والمذهب الدينى ، ونفس المستوى في المهارة الصناعية والدراية العلمية . وترتب على ذلك أن مفاهيم الأسرة والحقوق الدينية والواجبات تكاد تكون واحدة في جميع أنحاء المملكة . كما أن التركيب الاقتصادى للمجتمع كان أيضا متماثلا متشابها يكاد يتخذ طابعاً واحداً . فالذين لجأوا إلى التاريخ يلتمسون منه حلا لما جرى من المناقشات الحديثة ، سوف يؤثرون التفكير فيما اشتهرت به كل مجموعة من العناصر من أوجه الاختلاف والتشابه ، بينما الذين رجعوا إلى الماضى في حل هذه المناقشات فإنهم سوف يفكرون معنا في الخصائص التي تشترك فيها جميع العناصر .

فالزراعة كانت مهنتهم الأساسية ، ولم تكن وحدة المجتمع إلا تلك الفئة من ملاك الأراضى التي تترقب قدوم مندوب الملك لإرشادها في كل ما يتعلق بالصالح العام من الأمور ، هذا المندوب كان معروفا بالكونت ، وهو يقابل ، فيما يبدو ،الموظف المعروف عند ملوك النرمان السكسون بحاكم المقاطعة Sheriff يتولى قيادة قوة الأمن ، ويمارس القضاء ، ويجمع الضرائب ، أما الأقليم الذى يحكمه فكان معروفا باسم باجوس ويقابل الكونتية الأنجليزية ، وينقسم إلى وحدات معروفة بالمئينية Centenae تولى حكمها موظفون أقل رتبة ،واشتهروا باسم حكام المئينات — على أن حاكم المئينية عند الفرنجة كان يختاره أصلا ملاك الأراضى ،

وفى العصور المتقدمة كان يرشحه الكونت . والمئينية تنقسم أيضاً إلى أعشار أو بلاد العشور tithings ، وتسمع أحياناً عن متولى العشر الذى يقتسم مع قسيس الأبروشية حكومة هذا المجتمع الصغير . على أن هذه السلطات المحلية الصغيرة قلّما ظهرت فى صفحات التاريخ . والواقع أن أشهر موظفى الإقليم كان الكونت والذين يمثلونه فى جهات خاصة ، أو فى جميع الإقليم عند غيابه ، ويمثله أثناء غيابه فى كل الإقليم الرؤساء vicars والفيكونتات على الترتيب .

والمعروف أن سلطة الملك استبدادية ، بمعنى أنه ليس ثمّ ما يحدها سوى مايفرضه عليها من قيود ضغط الأحزاب والرأى العام الذى يتمثل فى مجلس الأعيان والجمعية الوطنية . ويدافع الكونت فى دائرته المحدودة عن الملك ، ولا يعتبر مسئولا إلا أمام الملك وحده . على أن التقاليد لم تزل تتطلب منه عند ممارسته القضاء أن يهتدى بمن فى اقليمه من الرجال الأخيار العدول . وما كان يعقده من المحاكم فى الاقليم وفى بعض المقاطعات (المئينيات) لم تكن سوى مجالس قومية . إذ أن طائفة من الذين يشهدون المحكمة تستمع إلى ما يؤديه المتقاضون وأصدقاؤهم من أيمان وتراقبهم أثناء الحكم ، وتقضى باعتبارها من المحلفين بتقتضى البينة ، وتصدر الحكم على أساس قانون العرف . فالكونت من الناحية النظرية لايتصرف إلا على أنه رئيس المحكمة والمتحدّث باسمها . وهنا نعرض لسؤال عما إذا كانت الحقيقة تطابق الناحية النظرية ؟ يكفى أن نلاحظ أن المحكمة عند أدنى رجل حر هى التى تهيىء المجال اللازم لنشاطه السياسى ، فيجرى بها كل ما للاقليم من مصلحة عامة . ففى المحكمة يتم إصدار القوانين والتصديق عليها ، وتقدير الضرائب وجمعها ، وإعلان الخدمة العسكرية وتقرير زمنها ومكانها وصفتها .

فالمحكمة ليست جمعية تنعقد فى الهواء الطلق ، إذ يجتمع المتقاضون فى مبنى المحكمة ، والجمعية العامة للاقليم درجت على أن تنعقد فى مقر الكونت ،

ووجود هذه المواضع والمراكز لا يثير الدهشة عندنا . إذ أن أبسط المجتمعات وأصغرها تحتاج إلى ما تلوذ به من الأماكن ، ولم تكن دار السكونت تزيد على ذلك . ومن الدور المقامة على الحدود فى بواتو ، واوفرن ، وفى إقليم بريتانى وفى هس وثورنجيا ، جرى ذكر عدد كبير منها فى الأوقات التى سادت بها الاضطرابات . وهذه الدور اتخذت مواقع ليس لها من امتياز سوى أنها مواقع دفاعية : ويتحدث المؤرخون عنها على أنها « حصون » و « معسكرات » وما كان منها فى بواتو أطلقوا عليها «صخورا » « وثقوبا » . ومنها أماكن اشتهرت بأنها أكبر حجما وأعظم أهمية . ففى غرب الراين يشترك الباجوس مع الاقليم الرومانى فى الحدود ، وظهرت عاصمة الإقليم من خلال خرائب مدينة رومانية أو من داخل أسوارها المحطمة . وهذه المدن الصغيرة كانت دائما عظيمة الأهمية . ولم تكن فورمز ، وكلن ، وتريبه ومتز ومايمز فى الشرق ؛ وباريس ولاؤن ، وتوبون وسواسون فى نوستريا ، وليون ومارسيليا وناربون فى الجنوب ، إلا أسماء تتكرر ذكرها فى تواريخ هذه الأزمنة . ومن هذه المواضع ما يرجع وجوده إلى أزمنة الرومان ، وإذا كان للصيغ والعبارات القانونية أهمية ، فإن من هذه المواضع بجنوب غاله ووسطها ما احتفظ ببعض آثار دستور البلدية الرومانية ، إذ نسمع عن مجلس شيوخ المدينة curia ، وعن دار المحفوظات gesta muncipalis ، وعن حامى المدينة defensor civitatis ، وهو موظف استحدث وظيفته فى القرن الرابع الأمبراطور فالنتينيان . أما المؤلفون الذين ندين لهم بهذه الإشارات، فإنه بلغ من شدة حرصهم على التمسك بحرفية قانون تيودوسيوس ، أنهم استخدموا ألفاظا لاتينية لنظم تيوتونية . وكيفما كان الأمر فليس لهذه الآثار الباقية أهمية تذكر . ففى المدينة الصغيرة ، وفى الإقليم ، طغت قوة السكونت الاستبدادية على كل شىء . وتشير كل الدلائل على أن هذه المدن الصغيرة اندمجت ، لأغراض إدارية ، فى الأقاليم التى تنتمى إليها .

على أننا لا نعلم كثيراً عن الحياة الاجتماعية بهذه المدن ، إذ لم يكن عدد السكان بها كبيراً ، فمثلا باريس التي تعتبر أهم مدينة في بوستيريا لم تزد مساحتها على المساحة الصغيرة التي يشغلها ما هو معروف بباريس باسم Ile de la cité ، وطغى عليها ما يقع على الضفة الغربية من النهر من ضيعة الملك والحدائق . وفي آخن وانجولمِ كان البلاط هو كل شيء ، ولم يجر ذكر البلد إلا على أنه من ضياعه ومخصصاته . أما أهمية لاون وسواسون فإنها ترجع إلى أسقفيتهما . وفي أماكن أخرى ، كان للكونتات ، كما هو معروف من المرسومات ، من حرية التصرف ما يجعلهم يعتبرون المدن الصغيرة ملكاً خاصاً لهم ، ويعتبرون أهل المدينة أتباعاً لهم . ولذا لم يكن للمدينة الصغيرة أهمية فيما احتدم زمن الميروفنجيين من منازعات سياسية . ولما انقسمت المملكة ، نلحظ أن تقسيماتها جرى توزيعها على الورثة ، دون اعتبار لموضعها وروابطها القومية .

غير أننا نلمس بين أهل المدينة الصغيرة نزوعاً عاماً لأن يرتبوا سوياً في هيئة نقابات . وهذه النقابات اعتبرها المشرع مصدراً من مصادر القلق السياسي ، مع أنه لم يكن لها أهداف سياسية . إذ أن من هذه النقابات ما لم تزد على جماعة ، الغرض منها التأمين الجماعي ضد الحريق واللصوص وتحطم السفن بالبحار ، ومنها ما تألف لمد يد المعونة والإحسان للفقراء والأرامل واليتامى ، وكثير منها تغلب عليه صفة إقامة الحفلات والمآدب ، وجرت القاعدة بأن يكون لكل نقابة راع من القديسين يحتفل أفرادها بعيده بما يقيمونه من المراسيم والشعائر التي تعتبر غريبة ، ولا تمت للمسيحية بسبب ، ولا تدعو إلى إصلاح روحي . ولهذه النقابات أهمية بما أدخلته في الحياة الاجتماعية من التنوع وما جعلت لها من صفة خاصة ؛ على أنه يصح أن تكون في بعض الأحوال أدوات في أيدي أحد الزعماء الساخطين . ومن الإسراف أن نقارنها بما هو معروف في القرن الثاني عشر

من القومونات . فالنقابات فى غالبه لم تبلغ من التنظيم والنفوذ ما بلغته تلك التى اغتصبت حكومة روما فى ذلك الوقت، بسبب الافتقار إلى وجود حكومة مركزية قوية . وما فى مدينة روما من تنظيمات تبلغ اثنتى عشرة ، ومن جاليات أجنبية تقدر بخمس جاليات ، أشبهت فى إدارتها ما بروما ذاتها من شرطة وقادة . وهذه ظاهرة فريدة فى ذاتها يفسرها ما امتازت به إيطاليا من أحوال خاصة .

الحياة فى المدن

لم يكن المظهر الخارجى لمدينة من مدن الفرنجة أخاذاً أومؤثراً . ومن الوثائق نستطيع أن نتصور شبكة من الحوارى الضيقة القذرة، زخرت بجموع الشحاذين ، منهم عدد غير قليل أصابه البرص وسائر الأمراض الخبيثة ،وقد يصادفك من مكان إلى آخر حاوى أومنشد ،أو قسيس أمى جاهل يؤدى طقوس التنصير لطفل حديث الولادة . وتقع الكنيسة بالميدان الرئيسى ، وربما كان به أيضا كاتدرائية مشيدة بالحجارة ، يلاصقها دير أو دار الأسقف ، ولا يوجد غير ذلك من المبانى العامة سوى دار تم تشييدها بفضل ما تقدم به بعض الأعيان المجاورين من الإحسان والصدقة ؛ وخارج الأسوار تقع حديقة أو متنزه لأحد الأشخاص المعروفين ، ولا يخلو الأمر من وجود شجرة بلوط ،أو نبع ماء حاطت به القداسة ، صار يتردد إليها يوما بعد يوم ،المرضى والمصابون ،يتلون الأدعية ،و يعلقون قرابينهم بأغصانها .

أما الحرف والصناعات فإنها ليست شائعة فى كل المواضع ، ولا تجرى ممارستها إلا فى بطء شديد . ففى أراس وليون ومتز ، تقوم صناعة الحلى والتطريز والخيوط الحريرية الموشاة بالذهب . واشتهر صباغو ليموج، الذين يزعم القديس ايلوا بأنهم ألفوا نقابة معروفة من قديم الزمن . أما صناع الأسلحة والحدادون فتوافروا بكل مكان ، واستعدوا لتلبية كل الطلبات . وما اشتهرت به سلعهم من ارتفاع السعر ، إنما يدل على أن الطلب زاد على العرض . وأصاب التجارة بعض الازدهار

فى المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، إذ صدَّرت إلى القسطنطينية واسبانيا الزيت والنبيذ ، والماشية وكذا الأرقاء المسيحيين ، وتلقت مقابل ذلك الحرير والتوابل من اليونانيين ، والدنانير الذهبية والمنسوجات المطرزة من المسلمين . على أن الفرنجة لم يكن لديهم إلا عدد قليل من السفن التجارية . وعلى الرغم من أن تجارهم جازفوا بحياتهم وحريتهم فى سبيل التبادل التجارى مع الصقالبة فى بوهيميا والأقاليم فى المجر ، فإن تجارة غاله كانت فى يد الأجانب ، من اللومبارديين واليونانيين واليهود أيضاً ، إذ حصلوا من الملك بطريق الشراء على حمايات واعفاءات خاصة .

ولم تكن التجارة تحسب مهنة حقيرة ، وربما كان ذلك من الأسباب التى عاقت نموها ، بل أسهم فى ذلك أيضاً وعورة الطرق ، وحصول بعض الأسواق على امتيازات خاصة ، وازدياد وطأة المكوس ، ورسوم الموانى . وهذا الرسوم بلغ من شدتها أنها أصبحت عبئاً لا يحتمل ، وقلما تم دفعها للدولة . وأقام كبار الملاك من الريبواريين ، سلاسل عبر الأنهار ، لتمنع السفن من المرور ، حتى تؤدى ما عليها من ضريبة . وفى كثير فى الأحيان تعتبر المخاضات والجسور من الأملاك الخاصة . وكل محاولة تبذل لكشف طرق جديدة ، غير خاضعة لهذه القيود ، لم تلق إلا السخط والكراهية الشديدة ، من أولئك الذين يرون فى التغيير تهديداً لأرباحهم . ولم تقف متاعب التاجر عند هذا الحد ، إذا انخفضت قيمة النقد ، وقل اتخاذ النقد وسيلة للتعامل ، كما أن القانون كان عدواً للارباح الناجمة عن التجارة ؛ فى أوقات الأزمات ، وحين تقل السلع ، تقرر توقيع عقوبات شديدة على كل تاجر يحاول أن يبيع السلع الضرورية بأسعار تزيد على السعر الطبيعى .

المجتمع القروى :

لم يكن مجتمع الفرنجة ينزع إلى التجـــارة أو النقابات ، إذ ارتبط مصير معظم الناس بالأرض والخضوع لسيـــد الأرض . فى الريف خارج

المدن ، أخذ المجتمع يتركز حول كبار الملاك . على أن المجتمع القروى، الحر ربما كان فى وقت من الأوقات من ظواهر المناطق التى تغلب عليها الصفة التيوتونيه . على أنه لم يبق وقتئذ مجتمع من هذا القبيل . إذ أن طبقة متميزة من صغار الملاك الأحرار ظهرت منذ زمن بعيد ، غير أنها لم تلبث أن تضاءل شأنها ، فما حدث من ظلم الجيران الأقوياء ، وثقل وطأة الخدمة العسكرية، والفقر الناجم عن إهمال الزراعة ، أدى كل ذلك إلى هذه النتيجة . فمن الراين إلى المحيط ، ومن البرانس إلى القنال الانجليزى، ظهرت وتطورت شبكة من الضياع الكبيرة أشبهت فى نظامها ما هو معروف بالابعاديات التى لم تكن إلا سمتا و بيلا فى جسم الأمبراطورية الرومانية . ويقوم بزراعة الضيعة ، الرقيق والملاك من جهة ، والأقنان والمستأجرون الأحرار من جهة أخرى .

وفى قلب الضيعة يقوم الدوار « curtis » أو إدارة الضيعة ، فتألف منها ومن المخازن والمنازل الخارجية اضلاع المربع . وفى هذه الدار يقيم المالك أو نائبه bailiff وبهذا الوضع تقع السكنات والمصانع التى يعمل بها رقيق الدار . أما فى البناء فكان طرازه من أحط الطرز ، والخشب هو المادة التى يغلب استعمالها . ومن أبرز صفات دار الضيعة، سقيفة ترتكز على أعمدة ضخمة من الخشب، يجرى أحيانا تزيينها بالنقوش أو الصور الحائطية . وتشغل قاعة المآدب الجانب الأكبر من الطابق الأول . وبالطابق العلوى يقع مخدع المالك وأسرته .

التابع والسيد:

أما اقتصاد الضيعة ، فكل ما لدينا عنه من المعلومات يتسم بالغرابة . إذ يصح أن يكون للنبيل عدد من هذه الضياع ، يجعل على كل منها ناظرا يتولى بيع جزء مما تنتجه ، ويرسل ما تبقى إلى الدار المركزية للضيعة ، ويقوم كل سنة بتقديم تقرير عن الحسابات ، وبالضيعة كل أرباب المهن والصناعات . إذ يندوب بعض

الأرقاء حتى يصبحوا حدادين ونجارين و بنائين ، وتشتغل النساء بالنسيج والغزل لا لحسب لسد حاجة الدار من الملابس، بل لبيعها أيضا بالأسواق، و يزداد الاهتمام بتربية الماشية والخيول والأغنام . وفى مواضع مختلفة من الدار يصير غرس البساتين والمتنزهات والكروم والزيتون . ومن أعمال الناظر الإشراف على كل المصادر التى يجىء منها الخراج ، إذ يقوم بجمع ما هو مطلوب من المستأجرين الأحرار من إيجار ، فيأخذه أحياناً نقداً ، غير أنه فى معظم الأحوال يتسلمه من نفس المحصول. و يحرص على أن يقوم غير الأحرار منهم ،بتأدية ما هو مفروض عليهم من الخدمة الإجبارية (السخرة) . و يخضع لسلطانه الأحرار والأقنان على حد سواء .و يمنعهم الناظر من أن يعملوا على إهمال زراعاتهم وما يتبع ذلك من انهيارها وضعفها ، ويحميهم من كل ما يتعرضون له من أعمال العنف والأذى . وله على الأرقاء سلطة تكاد تكون مطلقة ، إذ أن هؤلاء الأرقاء يعتبرون فى نظر القانون مجرد متاع خاص له ، ، ولا يكادون يملكون شيئاً . أما نائب الناظر الذى يحضر للمحكمة عند النظر فيما ارتكبوه من جرائم ، فإنه يوقع عليهم من العقوبات ما يكاد يبلغ أحياناً حد الموت .

ومكانة العبد تكاد تكون من الناحية المادية مماثلة لما ورد فى القانون الرومانى، ومع ذلك تحسنت حالته فى ناحيتين : جعلت سلطة الكنيسة لعقد زواجه قوة قانونية ، وعملت على حماية حياته الزوجية . وتم انفاق أموال طائلة من أموال الزكاة لشراء حرية هؤلاء الذين اعتبروهم أخوة فى الدين ؛ وأعلن كثير من الأغنياء توبتهم عن ذنوبهم ،أو شكرهم لما أصابهم من خير ، بأن أعتقوا من عندهم من الأرقاء . وأثبت العرف أيضاً أنه ألطف وأفضل من القانون،ففى معظم الأحوال يحصل العبد على مزرعة، وجاز اعتباره فعلا فى مكانة القن ، والقن فى نظر القانون يعتبر رجلا حراً . ولم يكن غريباً أن يتزوج العبد امرأة حرة بموافقة سيده .وفى هذه الحالة تحتفظ الزوجة بحريتها ، وتنتقل هذه الحرية إلى أبنائها الذين أنجبتهم من

زوجها . وبذلك أثبت نظام القنية أنه لم يتعارض مع الحرية فى الطبقات الدنيا من المجتمع . على أن تأثيره على صغار الملاك لم يكن عظيم الأهمية . لم يكن للسيد ونائبه سلطان عليهم ، غير أن ثمة من الأسباب الاقتصادية ما جعل المستأجر تحت رحمتهما . فإذا جرى طرده من الأرض التى يحوزها ، لم يعد لديه من الوسائل ما يقتات بها ، وخير ما تؤديه المحكمة لا يخرج عن علاج بالغ الخطورة ، بل أنه فى بعض الحالات التى لم يحصل فيها على أرض ، إنما جعل نفسه وأرضه فى حماية سيد من السادة ، صار من العسير أن يخرج عما فرضه على نفسه من تبعية . فالقانون ينفذ يمين التابع بكل قوة وصرامة . على أن شارل الكبير أجاز ثلاثة أسباب فقط للتحلل من يمين الولاء . إذا عامل السيد تابعه على أنه عبد ، وإذا اعتدى على حياته وشرفه ، وإذا لم يمده بالحماية اللازمة . وما وعد به السيد من طاعة وولاء ، يعتبر أمراً ملزماً شاملا . فالتابع يحلف وهو راكع .. « بأن أؤدى كل ما أستطيع من خدمة واحترام مثلما يفعل الرجل الحر ، وألا أخرج فى وقت من الأوقات عن سلطتك وبدلك » . ويستطيع أبناء التابع أن يرثوا أرض والدهم بموافقة السيد . إذ أن ينص أنه « ليس لى الحق فى أن أبيعها أو أتخلى عنها أو أضعف من قيمتها ، وعند وفاتى تعود إلى يديك دون أن يحدث نزاع من جانب ورثتى » .

الكنيسة والدولة :

وفى ضيعات كثيرة ولا سيما تلك التى تعتبر من أملاك الكنيسة ، تزداد سلطة السيد ، بما يحصل عليه من امتيازات من الملك . وفى إحدى هذه المنح ورد « لا تجعل موظفاً عاماً يجرؤ على أن يتدخل بقصد الاستماع إلى الدعاوى أو جمع الغرامات ... وما حصلت عليه الخزانة العامة حتى الآن من أرباح من الرجال الأحرار والأرقاء أو سائر الطبقات ، ينبغى أن يذهب فورا وإلى الأبد إلى خزانة الكنيسة المذكورة » .

وإذا حصل رجل علمانى على اعفاء من الاعفاءات ، تقرر تغيير العبارة بما يلائم الظروف والأحوال . وفى كلتا الحالتين لا تختلف النتيجة . فالضيعة الكنسية تعتبر ملاذاً لا يستطيع أن يصل إليه رجال القضاء ، إذ يتحتم عليهم الانتظار خارجها ، وأن يستدعوا حائزها ويطالبوا إليه أن يحضر الرجل الذى يبحثون عنه ، فى الجلسة التالية لمحكمة الكونتية . فإذا فرضت غرامة ، وقلما أعفيت جريمة من الغرامة ، قام مالك الأرض بجمعها ، فيدفع للمحكمة ما هو معروف بالبنس الثالث ، الذى يعتبر أجرا للقاضى ، وما تبقى من الغرامة ، وهو المفروض أن يؤدّى للملك ، يحتفظ به لنفسه . ولا يفعل هذا فحسب حين يكون المتهم مستأجراً عنده ، بل يحدث أيضا حين يلجأ أجنبى إلى أرضه ، على الرغم من أن حماية اللصوص تعتبر سلوكا بالغ السوء . ونشأ هذا الامتياز الشاذ أصلا فى أراضى الكنيسة ، وذلك راجع إلى أن مزارع الكنيسة لا تقل مكانة عن الكنيسة ذاتها وتعتبر أرضا مقدسة . وامتد هذا الامتياز قياساً على ذلك إلى الضياع العلمانية فأصبح عقبة تؤود أمام القضاء ، فاقترب المجتمع بذلك خطوة نحو العصر الذى ساد فيه القضاء الخاص . وترتب على ذلك أنه كلما فقدت السلطة المركزية ما لها فى المحاكم من اهتمام مباشر ومصلحة مادية ، كلما نزعت إلى تأجير المحاكم إلى أولئك الذين تولوا فعلا الحصول على أرباحها .

والواقع أن الفائدة التى نجمت عن الاعفاءات ترجع أساساً إلى الكنيسة . وبفضل ما اشتهرت به الكنيسة من امتلاك أجزاء كبيرة من الأرض ، ازداد جنوحها إلى أن تصبح دولة داخل الدولة . فالأسقف الفرنجى يحكم جنباً إلى جنب مع الكونت ، ومن العسير أن نعتبره مرءوساً له ، وبفضل ما له من الأهمية باعتباره مالكا ، استمد الأسقف سلطة إضافية من ولايته على رجال الدين ، المدنيين منهم والنظاميين . ولم يخرج من الأديرة عن سلطته واشرافه إلا عدد ضئيل . ويعتمد عليه قس الأبروشيات فى معيشتهم وحياتهم لأنه يحصل فى معظم الأحوال على العشور ويقوم بتوزيعها بينهم كيفما شاء . وتنظر محاكمه فيما يرتكب

من جرائم ضد الأخلاق والدين . ويقوم المدعى العام بالاستماع إلى دعاوى المستأجرين ويفصل فيها ، وينظر أيضاً فيما يتقدم به ضدهم خصم ثالث من شكاوى قليلة الأهمية . ولا تتم محاكمة رجال الأسقف فى المحاكم العامة إلا إذا رفض ممثل الأسقف النظر فى قضيته . ولم يكن فى الواقع إلا موظفاً عاماً ، ومؤهلاته يحددها القانون ، ويصير اختياره بموافقة الكونت والناس .

وبذلك أصبحت كنيسة الفرنجة قوة سياسية اجتماعية ، بلغت الذروة فى من العظمة . وما قام به شارل مارتل ، بل ما قام به أخلافه الذين كانوا أكثر منه حكمة واتزانا ، من محاولة للانتقاص من ثروة الكنيسة ضاعت سدى ، فما حدث من نهب هذه الثروة وسلبها ، لم يلبث أن عوضه ما تجدد من الهبات . وترتب على ازدياد سلطة الدولة ، أن اشتدت قبضة الموظفين على ما بأيدهم من اختصاصات ولم يستند النضال إلى مبدأ معين . إذ أن الشعور بالوحدة المشتركة يكاد يكون غير معروف ، فلم يفكر الأسقف بأنه يتلقى الأوامر من مطران ، ولم يحفل المطران بأن يدعو السينوذ (المجمع) للانعقاد ، ولم يدافع كبار رجال الكنيسة ورؤساء الأديرة إلا عن أملاكهم الخاصة . أما حياتهم الخاصة فما نعلمه عنها مستمد من القديس بونيفاس . إذ نعتهم بأنهم ليسوا إلا « جباة ضرائب » و « ودعاة دعارة » وينعى عليهم بأنهم يمارسون الصيد واللعب بالصقور ، ولا يمنعهم اليمين من أن يلعبوا القمار ، شأنهم فى ذلك شأن أحط العلمانيين وأحقرهم . ولم يكن مرءوسوهم أقل حظاً منهم . وصار من المحتم منع القس من الاحتفاظ بأكثر من زوجة ، ومن أن يجوبوا البلاد ، ومن أن يترددوا على الحانات والأماكن ذات السمعة السيئة . أما الرهبان فصاروا يتخذون من النعوت ما يلائم الأحوال ، فتارة يعتبرون أنفسهم علمانيين ، وتارة يجعلون أنفسهم من رجال الدين ، وفى كلتا الحالتين لا يلتزمون بقاعدة أى الطائفتين . واشتهرت الكنائس عما يحدث بها من سوء الخدمة ، إذ تسبب عن الاهمال والجهل أن فسدت الشعائر ، فلا تؤدى بها الطقوس

والشعائر بانتظام . وعلى الرغم من أن سلطة الكنيسة أخذت فى الازدياد ، فإن هذه الزيادة لم تنشأ إلا نتيجة شره الأشخاص الذين يعملون لصالحهم الخاص . اشتهرت الكنيسة بأنها هيئة قوية بعيدة الأثر ، غير أن روحها كانت ودیعة محبة لذاتها .

النبيل الفرنجى

ذلك هو الاطار الخارجى للمجتمع الفرنجى المعروف وقتذاك . ولا تذكر شيئا عن الحكومة المركزية ، إذ أنها لم يكن تمت قبل عهد شارل الكبير سوى الاستبداد الشخصى ، الذى لم يكن له أول الأمر صورة من الصور ، وشكل من الأشكال ، ثم لم يلبث أن عاقه موظفون ليس لهم من السلطان أو الإدارة مايخدمون بها غرضا من الأغراض . وتنحصر أهمية التاريخ الميروفنجى فى تطور النظم الاقليمية ونمو المجتمعات . وأهم ما تمخض عنه هذا العصر هو ظهور طبقة أرستقراطية تعتبر من جهة ، أرستقراطية رسمية ، ومن جهة أخرى تعتبر أرستقراطية إقليمية . وفى أيدى تلك الأرستقراطية صار مستقبل الفرنجة ، فمن هذه الأرستقراطية نشأ بيت القديس أرنولف ، وبعضها تولى الحكم ، ومنها اختار وزراءه .

ولذا كان من الطبيعى أن ننتقل من النظم ، إلى أولئك الذين ابتدعوها واستخدموها ، وأن نتساءل ماذا كان هؤلاء النبلاء ، وفى أى الأمور كانوا أكفاء ؟ وتولى جريجورى التورى الرد على هذا السؤال . على أن الأنموذج الذى يعرضه ليس بينه وبين التيوتونى المثالى الذى يتصوره المؤرخون إلا شبه ضئيل ؛ فليس الفرنجة عنده إلا أطفالا ، يفتقرون إلى ضبط النفس وبعد النظر ، وهم اطفال أيضا فى نزوعهم إلى الشر والمكر ، وإذ تتحكم فيهم النزوة العاجلة ، اشتهروا بالتضحية بأنفسهم ، وبارتكاب الجرائم الخطيرة ، وتأصل فيهم الاعتداد بالنسب ، ومع ذلك فإنهم أخذوا عن رعاياهم من الرومان طباعهم ، ومع ما اشتهروا

به من الميل للقيادة والسلطة ، فهم أبعد الناس عن تفهم مسئوليات الحاكم . اعتبروا السلطة والثروة الأهداف الأساسية التي يحسن السعى وراءها ، ومع ذلك فانهم ما كادوا يبلغونها حتى أضاعوها هباء ، والديانة عندهم لم تكن إلا تعويذة ضد سوء الحظ ، وما مسيحيتهم إلا صورة جديدة من الوثنية . . والصورة التي رسمها جريجورى ليست إلا صورة قاتمة ، ربما بالغ في تلوينها ، لأن ما امتازت به أمة من الطابع ليس من السهل استخلاصه من قصص مثل .. تاريخ الفضائح Chronique Scandaleuse . يضاف إلى ذلك أن جريجورى التورى أشار إلى أن ما أصاب الفرنجة من فساد ، إنما يرجع إلى اتصالهم بمساوىء المدنية السابقة ونقائصها . ولم تكن هذه المساوىء سائدة في الشرق ، ومن ثم جاء حكام الفرنجة من الشرق. وأشبه النبيل الإسترازى في كثير من تفاصيل الحياة اليومية النبيل الغالى الرومانى ، إذ استورد ملابسه من إيطاليا أو القسطنطينية ، وقص شعره على الطريقة الرومانية ، وعمل على تزيين داره بضيعته بالتماثيل القديمة والفسيفساء ، ولم يعد ينشد في ناديه القصص القديم للفرنجة ، بل ينشد القصائد اللاتينية التي تألفت وفق أسلوب فورتيناتوس و بروتنيوس . وطالما أشاد بأنه سليل قنصل أو سناتور . غير أنه لا يزال جرمانيا في الأمور الجوهرية ، يقدر البسالة والإخلاص ويجعلها فوق الحكمة وكل الفضائل الفكرية . ومفهومه للنظام الاجتماعى إنما جاء من القوانين التي وضعها عقلاء الأمة وحكماؤها منذ زمن بعيد حين عاشوا وراء نهر الراين .

وعلينا أن نلقى نظرة على ما ينطوى عليه القانون العرفى من عوامل القوة الوطنية. وأول ما يلفت نظرنا هو ما اتصف به أفراد أسرة الفرنجة من القداسة . فالتوستيرى من الفرنجة ، لا سيما الذى ينتمى إلى طبقة ملكية يجنح الى اتخاذ زوجات عديدات . فالملك التقى داجوبرت نافس الملك سليمان في عدد زوجاته وجواريه . وما يجرى من علاقات غير شرعية لاتقرها الكنيسة ، لا ترتبط في كل الأزمنة بقيود شديدة ، كان من السهل التحلل منها . غير أن هذا يعتبر خروجا

على ماهو معروف عند العنصر الجرمانى من أحسن التقاليد . فى القانون السالى تقتسم الزوجة مع الزوج السلطة فى البيت . و يدفع الرجل فى الزوجة مهرا مرتفعا ، ولذا فهى بنجوة من أهدافه وانحرافاته . ودية المرأة التى أنجبت طفلا تضارع دية تابع الملك وثمة وثائق أخرى تروى نفس القصة . وتضمن كتاب من كتب نماذج الانشاء صورة خطاب حب ارسله شاب إلى خطيبته ، وجاء فيه « حينما أضجع التماسا للراحة ، فإنك دائما ملء العيون ، و إذا نمت فإنى أحلم بك دائما ، فلتكن الصحة سابغة عليك ماطلع النهار ، ولتقض ليلك فى خير وسرور ولتفكرى دائما فى حبيبك مثلما أفكر فيك . والله الذى يحكم فى السماء ، و يشرف على العالم ، أسأل أن يأتينى بك قبل أن أموت » . والعقود التى يجرى فيها تسجيل الزواج أو الخطوبة حافلة بعبارات الحب ، فمنها عبارة « بفضل الله سوف تعيش زوجتى وأنا معا لا ننفصل طالما تدب الحياة فينا » . أما الصلة الوثيقة بين الآباء والأبناء فتظهر فى صورة مختلفة ، وهى قانون الوارثة . فما يرثه الشخص من أسلافه من أرض ، لم تكن ملكيته لها مثلما يمتلكه بطريق الشراء من المتاع والأرض . ولأولاده اعتبار خاص فى شأنها ، إذ لا يستطيع أن يتصرف فيها إلا بموافقتهم . أما السلطة الأبوية فتحميها المصلحة والمحبة المتبادلة ، فالأطفال لم يكونوا ، كما هو الحال فى روما ، يخضعون تحكم القانون للسلطة المطلقة لوالدهم ، إذا أن العرف لم يجعل للوالد إلا حقوق الرعاية التى يمارسها فى حالة البنات ، حتى يعين زواجهن . أما فى حالة الأولاد فإنه يباشرها حتى يبلغوا الخامسة عشرة من أعمارهم ، وهى السنة التى يجرى فيها تقليدهم بحربة القتال وترسه ، و يصير فيها قبولهم بالجيش الوطنى . وجرى أول الأمر عدم اشتراك الأناث فى ارث الوالدين . على أن هذه القاعدة القديمة السيئة لم تلبث أن تعدلت فى العصور المتأخرة لأسباب عاطفية ، فصار الأب يجعل ، بمقتضى عقد كتابى ، ابنته على قدم المساواة مع اخوتها . أما الخاصية الثانية التى نلحظها فكانت السلام القومى .

ومع ذلك فإن المال يصلح ما أفسدته الجرائم ، من جرائم القتل إلى ما دونها من الجرائم ، وتختلف الجرائم التي لها طابع عام، عن الجرائم التي لها طابع خاص. فالذي يقترف من الجرائم ما يضر « بالسلام » يتحتم عليه أن يؤدي للملك غرامة فضلا عن التعويض (الدية) الذي يدفعه لأهل المصاب. أما الجرائم التي تمس هيبة الملك أو مصالحه، فإنها تؤدي إلى الخروج على القانون ، ذلك أن المذنب يعتبر خارجاً على القانون حتى يدفع ما هو مقرر عليه من غرامة كبيرة تبلغ ستين صولداً ذهبياً . وما يرتكب من الجرائم في حق الأرامل واليتامى أو رجال الكنيسة يؤدي عنها المذنب من التعويض ما يضارع ما يدفع عند الاعتداء على أحد خدام الملك .

ليس من المحتم أن نتحدث عن الحرية الفطرية التي انطوى عليها قانون الفرنجة وعرفهم . ومهما صارت إليه أهمية الحكومة ، فما زال العرف يحتم على الملك وموظفيه أن يذعنوا لصوت الزعماء المجتمعين في المحكمة والمعسكر وقاعة المجلس . إذ أن انفصال الطبقات الاجتماعية ، وهو ما ينطوي عليه قانون الفرنجة ، ورغم ما يشتمل عليه من نقائص ، كان من أهم خصائصه أنه زاد في استقلال الارستقراطية ، وقوى ما اشتهرت به من شعور الزمالة . فنظام التبعية، كما هو قائم بين الملك ونبلائه ، عمل على اشتداد التعصب من أجل الحرية لا إضعافه . ولم تكن التبعية إلا تعاقداً تم بموافقة الجانب الضعيف بمحض اختياره وحريته ، فلا تستمر إلا إذا قام الجانب القوي بالوفاء بما التزمه من شرط في هذا العقد . وأكثر من ذلك ، تلك القاعدة القيمة التي تقضي بأنه يجوز الحكم على أحد الزعماء بالإعدام أو بالمصادرة ، بشرط أن يصدر الحكم أسوياؤه .

فهؤلاء الرجال الذين يحورون هذه التقاليد لا ينبغي إنكار صلاحيتهم للحكم . غير أنه إذا لم يكن ثمت من الأفكار ما يحركهم ويدفعهم ظلوا

راكدين . وإذا أقاموا نظاماً اجتماعياً جديداً ، ربما صار قوياً متيناً ، غير أنه لن يكون رائعاً جيلا .

الدافع التبشيري :

على أن ما كانوا يفتقرون إليه من أفكار ، لم يحرروها إلا قبل أن يتولى شارل الكبير العرش بسنوات قليلة . ففي نهاية القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، تعاهدت البعثات التبشيرية من انجلترا على أن تقوم بالتنصير ابتداء من المرحلة التي انتهى إليها تفيذا القديس جال والقديس كولومبان ، وهما ويليبرود في فرزيا ، وبونيفاس في تورنجيا وألمانيا وبافاريا ، حيث قاما بالتنصير وإنشاء الأديرة ، وتشييد الأسقفيات، بموافقة المقر الرسولي وتشجيعه . وبفضل ما قاما به من إحياء الروح المقاتلة عند الكنيسة ، وإعادة التقشف والزهد للنظام الكنسي ، حظياً بما اشتهر به الفرنجة الشرقيون من تأييد حماسي . ولا شك أن السياسة أثرت في شارل مارتل ،حين جعل البعثات التبشيرية تحت حمايته ، مثلما أثرت في بيبن حين دعا المبشرين لإصلاح الكنيسة في غاله . ولسنا في حاجة إلى ما يجعلنا ندرك بأن توجه المسيحية نحو الشرق يتفق حتماً مع ماتبتغيه أمة الفرنجة من التوسع ، وأن أحسن رقابة على الكنيسة القومية ، إنما نجدها في التحالف بين المقر الرسولي ومبعوثيه . غير أن الاعتقاد يفعل ما يتجاوز الحساب والتقدير . فما حدث من تمجيد روما ومن الحماس لبسط قوتها إزداد رسوخاً في عقول الناس . وما أقامه بونيفاس من أديرة بألمانيا ، زخرت برجال اشتهروا بعراقة نسبهم . لم نسمع عن مثل واحد أو عن مثلين تخلى فيهما محاربون مشهورون عن الحياة الدنيا ،وساروا في الفلاة ليجعلوا منها جنة الله . وأولئك الذين لم يتوافر فيهم من الكفاءة والقدرة ما يجعلهم يقومون بهذه التضحية ، ما زالوا مستعدين لأن يؤدوا من الخدمات ما يتفق مع قدرتهم ودرجتهم . . ويتفق هذا العمل مع ما اشتهروا به من قديم

الزمن من حب القتال والميل للفتح ، فاشتد حماسهم لمحاربة الوثنيين والانتقام لدماء الشهداء ولتدمير معابد الأصنام .

والمدرسة الجديدة للمفكرين أو الطلاب من الكنسيين لم تكن من المفكرين . وما اشتهروا به جميعاً من موهبة خاصة لم تكن هي القدرة على تنظيم الحماس الديني وتوجيهه لغرض محسوس . ولما تولى شارل العرش ، كان هؤلاء يعكفون على عملهم منذ أكثر من سبعين سنة ، أتموا أثناءها إخضاع بلاد الراين ، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا منابع نهر الراين ، واتخذوا طريق الدانوب حتى بلغوا ملتقاه بنهر الإنز ، وهددوا سكسونيا من جهة منابع نهر الويزر . أما غاله فإنهم تركوا بها أيضاً روح البعث الجديد ، فعقدوا المجالس الكنسية ، وعينوا مطارنة ، وأنزلوا العقاب بمن اشتهر من رجال الدين بسوء الخلق ، وبفضل نفوذهم ونفوذ البابا الذى تفانوا فى خدمته ، توافرت القوة المحركة التى كان عليها أن تجعل الأستقراطية الفرنجية تسمو على مصالح الوقت وأن تقوى ساعد الزعيم الكبير .

— — ——

الفصل الثالث

شارل وكارلومان

٧٦٨ - ٧٧١ م.

يعتبر عهد ببين القصير مدخلا لعهد ابنه ، أما المفتاح الأساسى لكلا العهدين ، فنلتمسه فيما وقع من تحالف ثنائى مع الكنيسة فى مملكة الفرنجة ، ومع الكنيسة العالمية التى يمثلها المقر الرسولى بروما . ففى السنوات من ٧٤٢ — ٧٤٥ التى اشترك فيها ببين فى الحكم مع أخيه كارلومان على أنه حاجب القصر ، أخذا يلتمسان صداقة القديس بونيفاس بما قاما به من تشجيع مشروعاته التبشيرية وباستخدام حماسه ونفوذه لتنظيم وتهذيب رجال الدين من الفرنجة . ولما عمد كارلومان ، إما بتأثير دواعى التقوى أو تحت ضغط مؤامرات أخيه (تشير التواريخ إلى التفسير الأول ، بينما تدل الوقائع الواردة بها على التفسير الثانى) إلى الالتجاء إلى ايطاليا وأديرة مونتى كاسينو ، ظلت مصالح الكنيسة تحتل المكانة الأولى فى خطط ببين . ولم يلبث أن أحرز مكافأة سنيّة ، ففى سنة ٧٥٠م تولى البابا زكريا تهدئة ثائرته وقلقه ، فأجاز له أن ينتزع اللقب الملكى من آخر ملوك الميروفنجيين . وفى سنة ٧٥٤ قام ستيفن بمسح ببين وولديه (شارل وكارلومان) بالزيت المقدس « ليكونوا كهنة ملوكا » . ولم تكن الخطوة التالية للملك الجديد مجرد تصديق من البابوية وموافقتها ، بل كانت إيحاء وإلهاما منها . فالراجح أن ستيفن بموافقة الامبراطور قسطنطين كوبرنيموس ، دعا ببين إلى القدوم إلى ايطاليا ، وأفاد منه فى استرداد أرخونية رافنا ، من يد ايستولف اللومباردى ، ومنحه لقب بطريق . وباعتباره بطريقاً ، أصبح الملك من الناحية الاسمية موظفا من موظفى

الأمبراطورية . ولعل قسطنطين توقع أن يجد فيه خادما طيعاً ، يقنع بأن يحتل المكان الذى شغله من قبل الأراخنة . على أن هذا لم يكن غرض البابا . ذلك أن البابا ستيفن لم ير فى البطريق إلا نصيراً لكرسى روما الرسولى ، يقوم بحمايته من الخطر اللومباردى ، ومن دعاوى الامبراطورية (البيزنطية) فى السيادة . بادر ملك الفرنجة بقبول هذا الرأى عن مكانته . وما قام به ايستولف من سلسلة اعتداءات واغتصابات جديدة ، لم يترتب عليها سوى المبادرة إلى غزو مملكته للمرة الثانية — فتقررت استعادة الأرخونية من جديد ، غير أن القاهر (الغازى) أغفل فى هذه المرة حقوق الأمبراطور (البيزنطى) ، فمنح ما استولى عليه من المدن هبة للبابوية . وما حدث من احتجاجات من قبل القسطنطينية ، لم تجد أذانا صاغية . وعلى الرغم من أن ديوان المكاتبات البابوية ظل يؤرخ وثائقه بسنوات الأمبراطور (البيزنطى) القائم فى الحكم ، فالواقع أن البطريركية الغربية (البابوية) ، خرجت عن طاعته وسلطانه . ومع أن بيبن كان حريصاً على أن يتجنب أن يقع الشقاق بينه وبين قسطنطين (الأمبراطور البيزنطى) ، فإنه أخذ يحطم السلسلة الواهية التى تربط الشرق (البيزنطى) بجمهورية روما فى الغرب ، فاستهل بذلك الانقسام الذى تحتم على ابنه أن يتممه . وما اتخذه بيبن ، وشارل من بعده ، من وسيلة لإتمام ذلك العمل ، إنما جاء من قبل البابوية . ويتبقى الآن أن نلاحظ ما حدث من النضال فى الثمانى سنوات الأخيرة من عهد بيبن . فما قام به من نضال ، إنما جرى بناء على أس الكنيسة .

فتح أكيتانيا :

ظلت دوقية أكيتانيا ، بعد أن أنقذها شارل مارتل من خطر المسلمين ، على ما كانت عليه من قبل ، من أشد ممتلكات الفرنجة اضطرابا . واستطاع الأخوان كارلومان وبيبن فى سنة ٧٤٢ م ، أن يحرزا فى يسر وسهولة الانتصار الباهر على الدوق

هينالد . ولما كان ببين حاجبا للقصر فى الأقاليم الغربية ، فإنه جعل أكيتانيا موطن اهتمامه . فصادر مساحة كبيرة من الأراضى الواقعة وراء نهر اللوار، و بتأثير الحركة الدينية الجديدة ، جعلها وقفا على الأديرة والكنائس . واستمر الاكيتانيون سنوات عديدة قانعين بخضوعهم وأذعانهم . ولجأ هينالد إلى الدير ، وسار على نهجه ابنه وايفر . على أن وايفر أظهر أول الأمر امتعاضه لما قام به من حماية الثائر جريفو، وهو أخ غير شقيق لببين (٧٤٨ — ٧٥٣) . ثم حدث سنة ٧٦٠ أن وضع يده على ممتلكات الكنائس الفرنجيه ، وسارع ببين للدفاع عن رجال الدين ، وترتب على ذلك أن نشبت حرب ضروس ، وتكرر زحف الفرنجة إلى ما وراء نهر اللوار ، ونهبهم الحصون التى اعتصم بها العدو ، وفى كل حملة من الحملات، كانوا يستولون على حصن أو حصنين. غير أن الدوق تاسيلو، دوق بافاريا، اغتنم الفرصة وشق عصا الطاعة ، وخاف ببين أن تتعرض الأقاليم الشرقية لهجومه ، فأوقف عملياته الحربية بأكيتانيا مدة سنتين (٧٦٣ — ٧٦٥)، ولم يستطع ببين ، إلا أواخر حياته حين وقع فريسة لمرض مميت ، أن يقضى على وايفر وأن يمضى إلى سينت عاصمة اكيتانيا ، حيث أعلن فى مجلس كبير خضوع اكيتانيا لحكم الكونتات والمبعوثين من الفرنجة الذين صح عزمهم على أن يدمروا ما تبقى من أثر لاستقلال الإقليم (٧٦٨) .

شارل وكرلومان

وتطلب الاحتفاظ بهذه الفتوح اتخاذ إجراءات شديدة ، إذ تحتم جعل حاميات عسكرية فى أنجوليم ومعاقل أخرى . على أنه لم يتم إصلاح ما خربه وايفر وخصومه إلا بعد سنوات عديدة . وأدرك الملك الثالث أنه ليس من واجبه أن يلاحظ عودة الرخاء ، أما رغبته الوحيدة فهى أنه تمنى أن يعيش حتى يبلغ نويستريا مقر مملكته ومركز المملكة المتحد ، وفى خطواته ثقيلة بالغة الألم عاد

إلى ديره المحبوب فى سان دينى . وفى هذا الموضع و بحضور الرؤساء والزعماء و برضاهم قسم مملكته بين ولديه شارل وكارلومان ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى قضى نحبه ، وجرى دفنه « باحتفال دينى مهيب » بالكاتدرائية . ولا يزال تمثاله الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، قائما فى الجهة الجنوبية من المحراب (المذبح) الذى شيده روجر رئيس الدير لتخليد البقعة التى جرى الظن بأنه دفن بها . على أن التاريخ لم يهبه من الانصاف إلا حظا ضئيلا . أما سيرة حياته فما ينبغى أن ننسجها إلا من أساطير قليلة ، وطائفة من التواريخ الجافة . ومن حيث العقلية والجسم يعتبر ببين قزما ، إذا جرت مقارنته بابنه العملاق . ومع ذلك كلما أمعنا النظر فى دراسة حياته ، كلما ازداد إدراكنا وضوحاً لتلك السياسة التى اعتمد عليها شارل الكبير . على أن الابن لم ينس مطلقا ما كان لأبيه عليه من أفضال ، ولم يجد غضاضة فى أن يذكر رعاياه بأن الأمبراطورية الغربية ترتكز على الأسس التى وضعها ببين . ولم يكن ببين مفتقرا إلى شىء من الأفكار ، أما الذى احتاج إليه فهو الروح الملتهبة والشخصية القوية التى اكسبت شارل ما حدث من تعلق قومه به ، بل تعلق شعوب البلاد المفتوحة به . فالفرنجة ، كما هو معروف ، ساروا وراء ببين عبر جبال الألب ، غير أنهم لم يفعلوا ذلك إلا وقد ساورتهم الشكوك واستبدت بهم الأحزان ، وتبين القصة فى وضوح ما اشتهر به من قوة وضعف ، أما تجاربه فإنها بينت ما تنطوى عليه خططه من حكمة ، وانتزعت الثقة من فرسانه ، غير أن عزائمهم خارت حين احتكوا بهذا المدبر الماكر الذى ، بفضل ما اشتهر به من تفكير ساذج جاف ، استطاع أن يفوق ما اشتهر به اليونانى من التفاخر بما له من مهارة سياسية ، وأن يفسد هذا الزعم والادعاء . كان حاكما عظيما ، غير أنه لم يكن الحاكم الذى يحقق لهم أحلامهم .

وجرت المناداة بولديه عقب تشييع جنازته ، فسار كل منهما إلى مملكته . أما خطة التقسيم التى ورثا الملك بمقتضاها ، فإنها بسبب تأثيرها على ما حدث بعدئذ

من الحوادث ، لا بد من أن ندرسها بالتفصيل . تولى شارل حكم استراسيا والجانب الأكبر من نويستريا ، وما يتبع ذلك من الأراضى الواقعة بين نهرى اللوار والجارون . أما برجنديا و بروفانس والألزاس والمانيا والجزء الجنوبى الشرقى من اكيتانيا فأصبح من نصيب كارلومان . والحد الفاصل بين المملكتين يبدأ عند الحولشتات بالطرف البافارى ، ثم يحاذى مجرى نهر الماين حتى فورمز ، ثم يتجه بعد ذلك صوب الغرب فيجتاز المسافة بين سواسون ونويون ، و يلتقى بنهر اللوار عند نقطة ينحنى النهر عندها نحو الجنوب . وترتب على ذلك أن مملكة الأخ الأصغر كاد يحيط بها مملكة الأخ الأكبر . ويعتبر ذلك إجراءاً بالغ التعقيد ، ومع ذلك فإنه جعل لكل من الأخوين نصيباً اتصلت فيه الأراضى الرومانية بالأراضى التيوتونية . على أن التطابق بين الحدود الوطنية والحدود الأسرية لن يؤدى إلا إلى الشقاق الدائم فى مملكة الفرنجة . يضاف إلى ذلك أن هذا التطابق هيأ للجانبين ما يحفزهما للاهتمام بالحروب ضد تاسيلو والعمل على إقرار السلام فى اكيتانيا .

والخلاصة أن المهارة السياسية بذلت كل ما تستطيع من جهد لتخفيف المساوىء الناجمة عن التقسيم . وبلغ من وفرة الحديث عن العاطفة العائلية فى الفرنجة ، أن بيبن برغم ما اشتهر به من إدراك ظاهر لما يتوقعه من أخطار ، لم يجرؤ على أن يحرم ابنه الأصغر من الإرث .

على أن ماحدث لسوء الحظ من الاختلاف فى المزاج بين الأخوين ، بلغ من الشدة ما جعل من العسير تجنب النزاع . فهما أخوان من أم واحدة هى برتادا التى ورد ذكرها فى قصة من القصص باسم برتا ذات القدم الرحاء (المفرطح) . كان كارلومان وقتذاك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، بينما كان شارل فى السادسة والعشرين . ولم يكن كارلومان إلا صبياً فى عمره ومواهبه ،

سريع الإثارة ، شديد الاعتداد بنفسه ، فريسة سهلة الوقوع فى يد المتملقين الذين ذكروا له ، أنه طالما كان إبناً شرعياً للملك ، فإن له الحق فى أن يحوز كل المملكة لا نصفها ، على حين أن الأمبراطور المقبل ، الواثق فى لقبه ، الحريص على ما اكتسبه من شهرة فى الحروب التى شنها أبوه ، المتحفز لأن تطلق يده فى تنفيذ خطط أبيه ، لم يكن شديد الميل لأن يقرّ إدعاءات أخيه الأصغر . ولا حاجة إلى أن نمعن فى تعرف أسباب ما كان بينهما من نوايا سيئة . يظن بعض الكتاب أن شارل وقعت ولادته قبل أن تعترف الكنيسة بزواج والديه ، ولذا فإن كارلومان يزعم لنفسه الحق فى أن ينال كل الإرث .

مولد شارل

ولد شارل سنة ٧٤٣ ، جعلت بعض المراجع سنة ٧٥٠ التاريخ الذى تزوج فيه شارل ، واتفق هذا الفرض مع ما اعترف به اجينهارد من أنه لا يعلم شيئاً يتعلق بمولد بطله ونشأته . وهذا الأساس الواهى من الحقيقة ، ربما استغلته تلك الأسطورة الشعبية فيما ألصقته باسم شرلمان من أساطير الحب المتعلقة بالأطفال ذوى السيرة السيئة . فقصة شارل ماينيه حافلة بالأمور الشاذة التى لا تستند إلى التاريخ ، ومع ذلك فإن الإنسان يشك فى أن ثمت من الأسباب ما يدعو إلى اتخاذ هذا الأمبراطور العظيم ، الشخصية الأساسية فى القصة . على أنه من العسير التسليم من جهة أخرى ، بأن يكون للابن غير الشرعى مثلما للابن الشرعى من نصيب . لم تجر عادة بيت أرنولف بهذا مطلقا . فلم يحاول شارل مارتل أو شارل الكبير أن يجعلا لأبنائهم غير الشرعيين نصيبا فى الإرث الملكى . ومع ذلك ينبغى أن نترك المشكلة على ما هى عليه .

لا شك أن شارل عمل منذ البداية على أن يتخلص من أخيه . فى القصص الذى يرجع إلى عصر متأخر لا نجد إلا أصداء ضعيفة لما أنشده المعاصرون فيه من

مدائح، فهم يذكرون أنه بلغ من القوة ، أنه يستطيع أن يصيد الثور البرى بيد واحدة ، و بلغ من البأس أنه أسقط حصانا وراكبه بلطمة واحدة من يده . وفى استطاعته أن يبسط أربعة من حدوات القوس وأن يلصقها سويا ، وأن يدفع بيده إلى محاذاة رأسه محاربا مزودا بكامل أسلحته . اشتهر شارل بجبهته العريضة الضخمة ، و بأنف يشبه منقار النسر ، و بعينين كعينى الأسد ، فإذا غضب بلغ من شدة لمعانهما أنه لا يجرؤ أحد على أن ينظر إلى وجهه . درج على أن يتخذ من اللباس ما كان معروفا قديما عند الفرنجة ، واحتقر كل ما هو أجنبى من الملابس. أحب لغة إقليمه استراسيا وأناشيده ؛ و يضاف إلى هذه الصفات الظاهرة ما اشتهر به شارل من نشاط وافر ، و إرادة حديدية ، وحب شديد للنظام والعدالة ، وشعور دينى عميق ، وكل هذه الصفات استقرت فوق غريزة حيوانية طاغية . هذا هو الرجل (شارل) كما تراءى لمعاصريه ، اعتبره بعض الناس شديد الصلابة . أما الذين اشتدت معرفتهم به فازداد حبهم له . و إذا اقتضت الضرورة للمفاضلة بين الولدين ، اختارت الأم شارل . والراجح أنه لم يكن ثمت من الأحكام ما هو أقوى وأشد من حكم السكسون الذين توافر لديهم من الأسباب ما يكفى لكراهيته — كان شارل عندهم خير رجل على وجه الأرض وأشجعهم ، إذ أقام الحق والإيمان وحافظ عليهما » .

ثورة أكيتانيا الثانية :

على أن الفرصة التى انفجر فيها الحقد والكراهية إنما حلت بقيام ثورة ثالثة بأكيتانيا (٧٦٩ م) ، إذ أن هينالد والد وايفر لم يزل حيا . و إذ اشتدت ثائرته للانتقام لمصرع إبنه، غادر جزيرة ريه التى عاش بها راهبا فى العشرين سنة الأخيرة ودعا اتباع بيته إلى حمل السلاح — وأضحت سانتونج و بواتو مسرحا للثورة . ولم يقدم كرلومان لأخيه أية مساعدة ، لأن أملاكه لم تمسها الثورة ، غير أنه ليس

ثمت من الأسباب ما يبرر بها هذه السياسة التى تنطوى على الأنانية وحب الذات، إذ أن قانون العرف عند الفرنجة يقضى بأنه ينبغى على الوارثين ، أن يطرحا جانبا ما بينهما من منازعات ، لمواجهة عدو الوطن . غير أن الأخوين لم يلبثا أن افترقا بعد أن فشل اجتماعهما فى بواتو ، واستبد بهما الغضب فلم يجتمعا مطلقا ، فيما نعلم ، بعد ذلك .

والواقع أن الثورة لم تكن من القوة والخطورة التى توقعها، واستطاع شارل بفضل حامية أنجوليم وما حشده فى سرعة من القوات ، أن يقهر أصدقاء هينالد الدوق الشيخ ،وان يطارده صوب الجنوب . ولجأ هيناالد إلى ابن أخيه لوب ، دوق الـغسقونيين،الذى ما زال محافظا على استقلاله . وماقام به هيناالد يعتبر مغامرة بالغة الخطورة . لأنه حدث فى زمن سابق ،أن اشتد فى معاملة والد لوب ، وهذا العمل ما زال يذكره الناس ضده فى غسقونيا ، فبادر لوب بأن بعث إلى شارل يعلن ولاءه وطاعته وتسليم عمه ، فعاد شارل منتصرا إلى اسـتراسيا ، على الرغم من أنه أجل رحيله حتى يشيد حصنا فى فروناك ، التى تعتبر المخاضة الأساسية لنهر الدردون . وتعلم من يبين أهمية هذه المعاقل التى تعتبر حاجزا ضد الاقطاعيين الذين يرتاب فى ولائهم . وأظهرشارل فى كل حرو به ما يتصف به القائد من نفاذ البصيرة ومعرفة ما فى البلاد المفتوحة من مواضع منيعة بالغة الأهمية الحربية . غير أن مواهبه الحربية جرى المبالغة فيها . ومن ناحية الخطط الحربية أظهر هنرى الصياد من العبقرية الموهوبة ما يفوق كل ما عند شارل ، أما التدابير الوقائية فإن شارل ،فاق فى كل ذلك جميع ملوك العصور الوسطى .

غير أن هيناالد الذى واتاه من الحظ ما لم يوات قادة الثورات التالية، استطاع أن ينجو من الحكم الذى يقضى به قانون الفرنجة عن الخيانة ، فتقرر الاكتفاء بإرساله إلى روما كيما يجيب أمام البابا عن أسباب نقضه للأيمان الدينية . ولما أعلن ندمه وتو بته انتقل إلى دير بروما ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى تخلى عن رداء

الرهينة ، ولجأ إلى بلاط بافيا . لم يكن اللومبارديون وقتذاك يميلون إلى مخاصمة شارل من أجل شخص طاعن فى السن لا حول له ولا قوة . وترتب على ذلك أنهم أمروا برجمه بالحجارة حتى مات . « فنال بذلك أحسن ما يستحقه » ، على حد ملاحظة أحد الرواة الحاقدين عليه . وبذلك تخلص شارل من عدوه ، وظلت كيتانيا تعيش فى هدوء وسلام . غير أن ما حدث من كرلومان من خيانة المصالح القومية والعائلية لا يمكن نسيانه .

محالفات شارل :

وفى السنتين التاليتين لم يدخر شارل وسعاً فى عزل أخيه . إذ أن وجود بلاط آخر ، أضعف ما تتطلبه خدمته من مواهب عديدة . إذ نعلم أنه بذل كل جهد لاكتشاف الرجال النابهين والعمل على ترقيتهم . ويدهش أحد المؤرخين لما يلاحظه من أنه استطاع أن يستخلص من أرقاء القصر أفراداً أصبحوا كونتات . غير أنه لم يعتمد اعتماداً تاماً على المبتدئين . والحق بخدمته ، بوسائل مختلفة ، كثيراً من مستشارى أبيه السابقين ، لا سيا شتورم العجوز رئيس دير فولدا ، الذى كان يعتبر أخلص صديق للقديس بونيفاس . ولا يزال متدوفاً هذا الكنسى الكبير (٧٥٥ م) ، زعيم الحركة التبشيرية فى داخل الكنيسة الجرمانية . وألقى شارل بنفسه قلبا وقالباً فى هذه الحركة سواء كان ذلك سياسة منه أو كان عن عقيدة . ومع ذلك فإنه لم يستطيع أن يمد يد المساعدة للقادة فى مشروعاتهم التى قاموا بها فى جهات نائية ، ولذا فإنه اقتصر على أن يؤيد أغراضهم الأخرى فى الإصلاح الداخلى . وبموافقة البابا ، وبناء على نصيحة الزعماء ، أصدر شارل حوالى هذا الوقت أول قرار فى عهده ؛ وهذه الوثيقة كلها فيما عدا مادة واحدة تتعلق باصلاح المحاكم المحلية ، ترتبط بالتهذيب الأخلاق ، وبما على رجال الدين من الواجبات والالتزامات ، وما للأساقفة من سلطة فى أسقفياتهم . وتشير مقدمة القرار إلى

أن شارل أصدره بناء على نصيحة البابا و بمقتضى سلطة البطريق [١] . أما سائر المواد فمعظمها مستمد من المشرعين السابقين ، ولا سيما المراسيم التى أصدرها كارلومان عم شارل ، بناء على نصيحة بونيفاس . وما يعتبر منها أصيلا ومبتكراً لا يحمل من الأفكار الجديدة مثلما تنطوى عليه من الأغراض المحمودة . غير أن شهرتها ترجع إلى ما تدل عليه أولا ، من أن ما يحيط بمركز شارل من الأخطار يلزمه بأن يلتمس صداقة كل من روما والكنيسة القومية .

على أن الكنيسة لم تكن القوة الوحيدة التى سعى إليها ، إذ أنه فكر فى إقامة تحالف سياسى ضد كرلومان . فلا يزال تاسيلو الباقارى ثائراً خارجاً على طاعته غير أن زواجه من أميرة لومباردية جعل له من الأهمية ما يدعو إلى التجاوز عن خطأه . ولذا سعى شارل إلى أن يعقد معاهدة رسمية مع من كان فى وقت من الأوقات من اتباع أبيه ، وعن طريق هذا الصديق الجديد تقدم باقتراحات إلى ديديير ملك اللومبارديين .

قلق البابا :

و بفضل هؤلاء الحلفاء الأقوياء ، صار فى استطاعته أن يحمل أخاه تحت رحمته ، غير أن الصداقة معهم لم تتجاوز الكلمات العذبة . إذ أن اللومبارديين والباقاريين لا يحبون أن تتحد مملكة الفرنجة ، وأدرك شارل هذه الحقيقة سريعاً ، وترتب على هذا أنه أجرى تغييراً فى سياسته . إذا أجاز للملكة برتا أن تقوم بدور الوسيط ، وارتحلت السيدة الفاضلة إلى الألزاس حيث أقام وقتئذ كارلومان ، وأخذت تناقشه وتدعوه

---

(١) ينبغى أن نلاحظ أن ببين وكرلومان الصغير لم يتخذا لقب بطريق . ولم يبدأ شرلمان فى استعمال هذا اللقب ، إلا بعد زيارته الأولى لروما . وقبل هذه الزيارة ، سار على نهج أخيه وأبيه فيما اتخذ من لقب « ملك الفرنجة » Rex Francorum .

إلى المضى فى طريق المصالحة والتوفيق . غير أن إعادة المحبة بين الأخوين كانت أمراً بعيد التحقيق عند كلا الجانبين. على أن المعاهدة كانت إنذاراً للقوى الأجنبية بأن ملكى الفرنجة سوف لا يقبلان أن يلعب بهما خصومهما وأن يوقعوا بينهما .

وأعقب ذلك مرحلة معقدة لم تلق عليها مصادرنا من الضوء ما نستطيع به التعرف إلى أعمال الحزبين الآخرين ، وجعلت من المستحيل الوقوف على أهدافهما . وترتب على التوفيق بين الأخوين ، أن اختفى السبب المباشر لإقامة حلف بين شارل وديدير . غير أن شارل أبى ، فيما يبدو ، أن يضحى بأى شىء اعتمادا على ما عند أخيه من نية صادقة . فارتحلت الملكة برتا من الألزاس إلى إيطاليا ، وما كادت تصل بلاط بافيا حتى أعلنت أنها جاءت ومعها من السلطات ما يجعلها تعرض إجراء تحالف ثنائى عن طريق المصاهرة . إذ أن شارل كان يرغب فى أن يتزوج أميرة لومباردية ، وأن أخته جيزلا تقبل أن تتزوج من ادلغيس الإبن الوحيد لديدير ، غير أنه لا بد من استشارة قوة ثالثة . لأن ديدير ارتكب وقتذاك جريمة ، بأن امتلك ضياعا شاسعة من أملاك الكنيسة الرومانية . والمعروف أن صهره المقبل يعتبر وريثا للقب البطريق الذى بذلته كنيسة روما . وتحتم على ديدير ، مقابل هذه الصلة المثمرة ، أن يتخلى عن الأرباح التى اغتصبها ، وأن يعيدها إلى الكرسى الرسولى الذى سلبها منه .

ولم يكن اللومبارديون وقتذاك إلا قوة متداعية ، يشعرون بأنهم أدنى مكانة من الفرنجة ، فتمسك ديدير بهذا العرض ، و بادر فى سرور بالغ إلى القيام بما هو مطلوب من تضحية ، ولعل السر فى ذلك أنه يأمل فى أن تهدأ مخاوف شارل ، وأنه سوف يجنى مستقبلا عشرة أمثال ما نهبه . على أنه لم يظهر وقتئذ ما يثير الشك فى نيته الصادقة . ولما غادرت الملكة الأم بافيا ، قامت بزيارة روما ، وفى براعة تامة ، أنهت إلى البابا بما أحرزته من انتصار دبلوماسى. غير أن البابا ستيفن الثالث لم يشاركها الرضى والارتياح ، إذ أنه لم ير فى تحالف أصدقائه مع أعدائه

سوى خطر يهدده . لم تكن باقيا عند روما المسيحية إلا قرطاجنة يبغى تدميرها مهما تكلف ذلك من ثمن . وأخذ البابا فى حذق ومهارة ، يعمل على فض هذا التحالف الجديد ، وهذا القرار الذى اتخذه كان بالغ الأهمية ، يحمل فى طواياه تحطيم أمة مشهورة ، وما حل بإيطاليا من التمزيق الشامل ، وقيام الامبراطورية الغربية . وكان الغرض عظيما أيضا : فلا أقل من أن يكون للكرسى الرسولى موضع ثابت بأرض إيطاليا ، وأن يأخذ جانبا من تلك الدولة الملكية ، يستطيع به أن يبهر العيون ، وأن يأسر قلوب المسيحيين فى العصور الوسطى .

على أن الشائعات عن التحالف الجديد بلغت البابا قبل قدوم برتا ، إنما جعلته يرتاب فيما إذا كان شارل أو كارلومان هو الذى طلب يد ديزيديراتا ، ولم يضع البابا وقتا ، فبادر بالاحتجاج . واتخذ الاحتجاج صورة رسالة وجهها البابا إلى الأخوين معا ، وتضمنت الرسالة موضوعا خطيرا ، على الرغم من أنه خارج عن أمر مصالح البابا . إذ أن كارلومان كان وقتئذ قد تزوج ، بمقتضى ما تخوله له القوانين من حقوق ، من سيدة من الفرنجة ، وارتبط شارل ذاته مع هيميلترود باتحاد حر لا يمكن إنكاره أو إغفاله ، على الرغم من أنه لا يتفق مع قانون الفرنجة أو قانون العرف . والواقع أن ستيفن التزم الجانب الأخلاقى فى الموضوع ، غير أن ما هو محزن ومؤسف أن ستيفن الذى لم يحفل إلا قليلا بالاعتبارات الخلقية ، لجأ إلى مختلف المناقشات التى لا تتفق مع قضيته ، ولا مع مكانته العالية : هل للأخوين اعتراض على القاعدة التى تمنع ملك الفرنجة من الزواج من امرأة أجنبية ؟ ألا يعلمان أن كل أطفال اللومبارديين مجذومون ، وأن عنصرهم منبوذ مكروه من جميع الأمم ؟ سوف تحل لعنة القديس بطرس بهذا العمل السيء ، و بكل من يوافقون عليه . ولن يكون لهؤلاء نصيب فى مملكة السموات ، وسوف يلقون جزاءهم مع الشيطان وأعوانه فى نار السعير .

ديزيديراتا وهيلدجاردا :

غير أن هذه الصواعق يبدو أنها أخطأت المرمى فى الوقت الراهن . فالواقع أن جيزلا التقية الصالحة أبت أن توفى بعقدها معادلقيس ، ولجأت بما لديها من أفكار إلى الدير . أما الملكة برتاالتى اشتهرت بأنها أقل من ابنتها صلاحاوتقوى، فإنها صحبت الأميرة ديزيديراتا إلى مملكة الفرنجة ، واحتفل شارل بزواجه فى هدوء ودون جلبة أو ضجيج . ولم يثر ستيفن أى احتجاج عام . على أن المعروف أن مؤامرة رجال الدين بروما ، التى أثارها كارلومان ، والتى كانت تهدف إلى عزله ، أجبرته على أن يفيد من تدخل ديدير . إذ سار الملك اللومباردى بجيشه إلى روما، وأمر بإعدام رسل كرلومان ، وسلم جميع زعماء المؤامرة إلى ستيفن ، فأمضوا مابقى من حياتهم فى حبسه . واستطاع ديدير بهذه الخدمات أن يحظى بالتخلى عن كل ادعاءاته المتعلقة بالكرسى المقدس ، وكتب البابا إلى شارل رسائل يعرب فيها عن ثقته الكاملة فى حليفه الجديد . ولم تلبث لعنانه أن أثمرت فى هذه الأثناء فيما وراء جبال الألب . إذ أن ديزيدراتا أصابها المرض ولم تنجب أطفالا . غير أن ما اشتهر به من العواطف المتقلبة ، لم تلبث أن تحولت إلى وجه جديد . فاتخذ السبيل الذى أوصى به دينه وميله . فطلق زوجته اللومباردية ، وتزوج هلدجاردا السوابية . وكانت بارعة الجمال على الرغم من أنها مازالت طفلة . ويعتبر هذا الحادث من الموضوعات التى لم يتعرض لها مؤرخوه إلا فى حذر واحتراس . وكل ما نعلمه هو أن برتا ، وهى سيدة من طراز المدرسة القديمة ، يعوزها الادراك السليم ، لم تلبث أن اهتمت بمسألة هذه الأجنبية البائسة ، فتشاجرت لأول وآخر مرة مع ابنها العزيز . لم تكن وحدها فى رأيها ، إذ أن أناسا آخرين من أقارب شارل وجهوا له اللوم والتأنيب على ما ارتكبه من خيانة .

و بينما كان ديدير لا يزال يعانى مرارة هذه الإهانة ، اغتنم ستيفن الفرصة ليقضى على صداقة لم يعد فى حاجة إليها . وظهر فى بافيا مندوبون من قبله يحملون طلباً وقحاً لتسوية تلك الدعاوى التى تبرأ منها حديثاً. واشتد غيظ الملك اللومباردى وازداد نصبه » ولم تكن إجابته التى عهد بها إليهم سوى قوله : ألا يكفى سيدكم أننى أنقذته من الملك كارلومان ، وأهلكت الرجال الذين استعبدوه فى مدينته » . غير أن النتيجة تدل على ما سببه هذا الحادث له من اليأس . إذ اعتقد أن ثمت مؤامرة دبرها البابا وشارل لتدميره ، وأخذ ينتظر الفرصة التى تجعله يسدد ضربة مقابلة .

الضرع اللومباردية :

لم يكن ثمت ما يدل على وجود مؤامرة ، إذا فسرنا الحوادث تفسيراً صحيحاً . فلا يحمل شارل لديدير الكراهية والحقد ، وكل ما حدث أنه اكتشف أن زواجه من اللومباردية لم يكن موفقاً ، و إذ طلق ابنة ديدير ، فإنه مستعد لأن يستأنف علاقات الصداقة ، إذا تغاضى ديدير عن الإهانة . على أنه من ناحية أخرى ، ترتب على ما اشتهر به الكرسى المقدس من عداء حاد لا تهدأ ثائرته ، واتخاذه شارل وسيلة طيعة فى يده ، أن أضحى ديدير فى مركز لا يقل خطورة عما يحدث إذا كان ثمت فعلا مؤامرة .

وثمت أكثر من سبب للعداء بين البابا واللومباردى ، إذ ثبت العداء أول الأمر فيما اشتهر به اللومباردى من الأريوسية ، فاللومبارديون ظلوا حتى بداية القرن الثامن يستخفون بالسلطة البابوية ، وتعرضت هذه السلطة أكثر من مرة لما جرى من تهديدهم باستخدام العنف . ولما تم تسوية هذا النزاع بفضل حكمة ليتو براند (الذى اعترف رسميا بالسلطة الروحية للمقر المقدس) ، ظل النزاع المرير قائما بشأن الضياع البابوية فى مختلف الأقاليم التى استولى عليها اللومبارديون عند قدومهم

إلى إيطاليا . وحاولوا عبثاً أن يلتمسوا القاعدة التى تحمى لقبهم ، لأن المقر المقدس، لا يقر تدمير حقوق القديس بطرس على مر الأزمنة . وفى منتصف القرن الثامن، أضحت الأرخونية الآثمة موضع نزاع مماثل . فعلى الرغم من أنها ازدادت انكماشا، فإن هذا الإقليم لم يزل من الاتساع ما يكفى لأن يتألف منه حاجز بين أملاك اللومبارديين فى الشمال والجنوب : ولذا كان فتحها هو الهدف الأساسى لكل ملك لومباردى يعمل على توطيد سلطته . وفى سنة ٧٥٣ أحرز إيستولف فيما يبدو انتصارا باهراً ، إذ هوت أمام جيوشه كل مدن رومانا ، فضلا عن رافنا ذاتها . غير أن ببين سار إليه بناء على دعوة البابا ، فاستولى على غنائمه وأهداها للمقر المقدس.

وفى هذه اللحظة امتدت ممتلكات البابا عبر جبال الابنين من الساحل إلى الساحل[1] . وترتب على ذلك أن توحيد المملكة اللومباردية أضحى أبعد منالا مما كان منتظراً . ومن اليسير أن ندرك ما يكنه البلاط اللومباردى من كراهية وحقد لهذه القوة الضعيفة التى أوقفت خططه ، ولما يشعر به البابا من الاضطراب حينما يحتفل بانتصاره .

على أن ما يدهش الإنسان له ، هو أن اللومبارديين بالغوا فى تقدير حقوق أعدائهم ، ومع ذلك فإن أطماع ديدييه حتى هذه اللحظة إنما وقفت عند اتخاذه من التدابير ما يجعله يمتلك فرارا وفاينزا ، ويستولى على جانب من الأرض الواقعة

(١) أنشأ المقر المقدس ، قبل سقوط الأرخونية ، اقيا مناسبا لدوقية روما Ducatus Romanus ، التى اشتملت على الساحل ابتداء من مصب نهر جارجليانو للمنطقة على مسافة بضعة أميال من شمال Civita Vecchia وتمتد فى الداخل إلى حدود سابينا ، وابروتسى ؛ وجعل أيضاً لدوقية بروجيا Ducatus Perusinus المنطقة التى تتركز حول بروجيا وتودى ، وحصلت بفضل هبة ببين على المدن الآتية : رافنا ، كاربا ، وعيى ، ومونتيفلترو ، وأوربينو ، ويرارو ، وفانو ، وسينجاجليا ، وييسى ، وكوبيو . ولما تولى ديدييه العرش والتمس الرضى من البابا عمل باليه دوقيه فرارا ، وفاينزا ، وعمانيضا ، غير أنه لم يف بوعده ، بأن يسلم له بولونيا ، وايمولا ، وأوسيمو ، وانكونا ، وهيومانا . وهذه الهبات هى السبب فى النزاع مع اللومبارديين ، وهذه الممتلكات جميعا تعتبر أصلا من ممتلكات الأرخونية .

جنوبي تلك المدن ليتيسر له الاتصال بإمارة سبوليتو . ولم يكن هذا الاعتداء راجعاً أيضاً إلى الخوف من الفرنجة . فاللومبارديون في القرن الثامن يختلفون كثيراً عن أولئك الهمج الذين أثارت رءوسهم الحليقة وجوار بهم البيضاء ، الدهشة حين ركبوا وراء البوثين في طريقهم إلى وادي نهر البو . والمعروف أنهم لم يزالوا يعيشون على ما درجوا عليه من استغلال الأقنان الإيطاليين ، ولم يزالوا يؤثرون قوانين روثاريس الجافة على ما اشتهر به القانون الروماني من الحكمة الناضجة ، ولم يزالوا يلتمسون الهيبة في اللحية الطويلة والشعر المرسل ، الذي يميزهم عن السكان الأصليين المحتقرين . وترتب على إقامتهم بأرض حافلة بالمدن أن تخلوا عن ميلهم للحياة القروية . على أن مجد الأمبراطورية الرومانية لايزال ماثلا في ظل حكمهم ، في كنائس ميلان ، وأبراج فيرونة المائلة ، والبلاط الملكي بها ، واستحكامات بافيا القائمة . ويعتبر الكنسيون أكثر الناس بإيطاليا علماً ، واشتهرت بوبيو ومونتي كاسينو بدراساتهما ، بينما نسي رهبان روما مبادءهم الأولى . وأخذ أساتذة النحو والدين يلقون دروسهم على الحاضرين لا في العاصمة فحسب ، بل في قصور الدوقيات الجنوبية أيضاً . وحدث أثناء وجود الكوين في بافيا . وقد جاء يبحث عن كتب جديدة ومدرسين جدد ، أن سمع بأستاذ مسيحي اشتهر بنقاشه وجدله مع مدرس يهودي . أما المدرس الذي راجع له بولص الشماس كتاب يوترو بيوس ، وكتاب تاريخ اللومبارديين ، فلم يكن إلا إبنة ديدير . أما زوجها دوق أريجيس ، أمير بنيفنتو ، فإنه ورد في نقش على مقبرته ، بأنه تعلم كل شيء يستطيع أن يتعلمه من علوم المنطق والطبيعة والأخلاق . ولاشك أن الغشاء الظاهري من الثقافة كان رقيقا . فما اشتهر به المتبربر من الهمجية والثقافة والغرائز البدائية ، وما عرف به الراهب من التقوى والتصوف ، امتزجت معاً في المجتمع اللومباردي . وما وقع من نضال بين العناصر المتنازعة نلحظه في وضوح في كتاب بولص الشماس ، الذي ألفه أثناء

عزلته ، وأشار فى لغة لا تينية فصيحة إلى ما اشتهرت به أمته من قصص جاف ، وما اشتهر به روزا موند وتيوديلند من حب وكراهية .

اتجاه البابوية

على أن اللومبارديين أخذوا بوسيلتهم البدائية يقدسون روما و يبجلون رئيس الكنيسة . و يدل هذا التاريخ على أنهم حاولوا أكثر من مرة أن يغتنموا الفرصة التى يستطيعون فيها أن يستولوا فى يسر وسهولة على دوقية المقر المقدس و يدمروها . غير أن صبرهم وتحملهم لم يلق الجزاء الأوفى ، إذ رفض الباوات الاستكانة لهم ، وأثاروا الشكاوى القديمة ، وتطلعوا فى لهف ما سوف يصيب الآخرين من أمل . والخلاصة أن الوضع الجغرافى للقوتين هو الذى جعل التفاهم عسيراً بينهما . وفى الفصل التالى سوف نرى كيف أن شارل انساق إلى العداء وأنهاه بالقضاء على مملكة اللومبارديين .

الفصل الرابع

سقوط بافيا

٧٧٣ — ٧٧٤

وحانت الفرصة لديدير . ففي ٤ ديسمبر سنة ٧٧١ ، مات كرلومان فجأة في مقره الشتوى في ساموسي قرب لاؤون . وعلى الرغم من أنه منذ أن تم التوفيق بينه وبين أخيه ، لم يحفظ لأخيه إلا صداقة ظاهرية ، فإن مؤامراته سببت قلقا خطيرا ، فما كاد ينتشر خبر وفاته حتى بدا مالا يخفى من الشعور العام بالارتياح . ولما أرسل أحد الرهبان الأتقياء إلى شارل يذكره بفضل الله وبركاته ، لم يخف ملاحظته من أن الأمر الثالث هو أن الله حفظك من مكائد أخيك . والأمر الخامس وهو لا يقل شأنا ، أن الله أزال أخاك من مملكته الدنيوية [1] . وما كاد أتباع كارلومان يتأكدون من وفاته ، حتى سارعوا إلى مقابلة شارل فأقسموا له يمين الولاء . ويقضى قانون الفرنجة في أمر الميراث بأن يكون للأخ من الميراث نصيب يضارع ، بل ربما يفوق ، نصيب أطفاله .

قرار جربرجا :

أما القاعدة التي اتخذها شارل في وصيته بعد سنوات ، فتقضى بأنه إذا شاء رعايا كل من الورثة أن ترث سلالته ما يخصهم من نصيب ، فلا بد من أن يتيسر لهم ذلك ، فإذا لم تحدث ذلك ، لا بد من انتقال هذا النصيب إلى إخوته الأحياء . والراجح أن يبين أقر هذا المبدأ . وكيفما كان الأمر فالواضح أنه لم يؤيد دعوى أبناء كارلومان إلا أقلية ضئيلة من رعاياه ؛ أما معظم التأييد ، فكان في جانب شارل .

(1) Bouquet - Recueil I. p. 643.

لم يشتهر ملوك الفرنجة برفقهم وتلطفهم مع منافسيهم بعد أن ينزلوا بهم الهزيمة. ومن الطبيعي أن تدرك جربرجا أن نجاة أبنائها لاتتحقق إلا بالهروب. وفي زمهرير الشتاء، نهضت جربرجا وأخذت في سرعة تجتاز الألب إلى بافيا، لم يصحبها في طريقها إلا عدد قليل من الخدام الأوفياء، ولقيت جربرجا في بافيا ترحيباً كبيراً. وعلى الرغم من أن أقارب ديدير لم يكونوا على علاقات ودية مع زوجها، فإن اتحاد مملكتين في يد شارل سوف يهب القوة والمتانة للتحالف الذى أدرك الملك اللومباردى أنه يهدده، ولذا وعد بتأييد دعاوى أبناء كارلومان ضد عمهم.

وحرص أجينهارد على أن يخبرنا بأن مخاوف جربرجا لم تقم على أساس سليم. غضب شارل لما حدث من هروب جربرجا، غير أن هذا الغضب (فى نظر اجنهارد) راجع إلى أن هروبها أساء إلى شرفه. لم يحاول شارل أن يتبعها، واستمر بضعة شهور على هذا الحال، إما عن جهل بما حدث فى الجانب الآخر من جبال الألب، وإما عن عدم اكتراث بذلك. إذ أن أول عمل قام به حين تولى الحكم هو أنه وجه أفكار المبشرين إلى ألمانيا. وفى يوليه سنة ٧٧٢ عقد المجلس الوطني فى فورمز، وأخذ يعد حملته الأولى ضد اتحاد السكسون، واتخذ لذلك سببا يتمثل فى أن السكسون، مع ما اتصفوا به من عيوب ونقائص، أبوا أن يدفعوا الجزية المقدرة بنحو ٣٠٠ حصان، التى اشتروا بها من قبل انسحاب والده من بلادهم. على أنه لم يكن يبدو فى تقديره وقتذاك أن الأمر يقتضى أكثر من مظاهرة حربية تعلم السكسون بأن يحترموا أشخاص الرسل المبشرين، وأن يمتنعوا عن الغارات التى يشنونها على الحدود. على أن الحملة لم تكن أكثر من تجربة. ولذا نتركها الآن لنناقشها عند معالجة ما حدث فيما بعد من الحروب السكسونية.

ديدير والبابا هادريان

عاد شارل منتصرا فى أكتوبر، فوجد أن ديدير عكف، أثناء تغيبه، على دراسة ما وضعه من الخطط، وسار بها قدما، غير أنه لم يحرز، حتى قبل حملته،

إلا نجاحاً ضئيلا . مات البابا ستيفن سنة ٧٣٢ . اشتهر ستيفن بالتردد والضعف ، وأعقبه هادريان ، وعلى الرغم من أنه ضيق الأفق ، محدود التفكير ، فإنه كان أكثر أمانة من سلفه . ورشحه للبابوية الحزب الذى عهد إليه ستيفن بمساعدة ديدير . تمسك هادريان بالسياسة التى ظلت البابوية ، حتى زمن سلفه مباشرة ، تسترشد بها فى تصرفاتها مع اللومبارديين . فلم يصغ هادريان إلى توسلات الملك ديدير ، الذى يسره أن يقع الشقاق بين شارل والبابا الجديد .

وترتب على ماحدث من الرفض البات للمفاوضات ، أن عزم الملك على أن يتخذ سياسة أكثر حزما . وبعد أن استولى على فرارا وكوماشيو ، وفاينزا ، أخذ يهدد رافنا ، ولما تلق من هادريان احتجاجاً ، طلب إلى هادريان أن يقوم بتتويج ولدى كارلومان ، وبذلك يستطيع استعادة ممتلكاته . غير أن هذا العرض لم يلق القبول برغم احتجاجات الحزب اللومباردى فى المجلس البابوى . وامتعض افيارتا زعيم هذا الحزب وحاجب البابا أيضا ، لتشدد سيده وصلابته ، فعمد إلى الاتصال بالقيا سرا . غير أن هادريان لم يلبث أن اكتشف الخيانة فوراً ، وأمر بالقبض على افيارتا ، وتقرر إعدامه بناء على أمر البابا أو دون علمه . أعلن ديدير تحديه ، فزحف إلى روما بكل جيشه ، وبصحبته الأميرين الفرنجيين ، وكان يرمى إلى الحصول على تتويجهما بحد السيف . غير أن المدينة لم تلبث أن زخرت بما فى الدوقية من الجنود ، وتم إصلاح الاستحكامات ، وتقوية الأبواب ، وتشييد أسوار لحمايتها ، وهدد البابا الجرىء بأن سوف يقطع من الكنيسة كل من يحاول من اللومبارديين اجتياز حدود دوقيته . لم يستطع ديدير ورجاله أن يتحدوا هذا التهديد ، فتوقفوا عن السير ، وتعثروا فى حركاتهم ، ثم انسحبوا آخر الأمر راجعين إلى بلادهم ، ففقدوا بذلك آخر فرصة تهيأت لهم للإفادة من البابوية على أن تكون نصيرا لهم ، وأن تؤيد منافسى شارل .

وفى هذه الأثناء أرسل هادريان من قبله مبعوثاً إلى مملكة الفرنجة ، يحمل طلباً بالمساعدة العاجلة . وإذ سيطر اللومبارديون على ممرات الألب ، تحتم على القسيس الرسول أن يسلك طريق البحر إلى مرسيليا ، وبعد رحلة شاقة اجتمع بشارل فى مقره الشتوى فى تيونفيل ، وهى ضيعة ملكية فى اللورين ، فتقدم إليه بأوراق اعتماده ، وذكر الملك باليمين الذى حلفه باعتباره بطريقاً ، على أن يدافع عن كرسى بطرس الرسول . غير أنه سار فى إثر هذا الرسول مندوبون من قبل ديدييه زودهم بكل ما ينقض الاتهامات الموجهة إلى سيدهم .

ويبدو أن شارل أصابه من الارتباك مايزيد على القلق والخوف ، إذ أنه ليس ثمت ما يجعل ولدى أخيه خطراً عليه سوى تتويجهما على يد البابا . وليس ثمت من الأسباب ما يدعو للخوف من أن إخلاص هادريان سوف يتداعى ، بعد أن خرج مظفراً من امتحان بالغ القسوة . والحملة الحربية التى يوجهها إلى إيطاليا لا ينبغى القيام بها إلا على أنها الحل الأخير . أما استيلاء اللومبارديين على الأملاك البابوية فإن لدى اللومبارديين من الأعذار ما يبررها . وما انطوت عليه هبة بيبن من الحقوق يعتبر من الأمور التى يحبط بها الغموض والشك ، لأن حدود الأرخونية تعرضت لتغييرات كثيرة فى أزمنة مختلفة . ومع ذلك فإن ديدييه يستند إلى حقوق سليمة فى امتلاك فرارا وفاينزا ، ولا شك أن البابا سوف يجد حرجاً كبيراً ، إذا طلب منه أن يبرز من الوثائق ما يخوله ذلك . غير أنه لابد من إجراء ترضية لديدييه ، لما لحق ابنته من إهانة . ولهذه الأسباب اتخذ شارل مركزاً وسطاً ، فأرسل من قبله مبعوثين لدراسة المسألة فى موطنها ، وليحصلوا للبابوية على ما يرضيها من المطالب العادلة . ومن الطبيعى أن يعمل المبعوثون لصالح هادريان . وعمد ديدييه إلى الاعتذار بأنه لم يستول على هذه المدن إلا على أنها ضمان لما قدمه للبابوية من قرض ضخم . وعرض شارل استعداده لتسديده الدين بأكمله ، غير أن ديدييه رفض أن يأخذ المال .

إعداد حملة ايطاليا : جنيف مركز الاجتماع .

وحان الوقت الذي لجأ فيه البطريق (شارل) إلى الحرب ، باعتبارها العلاج الأخير للمسالة . وفي مؤتمر تمهيدي للفرنجة ، شرح شارل أخطاء البابا وأعلن عن عزمه للسير بنفسه لإصلاح هذه الأخطاء ، فأقر الفرنجة الخطة ، وأرسل شارل الدعوة إلى مختلف البلاد للتجهز لحملة ايطاليا ، وتقرر اتخاذ جنيف مكانا لاجتماع الجيش .

ليس ثمة من المناظر ماهو أبهى وأوقع من المجلس القبلي العام ، إذ بات متوقعاً أن يظهر به كل مقطع تحت لواء الكونت الذي ينتمي إليه ، واصطحب مقطعو الملك كل من عندهم من الاتباع الأحرار ، فأقبل هؤلاء البائسون راجلين لايحملون من السلاح إلا الرمح والقوس والترس . ومن الذين قدموا أيضاً أناس لم يستطيعوا أن يجهزوا أنفسهم بهذه القوة المتواضعة ، فتزودوا بقضبان من الخشب ، ومناجل ، ومذ رى القمح . وجاء الأغنياء راكبين دوابهم ، واتخذوا دروعا سابلة ، وبالإضافة إلى ما يحملونه من أسلحة الراجل ، اتخذوا السيف والخنجر ، واحتمت رؤوسهم بخوذة من الحديد . هذه الطائفة من الفرسان تألف منها ما يعرف بالفئة الممتازة التي يتوقف على هجومها العنيف ما يحرزه القائد الفرنجي من انتصار . أما الرجالة فجرى الاحتفاظ بهم ليجهزوا على العدو حين تتحطم صفوفه . وقطر الأثقال من المظاهر المعروفة في الجيش العام . إذ أن كل جيش محلي يجلب معه عدداً من العربات تغطت بأغطية من الجلد ، وحوت من الاطعمة ما يكفي ثلاثة شهور ، ومن الأسلحة والملابس ما يكفي نصف سنة ، وتحمل من الأدوات ما يحتاجون إليه في أعمال الحصار وإقامة المعسكرات .

هذه الخدمة العسكرية السنوية هي أهم الواجبات التي يؤديها الفرنجي ورعايا الملكهم ، يؤدون عملهم ويبذلون أرواحهم ، بينما يقوم آخرون بدفع الأموال .

وأولئك الذين ينفرون من الحرب ، يستطيعون أن يشتروا إعفاءهم من القتال بما يدفعونه من مال يعرف باسم البدل « heriban » . غير أن هذا البدل كان مبلغاً ضخماً (٦٠ صولداً ويساوى ماقيمته ٤٥ جنيها انجليزيا) ، فآثر معظم الناس أن يشتركوا فى القتال ، وحينما قامت الأمبراطورية ، لم يلزم البيت إلا عدد قليل من النساء والأطفال والشيوخ المرضى ، وغير الأحرار . على أن منظر الجيش الفرنجى وما يتألف منه من جموع ضخمة ، تكفى لإنزال الرعب والخوف فى قلب أى عدو . وأخذ الجيش ينزع للزيادة لا للنقصان ، فى كل ما وقع من حروب مستمرة غير منقطعة . لأن كل فتح يصيبه ، يحتم على البلد المغلوب على أمره أن يؤدى نصيبه من المحاربين فى الحملات المقبلة . هذا النظام لا يستطيع أحد من رجال الاقتصاد أن يجد ما يبرره . وما أصاب الفرنجة من الفقر ، وما توالى من المجاعات التى عانوها ، وما حل بالحرف والصناعات فى أملاكهم من تدهور الأحوال ، إنما يرجع إلى حد كبير إلى استمرار تغيب خيرة الرجال فى ساحة القتال. ومن ناحية أخرى ليس ثمة من الوسائل الفعالة الأخرى ما يصح اتخاذها للمحافظة على السيادة الشخصية للملك أو ازدياد قوة العاطفة القومية . على أن شارل تقبّل ما وجده قائماً من نظم ، وقنع بأن يفيد منها أكبر ما يستطيع من فائدة .

مونت سنيس :

لم يكن أمام الجيش الهابط على لومبارديا من الشمال الغربى إلا طريقان مفتوحان ، أولهما طريق يمر بجبل سنيس ، والآخر يجتاز ممر سان برنارد الكبير . وللاسراع فى المسير ، عزم شارل على أن يتخذ الطريقين ، إذ أن نصف الجيش بقيادة عمه الدوق برنهارد ، تلقى الأوامر باتخاذ الطريق الذى يقع فى أقصى الشمال ، على أن يتم الالتقاء بالقسم الآخر فى سهل لومبارديا . أما شارل فإنه أخذ السير متخذا طريق جبل سنيس . وكان على المسافرين فى القرن الثامن عشر أن يمضوا

سبعة أيام فى الرحلة من جنيف إلى تورين، مع ما تيسره لهم من المحطات المزودة بالخيول والأدلاء المدربين لإرشادهم فى المراحل الشديدة الوعورة بالجبال . على أن الجيش ،مهما توافر له من الراحة وعدم الإرهاق ،لا يستطيع أن يتم هذه الرحلة إلا على الأقل فى ثلاثة أمثال المدة المذكورة . فالطريق كان محفوفاً بالخطر ، وشديد الوعورة ، لأن المسافر حين يتخذ من الدروب الطويلة ما لا يبلغ الطريق الأصلى إلا بها ، يسير عادة على حافة هاوية شديدة الانحدار ، و يتعرض أيضاً لخطر ما يسقط من القمم الشاهقة فوق رأسه من الأحجار والصخور التى حطمتها الأمطار ، و يسير الطريق فى مواضع أخرى فوق غدران لا يستطيع الشخص أن يخوضها ، و يجرى فى وديان لا ترى فيها الشمس مطلقاً فى شهور الشتاء . على أن الطريق لا يعرفه أحد من الفرنجة إلا حدساً وتخميناً . وأشار اجنهارد فى وضوح إلى ما استبد بهم من الدهشة والخوف أثناء سيرهم .

شارل فى بافيا :

وعلى الرغم من أن أخبار قدومهم سبقتهم إلى ديدير ، فإن ما اشتهر به موقعه من المزايا جعله يشعر بالاطمئنان ، إذ أصدر الأوامر بسد منافذ جميع الممرات ، وسار بالجانب الأكبر من جيشه إلى سفح جبل سنيس ، وعند سوسا المشهورة من قديم الزمن بأنها مفتاح إيطاليا ، حفر خنادقه ، وأخذ ينتظر قدوم الفرنجة . ورفض فى ازدراء ما أرسله شارل للمرة الأخيرة ، صحبة رسله ، من شروط شديدة الاعتدال . و يبدو أن ما يشعر به من الثقة والاعتداد بالنفس كان لهما ما يبررها ، إذ أن شارل حين وجد الطريق أمامه مسدوداً ، تحتم عليه أن يعسكر فى الدرب ، وأضاع أياماً عديدة فيما لا يجدى من المحاولات لاقتحام موضع العدو . وأشار الشعراء اللومبارديون فى اعتزاز إلى ما حدث من اندفاع الفرنجة للهجوم فى جماعات ، بلغ عددا لجماعة منها بضع آلاف رجال أو يزيدون ، وكيف تساقطوا تحت الآلة (العمود) الحديدى الذى

يحميه ادلغيس ، الذى عهد إليه أبوه بالقيادة ، غير أن مبالغة اللومبارديين فى الثقة بأنفسهم ، جعلهم لا يحفلون أو يكترثون ، فبادرت طائفة مختارة من الفرنجة ، يقودها على حد الرواية خائن من اللومبارديين ، إلى تسلق طريق غير مألوف يقع على حافة الجبل ، وهاجمت بغتة جناح العدو . على أن هذه الخطط الحربية لم تلبث أن أثارت الفوضى والاضطراب بين صفوف اللومبارديين ، فتخلوا عن مواقعهم وأثقالهم ، وولوا الأدبار ، وعلى رأسهم ادلغيس ، وسادت الفوضى بينهم . وعلى الرغم مما حدث من مطاردتهم ، وإمعان القتل فيهم ، فإن الجيش الأساسى ظل سليما ، فسار فريق منه بقيادة ديديير إلى بافاريا ، وتوجه الفريق الآخر بقيادة ابنه إلى فيرونا . أما المدن الأخرى الواقعة بالسهل من أمثال فرشلى ، وتوفاريا ، وبيا كنزا ، وبارما ، وكذا ميلان التى تعتبر أعظم مدن المملكة مناعة ومجداً ، فإنهم تركوها وحدها تلقى مصيرها[1] . ولما تم الاتصال بجيش دوق برنهارد ، أضحى قهرها وإخضاعها مرتبطا بمشيئة شارل وإرادته . ثم اقترب شارل من العاصمة التى تقرر مصيرها . غير أن شارل لم يعرف من حرب الحصار أكثر مما يعرفه أسلافه للتبر برون . لذا جعل خنادقه حول المدينة على هيئة دائرة ، وظل على حصارها حتى أرغم حاميتها على التسليم خوفا من أن يموتوا جوعا (سبتمبر سنة ٧٧٣م) ولم يكن ثمة ما يجعلهم يخشون قدوم جيش لمساعدة المدينة ، لأن ادلغيس لم يحقق الثقة التى وضعتها فيه الأمة ، إذ عمد إلى الاتجاه إلى فيرونا والاحتماء بها ، وسارعت دوقيات الجنوب تلتمس نجاتها فيما اتخذته من إعلان خضوعها وولائها للمقر المقدس . على أن شعراء الفرنجة أخذوا يشيدون بيأس ديديير وهو يرقب من أسوار بافيا إلى عدوه ، وجعلوا من اوتجر زعيم الموالين لجربرجا زميلا له .. « وحين أدرك الإثنان أن شارل الجسور أخذ يقترب منهم ، لجأ إلى برج مرتفع ليرقباه من بعيد . وما

(١) لم تبد ميلان فى أية مقاومة ، فشعر موراتورى بالدهشة من إيزوراند تقدم فى دهشة بالغة إلى ما اشتهرت به المدينة من الأسوار والأبراج ومايحميها من الخندق .

ظهر قطار الدواب التى تحمل أثقاله ، قال ديديير لأوتجر . أليس شارل فى هـذا الجمع ، فأجاب اوتجر « ليس شارل بهذا الحشد » ثم رأى ديديير هذا الجيش من العامة ، فقال فى إصرار وتأكيد « من المحقق أن شارل يتقدم هـذا الجحفل من الناس » ، غير أن أتجر قال « لا . لا ، ليس شارل بهذا الجيش . فاستشاط الملك غيظا وغضباً وصاح ، « ماذا تفعل إذا كان لدى الملك أكثر من هؤلاء » ؟ فقال أوتجر ، « سوف تشهد الهيئة التى يقدم عليها ، غير أننى لا أعرف ماذا يكون مصيرنا » . ثم شاهد بعدئذ الأساقفة ورؤساء الأديرة وقسس كنيسة الملك ، ورفاقهم . وأسكر ديديير الحقيقة الواضحة ، وأخذ يضطرب فى كلامه ويتلعثم ويبكى ويصيح ويقول . « فلننزل من هذا الموضع ، ونختفى من هذا العدو المخيف ، ولم يكن أوتجر بأقل من ديديير خوفا ، إذ أنه يعلم حقاً أنه لا نظير لشارل فى الثروة والقوة ، لأنه كان ، أثناء أيامه الرغدة ، يقيم دائماً فى القصر . وقال أوتجر : حينما تشهد السهل يزخر بالحراب ، وجحافل الجند المدججين بالسلاح تتدفق على أسوار مدينتك ، تستطيع حينئذ أن ترقب قدوم شارل . وما كاد يفرغ من كلامه حتى ظهر فى الغرب سحابة سوداء ، وتحول ضوء النهار الساطع إلى ظلام دامس . أقبل الأمبراطور ، وطلع على المدينة بحرفاق سواد حرابه ظلمة الليل ؛ ثم ظهر شارل مدججاً فى الحديد ، فى خوذة من حديد ، وسواعد من الحديد ، وزرد من الحديد يكسو صدره وكتفيه ، وتقبض يده اليسرى على رمح من الحديد ، وزوجه من حديد ، ولون فرسه الذى يمتطيه فى لون الحـديد . وفى نفس الهيئة والمنظر ركب رجال على جانبيه ، وأمامه وخلفه ، فملأ الحديد السهل ، وامتد إلى مسافات شاسعة ، وحجبت أسنة الحديد ضوء الشمس ، وعندئذ قال أوتجر للملك « ذاك هو الرجل الذى تود أن تراه » ، وما كاد ينتهى من ذلك ، حتى خر مغشيا عليه كأنه ميت[1] .

(١) هـــذه القصة ترجمها إلى اللاتينية راهب دير [illegible] و المؤلف المعروف باسم [illegible]

وقضى شارل يوم عيد الميلاد فى المعسكر مع زوجته وأولاده ، ثم سار بجانب من الجيش لمحاصرة فيرونا ، ولم يحقق ادلغيس ما انعقد عليه من الآمال ، إذ ركن إلى الهروب إلى بافيا بعد مقاومة يسيرة . ومن بافيا أبحر على سفينة إلى القسطنطينية ؛ وحيث أمضى فى بلاط قسطنطين السادس ما تبقى من سنوات حياته يعانى البؤس والشقاء فى هذا المنفى ، ولم يحدث فى حياته بالمنفى من أنواع التغيير ، إلا ما قام به من محاولات غير مجدية للنزول بجنوب إيطاليا . وحظى فى البلاط البيزنطى بكل أساليب الملق والتشريف ، إذ وجد فيه الأمبراطور ورقة رابحة يستخدمها فى مؤامراته بإيطاليا . على أنه مهما تلقى من الإكرام والتشريف من قبل الأمبراطور ، فإن ذلك لايعوضه عن ضياع مملكته . . وجرى العرف على الرفق بالمغلوب على أمره ، فأحبوا أن يقصوا ما قام به ملكهم من مغامرات مثيرة ، ولا سيما تلك التى يشيرون إلى أنه فى السنوات الأخيرة ، جاء متخفيا إلى قصر شارلمان فى بافيا ، ودهش رجال البلاط لحضوره مع جنده ، وكيف استطاع بعد أن انكشف أمره أن يفلت من أشجع رجال فى الفرنجة بما أظهره من مهارة حربية . على أنه ليس فى التاريخ ما يبرر ، فيما يبدو ، شهرته الواردة فى الشعر . وماحدث من تمجيد أمته له ، إنما يقصد به تمجيد هذه الأمة ، وماضى المملكة الهاوية .

وعثر شارل فى فيرونا على اسرة كارلومان . غير أن التاريخ التزم الصمت عن كل مايتعلق بمصير هذه الأسرة ، إذ لم ترد الإشارة بعد ذلك إلى أسماء أفراد هذه الأسرة . والراجح أن الأم وأولادها نزلوا بأديرة غير معروفة[1] . ومن

— De Gestis Karoli Magni II, XXVI . وهذا الكتاب ألف للإمبراطور شارل السمين كتابين عن الحكايات المتعلقة بشارل الكبير . وعلى الرغم من أن هذه القصص ليس لها أهمية سياسية ، فإنها عظيمة القيمة لتعرف الحياة الاجتماعية والعادات .

(١) كان ذلك أيضاً هو مصير أوتكر ، والمعروف أنه بطل الكتاب المشهور باسم Conversio Ogerii Militis — وتشير رواية إلى أنه استأذن من شارل فى أن ينزل بدير St. Faro فى موه Meaux .

الطبيعى أن يكون ذلك مصير المطالبين بالعرش . إذ أن اعدامهم ربما أثار العواطف ، رغم ما اشتهر به ذلك العصر من الشدة والصرامة ، وذكر اجنهارد أن شارل كان بطبيعته رحيما .

وتأجل سقوط بافيا فى يد شارل حتى يونية سنة ٧٧٤ ، وورد فى القصص من الروايات الغربية ما يشير إلى حدوث خيانة ، غير أن الذى وقع فعلا ، هو أن الحامية كادت تموت جوعا . واتخذ شارل لقب ملك اللومبارديين منذ أعلنت المدينة الاستسلام والإذعان . أما الشخص الذى كان له الحق فى هذا اللقب ، فإنه ارتحل مع الملكة واجتازا جبال الألب ، حيث قضيا ما تبقى من حياتهما فى هدوء فى ديرين منفصلين . على أن القصة التى تشير إلى أن شارل سمل عينى ديدير تعتبر محض خرافة . لم يكن لهما من البنين سوى ادلغيس ، أما ذريتهما من الأناث ، فإن واحدة منهن أصبحت رئيسة لدير بإيطاليا ، وتزوجت الثانية من تاسيلو دوق بافاريا ، وتزوجت الثالثة من ارتجيس دوق بنيفنتو . لم يكن للأولى أهمية فى التاريخ ، أما الإثنتان الأخريان فإننا سوف نرى أن ماتعرضا له من الكراهية ، كان له من الأهمية ما حدد الحياة المقبلة لعدوهما التقليدى .

لم يدخل شارل إلا تغييرات طفيفة فى حكومة الأقاليم التى استولى عليها . لم يعهد لكونتات الفرنجة الاقطاعات قليلة ، ولم تقم جنود الفرنجة إلا فى مدن قليلة ، أما الدوقات اللومبارديون فإنه أجاز لهم ، بعد استسلامهم ، وخضوعهم ، أن يحتفظوا بمناصبهم ووظائفهم . وأهم من هذه الإجراءات ، ماقام به شارل يوم عيد القيامة سنة ٧٧٤ ، قبل سقوط بافيا ، من زيارة لصديقه البابا هادريان فى روما .

شارل يدخل روما :

وكانت هذه أول فرصة رأى فيها شارل حاضرة العالم المسيحى الغربى . ولم يدخروا وسعا فى أن يقيموا له استقبالا باهرا . إذ بلغ الاحتفال به عند دخول المدينة

من الروعة والعظمة ما لم يضارعه إلا الاحتفال بانتصار القياصرة. فعلى مسافة ثلاثين ميلا من المدينة، استقبله قضاة المدينة، فقدموا له الولاء، وعلم الحرس باعتبارهم قادة حرس المدينة، و باعتبار البطريق، من ناحية أخرى، ولى المدينة وحاميها. وهذا لقب لا يستطيع شارل أو البارونات الذين منحوه أن يحطوا من قدره وقيمته. وهؤلاء زعماء كامبانا، الذين كانت حصونهم بالمدينة ملجأ للمبعدين من كل الأمم، والذين لم يرتق طموحهم إلى أكثر من الحصول على وظيفة بدار المقر الرسولى، مازالوا يلتمسون المحدق الألقاب الوراثية أمثال النائب أو القنصل، وادعوا لأنفسهم من الكبرياء والعظمة ما كان لسيبيو، ومتيلى. وعند الاقتراب من المدينة التقت حاشية الملك بحرس المدينة الذى انتظم فى طوائف[1]. وانضم إليهم طوائف من الصبيان يحملون سعف النخيل أو الزيتون، ينشدون أناشيد الترحيب، وبعد هؤلاء جميعا، جاء الإكليروس الرومانى فى موكب.. ولما شاهد الملك ما يحملونه من الصلبان والأعلام المقدسة، غلب عليه التأثر.. إذ ترجل عن حصانه ليقابلهم بما يليق بهم من التواضع، وأتم ما تبقى من الرحلة مشيا على الأقدام؛ وعلى هذه الهيئة، صحبوه بالهتاف والترانيم على امتداد طريق القصر القديم حتى بلغوا ضاحية القديس بطرس، حيث ارتفع، دون حاجة إلى ما يحميه من حصون، البناء الضخم لكنيسة الرسول، فوق أرباض الطوائف الأجنبية[2]. وفى بهو الكنيسة، ظل البابا مع كبار القسس والشمامسة، ينتظرون فى لهفة وشوق منذ بزوغ الفجر، وصول هذا الضيف. غير أن الملك قبل أن يرتقى الدرج لمقابلة البابا، ركع

(١) كان بروما أول الأمر سبع عشرة طائفة، ثم صارت تسع عشرة طائفة، طائفة لكل من الأقاليم الأثنى عشرة الواقعة على الضفة اليسرى من نهر التيبر، وطائفة لجزيرة ليكاوونيا، وطائفة للجهات الواقعة وراء نهر التيبر. ثم تألفت خمس طوائف من الجاليات الأجنبية الخمسة: اليونانيين، الكسون، الفريزيين، الفرنجة، اللومبارديين.

(٢) يقع الحى الليونى خارج نطاق الأسوار القديمة، وقام ليو الرابع سنة ٨٤٨ بتحصينه لحمايته من إغارات السلمين البحرية.

على ركبتيه ولثم العتبات الرسولية . وهذه اللحظة تعتبر أعظم اللحظات فى حياة شارل . إذ أن روما عند الفرنجة ، وعند جميع المسيحيين فى الشمال ، تعتبر ، فوق كل شىء ، مدينة القديسين ، يتنزه الإنسان فى داخل أبوابها عن الأطماع الدنيوية ، ويندمج فى كل ما اشتهر به الماضى من أرواح مقدسة . كتب كاثولف إلى شارل « والنعمة الثامنة أنك شاهدت المدينة الذهبية وزينة روما الأمبراطورية » .

شارل وهادريان :

على أن مصادر عديدة تؤكد الأهمية التى ترتبط بالمقابلة، التى تمت بين شارل وهادريان . والمدالية التى جرى صكها لتخليد اجتماعهما ، انطبع على أحد وجهيها رسم الخليفين ، وقد تصافحت يداهما فوق الإنجيل مفتوحاً على الهيكل ، وعبارة نصها « بك و ببطرس ، و بك و بفالة » ، وعلى الوجه الثانى ، جرى نقش الكلمتين « الحلف المقدس » . أما هادريان ، الذى اشتهر بأن له من الإدراك السليم ما يزيد على علمه ، فإنه احتفى بهذا الحادث ، بما قرضه من أشعار مقفاة ، ضمنها ترحيبه البالغ بالبطريق . . . وهذه الأشعار هى ما يلى :

أقبل سالماً فى سرور وسرعة إلى الأعتاب الرسولية
وهلل القوم لقدومه بالمدائح والأناشيد
طلب إلينا أن نقيم الصلاة للمخلص الأكبر الرحيم .
وما ارتكبه فى صباه من ذنوب سوف تغفرها شفاعة بطرس .
ثم تبناه درباس قسيس المسيح بما سوف يواتيه من انتصارات ،
وسوف تحميه يد الله اليمنى ، ويكون من رفاقه بولس و بطرس ،
إذا أعطاه سيف الفتح ليحارب به مثلما حارب أبطاله .

وللراغبين فى زيادة الاطلاع أن يقرأوا فى ترجمة هادريان كيف انقضت الأيام السبعة التى استغرقتها هذه الزيارة الرائعة ، وما كان لهذه الزيارة من

دلالة لاندركها بإحصاء ما زاره شارل من المشاهد ، التى لاشك أنها استرعت انتباهه . ولا يسعنا إلا أن نشير إلى أكثر من فكرة جديدة أثارها فى عقل الملك ما كان له من تجارب — مثال مشروع إصلاح ما عند الفرنجة من الطقوس الدينية ، والشعائر الكنسية ، والرغبة فى استخدام العلماء الإيطاليين ، وأرباب المهن منهم ، فى ترقية رعاياه من الناحيتين المادية والعقلية ، وازدياد الاهتمام بحياة المدينة ، والحلم بإنشاء روما الجديدة فى قلب بلاد الراين . غير أن أهم من ذلك كله، ما تركت فيه العاصمة القديمة من أثر عام . فحينما وقف على أطلال امبراطورية عالمية ، ووقف إزاءه هادريان يلقى على مسامعه ، بأنه لشديد الأمل فى أن عصره يضارع عصر القياصرة ، أدرك بأن العناية الإلهية أرسلته ليكون فاتحاً وحاكماً . ولما رأى ما للكنيسة الكاثوليكية من التقاليد العظيمة والآمال الضخمة ، أدرك الاحترام الأبدى للقوة الروحية التى ظل الغرب منذ تحوله المسيحية يهتدى بها . فعزم شارل على أن يتخذ مقعده بين خدامها ومشيريها ، وأن يبسط سلطتها العالمية بإقامة مملكة تضارع فى الاتساع الأمبراطورية القديمة ، وتكون فى جوهرها مسيحية . على أن قراره انطوى على نتائج بالغة الأهمية . إذ أن معناه أنه حدث آخر الأمر أن سياسياً غربياً ، سوف يحاول فى مهارة، إدماج الفكرة الإمبراطورية ، بالفكرة الثيوقراطية التى ظلت منذ زمن قسطنطين سر القوة البيزنطية .

ويعتبر من قبيل المبالغة إذا قلنا أن كلا من شارل وهادريان أدرك أهمية عهدهما ، وأنهما تنبآ فى هذا الوقت المبكر بما جرى فى سنة ٨٠٠ م من التتويج . أما الرسالة التى منحها البابا إلى البطريق، بأن يخضع ويبشر ويصلح ،فإن لها سابقة فيما أعطاه بونيفاس لكارلومان ، أخ بيبن القصير وقسيمه فى الحكم،وهذه السابقة لها سياسها ، إذ أن هادريان إنما قلد بونيفاس، بأن أعطى تلميذه كتاباً يشمل مجموعة ديونيسيوس اجزيجنوس من قوانين الكنيسة . على أن الزمن وحده هو الكفيل بأن يبين بأن ما حمل للتعاقد من صفة مغايرة، هو الاختلاف بين الفريقين

المتعاقدين ، بحيث أن روما أكبر من ما بنزر ، وأن شارل الملك أعظم من كارلومان صاحب القصر ، فإن الاتحاد الجديد سوف يكون له فى تاريخ الكنيسة ، والعالم ، من الأهمية ما يفوق الاتحاد القديم ، وأن « أمبراطورية الفرنجة والرومان » سوف تكون نتيجته الطبيعية ، وأن ألمانيا المسيحية سوف تكون أثره الدائم .

الهبة الجديدة

وثمت أمر يرجع إلى زمن هذه الزيارة يستحق التفاتاً خاصاً ، لما له من الأهمية فى المنازعات التى وقعت فيما بعد ، بين البابوية والأمبراطورية ، ولأنه سبب لشارل نفسه مشاكل عديدة ، حينما شرع فى تسوية إدارة المملكة اللومباردية . إنما نشير بذلك إلى ما قام به من تجديد هبة بيبن . على أن مقدار هذه الهبة ، وما منحته من سلطات ، والغرض منها ، أضحى موضع مناقشة عنيفة . ومن المستحيل أن نناقش كل الآراء المتضاربة ، ولذا ينبغى الاكتفاء بموجز بسيط .

يروى لنا مترجم حياة البابا هادريان ، أن شارل ، بناء على طلب البابا ، تلى عقد أبيه بشأن الهبة ، وأمر بكتابة نسخة جديدة منه ووقعها بحضور نبلائه ، وفى فصل سابق[1] ، وردت الإشارة إلى أن القائمة تحوى ما جاء فى هذا العقد من المدن . إذ أن هذه المدن وضياعا عديدة مبعثرة فى المملكة اللومباردية ، عادت فعلا فى تلك السنة إلى البابا . وأورد هذه الحقيقة مؤرخو الفرنجة ، الذين يعتبرون لهذا السبب شهودا عدولا . على أن ما منحه شارل فى هبته من ممتلكات ، حسبما أورده انستاسيوس ، كان أكثر إتساعا . إذ يذكر البندقية و إستريا ، والأرخونية بمساحتها الأصلية ، ودوقيتى سبوليتو و بنفنتو فضلا عما ورد فى عقد الهبة من أقاليم أخرى . وأضاف كاتب عبقرى فى نهاية هذه النقطة العبارة التالية « والحدود هى ما يلى : من لونا فى فورسيقة حتى جبل لومبارد (لا ليزا فى جبل الأبنين بايحوريا) ومنه إلى بارما ،

(١) انظر ما سبق ص ٦٦ ، حاشية ١ .

ثم بين رنجيو وماتتوا وموسايكى » . فهذه العبارة التى يبدو أنها جرت اضافتها عنوا دون حاجة إلى تفكير واهتمام ، بتأثير الأسطورة التى ترجع إلى قسطنطين والبابا سيلفستر ، تزعم بأن للبابا كل إيطاليا ، ما عدا سهل لومبارديا . ومع ذلك فإن العبارات الأصلية التى أوردها مترجم حياة البابا هادريان لا تخلو من صعوبات ومشاكل ، إذ أن البندقية واستريا لم يتم تعهد الاستيلاء عليهما ، أما دعوى البابا فى بنيفنتو ، فلا يجوز إقرارها على الرغم من شدة حاجته إليها فيما بعد . . .

والحل الذى يجوز إقراره وقبوله ، هو أن عبارات الهبة كما وضعها بيبن ، وصدق عليها شارل ، لم تكن واضحة ، وأن استاسيوس لم يورد من التفسير إلا ما يقبله المجلس البابوى . فمثلا يجوز أن ترد عبارة « الأرخونية بمساحتها الأصلية » وتؤكد أن للبابا « كل الأراضى التى فى حوزته الآن » . والمعروف أن البندقية وإستريا استمرتا منذ زمن بعيد تجرى إدارتهما من رافنا . وظل دوقا سبوليتو وبنيفنتو زمناً طويلا خاضعين لحماية البابا ، الذى يستطيع لهذا السبب أن يعتبر نفسه مالكا لدوقيتيهما . ومعظم الدعاوى التى أثارها فيما بعد هادريان ذاته ، ونازعه فيها شارل ، يجوز تفسيرها، على أساس أن البابا والملك يتمسكان بنظريتين مختلفتين، فيما يتعلق بالحدود الأصلية للأرخونية، إذ يجوز اعتبار إيطاليا كلها، فيما عدا المملكة اللومباردية ، جزءاً من الأرخونية ، على الرغم من أن ذلك التعريف يزداد إنطباقاً على الإقليم الذى تعتبر رافنا عاصمته [1] .

(١) ما ورد فى كتاب انستاسيوس يتسم بالدقة، ويشير إلى ذلك المؤرخان :

Abbé Duchesne : Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical.

Kehr : Historische Zietschrift LXX p. 385.

وغيرهم . على أن شارل إنما كان يقصد بإقامة مملكة بابوية مستقلة جنوب سهل لومبارديا ، على أنه إذا كان الأمر على هذا النحو ، لا تعوزت رسائل البابا التى وجهها إلى شارل على أمثال عبارات واضحة .

سلطة البابا

أوردت الوثيقة الممتلكات « المخصصة لخدمة الفقراء ، وشموع مذبح القديس بطرس » . وهذه الصورة من الهبة تعتبر من الأمور المألوفة في هذا الوقت ، ولا تدل إلا على القصد في منح « نوع من الامتيازات » كالتي طالما منحها ملوك الفرنجة لسائر الكنائس . وكل من يحصل على هذه الوثيقة المتعلقة بالامتيازات يحصل بمقتضاها على امتيازات وإمارات وأرباح ، على أنه لم يحرز حقوق السيادة. ويمتاز البابا من بعض الوجوه على سائر الحائزين لهذه الامتيازات ، فمثلا ادعى لنفسه ، وجرى آخر الأمر إقرار دعواه ، نوعا من السيادة على رؤساء أساقفة رافنا ، وعمد في بعض الأحيان إلى أن يعين موظفين قضائيين في مدن دوقية روما ، واحتفظ في يده بمفاتيح هذه المدن . وكان له مطلق الحق ، باعتباره ممثلا لزعيم الرومان زمن الامبراطورية ، في أن يعقد محاكمه الخاصة باعتباره حاكما على الإقليم ، وكان له من السلطة ما لا يقل عن سلطة دوق فريولى أو دوق سبوليتو . ومع كل هذا ، اعتبره شارل أكبر موظف كنسي بمملكة الفرنجة وأكثرهم[1] مالا . والمعروف أن دعاوى البابا هادريان أخذت تزداد أحياناً ، على أنه كلما ازدادت دعاوى البابا ، كلما اتسعت حقوق المقر المقدس. غير أننا لا نستطيع أن نتصور أن البابا ورعاياه أدّوا الخدمة العسكرية ، التي تعتبر الواجب الأساسي للمواطن الفرنجي. على أننا نعلم أن البابا ورعاياه حلفوا يمين الولاء لبطريقهم ، وبمقتضى ذلك اليمين اعترفوا به قائداً شرعياً للحرس الروماني . إنما يصح الاعتراض على هذا ، بأن

(١) ليس من المحقق أن شارل زعم لنفسه الحق في أن يشترك في انتخاب البابا مثلما يعمل في انتخاب الأساقفة . فالمعروف أن هادريان تم انتخابه بابا قبل أن يشرع شارل في الاهتمام بأمور إيطاليا ، وعلم ليو بوفاة هادريان قبل أن يبلغ هذا النبأ شرلمان . وفي سنة ٨٢٤ جرى الرسم بأن مبعوثاً إمبراطورياً ينبغي أن يشهد عملية انتخاب البابا ، وتلقى من البابا المنتخب يمين الولاء.

هادريان شن الحرب على اليونانيين فى نابولى للاستيلاء على تيراشينا Terracina،
ولم يفكر فى أن يحصل على إذن من البطريق . غير أن الاعتراض يثير الحقيقة
الواضحة ؛ وذلك أن الحرب لم يكن الغرض منها سوى الدفاع عن الممتلكات
التى تؤلف فعلا جزءا من دوقية روما . فما قام به هادريان من الدفاع عن حدود
إمارته ، لم يكن سوى ما يفعله كل أمير من الفرنجة للدفاع عن أملاكه ومايبتغى
أن يقوم به . على أن ماحدث أخيراً ، حين حرص شارل سنة ٧٨٠ على
أن تزداد الملاقات الوديه مع الأمبراطورية ، جعل شارل لايتردد فى إرغام البابا على أن
يتخلى عن دعاويه فى تيراشينا . وحدث ذلك أيضا حين احتفظ هادريان
بأسطوله لحماية ما كان لإمارة روما من حد بالساحل ، إذ رفع إلى البطريق
تقريرا عن أعمال الأسطول . وإذا أخذنا مسألة الولاية : فإن البابا أعلن احتجاجه
على تدخل المبعوثين من الفرنجة فى الدوقية ، ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا على
أن يظهروا دائماً بانتظام ، يتولون اختيار قضاة البلديات ، ويشهدون عملية
انتخاب رئيس أساقفة راقنا ، ويرفعون إلى محكمة الملك بأخبر مايحدث فى
المحاكم البابوية من الكذب . ولم يلبث أن حان الوقت الذى سوف يرأس
فيه شارل جلسة المحكمة فى رومه . على أنه كان من المتوقع أن يعترف البطريق
فى الأمور الدينية ، على الأقل ، بسيادة البابا ، وأن يترك ما يجد من المسائل الدينية
فى كل بلد لينظر فيها خليفة المسيح طالما احتفظ لنفسه بالكلمة الأخيرة فى كل
الأمور الدنيوية ، حتى ما كان منها فى دوقية روما . ولم يكن هذا النوع من
تقسيم الوظائف معروفا ؛ ولم يكن البابا فى هذه الناحية سلطانا . فالواضح أن
البابا الحق فى أن يعقد مجامعه ، غير أن هذه المجامع لم تزد فى الأهمية عن مجامع
الكنيسة الباقارية أو اللومباردية ، إذ أن قراراتها لا تلزم إلا الكنائس التى
تقع فى إقليمه وتحتم طاعة البابا . لا يستطيع البابا أن يتدخل فى غالة ، ولا فى

لومبارديا إلا إذا طلب منه صرحة إبداء رأيه ، عن أن ذلك الرأى يقره الملك والـكنائس القومية أو ترفضه حسبما يتراءى ذلك لهم . و إذا سلمنا بما أورده جيزو[١] من أن القرن التاسع لا يعرف ظاهرة محددة من السيادة ، فما زالت الحقيقة قائمة بأن مكانة البابا فى مملـكة الفرنجة لم تتعد مكانة تابع محظوظ .

---

(١) أنظر Guizot : Civilisation in France. Lecture XXVII

الفصل الخامس

الحرب السكسونية الأولى — وقعة رونسيفال

٧٧٥ — ٧٧٨

تتركز الأهمية الأساسية للسنوات بين ٧٧٤ — ٧٨٩ حول أمرين : الأول فتح بلاد السكسون ، وإدماج دوقية بافاريا فى النظام العام لمملكة الفرنجة ، وترتب على ذلك أن امتد طرف المملكة شمالا إلى نهر الإلب ونهر الايدر ، وامتد إلى الجنوب الشرقى حتى بلغ جبال بوهيميا ومورافيا وبعبارة أخرى صار شرلمان بهذين العملين السيد المطلق للاراضى التى تكونت منها ألمانيا العصور الوسطى . وبفضل ما جرى من فرض نظام عام من الإدارة الكنسية والمدنية على سكان هذين الأقليمين ، وإخضاعهم لسيادة ملك واحد ، وسلطة ديانة واحدة ، وبفضل تحويل أفكارهم جميعاً نحو الشرق ، وتوجيههم لقتال أمم تعتبر نسبيا أمما غير متحضرة ، وهب هذه المجموعة الضخمة من الشعوب وحدة سياسية استحال تدميرها . ولذا يعتبر شارل فى هذا المعنى مؤسس الأمة الألمانية .

على أنه ينبغى ألا نخطئ ، بأن نعزو إليه الإدراك الدقيق للهدف الذى اتجهت إليه جهوده ، إذ أن حياته المقبلة الحافلة ، إنما عجل بها أسباب مختلفة فى أحوال مختلفة . حارب السكسون لأنهم كانوا وثنيين ولصوصا ، وقاتل تاسيلو دوق بافاريا لأنه كان من اتباعه ، ثم شق عصا الطاعة . وما دفع شارل للحرب فى الشمال ، إلا الحماس للمسيحية ، بينما أهوى فى الجنوب بيديه القويتين على مجتمع لم يكن ، برغم حداثة عهده باعتناق[1] المسيحية ، أقل تعلقاً بها من الفرنجة أنفسهم . لم يفكر فى وضع حد

(١) كانت المسيحية تختفى من بافاريا بعد أن انسحب منها الرومان . وبفضل جهود القديس روبرت ، والقديس إمتيران ، والقديس أمانت فى القرن السابع بدأت تعود إليها المسيحية ، وتم تصيرها وتقسيمها إلى أبروشيات على يد القديس بونيفاس ٧٣٣ — ٧٣٨ .

معين لأملاكه ، إلا بعد أن أمعن فى قهر السكسون والبافاريين ، ولم يكن توحيد جميع العناصر التيوتونية هو المثل الأعلى له . كان مستعداً الآن يقبل الصقالبة والهون رعايا له ، إذا دخلوا فى نطاق الحدود التى رسمها لمملكته ، بل إنه كان مستعدا أيضاً لأن يستثمر بهؤلاء الأجانب أراضى التيوتون ، إذا تبين له إصرار التيوتون على العناد . فالمعروف أن غرضه العام هو أن يجعل سلطانه يمتد إلى أقصى طرف يتفق مع استقرار الأمور ، وأن ينشر داخل تلك الحدود ، تلك الصورة من الإيمان والثقافة التى تم اعدادها من قديم الزمن ، فى نطاق كنيسة الفرنجة .

لم يتطلب فتح بافاريا إلا جهدا ضئيلا ، على الرغم من أنه يعتبر من حيث النتائج التى نجمت عنه ، حادثا بالغ الأهمية ، بينما استنفد فتح بلاد السكسون موارد الفرنجة إلى أقصى حد . وما كادت تحل سنة ٧٨٩ ، حتى أتم شارل القيام بإحدى عشرة حملة فى بلاد العدو . وفى معظم الحالات سار معه كل الجيش الوطنى . فمنذ سنة ٧٧٢ حتى ٧٨٠ ، ومن ٧٨٢ إلى ٧٨٥ ، لم تنقطع الحروب التى اقترنت بما راق فيها من دماء ومال ، على حين أن من الحملات ما لم يجر القيام بها إلا عند الضرورة ، أو حين بدا كأن مقاومة السكسون قد تحطمت .

ويتيكند الوستفالى

يعتبر ويتيكند السكسونى بإجماع رأى سلالة السكسون ، و برغم ضياع كل الحقائق المجردة عن حياته ، أهم عدو التقى بهشارل . وفى القصص تضاءلت الحرب حتى أصبحت مبارزة بين اثنين ، إذ تقاتلا فى مبارزة واحدة للفوز بسكسونيا ، ولما تم التغلب على ويتيكند ، لم تلبث الأمة أن قبلت التنصير . على أن الأسطورة لم تبتعد كثيراً عن الحقيقة ، إذ أن تنصير ويتيكند يعتبر مولد ألمانيا المسيحية المتحدة ، إنما لم يتم تنصير ويتيكند إلا بالقوة لا بالمناقشة والاقتناع . واقترن القتال بين الفريقين بالوحشية والهمجية . على أن همجية شارل كانت أشد مجاجة وزراية ؛ فما اتبعه شارل

من بذل الرشاوى ، والتهديدات لحمل المغلوبين على أمرهم على التنصير ، وماقام به من مذابح شاملة ، وما اتبعه ، دون شفقة ورحمة ، من إجلاء الناس عن ديارهم ، أثار آخر الأمر الاعتراضات والاحتجاجات من اعقل مستشاريه وأحكمهم . وما وضعه شارل من تشريع للسكسون ، جرت كتابية بحروف من الدم . ولم يختلف شارل فى ذلك عن فاتح معروف لنا ، « إذ تجاوز الحد فى صلابته وقسوته على كل الرجال الذين قاوموه » .

والدفاع الوحيد الذى يصح أن يكون فى جانبه ،هو ما أحرزه من نصر ، إذ أن ألمانيا العصور الوسطى ، بفضل قاهر سكسونيا ، حظيت بأرقى مراكز العلم ، وأحرزت أمجد الأسرات الحاكمة ، فلولا شارل لما كان بها كوربى ، أو هرفورد ، أو هنرى الصياد أو أوتو الكبير . على أن السكسون غفروا لمبشرهم المخيف ما ارتكبه من وحشية ، وشكروا له صنيعه قبل أن تظهر وتتضح نتائج سياسته بزمن طويل . فى القرن التاسع كتب راهب من أمة السكسون عن شارل :

« أزاح الظلام الحالك الخادع
وعلّم قومنا أن يعرفوا الضوء الوحيد
استمر النضال طويلا ، واشتد الخطر وازداد إيلاما ،
وتحمل العمل المضنى الثقيل ، وعانى اليقظة الدائمة .
غير أن هذه أمور تحملتها أوربا راضية
وشاركت أوربا فى ذلك العمل العظيم
وحشد جيوش كل ممالكه
لينزع هذا الشعب من هيكل الشيطان ،
إذ من يستطيع أن يحوّل الوثنيين الغلاظ عن سليقتهم
بالإغراء اللطيف اللين والمناقشة الرزينة ؟

عادات السكسون

أما التغيير العظيم الذى نجم عن الفتح والتحول إلى المسيحية ، فإن خير ما يجعلنا ندركه ونفهمه هو أن نمضى فى عرض الصفات التى امتاز بها أبناء عمومتهم من الإنجليز على من يجاورهم من الشعوب التيوتونية . فحين تحدث بيدا عن البعثات التبشيرية فى سكسونيا ، كان يلحظ أن البلاد تألفت من أقاليم ، وهى المعروفة باسم pagi (والباجوس يقابل ما هو معروف عند الجرمان بالجاو gau) . يحكمها زعماء مستقلون . وفى زمن الحرب يقترع هؤلاء الزعماء على منصب القائد . ونعلم من قوانين شارل والمصادر المتأخرة ، أن قوة هذه الارستقراطية لا يحدها إلا قوة الشعب . ولكل إقليم مجلس على النمط التيوتونى المعروف ، وهو جمعية تنظر فى القضايا ، وتتولى تصريف الأمور . نجد إشارة إلى جمعية وطنية انعقدت فى ماركلو على نهر الويزر ، على أن مصدر الإشارة موضع شك . أما الوحدة الدينية فكانت قائمة فى صورة من الصور . وفى تلك الأزمنة الغابرة حين لم تكن الآلهة اتخذت بعد صورة الإنسان ، وظل جموع السكسون يضربون فى سهول شمال أوربا ، حملوا معهم إلى دورهم إلهاً ، لم يكن إلا عموداً مقدساً مصنوعاً من الخشب يمثل اجدراسيل Igdrasil [(١)] ، شجرة الأرض التى تكفل الحياة للناس .

وكلما مضى الزمن ، استقر السكسون بأرض جرمانية ، وانقسموا إلى جماعات صغيرة عديدة ، اتخذ كل منها شعائر وآلهة جديدة . وفى غابة إيرزبرج Eresburg المقدسة التى لا تبعد كثيراً عن حد الفرنجة ، ما زالوا يحتفظون بمعبودهم . وظل السكسون فى فصول معينة من السنة ، يجتمعون فى إيرزبرج لتكريم إيرمنسال ،

(١) ويسمى أيضاً ارمنسال Irminsul ، العمود الذى يقول عنه الناس ويصفه كتاب الفرنجة ، بأنه جرى نحته على هيئة إنسان (لاشك أن ذلك وقع حديثاً) . وزين بقلائد من الذهب والفضة وفقاً لما ساد من الشعائر والنذور . على أن المصدر الذى اشتق منه سيفان وصفه موضع شك .

وكان ذلك من مظاهر تقديرهم لما يربط جماعتهم من صلة الدم . ولم يحفل السكسون في غير هذه الأحوال بالقيام بعمل مشترك . اجتمعت الأقاليم في أربعة اتحادات كبيرة ، نوردليودى ، شمال نهر الإلب ، والوستفاليين على الضفة اليسرى لنهر الإلب ، والأنجراديين في وادى الويزر ، والوستفاليين في وادى نهر الإيمز . وهذه الاتحادات سارت عادة على سياسات مختلفة . ويرجع فتح بلادهم إلى عجزهم عن القيام بعمل مشترك . ومع ذلك فإن مجتمعهم يختلف عن سائر المجتمعات ، بانقسامه إلى ثلاث طبقات : النبلاء adelings ، والأحرار frilings والأرقاء lazzi ، وتقررت عندهم عقوبة الموت لمن يتزوج من خارج الأمة السكسونية أو من غير طبقته . هذه الصرامة المتناهية هي التي غلبت على قوانينهم . يضاف إلى ذلك أنهم أقاموا في دور وكفور متناثرة ، تقع قرب معسكرات منيعة تعتبر ملجأ وملاذاً . واشتهروا بأنهم يجودون بعضهم على بعض ، ويساورهم الشك في الغرباء ولا سيما المبشرين الذين اعتبروهم طلائع الفرنجة . عبدوا الأشجار والأحراش والينابيع ، وقدموا لها القرابين من الماشية ، ومن البشر أحياناً ، وتنبأوا بالمستقبل بما استخدموه من قطع من لحاء شجرة الزيزفون ، تحمل بعض الحروف ، وللمتنبئين عندهم قدر ومكانة ، واشتهروا بأنهم يخشون الحسد ، ويحرقون أولئك الذين اشتهر عنهم بأنهم سحرة وتخفوا في هيئة إنسان .

الاستراتيجية السكسونية

وما أحرزه السكسون حتى ذلك الحين من انتصار في حروبهم للاستقلال ، إنما يرجع إلى النظام الحربي الذى تشتد ملاءمته لخصائص جغرافية بلادهم . ففي الإقليم الواقع بين الويزر ومنابع الإلب ، تتقابل ثلاث سلاسل من التلال المنخفضة التي تكسوها الغابات ، ويتألف منها في الوقت ذاته ملاذ أمين يلجأ إليه غير المقاتلين ، وكذا سلسلة من الاستحكامات التي تبلغ من المناعة أنه لا يستطيع أن

يخترقها أو ينفذ منها الفرسان المدرعون من الفرنجة ، والدواب التي تحمل أثقالهم . أما المواضع التي يسهل مهاجمتها ، فكانت عبارة عن ثلاث منافذ، يخترقها في الغرب نهر ليب ، ونهر الرور ، ويجرى فيها من الجنوب نهر الايدر وهو من فروع الويزر . ويستطيع أي جيش من الجيوش أن يبلغ جوف بلاد السكسون من إحدى هذه الطرق ، ويفصل بين الغابات وبينها مساحات شاسعة من الأراضي التي تكسوها الأعشاب والشجيرات ، وسهول تزخر بالمستنقعات ، وعلى الرغم من أنها لا تلائم المغير ، فإنها لم تكن عقبة خطيرة إلا زمن الفيضان في الشتاء . على أن كل شيء يتوقف على ما يجرى من أعمال فالطريقة التي اتخذها السكسون ، هي أن يحصنوا كل ما يقع على امتداد الأنهار الثلاث التي سبق ذكرها من مرتفعات ، يسهل الاستيلاء عليها ، فإذا لم يتيسر الدفاع عن هذه الأنهار ، يصير الانسحاب إلى الغابات واتخاذها مأوى إلى أن تتفرق القوات المعادية ، عند قدومها إلى السهول ، إلى جماعات عديدة ، فيقومون عندئذ بتبييتهم ليلا ، أو يفاجئون جناحي الجيش بهجماتهم ، أو يقطعون مواصلات عدوهم . وما اشتهر به رماتهم من التفوق والمهارة ، وما امتازت به خيولهم من الجودة ، جعل لهم من الكفاية والأثر ما للخيالة الخفيفة ، وهم فئة الجند التي تعتبر خير ما يلائم هذه الخطط الحربية الجريئة . على أنهم في الأماكن الضيقة المحدودة ، لابد أن تلحقهم الهزيمة . أما المشكلة الكبرى التي يواجهها القائد الفرنجي ، فهي أن يخلق لنفسه وضعاً لا يستطيع أن يتجنب فيه الاشتباك مع العدو ، وهذا الوضع هو القلق الشديد ، حتى لا يرغمه فصل الشتاء على الانسحاب قبل أن يتحقق غرضه .

سير الفتوح

وخير ما يوضح هذه الأحوال ما حدث في حملة سنة ٧٥٤ . ففي شهر يوليه من هذه السنة ، سار شارل بكل جموعه من فورمز ، فتقدم على امتداد الايدر ،

وبفضل ما قام به من حركة نحو اليسار على نهر ديمل ، استولى على الخط الأول من خطوط الدفاع . ولكى يرغمهم على أن يشتبكوا معه فى معركة ، اقتحم موقع إيرز برج المقدس ، وأحرق ما يحيط به من أحراش ، وحطم صنم ايرمنسل ، ووزع أساحة المعبود على أتباعه ، ثم اتجه شرقاً نحو نهر الويزر ، غير أن ما أصاب الأنجراديين من الخوف والرعب ، جعلهم يعلنون خضوعهم واستسلامهم ، فعقدوا اجتماعاً ، ثم قدموا للملك اثنى عشرة رهينة ، و بعد أن تقبل منهم الملك هذه الرهائن ، انسحب إلى منازله الشتوية ، بينما أخذ العدو يتحين الفرص للانتقام دون أن يكترث لمصير رهائنه .

والحملة الايطالية التى حدثت فى السنة التالية ، هيأت لهم فرصة ما لبثوا أن اغتنموها ، إذ أن جماعات من المقاتلين من الانجراديين والوستفاليين ، وهما المجموعتان التى تحملتا صدمة الحملة السابقة ، عبرت الحد المكشوف الذى لم يكن به استحكامات . ففى الغرب أحرقوا كنيسة ديفنتر ، وصاروا ينقبون فى الخرائب عن قبر مؤسسها ليبوين ، الذى أزعجهم بما قام به من صلوات دينية لم تكن مقبولة عندهم . وفى الجنوب نفذت جماعات أخرى إلى أرض الفرنجة الهسيين فلجأ السكان إلى معقل بوريا برج ، وأحرقوا القرى عن آخرها ، وهذا المصير حل أيضا بكنيسة القديس بونيفاس فى فرتزلر ، غير أن أسوارها المشيدة بالحجارة صمدت للحريق ، وسادت الاشاعة بأن اثنين من الملائكة فى أردية بيضاء ، منعا المعتدين من تدنيسها .

على أن السبب الحقيقى لارتدادهم ، هو ما حدث من أن شارل عاد فجأة . ذلك أنه اكتفى بسقوط بافيا ، وترك للبابا أن يراقب حركات دوقات الجنوب وحلفائهم من اليونانيين (البيزنطيين) فى صقلية ، ويبدو أنه لم يتوقع تجدد الاضطرابات فى شمال ايطاليا . غير أنه كان لزاما عليه أن يعلم بأن الانتصار فى

المعركة ليس إلا المرحلة الأولى من الفتح . ولذا عاد من إيطاليا متشبعا بفكرة الانصراف التام للحرب السكسونية .

وامتاز شارل ، باعتباره قائدا ، بالسرعة التي لم تبلغ من الوضوح مثلما بلغته وقتذاك . إذ أنه بلغ انجولهيم قبل أن يدرك السكسون تماما حقيقة عودته . فبادر بإرسال كتائب من خيرة فرسانه لمطاردة العدو ، فدخلوا أرض العدو ، وتبين لهم أن العدو غير مستعد للقائهم فأنزلوا به خسارة بالغة (سبتمبر سنة ٧٧٤) . وفي هذه الأثناء عقد الملك في كييرسي مجلس الخريف الذي يشهده الزعماء ، وأعلن في هذا المجلس أنه سوف يعرض على السكسون ، أن يختاروا بين التنصير أو الدمار . ولقيت الفكرة ، فيما يبدو ، الموافقة التامة ، لأن شارل لم يكن الوحيد الذي لم يلتهب حماسا للغزو بتأثير مواعظ البابا ، وليس من الراجح أن أحدا من الفرنجة أدرك العقبات التي ينبغي التغلب عليها . لم يفكر أحد في أن يناقش ماينطوي عليه هذا التنصير الاجباري من الناحية الأخلاقية . هذه المسألة لم تجر إثارتها إلا بعد تجربة طويلة غير مشجعة ، ولم يثرها إلا أناس مستنيرون من أمثال الكوين ، ومع ذلك فإن الكوين لم يكن وقتذاك معروفا .

واقترن التفكير بالعمل ، ففي ربيع سنة ٧٧٥ ، سار شارل بجموعه من دورين ، واتخذ هذه المرة طريق نهر الرور ، ولم يلبث أن سقط حصن سيجيبرج الوستفالي إثر هجوم ، أما المدافعون عن حصن ارزبرج فإنهم أفادوا من التجربة السابقة ، فجردوا الحصن من تحصيناته ، وهربوا قبل قدوم شارل . على أن الملك لم يقنع بهذا الانتصار ، إذ عزم على أن يقيم في سكسونيا نظام المعاقل الجبلية كالتي أقامها باكتيانيا ، وبفضلها تم له الاستيلاء عليها . ففي كل من سيجيبرج وارزبرج ترك حاميات من الفرنجة تعتبر نواة الجاليات العسكرية التي لم تلبث أن انتشرت فيما بعد في البلاد التي دانت له .

إزعاج السكسون فى سنة ٧٧٥ :

وعند مخاضة هوكستر ، لم تصادف المحاولة التى قام بها السكسون لوقف تقدمه نجاحا يذكر ، إذ أنه تجاوز هذه المخاضة ، فخضع الاوستفاليون بعد أن تعرضت بلادهم للهجوم ، فأخذ الملك منهم الرهائن وقبل منهم يمين الولاء ، غير أنه تقديرا منه لما أظهروه من الإذعان والاستسلام ، ترك أمر تنصيرهم إلى جهود المبشرين السلمية . وقبل زعيمهم هستى أن يتنصر ، فاقتدى به بعضهم ، فجرى تعميدهم فورا . والواقع أن ما حفز هستى على التنصير ، لم يختلف فى جوهره عن دواعى تنصير النبلاء الآخرين الذين تنصروا فيما بعد ، بعد أن تم شراؤهم بمقادير ضخمة من الرشوة . على أن هستى ظل مقيما على عهده خلال ماتلى ذلك من اضطرابات ، ولما تقدمت به السن أضحى من رهبان دير فولدا .

وسار الانجراديون على نهج جيرانهم الشرقيين ، غير أن شارل تلقى وقتذاك من الأدلة والبراهين ، مايدل على المركز الخطير الذى صارت فيه البلاد التى استولى عليها . ففى لوبيك ، وهى موضع لا يبعد كثيرا عن مندن على الضفة اليسرى لنهر الويزر ، أقام معسكرا يتولى حماية طرق موصلاته ، ودرج القادة المكلفون به على أن يبعثوا من قبلهم من الفرسان من يجمع لهم المؤونة ، ويقوم باستطلاع واستكشاف أحوال العدو . وحدث بعد ظهر أحد الأيام ، وبينما كان هؤلاء الكشافة فى طريق عودتهم ، أن اختلطت بهم طائفة من فرسان الوستفاليين دون أن يفطن لذلك أحد ، فدخلت المعسكر دون أن يحفل الحراس بالتصدى لها ، وبادرت بالوثوب على الفرنجة الذين أخذتهم سنة من النوم لشدة حرارة اليوم ، والذين لم يتوقعوا أى هجوم عليهم ، ولقى عدد كبير من هؤلاء الحراس حتفه ، قبل أن يفيق الآخرون من دهشتهم ليتقلدوا سلاحهم ويطردوا هؤلاء

الدخلاء . وأضاف هؤلاء القادة من الفرنجة إلى هذه التضحية ، أنهم عقدوا هدنة مع السكسون المغيرين ، بمقتضاها ارتحلوا في اطمئنان تام .

ولما علم شارل بالنبأ ، عجّل بالعودة ، ولم يحفل بما قدمه له اتباعه من شروط ، بل اسرع في مطاردته لهذا العدو الوقح ، فباغتهم وقتل عدداً كبيراً منهم . وترتب على ذلك أن الوستفاليين أقبلوا على شارل يعرضون عليه شروط الصلح مثلما فعل من قبل جيرانهم ، غير أن إخلاصهم كان موضع شك ، ومع ذلك فإن شارل اعتبر الحرب منتهية ، وكتب إلى البابا هادريان يشير إلى انتصاره في خدمة الصليب ، ويعد بأنه سوف يعود سريعاً إلى إيطاليا .

سوء الأحوال في إيطاليا :

تبين له في صيف سنة ٧٧٦ أنه أخطأ في تقدير قوة سخط الناس في كل من إيطاليا وألمانيا ، ذلك أن اللومبارديين كانوا أول من نقض الصلح ، والسبب المباشر لانتقاضهم هو ما انتهجه البابا من سياسة مثيرة . فعلى الرغم مما اشتهر به البابا هادريان من التقوى والأمانة ، فإن هذه الفضائل جعلت ما يقوم به من العمل لاستعادة أملاك القديس بطرس يستند إلى الحماس الزائد لا التعقل والحكمة ، إذ أن دعاويه مست مصالح جيرانه المعروفين بقوتهم البالغة . فلم يحدث فحسب نزاع بينه وبين رئيس أساقفة رافنا ، بل وقع الشجار بينه وبين هلدبراند دوق سبوليتو ورتجالد دوق كلوزيوم ، وروتجود دوق فريولى ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى الدوقات اللومبارديين الذين تمتعوا بالاستقلال ، ونجم عن ذلك أن تألف اتحاد خطير ، يرمى إلى تدمير كل من هادريان ، وقوة نصيره الفرنجى . ولم يمنع ظهور ادلقيس بجيش بيزنطى في جنوب إيطاليا ، إلا ماحدث وقتئذ من وفاة الأمبراطور قسطنطين كوبرنيموس (سبتمبر سنة ٧٧٥) . ووعد اريجيس دوق بنفنتو بتأييد صهره ، والمبادرة إلى مساعدته ، وربما أحرز الحلف بهؤلاء

الخلفاء نجاحاً موقوتاً . و بذل شارل قصارى جهده ، بما أرسله من سفارات ، وماقام به من تدبيرات ، لتيخلص من مشروع هادريان ، فأحرز من النجاح ما جعل هلدبراند ورنجالد يقبلان حمايته لها على أنه سيدهما . غير أنه لم يستطع استمالة روتجود دوق فريولى . إذ أن طموح روتجود للاستقلال ، جعله يستولى على المدن بدوقيته وتجهز للحرب . كان الوقت ربيعاً ، وكان شارل فى موطنه بأرض الفرنجة فأصبح له مطلق الحرية لمواجهة الخطر ؛ سار شارل على رأس قوة مختارة من جنده ، وتوجه فى سرعة إلى ممر برنر . على أن آمال الثائر وحياته تحطمت فى وقعة واحدة ، إذ لم تصمد تريفيسو إلا وقتاً قصيراً ، ولم يلبث أن فتح أبوابها قس إيطالى لبطريق الكنيسة[1] . وتقرر نفى بعض الثائرين ، وفقد فريق منهم أصابعهم ، ووصف بولس الشماس ، فى عبارات مؤثرة ، ماحل بأسراتهم من الفقر والحرمان . إذ أن أخاه كان من ضحايا الحماس القومى المميت . أما مدن فريولى التى كانت من قبل حرة ، فإنها لم تلبث أن خضعت لكونتات من الفرنجة ، ونزلت بها حاميات من جند الفرنجة .

ولم يكن العصاة وحدهم هم الذين حل بهم الضيق والشدة ، بل إن مملكة اللومبارديين ظلت سنوات فى حالة اضطراب وفوضى . ومن الأدلة على أن شارل لم يُعِر أمرها اهتماماً ، أن عملته الفضية لم تصبح النقد السائد بها إلا سنة ٧٨١ ، وأن الاضطرابات أخذت تغزو الكنيسة القومية ، وأن الإهمال أصاب الطرق الرئيسية ومحطات البريد ، بعد سنوات قليلة . وما ترتب على المجاعة التى حدثت ٧٧٩ — ٧٨٠ من البؤس الشديد ، إنما يدل فيما يبدو على سوء تنظيم الصناعة . وهذا دليل ، وليس هو الدليل الوحيد ، على أن ما وضعه شارل من خطط

---

(١) يشير Paris فى تاريخ فردان Chronicle of Verdun جـ ٨ ، ص ٣٥١ إلى أن هذا القس اسمه بطرس ، وتولى أسقفية فردان مكافأة على عمله . وثمة رواية أخرى للأن خيانته لم تحدث فى تريفيزو ، بل فى بافيا أثناء حصارها سنة ٧٧٤ .

تجاوزت مالديه من وسائل التنفيذ ، أما النتيجة الأولى لفتوحه ، فهى أن حالة رعاياه الجدد تغيرت إلى أسوأ مما كانت عليه من قبل[1] .

وربما ظن شارل أن غرض الحملة تحقق بإعادة الأمن إلى فريولى ، إذ أنه لم يلبث أن سار منها متجها شمالا دون أن يحاول مهاجمة دوق بنيفنتو ، الذى مازال مقيما على عداوته ، بل أنه لم يف بما وعد به من زيارة هادريان . والواقع أن ما اشتهرت به حرب السكسون من الخشونة والعنف لم يترك له سبيل الإختيار . فبينما كان يحتفل بعيد القيامة فى تريفيزو . كانت حاميات الفرنجة فى إرزبرج وسيجيبرج تناضل فى سبيل المحافظة على كيانها وحياتها . ففى أرزبرج تخلى الفرنجة عن القلعة بشروط ، فعمد العدو إلى تجريدها من استحكاماتها ، على أن النتيجة فى سيجيبرج كانت خيراً منها فى أرزبرج . إذ أن ما لدى المهاجمين من أدوات الحصار الثقيلة أساءت إليهم أكثر مما أساءت إلى الذين توجهت إليهم ، وارتفع الحصار آخر الأمر ، بفضل تدخل كتيبة من الملائكة ، كما يروى الأتقياء الصالحون ، غير أن الكتاب العقليين يروون بأن جنود الحامية خرجوا فى الوقت المناسب من باب لم يكن عليه حراس .

تعاليم المبشرين :

ولم يرجع شارل إلا بعد أن انقضى معظم الصيف . فدعا جموعه للاجتماع به فى فورمز ، واستبدت الدهشة بالسكسون ، حين ظهر شارل فى ليبيرنج فى قلب إقليمهم قبل أن تنتهى السنة ، وتبخرت آمالهم فى مقاومته ، ولم يجد الملك فى ليبيرنج جيشاً ، بل وجد جمعاً مستسلماً ذليلا ، وعندئذ عقد مجلساً لمناقشة شروط التسليم . ثم انعقد فى السنة التالية مجلس آخر فى بادر بورن . . ولم تكن النتيجة سوى إجراء تسوية جديدة بالغة الصرامة . وتقدم السكسون برهائن جديدة ،

---

(١) أنظر مرسوم سنة ٧٨١

وارتبطوا مع شارل بما حدده قانونهم من يمين الولاء ، واتفقوا على أنهم إذا نقضوا اليمين ، تحتم مصادرة أراضيهم وحرياتهم . واعتنق المسيحية عدد كبير منهم ، على الرغم من أن دواعي السياسة منعت الملك وقتئذ ، من أن ينفذ ما سبق أن أقسم باستخدامه من العنف والشدة التي لا هوادة فيها . على أنه أعدّ مبشريه للقيام بالعمل ، فقسّم البلاد المفتوحة إلى مناطق عديدة ، وعيّن على كل منطقة مراقباً يقوم بواجباته دون أن يتخذ لقب أسقف ، غير أن أرواح هؤلاء الرواد ومصائرهم اختفت في الظلام ، ولم نعرف من أسمائهم إلا شتورم أسقف فولدا . ولم يشترك مؤسسا الكنيسة السكسونية ، القديسان لندجر ، ووليهات في أول الأعمال التبشيرية .

ومن المعلومات الضئيلة عن المبشرين الأوائل تستخلص أنه لم تصل إليهم عبقرية القديس بونيفاس ، بل إن شتورم نفسه ، وهو من تلاميذ بونيفاس لم يكن في نشأته مبشراً مثلما كان رجلا سياسياً . أما المسيحية التي تقرر تقديمها أول الأمر للمتنصرين فلم تكن إلا مجموعة من النظريات والنواهي الجافة ، وارتكن التبشير بها على إثارة ما في العادات القديمة من عيوب ونقائص ، واتخذ التبشير صوراً جافة ، فيجري اختبار الشخص الذي تم تعميده على النحو التالي :

س — ألا تتخلى عن الشيطان ؟ .

ج — أتخلى عنه .

س — وعن عبادة الشيطان ؟ .

ج — أتخلى عن عبادة الشيطان .

س — هل تؤمن بالله الأب القوى ؟ .

ج — أومن بالله القوى . .

س — هل تؤمن بالمسيح ابن الله ؟ .

ج — أومن بالمسيح ابن الله .

س — هل تؤمن بالروح القدس ؟ .

ج — أومن بالروح القدس .

فلاعجب إذا لم تحرز المسيحية إلا تقدما ضئيلا حين لم تعرض أكثر من هذا على قوم عاشوا على الخرافات القديمة البدائية المرتبطة بالآلهة هيلا ، وفافلا ، وثور ، وأودين ، قوم تصوروا أن الآلهة تعيش فى كل شجرة من أشجار البلوط ، وفى كل ينبوع ، وفى كل صخرة ؛ وظنوا أن الخراج والغابات زاخرة بالهوام والعفاريت ، وأناس فى صورة ذئاب ؛ ورأوا فى كل مظهر من مظاهر الطبيعة، وفى كل مايصيبها من تغيير ، رمزاً للنضال بين قوى الخير والشر . ولم تكن حياتهم إلا فلاة حافلة بالفخاخ والمصائد ، وليس فى إستطاعتهم أن يغادروا مساكنهم إلا بالالتجاء إلى التطير والتمائم (التعاويذ) . ولا يستطيعون أن يناموا مطمئنين إلا بعد أن يحفروا حول مساكنهم خندقا ، وإذا لم يحتفلوا بأعياد الآلهة ومواكبها ، فلا شك أن محصولهم سوف تصيبه الآفات والصقيع . أما العقيدة الجديدة فإنها حرمتهم من هذه الحابات البدائية ، ولم تقدم لهم عنها بديلا ، بل إنها أضافت إلى مخاوفهم ماتضمنته من فكرة الشيطان الذى يعتبر الجنس البشرى موطن الكراهية . لم تكن العقيدة الجديدة إلا معنى جافاً بارداً أجوف ، على حد مايتغنى بذلك جيرانهم من التشيكيين ، لم تنطو على شىء سوى الاعتناء لآلهة الفرنجة ، والتعلق دائما أبدا بزوجة واحدة . وعلى هذا النحو جرت الأحوال أول الأمر ، على أن شارل لم يلبث أن وجد بعد سنوات مبشرين توافر فيهم الحنان واشتهروا بقوة البيان والفصاحة ، استطاعوا أن يقتلعوا جذور الديانة القديمة بما يروونه عن هلياند الذى اشترى للجنس بدمه النصر على كل قوى الشر .

« ما انتهى من حرث جهنم ، حتى فك الأسر عن بها من الأسرى ليظفر بنا . » .

ومع ذلك فإن شارل اكتفى فى الوقت الراهن بشتورم ورملانه ، وأوشك أن يكتمل الفتح ، لولا أن حدث طارئ ، صغير ، ذلك أن ويتيكند زعيم الوستفاليين ، الذى لم يبلغ وقتذاك من الشهرة ما بلغه فيما بعد ، لم يحضر فى بادر بورن مع من حضر من الوستفاليين . « ولما أحس ويتيكند بما ارتكبه من الجرائم العديدة » على حد قول المؤرخ ، الذى نستخلص منه أن ويتيكند قام فعلا بدور كبير فى الحرب ، هرب إلى سيجفريد ملك الدنمرقيين الذى تزوج أخته . غير أن الحادث لم يزعج شارل ، إذ بلغ به الاطمئنان ، أنه شرع فى هذا الوقت فى إنشاء ضاحية فى بادر بورن فى موقع لم تجذبه إليه ما امتاز به من الجمال الطبيعى مثلما اشتهر به من المزايا الاستراتيجية . وماحدث من تصميم مبانيه ، إنما يعكس فى دقة روح الفتح والغزو . فإلى جانب القصر ، أقام كنيسة نذرها لمنقذ البشرية ، وأضحت البذرة التى نبتت منها فيما بعد المدن الأسقفية الشهيرة بشمال ألمانيا .

الروح الصليبية :

وقبل أن تكتمل بادر بورن ، أبدى شارل الدليل القاطع على ما اشتهر به من ثقة كاذبة ، بما قام به من حملة إلى ما يصاقب طرف أملاكه الشاسعة من بلاد ، فعبر جبال البرانس ، وهاجم الاستحكامات الامامية للإمارة الأموية .

وهذه الحملة التى لم يكن لها ، فيما هو ظاهر ، غرض معين حيرت مؤرخيه . إذ أن السياسة السليمة تقتضى الإقامة المستمرة فى سكسونيا ، فإذا احتاج إلى جديد من الأعداء ، فإنه يصح أن يلتمسهم بين القبائل المغيرة من الصوار بيين والونديين النازلين فيما وراء نهر الإلب . غير أن هذا كان شأن شارل ، يجد المتعة والسرور فى القيام بخطة ضخمة تهيء له مغامرة جديدة أثناء فترة الراحة . فالحياة قصيرة والمستقبل ليس محققا . وحيث أن عنده من الأعمال الكثيرة ما ينبغى أن يؤديها ، فعليه أن يقوم بكل هذه الأمور دفعة واحدة . وهذا النوع من الرجال ، الذين لا يثقون إلا

فى أنفسهم ، والذين اشتهرت طبيعتهم بالدأب على العمل ، لا يمعنون فى الثقة بمن يخالفهم من الرجال .

غير أنه لماذا يناوئ شارل المسلمين الذين لم تتعرض غالة لخطر من قبلهم منذ حروب شارل مارتل وببين ؟ لم يرد فى القصص إلا إجابة واحدة . ففى قصة تيربين Pseudo-Turpin التى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، ورد أن شارل ، بعد أن استولى على مالا حصر له من المدن والأمم ، اشتدت به الرغبة إلى الخلود إلى الراحة . وبينما كان ذات ليلة ضاجعا يرقب السماء فوق رأسه ، رأى وقتئذ أن الطريق يبدأ فوق بلاد فريزيا ، وهى أقصى أملاكه شمالا ، واتجه عبر السموات نحو الجنوب ، ولم يزل ينحنى فوق الأرض الشاسعة للامبراطورية حتى استقر طرفه على جليقية التى تقع خارج الأمبراطورية . دهش شارل وعجب لما يدل عليه هذا الأمر . وفى رؤية ارتآها شارل، نادى الرسول القديس جيمس الإمبراطور، وقال له: إن جثمانه الذى لا يعرفه المسلمون والمسيحيون ، يرقد فى تلك الأرض النائية ، وأمر شارلمان بأن ينهض ، وأن يستخلص جليقية من يد المسلمين . وتكرر ظهور الرؤية ثلاث مرات ، وفى المرة الرابعة لبى شارلمان النداء .

على أن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا شيئا مما انطوت عليه هذه الأسطورة من مغزى . إذ أشار اجينهارد فى إيجاز « إلى الأمل فى فتح بعض المدن » . أما مؤرخ لويس التقى ، فهو أول من أشار إلى أن الملك أراد أن يساعد الكنيسة بأسبانيا . ومن الطبيعى أن هذا الكاتب اختار النغمة التى توافق ما اشتهر به سيده من الورع والتقوى ، بينما لم تحفل وصيته بهذا الموضوع[1].

لا شك أن ثمت أسبابا سياسية لهذه الحملة . إذ أن رجال السياسة شمال البرانس كادوا لا يعرفون أن قوة الأمويين أخذت تتداعى ، وأن غالة ليس لديها

(١) يبدو من رسائل هادريان أن شارلمان لحملته سيأ يتمثل فى خوفه من إغارة المسلمين على غالة . Jaffé, Mon. Carolina p. 201 .

من الدواعي ما يجعلها تخشى أسلحتهم في المستقبل . وكيفما كان الأمر ، فإن شارل رأى أنه من الخير تقوية الأطراف الاكيتانية ، والإمعان في تخويف الغالبين الرومان باستعراض الجيش الوطني ، وأن يجعل لهم عدوا آخر من غير الفرنجة يحاربونه .

ومن ناحية أخرى ، امتاز كل عصر من العصور ، بأنه يدخر من العواطف ما يبلغ بعضها من العمق أنه قلما يجري التعبير عنها بألفاظ . فالكراهية للمسلمين ، والرأفة بالرعايا المسيحيين للقوط الغربيين الذين سقطت مملكتهم ، تعتبر من هذا النوع من العواطف التي أثرت في عصر شارل . أما خلافة بغداد فإنها تبلغ من بعد المسافة ما يجعلها عديمة الخطورة ، وتبادل بين القيصر مع المنصور أسباب المجاملات ؛ وكذلك كان شأن شارل مع هرون الرشيد[1] . غير أنه جرت العادة وقتذاك (عند المسيحيين) بأن مسلمي أسبانيا وأفريقية مهما اشتد الإعجاب بتفوقهم في الفنون والعلوم ، لا ينبغي أن يرد ذكرهم مجردا من نعوت الكراهية . ظل ملوك اشتوريس وأساقفة طليطلة على اتصال مستمر بالمسيحيين في مختلف البلاد . ولا شك أنهم أمعنوا في إثارة هذا الشعور العدائي . أما رجال الكنيسة فصاروا يترقبون الساعة التي ينبغي أن تعود فيها قرطاجنة القديس اغسطين إلى حظيرة الصليب ، وأن تقوم المجامع المسيحية بوضع قوانين أسبانيا على نحو ما حدث في الزمن السالف . وتلقى شارل من البابا هادريان فكرة أن الحرب مع الوثنيين هي رسالته التي اختص بها ؛ فأعد شارل نفسه لخدمة الكنيسة ، سواء على نهر الإلب أو على نهر الإبرو .

المسلمون ومحالفتهم شارل :

لم يتردد مؤرخو أسبانيا في أن يحطوا من قدر شارل ، عند مقارنته بعبدالرحمن صاحب قرطبة ؛ الذي يغزو شارل ممتلكاته . على أننا إذا درسنا علاقات

---

(١) عن العلاقات بين شارل والمسلمين انظر الملحق الوارد في آخر الكتاب . [illegible]

عبدالرحمن برعاياه ،فإن هذا الرأى لايكاد يستقيم . فالغدر والتشكك وسفك الدماء تعتبر طابع ما قام به عبدالرحمن أثناء حياته من أعمال رئيسية . غير أن ما اتبعه مع الأسبان المسيحيين من سياسة ، تجعل سياسة شارل مع السكسون تبدو عند مقارنتها،شديدة البغض والكراهية . فلم يكن المسيحيون فى أسبانيا أسوأ حالا مما كانوا عليه زمن القوط الغربيين . والراجح أن الحكام الجدد التفتوا إلى مصالحهم المادية . أما دياناتهم فالمعروف أنها اتسمت بالتسامح مع غير المسلمين . احتفظ المسيحيون بكنائسهم ، وجرى إعفاء رجال الدين عندهم من دفع الضرائب،وزالت طبقتهم الارستقراطية ؛ ولم يتعرض الرقيق وصغار الملاك والصناع لأية إثارة أو اضطراب . ودفع كل الأحرار من الرجال ضريبة الرأس التى تدرجت مقاديرها حسب طبقاتهم ؛ وتحتم على ملاك الأراضى ان يؤدوا ضريبة إضافية على مجموع إيراداتهم تبلغ ٢٠ ٪ ؛ غير أن الدولة منحتهم مقابل ذلك نظاما قضائيا كاملا . والخلاصة أنهم نعموا بالسعادة والرضى . ولحظ شاعر فرنجى ، أنهم صاروا فى بعض الأحوال يعلنون صراحة انهم يؤثرون حكم المسلمين . لم يكن المسيحيون هم الذين دعوا شارل للقدوم إلى اسبانيا ؛ إنما جاءت الدعوة من قبل بعض المسلمين الذين تآمروا على الأسرة الحاكمة . إذ ان عبد الرحمن يعتبر آخر سليل للأسرة التى حل مكانها فى الحكم العباسيون فى بغداد ؛ ويدين عبد الرحمن بقيامه فى اسبانيا إلى ما حل من الهزيمة بالأمير العباسى ، فإلى الشمال من نهر الابرو، استقرت طائفة من الامراء الأقوياء الذين يكرهون عبدالرحمن ويعتبرونه مغتصبا للحكم . فلما يئسوا من مساعدة بغداد لهم ؛ لجأوا إلى شارل . ولما انعقد المجلس القبلى الكبير فى بادربورن فى سنة ٧٧٧ جاء ثلاثة منهم : أبو الأسود ، وابن حبيب ، والعربى أمير برشلونه ؛ وتقدموا إلى شارل الملك المسيحى بأن يجعلوا أنفسهم ورعاياهم فى حمايته(١) .

---

(١) انظر الملحق فى آخر الكتاب .

رونسيفال :

أعلن شارل استعداده للموافقة على هذا العرض ، ولم يرجع الرسل إلا بعد أن أتموا إعداد الخطة لحملة حربية . وعد ابن حبيب بأنه حينما يظهر ملك الفرنجة فى أسبانيا ، سوف ينحاز إليه بجيش يؤلفه من قبائل البربر بشمال افريقيا ،أما الاثنان الآخران فتعهدا بأنهما سوف يستخدمان نفوذهما المحلى لصالحه . وأدّى الملك ما التزم به فى الاتفاق سنة ٧٧٨ ، إذ سار شارل عقب عيد القيامة من كاسينى Cassineuil قاصداً جبال البرانس ، وانضوى تحت لوائه كتائب من البافاريين واللومبارديين والبرجنديين والاستراز يين والبروفنسال والسبتمانيين ، فتألف منهم جيش ضخم ، ساروا ،حسب العادة السائدة ، فى صفوف متوازية ، فقاد طابور دوق برنهارد ، والتزم فى سيره ساحل البحر متخذاً طريق جيروندا Gerunda و برشلونه . أما شارل فتولى قيادة طابور آخر واتخذ الطريق المباشر إلى بامبلونا . وتقرر تعيين سرقسطة مكاناً للاجتماع ، ولسيطرة هذه المدينة على نهر الابرو ،تعتبر الهدف الأول للغزاة .

على أن عوامل الفشل ظهرت منذ البداية ، إذ أن ابن حبيب قدم بجيشه من البربر إلى ساحل مرسيه قبيل وصول الملك . أما الأميران الآخران فاعتبرا أن ابن حبيب قام بعمله قبل الميعاد المحدد ، فرفضا التعاون معه . ولم يلبث أن عاجله بالقتل رسول من قبل بلاط قرطبة ، فتبدد بذلك جيشه . وعلى الرغم من أن مدن هويسكا وجيروندا و برشلونة ، فتحت أبوابها للغزاة حينما وصل شارل إلى بامبلونا ، فإن أهل سرقسطة لم يحفلوا بما تفاخر به أميرهم العربى من نفوذ وسلطان . فما كاد يصل الملك إلى أسوار مدينتهم ، حتى تراجع منهزماً أمام هجوم خطير ، فعاد وقد امتلأ غيظاً و يأساً . و إذ أرجع شارل هزيمته إلى الخيانة ، أمر بالقبض على العربى الذى بقى وحده ، دون الأمراء الآخرين ، على قيد الحياة ، وأبدى حماسه لهذا الأمر ، فقاده شارل أسيراً مع الرهائن الذين أخذهم من المدن الأسبانية ،

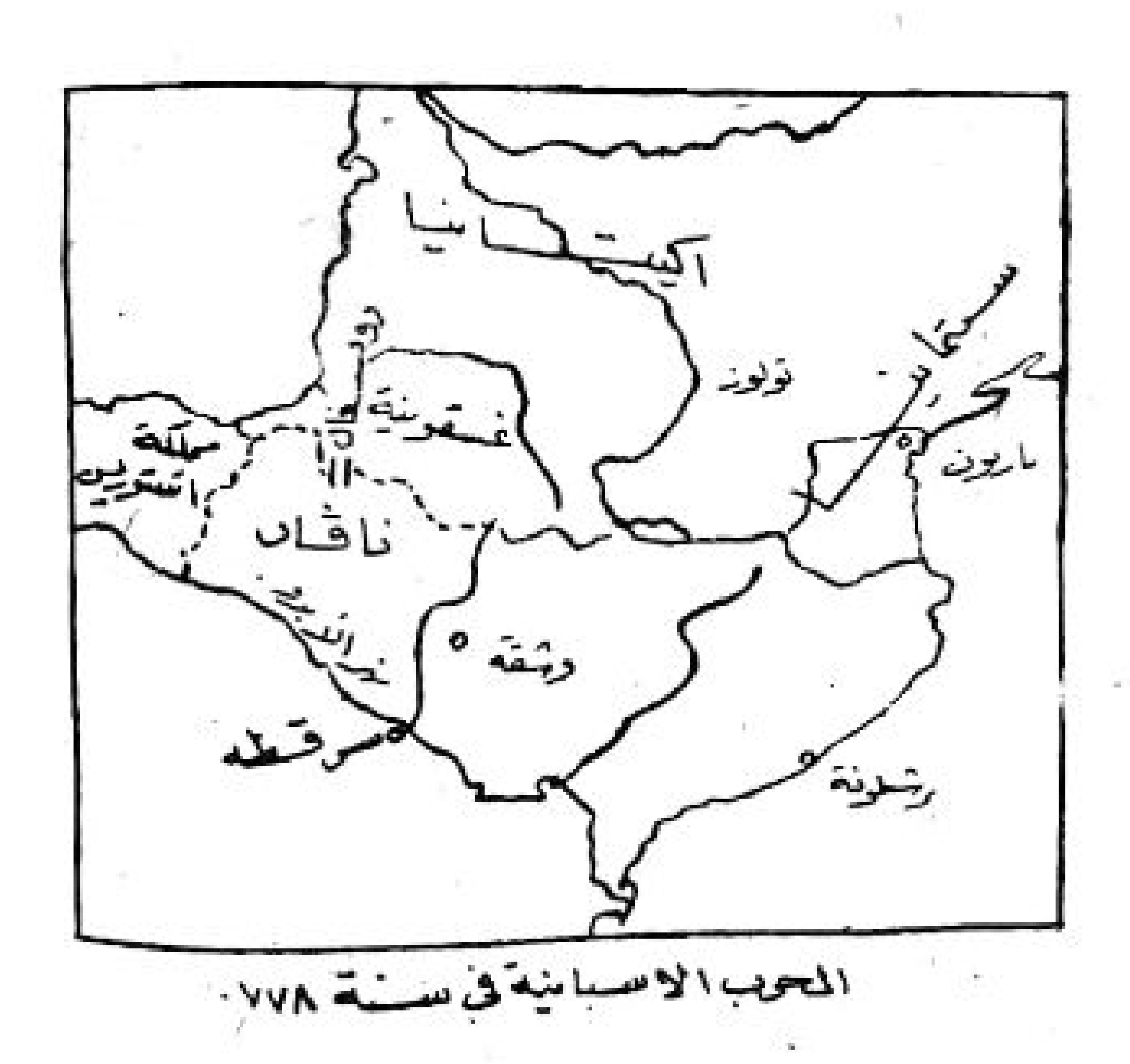
على أن شارل لم يفقد الأمل فى العودة فى وقت قريب . والدليل على ذلك أنه دمّر أسوار بامبلونا حتى يبقى ممر رونسيسفال مجرداً من الدفاع .

ولا نعرف إلا القليل عن الهزيمة التى اقترن بها اسم رونسيسفال[١] . أما أنشودة رولان التى تعتبر المصدر الأول للملاحم ، فإنها فى صورتها الحالية لا ترجع إلى أبعد من القرن الحادى عشر . ولم يرد بحوليات البلاط عن الموضوع إلا عبارات قليلة غامضة ، ولم يكن اجينهارد أكثر دقة ، «فالفسقونيون» هم الذين قاموا بالهجوم . ويصح أن نفترض أن الاسم إنما المقصود به سكان جبال نافار . والراجح أن ما قام به شارل من تدمير أسوار بامبلونا يعتبر السبب الذى دفعهم للهجوم . نصبوا كميناً لمؤخرة الجيش وقطار الدواب التى تحمل المتاع ، وأمعنوا فى النهب والتخريب ، وقتلوا بعض كبار رجال القصر ، الذين وردوا فى القصص باسم فرسان البلاط (Paladins) ، الذين تولوا القيادة . ومن هؤلاء القتلى الصنجيل اجينهارد ، ورولان متولى حكومة بريتانى[٢] . وما زال شاهداً قبرى هذين الفارسين قائمين ، ومع ذلك لم يشيرا إلى شىء محدد سوى تاريخ القتال (١٥ أغسطس سنة ٧٧٨) . والواقع أن هذا الحادث المحزن، أضحى فى نفس الوقت موضوعاً للأناشيد الشعبيين ، فالهزيمة كانت كارثة مريعة ، وبذل الملك كل ما فى وسعه من جهد ليثأر لها ، غير أن المهاجمين اختفوا تحت جنح الظلام ولم يعثر لهم على أثر . هذا هو السجل البسيط لتاريخ الأنشودة . أما القصة العاطفية فى جانيولون ومارسيليو ، ونفير رولان ، وكيف توقفت الشمس فى السماء ثلاثة أيام ، بينما واصل

---

(١) لم تحتفظ باسم رونسيسفال إلا لكثرة تكراره ، والواقع أن شارل لم يستخدم الممر المعروف الآن بهذا الاسم ، بل اتخذ الطريق القديم الذى يجتاز الجبال ، على مسافة قصيرة منه جهة الغرب .

(٢) متولى حكومة حد بريتانى كان دائماً من ذوى المكانة ، وهو من الأفلال الذين جاز أن يكون لهم دار ضرب .



الحروب الاسبانية في سنة ٧٧٨.

شارلمان انتقامه وثأره ، فإن خير قصة تجرى دراستها بها هى قصة (Magnanime mensonge) عن تيربين[١] . وفى هذه القصة ، تجرى هذه الحالة التى لا تعتبر إلا حلقة من حلقات أعمال بالغة الخطورة فى عصره ، والتى أصبحت بفضل تغير الحظوظ والأحوال أصل كل أدب الملاحم . على أن الفرنجى واجه المسلم فى أحوال أخرى فى هذا العصر . غير أن شارل لم يشهد واحدة من الحالات المتأخرة . على أن النتيجة التى افترضها تحققت آخر الأمر . فالإقليم الواقع بين جبال البرانس ونهر الإبرو ، أضحى الطرف الأسبانى لمملكته . و يعتبر الاستيلاء عليه ، أعظم ما أحرزه لويس التقى من أعمال . ولذا سوف يرد خبره فى موضعه . على أن الخطر من قبل أسبانيا ، الذى سبقت الإشارة إليه ، لم يكن بالغ الأهمية على وجه الإطلاق . فإذا كانت شهرة شارلمان فى الشعر ارتكزت على حدوث معارك وهمية مع المسلمين ، فإن ما لشارل الكبير من شهرة تاريخية تعتمد على أساس أشد صلابة ، بما أداه للمدنية والكنيسة فى ألمانيا من خدمات حقيقية .

---

(١) انظر الفصل الثانى عشر .

الفصل السادس

الحرب السكسونية الثانية

بافاريا — تسوية أمر ألمانيا

٧٧٩ — ٨٠٠

وفى رونسفال ، تلقى شارل أول هزيمة فى حياته ، فتحطم بذلك سحر الحظ السعيد . والعشرون سنة التالية، توالى بها الملمات الداخلية والنكبات العامة . ففى ألمانيا و إيطاليا وشمال أسبانيا وفى شبه جزيرة أرموريكا (بريتانى) اكتسحت جيوشه كل مايصادفها، غير أنه ظهر الخونة فى هذه الجيوش، ومن بين أصدقائه وأتباعه ، ولم يلبث أن أصاب كأس النصر والفوز ما عكره . وكان ذلك هو الثمن الذى دفعه فى شهرته وعظمته ، فالشعوب التى لم تكن حتى ذلك الحين وثيقة الصلة بمملكة الفرنجة ، انتبهت مرتاعة وجلة على الحقيقة التى جعلت أن كل فتح لا يترتب عليه سوى اشتداد ما يربطها من قيود . وفى قلب المملكة فى بلاد الراين ، تذمر النبلاء لما حدث من ازدياد ضغط الحكومة المركزية . وما أحرزه الملك من انتصارات جعلت له من علو المكانة عليهم ما هدد سلامتهم ، ذلك أن « عالمهم الصغير أصبح يجتازه العملاق فى خطوة » ، فتحول حبهم إلى خوف ، وتحول الخوف إلى كراهية . وفى أثناء هذه السنوات ، عاش الملك فى جو طافح بالخيانة والشك ، وحانت أوقات بدا فيها كأن سلطانه أوشك أن ينقض ، وأن حياته تكاد لا تساوى أجر ساعة . والواقع أنه لم يكن ثمت من الأشخاص إلا قلة ، يستطيع أن يثق فيهم ، ومعظمهم من أصدقائه القدامى ، غير أن الموت أخذ يحصدهم كل سنة،

الواحد بعد الآخر ، إذ أن شتورم أسقف فولدا قتله ما جلبته عليه متاعب[1] السكسون من جهد وعناء . أما هيلدجارد الشقراء التى شهد كل معاصريها بما لها من نفوذ فى تهذيب زوجها ، فإنها ماتت أثناء وضع أحد أطفالها ، وكانت « امرأة جديرة بأن تسهم فى حكم بلاد كثيرة » . ولم يلبث أن أعقبها فى الوفاة ، الملكة الوالدة برتا ، وما اشتهرت به من الوجه الصارم ، والقبعة الضخمة والمغزل ، فاختفى من البلاط آخر القيود المفروضة على حرية أحفادها . واختفى من المجلس الملكى ، الصوت الوحيد الذى يستطيع أن يصرخ عالياً « قف » فى وجه الملك ، حين يكون فى أشد حالات الغضب . وعلى الرغم من أن البابا هادريان عاش حتى سنة ٧٩٥ ، فإن ما وقع من الاختلافات الدينية والسياسية ، فرق بين شارل و بين هذا المستشار الصادق . ومع أن الملك حزن على وفاة هادريان مثلما حزن على وفاة أبيه ، فإن حنقه وسخطه اشتد حين تبادر إليه أدنى شك فى قوامته ، وربما ظن أنه يستطيع أن يتصرف وحده . ولعل سوء ظنه بغيره من الناس ، وعدم ثقته فيهم ، أفاد الأجيال التالية . وكان ذلك طبيعياً فى وقت تبين فيه أن مزاج زوجته سوف لا يؤدى إلا إلى خرابه ودماره ، وحدثت فيه مؤامرة يرأسها أخوه الأكبر . فأضحى بذلك رجلا وحيداً ، شديد الكراهة والبغض لغيره من الناس ، وهذه المرحلة من حياته على الرغم من أنها فى مظهرها الخارجى جلبت له من المجد ما لم يعرفه ، وشهدت اكتمال عهد المجيد فى ألمانيا ، فإنه خالطها من أعمال القسوة ما لم تستطع دواعى السياسة أن تبررها . درج شارل على أن يمزح مع علمائه و يعرض ألغازه وأحاجيه ، وأن يلهو مع السكوبين فى الفنون والآداب . لم تكن عبقريته إلا ظاهرية سطحية . وما تلهى به من العلم فى فترات لم يتعلم منه التسامح أو الرحمة . و بما اشتهر به من

(١) مات شتورم فى شتاء سنة ٧٧٩ — ٧٨٠ . استخدمه شارل أثناء حملة السكسون مستغلاً [illegible] ، إذ أن شارل لم يقبل أن يقتصر رجال الكنيسة عنده على الحرب الدينية ، وحينما تولى شتورم هذه الوظيفة ، كان طاعناً فى السن فاشتدت به العلة ، وما كادت تمضى أيام على اشتداد العلة حتى قضى شتورم نحبه .

الاعتقاد الأعمى فى صواب غرضه، والعجز التام عن إدراك وجهة نظر عدوه فى أمر من الأمور ،حطم بقوة بالغة القسوة كل مايواجهه من معارضة ، وطرح جانباً المظاهرات التى بلغت أذنه أصواتها بمختلف الألحان . على أنه لم ينل كامل ثقته إلا السكوين وحده على حد زعمه . ومع ذلك فإن السكوين انزوى مرتاعاً من أعمال ، سمع بوقوعها أو شاهدها . وبرغم ما اشتهر به هذا الإنجليزى من التفوق فى كل ما يتعلق بإصلاح الكنيسة والتعليم من أمور ، فإن صوته ضاع هباء حين تقدم بنصيحة متزنة عن الحرب السكسونية وتدمير الآثار .

وأول ما ترتب على رونسيفال من المخاوف ، أن الهزيمة ربما شجعت على الروح الثورية فى اكيتانيا . أقام شارل بها بضعة أسابيع فى أوائل تلك السنة ، وعلمته هذه الزيارة القصيرة أن هوة واسعة من التعصب والكراهية ما زالت تفصل بين الغاليين الرومان و بين التيوتون فى الشرق والشمال . فالغاليون الرومان لم يعطفوا مطلقاً على مشروعه بشأن فتح ألمانيا ، وما حدث كل سنة من دعوة الجيوش إلى حملات إلى جهات نائية ، جمات سخطهم يتجاوز الحدود . أما استرضاؤهم بتخفيض مطالبه فيعتبر خطة لم تخطر له على بال ، إذ آثر أن يدعم ما هو قائم من وسائل القوة والقهر . ففى طريق عودته إلى موطنه ، توقف كيما يعيد تنظيم الأراضى التى يحدها نهر اللوار ، فزاد من تحديدها وتضييقها ، فجعل كونتات من الفرنجة فى المقاطعات الشمالية كالأوفرن ، وبرى ، و بواتو ، وسايتونج . وفى أقصى الجنوب أقام دوقية طرف تولوز ، التى شملت كونتيات عديدة ، وقصد منها أن تكون حائلا ضد إغارات المسلمين .

القتال فى سكسونيا :

على أن الخوف إما أنه لم يكن قائماً على أساس ، أو أن الاحتياطات كانت قوية فعالة . فإذا حان الخطر ، دهمه من موضع آخر ، فالسكسون الذين أحيوا

عن طيب خاطر ، أن يؤدوا الجزية من الماشية مثلما وعدوا به بيبن ، لم يستطيعوا أن يتحملوا وجود حاميات من الفرنجة ، أو بعثات تبشيرية من قسس الفرنجة .

وفى صيف سنة ٧٧٨ ، عاد ويتيكند إلى موطنه من دانمرقه ، وجرى استقباله بترحيب بالغ الحماسة ، وما لبثت الثورة أن عمت وانتشرت ، فاقتحم الثوار الحصن الواقع على نهر ليب ، والذى أطلق شارل اسمه عليه (كارلشتات) ، ودمر الحريق أسواره . أما الفرنجة المرابطون فى إريزبرج ، فلم يجرءوا على الخروج من الحصن والبروز للقتال . وهرعت العصابات المقاتلة إلى هس ، دون أن تتعرض لهجوم ، وأخذت تحرق وتخرب كل ما صادفها ، ولم تكترث بالسن أو النوع .

وخرج رهبان دير فولدا بقيادة شتورم رئيس الدير ، يحملون رفاة القديس بونيفاس ، إلى مكان بعيد مأمون . وعلى امتداد نهر الراين ، من دويتز إلى أندرناخ ، عمل الغزاة كل ما أرادوه ؛ ولم يوقف نهر الراين ذاته تقدمهم ، إذ أن عصابة منهم دخلت إلى كلن وأشعلت النار فى كنيسة القديس مارتن ، وأرسل الاستراسيون وقد استبد وقد استبد بهم الخوف والجزع ، يلتمسون المساعدة من الملك والجيش .

على أن السنة أوشكت الآن على النهاية ، وأنقضى أجل الخدمة العسكرية . أرسل شارل الحسيين ليدافعوا عن مساكنهم ، بينما أمضى الشتاء ، جريا على عادته ، فى الاحتفالات والصيد والمشاورات . غير أنه فى يونيه سنة ٧٩٩ حشد كل جيشه فى دورين وسار جهة الشرق ؛ وكان الوقت سيئاً ، إذ اشتدت المجاعة ، وأثار الوباء الخوف والارتياع . على أنه لم يلحظ من هذه المصاعب ، إلا ما اقتضى منه أن يأمر الأسقف فى كل كنيسة كاتدرائية بأن يقوم بثلاثة قداسات وأن يتلوا المزامير ثلاث مرات ، الأولى للملك ، والثانية للجيش ، والثالثة للشدة القائمة[1] ، وحينما سار متتبعاً نهر ليب ، وجد قوات ويتيكند قد امتنعت فى خنادق خلف خطوط قوية فى بوخولت ، فبادر بمهاجمتها واقتحم الموقع ، وكانت هذه أول وقعة حاسمة

---

(١) انظر هذا الأمر الصادر فى هذه السنة فى Boretius جـ ١ ص ٥٢ .

من وقائع الغزو ، وتعتبر من الوقائع القليلة التى خاضها شارل بنفسه . وما اتخذه الفرنجة من الزرد ، وما ارتدوه من الملابس الضيقة ، وماقاموا به من هجوم عنيف ، جعلهم هدفاً ، تيسر للسكسون أن ينالوا منه فى كل ماوقع من اشتباكات . وحاول ويتيكند أن يسد النقص الذى حدث فى جنده ومعداته ، بما اجراه من الصفقات سراً مع تجار الفرنجة . غير انه لم يلبث أن تم اكتشاف المهربين فى الوقت المناسب ، وصدر فى هذه السنة مرسوم يقضى بمنع تصدير الزرديات ، وفرض عقوبات شديدة على من يخالف ذلك .

وبلغ الجيش نهر الويزر دون أن يصادف مقاومة ؛ وعرض الوستفاليون جرياً على عادتهم الولاء على أنه وسيلة لكسب الوقت ، أما جيرانهم الذين ظلوا حتى هذا الحين بعيدين عن الثورة ، فإنهم جددوا خضوعهم وإذعانهم . وفى السنة التالية عاد ثانية ، وعكف ، مثلما فعل فى اكيتانيا ، على إصلاح نظام حكومته . إذ زاد فى مناطق البعثات التبشيرية ، وأمعن فى تشييد الكنائس ، وأكثر من جلب القسس ، وأقام على التلال وفى الغابات حصوناً جديدة ، وأوصل بينها بالطرق والجسور[1] . وبعد أن انتهى شارل من عقد المجلس القبلى الكبير ، فى ليبسبرنج ، عبر نهر الويزر ، وفى أورهيم التقى بالسكسون ، الذين قدموا من الجهات الشرقية ومن شمال نهر الإلب ليعلنوا خضوعهم . وفى هوهبورج التى تقع مباشرة شمال موضع مجدبرج الحالية ، شيد جيش الفرنجة حصناً ليكون الحد الشرقى ، وليسيطر على المخاضات المواجهة للقبائل النازلة فيماوراء النهر . وتوجه شارل

---

(١) تشير حوليات الفرنجة Annales Francorum إلى ما جرى إقامته من الطرق سنة ٧٨٥ ، ولم يرد فى المرسومات عنها إلا إشارات قليلة . ولم يحدث فى هذا العهد ، فيما يبدو ، أن عرفت طرق جديدة فى إيطاليا وشرق الراين . وتعهد الكونتات بصيانة الطرق والجسور القديمة ، وتم عليهم القيام بذلك ، لأغراض حربية . على أن فن تشييد الجسور كان متأخراً عند الفرنجة . أما الجسر المشهور الذى قام على الراين عند ماينز فكان من الخشب ، وكانت دعائمه من الحجارة . وفى أواخر عهد شارل جرى استخدام القوارب جسوراً على الدانوب والويزر .

يشرف على العمل بنفسه .وعلى الضفة الغربية لنهر الإلب التقى وجها لوجه مع طلائع الصقالبة . فأرسلت إليه قبيلة من قبائلهم وهى أبو تريت الرسل فى أورهيم . وعلى الرغم من أن الويلتزيين والصورابيين كانوا أكثر نزوعا للقتال ، فإنهم لم يكونوا خطرا على التيوتون . وعاد الملك دون أن يشتبك معهم فى قتال . لم يكن يخطر على باله ،أن قومه سوف يشتبكون مع هؤلاء القوم الرعاة فى يوم من الأيام ،فى سبيل حياتهم . إذ أنه ، مثل أغسطس ، بلغ نهر فرات آخر اعتبره الحد الشرقى الطبيعى لمملكته ، ولم يطرأ على هذا الحد إلا تغييرات طفيفة ،إلى أن ظهر تراجان آخر فى شخص اوتو الكبير[١] .

التنظيم الإدارى فى سكسونيا :

على أن أعمالا كثيرة لابد من إجرائها فى داخل هذا الحد . جعل سنة ٧٨١ لما فى إيطاليا وباقاريا من مسائل ملحة . ولما انتهى شارل من تسويتها ،عاد إلى ليبسبرنج، ووجه اهتمامه الأساسى إلى إقامة نظام إدارى تام . لم يعمل ، مثلما فعل فى اكيتانيا ، على استقدام كونتات من الفرنجة ، ولم يستعمر الأرض على نطاق واسع بمساعدة الأفصال من الفرنجة ، بل آثر أن يبقى على الإمارات القائمة ، واكتفى بأن أنعم على كل زعيم بما لكونت الفرنجة من لقب وسلطان . وهذا النظام هو الذى سار عليه أسلافه فى ألمانيا وتورنجيا ، واتبعه أيضا فى لومبارديا . على أن الحوادث الأخيرة دلت على أن سكسونيا تتطلب علاجا خاصا ، غير أن هذه الخطة المبتكرة التى جرت سنة ٧٨١ يجوز الدفاع عنها إزاء كل مايوجه إليها من تهمة بالغة الرعونة، لأن أملاك الزعماء اشتهرت بصغر مساحتها، فوستفاليا هى القسم الوحيد الذى تستطيع أن تحصى به ما يربو على عشرين إقليما، وترتب على ذلك أن تضاءلت

(١) وفى أواخر عهد شارل جرى إرسال حملات عديدة عبر نهر الإلب ، غير أن الامبراطور شارلمان اكتفى بما يسبغه من الحماية على أقرب القوائل منه ، واستمر زعماؤها سكونيا على أن يدفعوا له الجزية السنوية .

الفرص لتدبير مؤامرة مشتركة . ولم تكن عاطفة الاستقلال بأقوى عند الزعماء منها عند الأهالي ؛ إذ لم يحارب في جانب ويتكند إلا عدد قليل من اسويائه . والراجح أنهم لم يختلفوا عن زعماء الاقاليم الايرلندية زمن أسرة التيودور، بأن زادوا في ثروتهم ونفوذهم، بفضل قبولهم سيادة جارهم القوى ، وجرت مكافأتهم على التزام الهدوء، والإذعان ، بأن حصلوا على إذن شامل بامتلاك مال رجال القبائل من الأرض الشاعة . و بفضل إقامة عدد كبير منهم في أرض الفرنجة باعتبارهم رهائن، اعتنقوا المسيحية ،ونسوا كراهيتهم وامتعاضهم للطباع الاجنبية. ومنهم من جرى استمالتهم بفضل ما نالوه ،على الأقل ،من رشاوى كبيرة ، ومنح من الضياع الواقعة وراء نهر الراين . ويروى مواطنهم « الآن ولأول مرة حصل السكون المعوزون على ماق غاله من ثروة وفيرة ، لأن شارل منحهم أراضي كثيرة ، وملابس ثمينة ، وأكداسا من الفضة وأنهارا من النبيذ الطيب » .

ضريبة العشور في سكسونيا .

وفي هذه السنة ، أو بعد ذلك بزمن قصير ، أصدر شارل مرسوماً خاصاً بسكسونيا ، اشتهر بقسوته وصرامته . وبما تم له من وضع الأمة المغلوبة تحت نير الكنيسة .وما يلي من النصوص لا تحتاج إلى شرح أو تعليق .

(١) إذا أغفل شخص الصيام الكبير احتقاراً للمسيحية ، تقرر إعدامه.

(٢) من لم يجر تعميده أو تنصيره من السكسون ، وعمد إلى الاختفاء ، ورفض أن يقدم للتعميد ، وجب إعدامه .

وثمة من الذنوب التي ترتكب في حق الكنيسة وموظفي الدولة ما صار اعتبارها جرائم كبيرة . ثم يتلو ذلك أن جانباً من المصادرة الشاملة تقرر تخصيصه للبعوث التبشيرية .

---

(١) أنظر The Saxon Plot . وفي رسالة بعث بها السكسون إلى كانيه الإيرلندى يعترف فيها باستخدام الرشاوى والتهديدات Bouquet. V. 607.

(١) ينبغى على رجال كل إقليم أن يجعلوا لـكنيستهم دارا ، وقطعتين من الأرض تبلغ مساحتهما نحو مائتى فدان ، وعبدا وجارية .

(٢) ينبغى على جميع الرجال من النبلاء أو الأحرار أو الرقيق ، أن يقدموا للـكنائس والقسس عشر مؤونتهم وعملهم [1] .

ومن النصوص الأخرى نص يصح إيراده لطرافته : « إذا إرتكب شخص جريمة من هذه الجرائم الـكبيرة خفية ، تحتم عليه أن يهرب إلى الـكاهن (القسيس) ، وبعد أن يعترف له ، يقدم التوبة ، وبفضل شهادة ذلك القس يجوز اعفاؤه من الأعدام » .

والمقصود من ذلك هو اجتذاب شعور المتنصرين نحو القسس ، فيستطيع هؤلاء القسس بذلك حمايتهم من شدة القانون .

على أن الاعتداء على ديانة أمة وأملاكها فى آن واحد ، يعتبر أمراً شديد الخطورة ، فالسكسون الذين عمّ سلبهم ونهبهم باسم المسيحية ، إنما ينتظرون بفارغ الصبر رحيل المتنصر كيا يثوروا . وظهر ويتيكند من جديد ليقودهم . ولو أن سائر الزعماء تبعوه ، لاشتد الخطب بالفرنجة ، إنما حدث مثلما حدث من قبل ، أن الزعيم الوثنى لم يجد من يريده إلا الطبقتان الوسطى والدنيا . على ان ضعف حزبه دعاه إلى أن يلتمس وسيلة خطيرة ، ليتحالف مع الصورابيين النازلين وراء نهر الـ‍سال . فعبروا الحدود إلى تورنجيا . وما قاموا به من النهب والتدمير أدى إلى تحويل النظر عنهم ، فأفادوا من ذلك بصفة مؤقتة . غير أن حرب الحدود التى استمرت أجيالا جعلت السكسون المقيمين على الحدود يكنّون للصقالبة من الـكراهية ما يزيد كثيراً على كراهيتهم للفرنجة ، فلم ينضم منهم إلى ويتيكند إلا عدد قليل . والواقع أن ويتيكندا اكتسح كل ما واجهه ، غير أن ذلك لم يستمر طويلا ، فجرى

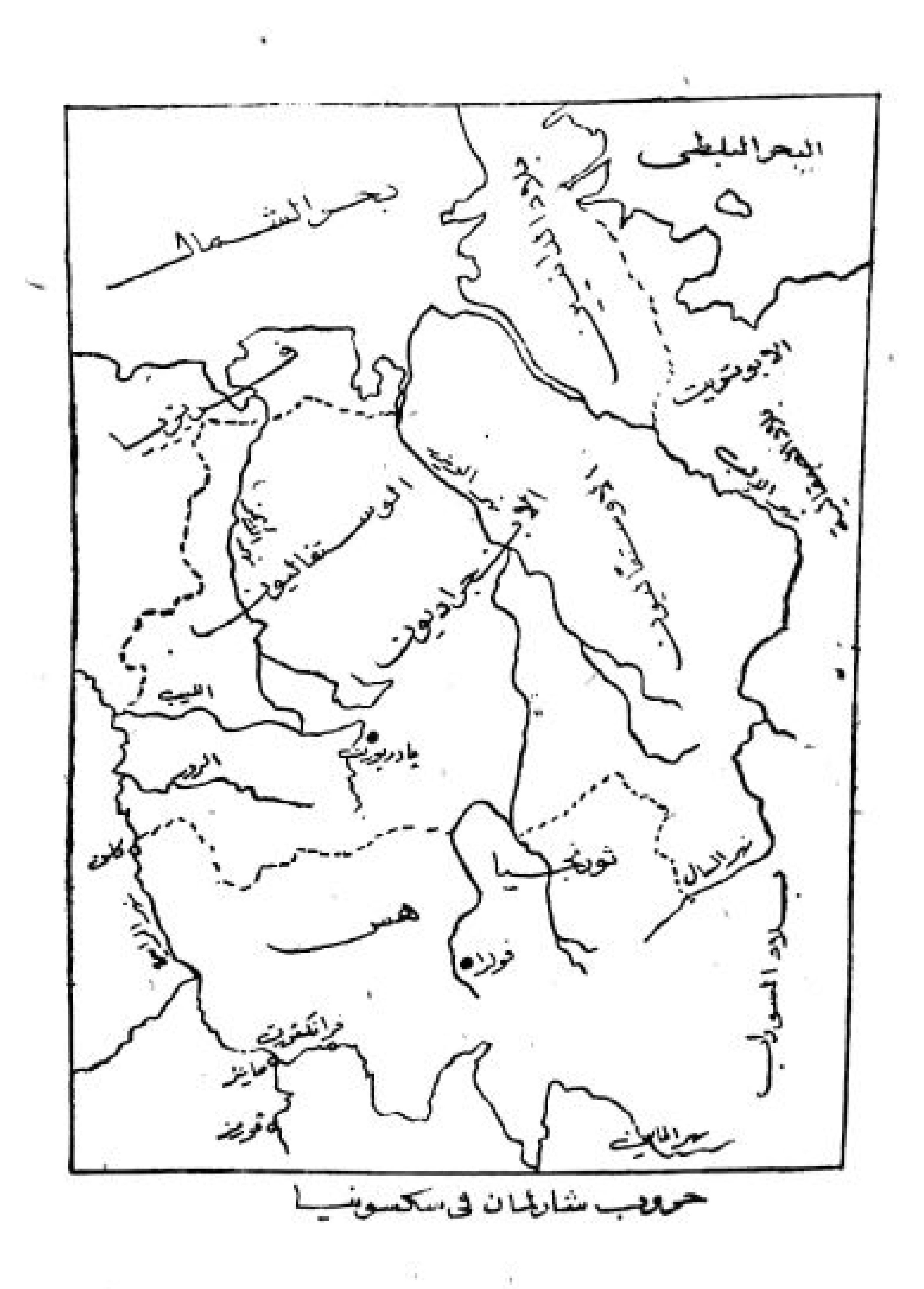
(١) جعل صبسوم سنة ٧٧٩ الحدود الدائمة قانونيا و كل أعداء على الفرنجة

Scanned by CamScanner

اصطياد المبشرين من وستفاليا والجهات الشمالية ، وحل بالمتنصرين الجدد القتل بعد أن تعرضوا لصنوف التعذيب والتنكيل . فى سونتال على نهر الويزر ارتد العصاة ، بعد أن كادوا يدمرون طائفة من فرسان الفرنجة ، بادرت إلى مهاجمتهم دون أن تنتظر ما يصل إليها من مساعدة من الجيش الرئيسى . وسقط على ساحة المعركة مبعوثان امبراطوريان ، وخمسة من السكونتات ، ونحو عشرين نبيلا من أعرق أسرات الفرنجة . وتعتبر هذه المعركة أخطر ما حل بأعمال الملك الحربية من هزائم ، بسبب افتقار مساعديه إلى المهارة والحذر .

مذبحة فردان :

وعلى الرغم من هذا الانتصار ، فإن معظم الأمة ما زال منصرفاً عمن يعتبرونه محررهم . حقد عليه بعضهم لطموحه ، وأخذت بعضهم الشفقة بالمسيحيين المضطهدين ، وسئم جميعهم الحرب والقتال . ولما علم شارل بما حدث لحملته التأديبية ، جمع قوة صغيرة ، وعاد بها فى آخر السنة إلى سكسونيا ، فوجد أن ويتيكند ورفاقه تفرقوا ، أما الزعماء الآخرون فجاءوا يعتذرون عن أنفسهم ، ولا يقرونه على الأخذ بالثأر وألقوا بكل اللائمة على ويتيكند . فأجاب الملك ، بأنه إذا لم يظهر ويتيكند ، فسوف يتحمل مساعدوه وأنصاره كل ما يترتب على ذلك من نتائج . وحاط شارل علماً بأن أربعة آلاف وخمسمائة رجل هم الذين وافقوا وحدهم فى المجالس الوطنية على القيام بالثورة . . . فتقرر القبض عليهم فوراً ، وجمعهم فى فردان ، وأمر بذبحهم عن آخرهم . وأقر نص القانون هذا العمل الفظيع ، إذ ورد فى المرسوم الأخير أن القتل يعتبر جزاء أولئك الذين يقتلون موظفاً من موظفى الملك . وأولئك الذين يذكرون كيف جرت معاملة فرسان كنبور بالهند ، سوف يجدون أن ما حدث من إعدام هؤلاء ، كان على الأقل مقبولا . على أنه فى كل العصور ، ثار ما لدى الإنسان من عاطفة أخلاقية غير متحيزة على ذلك المنطق الذى يسوى فى العقاب



حروب شارلمان فى سكسونيا

بين كافة الثائرين وزعمائهم . على أن يوم فردان ، فى ضوء التفكير الهادىء السليم ، وباعتباره مجرد مسألة سياسية ، يعتبر من الأخطاء التى طغت فى خطورتها على كل الجرائم . فالأمة كانت أقل صلابة من قادتها التقليديين . فلأول مرة اختفت الفروق الفعلية ، إذ نهض جميع القوم بأسلحتهم ، واستعدوا لقتال الفرنجة فى ساحة الحرب .

والسنوات الثلاث التالية ، استنفدت جهد شارل وقوته ، إذ حدث فى حملة سنة ٧٨٣ أن بلغت الحرارة من الشدة ، أن أخذ الجند يتساقطون أثناء السير وينزل بهم الموت . وفقد الملك ، قبل رحيله ، الملكة هلدجارد ، كما فقد أمه برتا وهو بساحة القتال ، غير أن « الغضب الشديد » الذى أفاضت التواريخ فى ذكره ، بعد أن تخلت عما درجت عليه من الإيجاز ، لم يترك له من الوقت ما يجعله يفكر فى أحزانه الخاصة . وفى القتال الذى نشب عند ديتمولد سحق جيشاً وستفاليا ، وفى معركة أخرى قرب اوسنابروك هزم جيشاً للانجاريين . وظل الموضع الثانى زمنا طويلا يحمل الاسم المشؤوم « تل القتل » . لم يحدث فى السنة التالية معارك ، إنما جرى فى شىء من التمهل والتعقل حرق القرى ، وتخريب الأرض الزراعية ، ولم يهيىء الشتاء للأرض التعسة شيئا من الراحة والهدوء . واحتفل الجيش بعيد الميلاد مع الملك فى السهول الفسيحة الممتدة على نهر الإمز . ثم اتخذ شارل بعدئذ مقامه فى ايرزبرج ، واتخذ وقتئذ الزوجة الجديدة فاسترادا ، ابنة أحد الكونتات الاستراسيين ، فقدمت إليه وبصحبتها ابناؤها من زوج سابق ، وظل البلاط قائما فى سكسونيا حتى فصل الربيع . وفى تلك الأثناء صار الجيش الذى عسكر فى الجهات المجاورة ، يقوم ، فى فترات ، بالإغارة للحصول على المؤونة والتخريب . وتولى الملك أحيانا قيادة الجند وتوجيههم بنفسه . وفى الربيع جاءت الإمدادات والمؤن من أرض الفرنجة . هذا الجيش المنهوك القوى تم حشده وتنظيمه فى بادربورن ، وتوجه إلى نهر الويزر لتدمير المعاقل الأخيرة للسكسون .

وحدث آخر الأمر ، حسبما يذكر الكاتب الفخور ، « أن تفتحت أمامه الطرق ، ولم يجد ثمت من يقاومه من الرجال ، فسار أينما شاء فى سكسونيا » . وعاد المبشرون من المواضع التى اتخذوها ملاذاً لهم فى غاله وفريزيا وثورنجيا . واستأنف بعضهم العمل مباشرة . وجاء أحدهم واسمه وليهاد ، الذى ساورته المخاوف والشكوك ، فسأل ماذا ينبغى أن يعمل ؟ فقال شارل « اذهب باسم المسيح[1] إلى أسقفيتك » ، فعاد إلى أسقفيته . وفى الوقت المناسب جرت ترقيته ، فأصبح أول أسقف لبريمن (٧٨٩) . أدرك السكسون قوة العالم المسيحى ، ولم يصادف المبشرون ما يعترض طريقهم مدة عشر سنوات . وفى فردان ومونستر حدث مثلما حدث فى بريمن ، إذ تعين أساقفة للإشراف على البعثات التبشيرية ، وقامت كنائس أبروشية فى كل مكان . أما المؤسسات الدينية فى أرض الفرنجة فتخصصت لتزويد الحقول الزراعية بالعمال .

استسلام ويتيكند :

وما حدث من تجربة سابقة ، جعلت شارل يعتبر ويتيكند خطراً كبيراً يهدد ما أقامه من سلام . فما زال الوطنى الكبير طليقاً فى بودونجاو ، وما زالت القبائل الضاربة وراء نهر الإلب من أعوانه المخلصين . وبعث الملك من قبله رسلا يجرى فى عروقهم الدم السكسونى ليتفاهموا معه ، وعرضوا عقد مؤتمر ، وتقديم رهائن ضماناً لحسن النية . وأعلن ويتيكند وصديقه الحميم ابيو قبول الدعوة ، فتقدما إلى القصر الملكى القائم فى اتيجنى ببلاد الفرنجة ، وتقدما للتعميد . ووقف شارل شبينا لخصمه السابق ، وأغدق عليه هدايا التعميد . وأذن لويتيكند أن يتخذ مقامه فى وستفاليا حيث عاش عمراً مديداً ، وفياً أميناً ، وسط ما حدث من الثورات فى السنوات المتأخرة[2] . على أن النضال انتهى بأن ما أفاد منه

---

(١) وردت هذه القصة فى سيرة وليهاد (انظر Bouquet ج ٥ ص ٤٣١) .

(٢) هذه من على الرواية الأسطورية على أثل ندر ، وكنيسة بادربورن أوقفها فيما ... وويتيكند . وفى حوليات الفرنجة المعاصرة لم ترد أية إشارة عن البطل السكسونى بعد تعميده .

المنتصر لا يقل عما أفاد منه المغلوب على أمره . ومن سلالة ويتيكند نشأت بعد فترة من الزمن، ماتيلدا أم أوتو الأول . وأرجع زوجها نسبه من جهة أمه إلى شارل . وبذلك اجتمع فى البيت السكسونى دم بطلين تعتبر حروبهما البذرة التى نبتت منها ألمانيا المتحدة ، إذ أن خضوع سكسونيا إزداد قوة وتأكيداً بتنصير ويتيكند . على أن ما حدث من ثورات متقطعة ،نشبت من حين إلى آخر ،ترجع فى معظم الأحوال إلى ثقل عبء ضريبة العشور ، سببت لشارل شيئاً من القلق والمتاعب . ففى سنة ٧٩٢ وسنة ٧٩٧ ، سادت الاضطرابات ،وصرح السكونين ، دهشا ، بأن كل ماتم عمله ينبغى أن يبدأ عمله من جديد ، غير أنه لم يكن ثمة زعيم ،ولا وحدة فى الغرض . فما كاد الثوار يشعرون باقتراب الملك على رأس جيشه حتى تفرقوا شذراً . وأعقب كل ثورة إجراء حركات واسعة النطاق ، ترتب عليها نقل عدد كبير من السكسون من المواطن الثائرة ، وإنزال مستعمرين جدد واستيطانهم بهذه المناطق . ففى سنة ٧٩٤، نقل شارل سبعة آلاف من السكسون . وفى سنة ٧٩٧ أمر بأن ينتقل ثلث سكان كل دار من الدور . وفى سنة ٧٩٨ ، نقل ١٦٠٠ من زعمائهم ، وفى سنة ٧٩٩ نقل أيضاً عدداً كبيراً من السكسون . وعلى هذا النحو شهدت كل سنة ما حدث من ضعف العنصر الوطنى ، وما حدث من اشتداد قيود الاستعباد . وعلى الرغم من أن القبائل الشمالية ، وهم الدانيون ، ظلوا يموجون ويثورون ، بسبب تأثرهم بأصدقائهم وجيرانهم ، فإنهم لم ينالوا شأناً عن سكسون نهر الليب ، وما استهلت سنة ٨٠٠ ، حتى أضحوا جزءاً لا يتجزأ من مملكة الفرنجة . فنشط بها إقامة الطرق وتشييد الجسور ،وبناء الحصون والقصور والكنائس والأديرة . غير أن الوثنية لم تزل جاثمة فى الغابات ، على أن زمن زعامتها وسلطانها ولى وأدبر .

والمرسوم التالى الذى صدر سنة ٧٩٧ ، إنما يكشف عن إقليم يكاد يسوده الاستقرار . إذ ازداد الملك اقتناعاً بما اتخذه سنة ٧٨٢ من مبادىء صلبة للإدارة ،

غير إنه أصبح فى استطاعته أن يخفف من شدة القوانين التى بمقتضاها يجرى تنفيذ قواعد الأديرة . فالدية المضاعفة أضحت الآن كافية لحماية القسيس . والغرامة العادية التى مقدارها ستون شلنا حلت مكان عقوبة الإعدام التى اعتبروها تعويضاً مناسباً لما يحدث من نقض نظام الملك . ولم تكد تمضى خمس سنوات، حتى أفادت سكسونيا ، وسائر أقاليم المملكة من المزايا التى نجمت عن إصلاح تشريعى كبير . إذ أن القوانين القومية جرى إصلاحها وتدوينها . وعند هذه المرحلة يبدو أننا تجاوزنا فترة الفتح وحكم القوة .

مرسوم مانتوا

وفى هذه الأثناء ، وفى الجهات التى تعتبر أقل اضطرابا بممتلكات شارل ، واصل الملك ، بهمة لا تفتر ، القيام بتوطيد ملكه . إذ ترتب على الحملة الإيطالية سنة ٧٨١ نتائج عظيمة الأهمية لشبه الجزيرة . إذ صدر بمانتوا مرسوم يرتبط بما فى الكنيسة والدولة من مساوىء صارخة ، فمن جهة جعل للأسقفية اللومباردية السلطات اللازمة للمحافظة على النظام الكنسى ، وأجاز للأساقفة منع المدّعين من رجال الدين من ممارسة التبشير ، وأن يطالبوا عند الضرورة مساعدة السلطة المدنية الممثلة فى شخص الكونت . ومن ناحية أخرى نهض هذا المرسوم لمساعدة الفقراء من الملاك الأحرار ، الذين ألحت عليهم المجاعة فباعوا أراضيهم ومتاعهم بأثمان اسمية ، أو ألجأوها إلى مؤسسة دينية . وهاجم هذا المرسوم ما حدث من ازدياد مساوىء نظام التبعية ، بأن جعل اتباع الملاك يخضعون لسلطة الكونت، وحرّم على السادة الاقطاعيين ألا يقبلوا من الأتباع من لا يعرفون شيئاً عن أصولهم، وشجع التجارة بما أدخله من عملة جديدة ، و بما عمد إليه من الغاء المكوس غير المقررة ، وفى الوقت ذاته حرّم ممارسة تجارتين رائجتين ، أولاهما التجارة مع المسلمين فى الرقيق من المسيحيين ، إذ اعتبرها وصمة عار للديانة، والثانية التجارة مع اليونانيين

والأفارق الأسلحة والخيل ، إذ اعتبرها خيانة ضد الدولة . هذه الأمور المبتكرة لم تكن كل شيء . وإذ أدرك الملك أن أمور ألمانيا سوف تتطلب منه اهتماما زائداً باستمرار ، عزم على أن يجعل من الأراضى الخاضعة لسلطانه مملكتين مستقلتين . وبذلك يكون فى المستقبل ثلاثة ملوك بدلا من ملك واحد ، و ينبغى أن ترتقى كل من بافيا وتولوز إلى مرتبة العواصم الإقليمية ، وسوف يحفظ لنفسه ولابنه الأكبر من بعده ، بالحكم المباشر على جميع العناصر الجرمانية ، وأن تكون له السيادة العامة على سائر الأجناس ، فينبغى عليهم أن يطيعوا ما وضعه لهم من قوانين ، فإذا دعاهم إلى الانخراط فى الجيش هرعوا إليه ؛ وأن يستقبلوا من وقت إلى آخر رسله ومبعوثيه ، فإذا لم يتم ذلك لابد أن يستقلوا عنه . ولتحقيق هذا المشروع اصطحب معه إلى إيطاليا ابنه الثانى ، بيبن ، الذى لم يتجاوز عمره وقتذاك الخامسة ، وابنه الأصغر لويس . وما كاد ينقضى عيدالقيامة ، حتى انتقل بهما إلى روما ، حيث تمّ تتويجهما ، على أن يكون بيبن ملكا على اللومبارديين ، ولويس ملكا على الأكيتانيين . وبادر والدهما عقب ذلك مباشرة إلى أن يسيرهما إلى مملكتيهما فى حاشية كبيرة ، وأن يبعث معهما وصيّين أمينين حتى يشبا و يترعرعا و يبلغا مبلغ الرجال وسط قوميهما . لم يدخر وسعاً فى استرضاء رعاياها ، إذ جرت مخالفة كل ما هو معروف فى العصر من شعور دينى ، بأن تأجل تعميد بيبن إلى أن أصبحت إيطاليا على الأقل مسقط رأسه الثانى ، وموطن مولده الروحى . وتكفل نشأة العصر على أن يجعلوا لويس منحدراً من الأبطال القوميين بجنوب غاله ، فسار هذا الطفل ، الذى لم يتجاوز الثالثة من عمره ، إلى مملكته الجديدة ممتطياً جواده ومرتديا زى محارب اكيتانى ، ومتقلداً سلاحه .

متاعب هادريان :

لم يكن الشعور القومي هو العقبة الوحيدة في سبيل الاستقرار في إيطاليا . فأطماع البابا هادريان في سبيل الكرسي الرسولي ، لم تختف في السنوات القليلة الأخيرة . وإذا نسي ما قدمه لوليه ونصيره من رسالة ، فإنه أظهر من دلائل القلق ما يشير إلى أن الملك ، تحت ضغط الحروب السكسونية ، أهمل في توسيع دوقية بطرس الرسول . وما تضمنته مراسلاته من مطالب متواضعة ، إنما تتمثل في أنه ينبغي على شارل أن يقدم إلى إيطاليا ، وينبغي أن يطرد دوق كلوزيوم ، ويرغم هلدبراند دوق سبوليتو على الاعتراف بسيادة القديس بطرس ؛ وينبغي أن يدخل في القتال مع بطريق صقلية ، ومع أريقيس دون بنيفنتو ، لأنهما رفضا الاعتراف بما للبابا من دعاوى في داخل إمارتيهما . غير أن أولئك الذين هددهم البابا هادريان ، لم يقفوا موقفا سلبيا في مقاومتهم له . إذا اجتمع أريغيس والبطريق وتشاوروا سويا . واتخذ البطريق مركز قيادته في الجهات المجاورة لنابولي ، وشنت القوات المتحالفة حربا عنيفة على الحدود ، حول المدينتين اللتين جرى النزاع عليهما وهما جايتا ، وترّاسينا . وتشير الرواية إلى أن أدالقيس توجّه مرة أخرى إلى القسطنطينية لإثارة سخط اللومبارديين ، وفي وسط هذه المخاوف تهيأت الفرصة المباشرة لزيارة شارل الحالية .

شارل وإيرين

على أن الخطر انجاب مؤقتا ، فالسياسة البيزنطية لم تستقر على حال ، إذ مات الامبراطور العظيم قسطنطين كوبرونيموس سنة ٧٧٥ ، ومات بعده خليفته ليو الرابع في سبتمبر سنة ٧٨٠ . وأضحى التاج الأمبراطوري من نصيب قسطنطين السادس ، وهو صبي لم يتجاوز السادسة من عمره ، فتولت أمه إيرين الأثينية



دوقية بنيفنتو والاملاك البيزنطية بايطاليا
في سنة ٧٨١

الوصاية عليه وقامت بتسيير أمور البلاد . ولما اشتهرت به إيرين من الحرص على تغيير السياسة الدينية التى انتهجها بيت زوجها ، دأبت على أن تجرى مع الفرنجة من العلاقات الودية ، ما يكفل لها الحرية الكاملة للقيام بثورة فى الداخل . ولما قدم شارل إلى روما اختفت كل الدلائل التى تنبىء بوقوع القتال فى جنوب إيطاليا .

ولو لم يكن شارل منصرفا إلى أمور أخرى ، لرأى من الحقيقة وقتئذ ما تحتم أن يراه فى السنوات التالية، بأن ما اشتهرت به السياسة البيزنطية من تقاليد عامة ، تصطدم دائما بمصالح الفرنجة ، وأن سلامته الدائمة لا تكتمل إلا بإخضاع بنيفنتو ، وإنشاء أسطول قوى فى البحر المتوسط . غير أنه فى الوقت الراهن ربط إيمانه بسياسة أقل خطورة . وأول خطوة اتخذها، أنه عمل على أن يسلك فى مراجعة الهبة ما يزيد فى تحديد حقوق القديس بطرس ، وما يقال الأخطار من قبل الدوقات اللومبارديين . والخطوة الثانية أنه قبل ما تقدمت به أيرين إليه بوساطة هادريان من العروض والاقتراحات . إذ عرضت أن يتزوج ابنها من روتريد ابنة شارل . ولقى رسلها ترحيباً كبيراً . وتقرر اتخاذ التدابير لتعليم الأميرة الصغيرة ما اشتهر به البلاط البيزنطى من لغة وآداب . فتم استدعاء بولص الشماس من قلايته بدير مونتى كاسينو ، ليقوم بتلقين وصيفاتها هذا الضرب من التعليم . على أننا لم نأمل من الراهب الجليل إلا أن يعمد إلى أن يقلل من أهمية أعماله ، إذ أنه أكد لشارل أن كل ما عرفه من اليونانية لم يتجاوز مقطعين أو ثلاثة مقاطع ، وأن الشيخوخة أتت على كل ما حصله فى صباه . فإذا اعتمد الفرنجة على دروسه فلن يكونوا سوى شخوص خرساء بين اليونانيين الساخرين[1] . غير أن تلاميذه لم يتعرضوا لهذا الاختبار . إذ أن المشروع لم يلبث أن انطوى ،

(١) هذه الإشارة مستمدة من رسالة شعرية جرت بين بولص الشماس وبطرس البيزاوى — انظر : Dümmler : Poetae Medii Aevi vol. I p. 49

إما لأن شارل ، على حد قول الفرنجة ، لم يُطق فراق ابنته ، وإما لأن ايرين بحسب الرواية اليونانية ، لم تكن تقصد إلا الإفادة من الهدنة التى تحققت بفضل اقتراحاتها.

والواضح أن دوافع ايرين لم تكن أول الأمر معروفة عند شارل ، وكان للتصريح بها أثر كبير فيما حدث فيما بعد من الخلاف والشقاق . فبينما وجدت الأمبراطورة فى هادريان رجلا أمينا يعطف على أمانيها ، فإن كنيسة الفرنجة ظلت متمسكة بالرأى المعتدل الذى اشتهر به جرجورى الكبير ، الذى أنكر ما اشتهرت به اللايقونية من التطهر المتطرف ، كما أنكر ما اشتهرت به عبادة الصور من المادية المتطرفة ، إنما أجاز استخدام الصور على أنها وسائل مساعدة على التقوى ، غير أنه نهى عن عبادتها . هذا الرأى كان شارل مستعدا للأخذ به والمحافظة عليه برغم معارضة الحبر الرسولى . غير أنه لو فكر قليلا ، لاستطاع أن يتنبأ بذلك فى سنة ٧٨١ بسبب صداقة ايرين التى لم يتوقعها . ويبدو أنه استهواه التحالف الذى جرى عرضه عليه . فالحلم الذى يدعو إلى ربط روما بالقسطنطينية ، وتوحيد ما فى شطرى العالم من مدنية تحت حكم سلالته ، كان عند شارل مثلما كان حلم نابليون بامبراطورية اسيوية . والدليل على هذا مستمد من اسطورته ومن اتجاه دبلوماسيته فيما بعد .

لم تكن هذه هى النتيجة الوحيدة لرحلته بإيطاليا ، إنما يرجع إلى زمن هذه الرحلة أيضاً ، بداية النهضة الكارولنجية ، إذ حدث يوم عيد القيامة سنة ٧٨١ أن التقى شارل فى بارما بالكوين المشهور ، فألحقه بخدمته ، وفيها تم أيضا اتخاذ الخطوة الأولى لإخضاع بافاريا .

تاسيلو دوق بافاريا

وعلى الرغم من أن تاسيلو أظهر قدرا كبيرا من التحمل والصبر أثناء الحرب السكسونية ، فما أظهره من النشاط فى جانب إيطاليا كان أشد وأقوى . فزوجته لوتبرجا بما اشتهرت به من الحرص على الانتقام لأخيها و إعادته من المنفى، دأبت على أن تتحد بافاريا مع أريخيس ومع اليونانيين لتحقيق هذا الغرض . وتحدثت فى هذا الشأن إلى آذان صاغية ، إذ أن أراضى بافاريا جنوب التيرول تعتبر جوهر الخلاف بين زوجها وكونتات الأطراف اللومباردية . لم يعد الدوق يعترف بما عليه من التزام باعتباره فصلا أو تابعا . فصار يعقد الجمعيات الوطنية فى بافاريا و يصدر القوانين مثلما يفعل الملك . ولم يرد ذكر لاسم شارل فى عهوده ، بل جرى تأريخها «وفى سنة كذا من حكم تاسيلو ..» ، وأضحت كنيسته مستقلة أيضا ، ولم يعد لأسقف بافاريا من مطران سوى البابا .

على أن ما افتقر إليه شارل من وقت الفراغ، ألزمه بأن يجنح إلى الدبلوماسية قبل الالتجاء إلى استخدام القوة . إذ عمد إلى أن يستخدم نفوذ البابا فى الضغط على عدوّه . وهذه المناورة كانت بارعة ، لأن تاسيلو كان دائما فى قبضة الكنيسة . إذ أن أساقفة باسّاو وفرايزينج ورانز بون وسالزبرج، هم الذين كانوا يضعون القوانين، و يجلس ممثلوهم إلى جانب تاسيلو فى مجلس الحكم . و يتطلع البافاريون إليهم لا إلى الدوق ، فى انتظار الأوامر[1] . وخضع تاسيلو لما فرضوه عليه وتقبلك من أوامر . إذ ظهر فى مجلس سادة الاقطاع الذى انعقد فى فورمز فى الخريف ، وجدّد يمين الولاء ، وقدّم الرهائن توكيدا لمراعاة يمينه .

وعند هذا الحد تتوقف الأمور ريثما تنتهى الحرب السكسونية . إذ أن سنة ٧٨٥ — ٧٨٦ كشفت فجأة عن سلسلة من المؤامرات والمكائد تجلى فيها جميعاً

(١) عن المجالس السكسونية فى بافاريا زمن تاسيلو انظر Pertz : Leges III p. 480.

الدور الذي لعبه فيها أثر تاسيلو ونهجه . فجرى أول الأمر الاتحاد السرى بين النبلاء الثورنجيين . وتولى أحدهم ، وهو الكونت هاردراد ، الزعامة بينهم ، وجعلوا هدفهم مقتل شارل أو عزله . وتولد الاستفزاز والإثارة عن صرامة وشدة إجراءات غير محددة ، ويرجع اجينهارد هذه الأعمال والإجراءات إلى ما اشتهرت به من النفوذ الصارم ، الملكة فاسترادا ، ولم تكن هي ذاتها إلا مواطنة للمتآمرين . وبلغ نبأ هذه المؤامرة للملك فى الوقت المناسب ، فأمر بالقبض على زعمائها ، وهلك ثلاثة منهم أثناء قيامهم بمحاولة فاشلة للمقاومة ، وجرى سمل عيون طائفة منهم ، ونفيهم جميعاً إلى جهات نائية بالمملكة . وأعقب ذلك ، أن اقتضت خطط أريغيس قدوم شارل إلى إيطاليا فى زمهرير البرد (٧٨٦ — ٧٨٧) ، إذ جدد دوق لومبارديا تحالفه مع بطريق صقلية ، وشيد لنفسه فى سالرنو عاصمة منيعة التحصين ، ثم رأى آخر الأمر أن يتوجه أساقفة مملكته ويمسحوه بالزيت . وهذا الإجراء الأخير ، لم يكن فى الواقع إلا تحدياً صريحاً للفرنجة ، وخروجاً على دعواهم فى السيادة . أما شارل فإنه ، بعد أن أمضى عيد الميلاد فى فلورنسه ، توجه بكامل قوته وجيشه إلى أطراف بنيفنتو . ولم تتم بعد استعدادات أريغيس ، فلم يلبث أن أعلن خضوعه وإذعانه ، وقدم إبنه الأصغر جريموالد رهينة ، واتفق على أن يدفع جزية سنوية ، وأن يهدم أسوار مواقعه الحصينة ، وأن ينبذ رعاياه زيهم القومى ، وأن يحلقوا لحاهم الطويلة المدلاة . وتقرر قبول الشروط ، والمبادرة إلى تنفيذها . هذه الشروط تم قبولها لأن شارل اكتشف أن أريغيس لم يكن العدو الوحيد ، ولم يكن أشد الأعداء خطورة . فما زالت الخيانة تعمل بين الحلفاء وبين رعاياه من الفرنجة . وما حدث فجأة فى هذه اللحظة ، من أن شارل فسخ خطوبة روترود لابن إيرين ، إنما يرجع إلى الاعتقاد بأن أريغيس تلقى مساعدة من أيرين . وللومبارديين الشماليين أيضاً ضلع فى المؤامرة ، ولما عاد شارل من الجنوب عقد مجلساً فى بافيا وحكم على جماعة بالإعدام . وبلغه آخر الأمر من الأسباب ما دعاه إلى التشكك فى أن

تاسيلو لم يبد نحو صهره سوى الحنان السلبي . وتذكر قصيدة معاصرة « أن كل العالم وقف على أخبار خيانة تاسيلو »(١) ، وشهد تاسيلو ما يتعرض له من خطر ، وما حدث من فتح سكسونيا ، واخضاع تورنجيا ، و إذعان أريغيس جمله وحيداً لمواجهة قوات الفرنجة . وفى شىء من الأسى والحزن تضرّع للبابا ، يلتمس منه الوساطة . وقدم إلى روما مبعوثان أحدهما أرنو أسقف سالزبرج ، ليبرئا ساحة سيدهما . تأثر هادريان بقصتهما . غير أن شارل أجاب فى برود ، أن ماحدث من نقض العهد لم يكن من عمله . وسأل الرسولين عن الترضية التى استعدا لتقديمها . ولما تلقى منهما الإجابة بأنه ليس فى استطاعتهما إجراء معاهدة نهائية ، التفت إلى البابا وأكد نفاق تاسيلو . واقتنع أيضا هادريان بذلك ، وهدد البابا البافاريين بسخطه ونقمته ، و بحرمانهم من الكنيسة ما لم يخضعوا فورا . و بهذا السلاح فى يده ، عاد شارل إلى الشمال ، ودعا تاسيلو إلى حضور المجلس الوطنى الذى ينعقد فى الخريف فى فورمز . ولما لم يتلق إلا الرفض المقرون بالازدراء ، حشد شارل ثلاثة جيوش لقتال بافاريا . الأول قاده بنفسه وتوجه به إلى أوجزبرج ، والثانى وهو مؤلف من التورنجيين والأستراسيين والسكسون اتخذ وجهته انجولشتات ، بينما سار الجيش المؤلف من اللومبارديين عن طريق وادى ترنت قاصدا بوزن .

استسلام تاسيلو

ولم يمنع دوق بافاريا من مواصلة القتال حتى نهايته المريرة سوى سخط البافاريين وتمردهم . على أن تهديد البابا بالحرمان من الكنيسة كان له أثره وأهميته . إذا رفض البافاريون السير لمواجهة الفرنجة ، وترتب على ذلك أن أعلن تاسيلو خضوعه و إذعانه ، فجاء لمقابلة الملك وسلم له الدوقية . اكتفى شارل بما

(١) أشار القصيدة التى أنشأها شاعر ايرلندى ، أثناء نفيه ، فى مدح شارل يعلم المؤلف إلى أن شارل ظل زمنا طويلا لا يصدق ما ترامى إليه من القصص . والغرض الواضح من القصيدة هو الاشارة عرضا لكلا الخائنين Dummler, P. M. K. I. 396.

حدث لخصمه من الإذلال ، فأعاد إليه الدوقية مقابل إعلان اخلاصه ، وولائه ، وفى حضرة المجلس سلم إلى تاسيلو عصاة حفر عليها رأس إنسان ، وهى رمز التمليك المعروف قديماً عند الفرنجة . قدم تاسيلو الرهائن ، ومن بينهم ابنه ، وحظى بهدايا سنية ، منها فرس ، وعدة حربية ، وضيعة كبيرة تقع عند طرف باڤاريا (أكتوبر سنة ٧٨٧) .

على أن الفصل الأخير فى هذه الرواية التى تبدو عامة ، جرى تمثيله فى سنة ٧٨٨ . غير أن تاسيلو أخذ بعد المدة للعصيان والتمرد بعد عودته ، لما شعر به من وخز الهزيمة ، ولما تلقاه من زوجته من التشجيع . ولما جرى تذكيره بأن ابنه مازال رهينة مقابل سلوكه الطيب ، إذ قال حالفاً لو أنه فقد عشرة أبناء ، فان يقف ذلك فى سبيله ، ولئن يموت حراً ، خير عنده من أن يموت عبداً . وأول خطوة اتخذها أنه دبر أمر طرد اتباع الملك المباشرين ، الذين تألف منهم فى باڤاريا حزب بالغ الأهمية ؛ وأرسل إلى زعماء الآفار يطلب مساعدتهم . وهذه الخطوة كانت القاضية على ما له من هيبة بين رعاياه . على أن أولئك الرجال الذين ائتمنهم تاسيلو على خططه ، آثروا أن ينهوا إلى الملك بخبرها على أن يقبلوا الوثنيين فى بلادهم . وكتم شارل خبر معرفته . وما كاد يظهر تاسيلو على عادته فى المجلس القبلى الكبير السنوى الذى انعقد هذا العام فى أنجلهيم ، حتى تم القبض عليه ، وتقديمه إلى المحاكمة ، أمام محكمة من أسويائه . فأعلنوا بالإجماع أنه لا يستحق إلا الاعدام ، وهو الجزاء الطبيعى لمن يرتكب الخيانة . ومع ذلك فإن شارل تذكر ما يربطه بتاسيلو من صلة القرابة ، والتمس تخفيف الحكم . وترتب على ذلك أن الدوق وأسرته تقرر إرسالهم إلى أديرة متفرقة ، بعد أن سلكوا طريق الرهبنة . ومنذ ذلك الحين أضحت باڤاريا جزءاً لا يتجزأ من مملكة الفرنجة ، فانقسمت إلى كونتيات يدين ولاتها بالطاعة لحاكم واحد لأغراض عسكرية ، غير أن هيبة الدوق لم يعدلها شأن . وبعد بضع سنوات قام على الحد الشرقى حكومة الطرف الشمال الشرقى

Nord-Ostmark ، التى أضحت حاجزا ضد البوهيميين والمورافيين . أما الأسقفيات الأربعة فاستمرت فترة من الزمن فى وضعها الأصلى الشاذ . وحدث آخر الأمر ، فى سنة ٧٩٨ ، وبناء على طلب شارل ، أن رفع ليوكومى سالزبرج إلى كرسى المطرانية . وكان أرنو ، الذى سبقت الإشارة إليه ، أول رئيس لأساقفتها . وعلى الرغم من صداقته لالكوين وما اشتهر عنه من أنه مفكر حاد الذكاء ، وعالم متبحر فى علوم الدين ، فإن أكثر ما اشتهر به راجع إلى ما قام به من عمل تبشيرى فى السهل الأدنى للدانوب ، لا إلى ما أسداه إلى آداب العصر من آثار ضئيلة الأهمية »

ومن ثم إذا كان شارل وهب الكنيسة سكسونيا ، فإن الكنيسة وهبته بافاريا . وإذا لم ير تاسيلو فى الملك (شارل) سوى زعيم لأولئك الاسترسيين الذين طالما تحدتهم أسرة إجيلولف ، فإن شارل إنما قدم إلى اللومبارديين على أنه حامى البابوية ضد خائن للعقيدة الكاثوليكية .

معاملة تاسيلو ونتائجها :

على أنه ينبغى أن يكون معروفا أن للمسألة ناحية أخرى ، إذ أن فريقا من الناس ، ومنهم جماعة من الفرنجة ، لم يخشوا أن يعلنوا رأيهم بأن تاسيلو لقى معاملة سيئة . وما انتشر من الشائعات عن الخيانة التى نجم عنها ما حدث سنة ٧٨٦ من تصرف الملك ، إنما مصدرها نزوة شيطانية .

ولا يجوز أن نتجاهل الشك فى أن شارل عزم منذ بداية الأمر على نزع ابن عمه ، وضم بافاريا إلى ممتلكاته . ولم يكن التحالف مع الآفار عنده أمرا غير مقبول أو غير متوقع . بل إننا نلاحظ أن ما أظهره المنتصر الظافر من الشفقة والرحمة ، ليس إلا شعورا طبيعيا بالندم . غير أن هذه المسائل الشخصية البحتة لا يجوز الحكم فيها بعد هذه الحقبة الطويلة من الزمن . على أن أمرا واحدا يعتبر أكيدا ومحققا ، وهو أن شارل وجد بعض العقبات فى جعل فتح بافاريا جزءاً من

خطته الكبيرة لنشر المسيحية ومدّ نفوذها . ففى كاريثيا وكارينيولا ما أسداه للكنيسة الأساقفة الباتاريون من عمل بتشجيع دوقهم ومساعدته، نجد من السند ما يجوز مقارنته بما عمله الفرنجة فى سكسونيا . وكلما أراد الملك أن يبرز عمله بأن يؤدى من الأعمال الضخمة ما لم يخطر على بال تاسيلو ، فقام بغزو الأفار .

الأفار :

والأفار شعب من الشعوب المغمورة فى التاريخ ، ومن الأمثلة الشائعة عند الصقالبة « أن تختفى كالأفار » . والواقع أن هؤلاء الأفار الذين ظهروا أول الأمر مغيرين خطرين، لم يتركوا وراءهم من الآثار سوى اسمهم. وأخطأ الفرنجة فى اعتبارهم من « هون » أتيلا . وعلى الرغم من أن الأمتين جاءتا من موطن واحد بوسط آسيا ، فإن الهون سبقوا الأفار فى قدومهم بنحو قرن من الزمان. فما كادت الموجة الأولى منهم تختفى من المسرح حتى قدمت الأمة الثانية . ومن الأمور الموجبة للأسف أن أحدا من كتاب الفرنجة لم يورد وصفا للأفار . وكان فى استطاعة كل من ثيودولف أو اجينهارد أن يقوم بهذا الأمر فى يسر وسهولة، لأن رسل خاقان الأفار قدمت أكثر من مرة إلى بلاط آخن . وما اشتهر به الأفار من عقائص الشعر ، هى كل ما وقفنا عليه من الخصائص التى تدل على ظهورهم . ومع ذلك فإننا نفترض أنهم لا يختلفون عن المغول فيما يتصفون به من البشرة الصفراء ، والعيون المنحرفة ، والأنوف المفرطحة ، والخدود البارزة العظام . والعمالق والأفار لفظان مازالا مترادفين حتى اليوم فى وادى نهر الدانوب . غير أن القول ليس فى هذه الناحية صادقا . فالمغولى لاتميزه قامته. واشتهر الأفار بالمهارة فى الرماية والفروسية، وحياة البداوة والارتحال هى خير ما يلائم عبقرية هذه الأمة . على أنهم يكادون يكونون محرومين من النظام السياسى . فكل قبيلة تولى أمرها زعيم يعتبر بمثابة الأب عندهم . واعترفت كل القبائل بما للخاقان من سيادة عامة . ولما أغاروا على

أوربا المرة الأولى ،فى النصف الثانى من القرن السادس ،ظهرت كفاءتهم ومهارتهم فيما قاموا به من عمل مشترك ، إذ أغاروا على بانونيا ، وروّعوا الامبراطورية ، بل أنهم هددوا القسطنطينية أكثر من مرة ، وقبل جستنيان أن يدفع لهم الجزية ، ولم ينقذ جيش الأمبراطور موريس من الخطر إلا ما أجراه معهم من مفاوضات انتهت بمعاهدة لم تكن مشرّفة له . على أن تيار النصر لم يلبث أن تحول إلى الجانب الآخر .

لم يكن الأفار أندادا للجيوش المتمدنة التى يتولاها قادة أكفاء ، وما قام به هرقل من سياسة فعالة مثمرة جعلت الحد الشمالى للامبراطورية بنجوة من أخطارهم . ولما نزلوا فى الجهات الواقعة بين نهرى تيس وانز ، إنصرفوا إلى ممارسة حياة الرعى، وشن الغارات على الغرب . غير أن دولة باقاريا لم تلبث أن نمت وقويت حتى أصبحت تحول بين جشعهم وبين إيطاليا ، وركن الأفار إلى الركود والجمود ، وفقدوا ما كان لهم من وحدة، وأقامت مختلف القبائل منهم أسوارها ، وأضحت لا تحفل إلا بنفسها . وأقام الخاقان فى غرب نهر الراب فى داخل السور الأكبر ، ولم تكن له إلا سيادة اسمية ، لم تمنع من يليه من الزعماء من الدخول فى مفاوضات مع الدول الأجنبية ، وعقد ما يشاءون من المعاهدات .

والحلقة الكبيرة كانت موطن الدهشة عند جيرانهم الغربيين ، إذ تكدس بها من الكنوز ما نهبوها فى قرنين من الزمان . وهذه الحلقة قام على حمايتها تسعة أسوار مستديرة ، وفى داخل محيطها قامت القرى . وبعد أن مضى على قهر الأفار زمن طويل ، روى قصة الفتح لصبى صغير ،أحد الحار بين الذين اشتركوا فى نهب الحلقة . ويروى لنا الصبى أنه وجد القصة مملة تدعو إلى التثاؤب ، وكلما بدأ سردها حاول الهرب . غير أنه بدوره حينما تقدمت به السن ، واشتد ميله إلى الثرثرة والحديث ، دوّن ما تذكره من هذه القصة ، ليتسلى بها الأمبراطور القائم فى الحكم

وهو شارل الأصلع : قال « إن الحلقة تحميها تسعة أسوار مستديرة ، وكل من هذه الأسوار ، إنما قام من أعمدة من أشجار البلوط ، والزان ، والصنوبر ، و بلغ عرضه عشرين قدما وبلغ ارتفاعه مثل هذا القدر ، وامتلأ الفراغ الأوسط بالحجارة والطين ، أما القمة فغطتها الأعشاب الدائمة الخضرة ، ونبتت الشجيرات بين الأسوار . وفي داخل هذه الأسوار قامت القرى والمزارع على نحو يستطيع الرجل في القرية أن يستمع لمن يصيح به من قرية أخرى . وفي داخل الحلقات وخارجها مسا كن ذات أبواب صغيرة . والسور الثاني لا يختلف في بنائه عن السور الأول ، والمسافة بين السور الثاني والسور الثالث نحو عشرين ميلا ألمانيا . وعلى هذا النحو قامت الأسوار حتى السور التاسع ، وكلما تقدمنا إلى الداخل كلما صغر السور ، وعلى جانبي كل سور ، قامت مزارع و بيوت بلغ من شدة تقاربها واتصالها ، أنها تستطيع أن تتصل ببعضها عن طريق قرع الطبول [1] » .

الحرب مع الآفار

هذه كانت الأمة التي طلب تاسيلو منها المساعدة . غير أن التماسه المساعدة وجههم إلى خطط جديدة للفتح والنهب . إذ لم ينهضوا في الوقت المناسب لانقاذه ، فلم يبرزوا للقتال إلا أواخر سنة ٧٨٨ ، فانقسموا جيشين ، توجه الأول نحو الحد البافاري ، بينما دخل الثاني فريولي ، وكلاهما حلت بهما على يد كونتات الأطراف، الهزيمة المنكرة ، وما ترتب عليها من تضحيات خطيرة . غير أن الخوف بلغ من شارل أنه سار بنفسه إلى ريجنسبرج وقام باستعدادات للدفاع عن الحدود ، وجعل كونت جيرولد شقيق الملكة هيلدجارد ، نائباً عنه في قيادة القوات البافارية . غير أن خططه تجاوزت حد الدفاع إذ أن الناس ظلوا طوال سنة ٧٨٩

---

(١) أنظر ١٠ Bouquet: Rec. Script الكتاب الثاني — الفصل الثاني .

يترقبون ماذا « يفعل شارل بالأفار ». وعلى الرغم مما حدث من أن حركات الولتزيين Wiltzes المثيرة تطلبت عودة شارل وقتئذ إلى نهر الإلب ، فإنه أرسل إلى الخاقان إنذارا ، أهم ماورد فيه من المطالب ، أن يتسامح مع المسيحيين النازلين على الحدود ، وأن ينسحب الآفار من كل الأراضى التى ادعى الباڤاريون ملكيتها . و بعد أن أرغم الولتزيين على دفع الجزية ، عاد ليجد ، كما توقع ، الآفار مازالوا على عنادهم وصلابتهم فى المقاومة . وانقضت سنة ٧٩٠ فى الاستعداد لحملة ، فاقت فى الضخامة كل ما جرى حتى ذلك الحين من الحملات . وفى سنة ٧٩١ سار منحدرا مع الدانوب ، وأمعن فى فتح أقاليم الآفار حتى ملتقى الدانوب مع الرّاب .

وتعتبر هذه من الحملات القليلة التى جرى وصفها فى شىء من الإسهاب . واشتهرت هذه الحملة بما انطوت عليه من نقطة هامة . . فوفقا لما جرت به العادة قضى الترتيب بأن يخرج من جهات مختلفة فرق عديدة من الجيش ، ثم تتجمع لمهاجمة إقليم العدو . وتولى ابنه بيبن قيادة أحد هذه الجيوش ، فسار من إيطاليا ، غير أنه لم يستطع الاتصال بالجيش الرئيسى ، ولذا ليس لدينا تفاصيل عن حركاته . ومن المعروف أن هذا الجيش أحرز نجاحاً تاماً . وسار جيش آخر مؤلف من القوات النازلة شرق نهر الراين قاصدا بوهيميا الجنوبية ، وانضم إليهم قوة كبيرة من التشيكيين . وفى الجزء الأعلى من وادى المـاين ، أقام هؤلاء القوم علاقات سلمية مع الفرنجة . ومع ذلك فإنه توافر لديهم من الشكاوى ما جعلهم يثأرون من الآفار . وتوجه شارل بقسم ثالث من الجيش ،وسار على امتداد الضفة الجنوبية لنهر الدانوب . وانحدر الباڤاريون مع النهر فى قوارب يحملون معهم مؤونة الجيش. وعندملتقى نهر إنز ، اجتمعت الحشود ،وساروا ثلاثة أيام ، ووطنوا أنفسهم على الصيام ، وجهروا بالدعاء طلبا للنصر . ثم تقرر إرسال إعلان رسمى بالحرب إلى الخاقان . وواصلت الجيوش سيرها على ضفتى النهر . واستبد الخوف والفزع بالآفار ، فتخلوا عن الخط الأول من حصونهم (فى غابات فينا) ، ولجأ بعضهم إلى

الحرب ، ولقى عدد كبير منهم مصرعه ، أو وقع فى الأسر بعد الإذعان . وعلى هذا النحو وصلوا إلى نهر الراب دون أن تصادفهم عقبات خطيرة . وأذعن لشارل ما يقرب من نصف مملكة العدو . وعندئذ تحتم على شارل أن يرتد بسبب اقتراب فصل الشتاء . إذ أنه بقى فى ساحة القتال اثنين وخمسين يوماً ، أظهر فيها ما يكنه للآفار من الاحتقار والازدراء . ولم يلحق بالفرنجة من الخسائر إلا ما نفق من الخيول بسبب الأمراض[١] .

الثورات والمؤامرات .

على أن كل سياسى يبتغى مصلحة مملكته قد يكتفى بما حدث . فلم يعد ثمت ما يخشاه من جانب الآفار . ولم يكن من جهة أخرى من اليسير عمليا أن يدمجهم فى مملكة الفرنجة . فمن أراد أن يستولى على السهل الكبير الذى يعيشون فيه ، تحتم عليه أولا أن يخضع ما يحيط به من الجانبين من الأراضى الخصيبة ، وأدرك شارل هذه الحقيقة ، غير أن الفكرة التى استقرت فى ذهنه ، أنه ينبغى الانتقام لأوربا لما لحقها فى الزمن الغابر من الإهانات ، وأن إخلاصه للكنيسة تطلب منه أن يعرض على الوثنيين ، أن يختاروا بين التحول إلى المسيحية أو الفناء والدمار . على أن ما وجهه له الكوين من اعتراضات ، وما أصر عليه من ضرورة مراعاة ما يتطلبه قرب موطنه من واجبات بالغة الأهمية ، لم تجد منه أذنا صاغية إلى أن أقنعه منطق الحقيقة والواقع . مكث شارل فى ريجنسبرج حتى انقضى الشتاء ، واشتد عزمه على استئناف الحرب فى السنة التالية .

---

(١) هذه الحملة ورد ذكرها فى الحوليات ، وفى رسالة وجهها شارل إلى الملكة فاسترادا — Jaffé : Mon. Carol. p. 349. ورغم ما اشتهرت به الرسالة من الإيجاز والجفاف ، فإنها احتوت على ما هو أكثر من العبارات السائدة عن الحب ، يشكو فيها الملك أنه لم يتلق رسالة من زوجته ... ويشير إلى سوء صحتها .

غير أنه حدث من الظروف والأحوال ما أدت مجتمعة إلى تدمير عزمه وتصميمه . ففي أورجل في أطراف أسبانيا ، ظهرت صورة جديدة من المذهب الأريوسي [١] . واشتد نموها وازداد نضجها ، وازداد الخوف من أن تتأثر غالة بهذه النحلة ، فانعقد مجمع في ريجنسبرج في صيف سنة ٧٩٢ لإنكار رأي كبير الزنادقة فيلكس أسقف أورجل ، ولإعادة عقائد المذهب الأثناسيوسي . وفي هذه الأثناء ، نبتت بين النبلاء الذين صحبوا الملك إلى ريجنسبرج مؤامرة ذات صفة خطيرة ، وتطلب اكتشاف الخطة تأجيل انعقاد المجلس الوطني مرات ، ثم انعقد في دورة الخريف لمحاكمة الجناة . وحدث بعد هذا من الشواهد المخيفة ما يشير إلى السخط في سكسونيا . وجاءت الأخبار بأنه بينما كانت سرية من الفرنجة تسير على نهر الإلب ، إذ وقعت في كمين ، وهلك رجالها عن آخرهم . وبات مستحيلا القيام بحملة في جهة نائية ، بينما انتشر السخط في طول ألمانيا وعرضها . غير أنه لم يؤجل الحرب ضد الآفار ، إلا ما رآه الملك من إقامة جسر من السفن على الدانوب لنقل الجنود .

والمؤامرة التي ذكرناها تشبه إلى حد كبير مؤامرة الثورنجيين ، إذ وضع خطتها ، أولا أثناء حملة الآفار ، بعض سادة الفرنجة الذين التمسوا من الأعذار ما جعلهم يمكثون في بافاريا [٢] . ولم يختلف هؤلاء عن الثورنجيين فيما ادعوه تبريرا لمؤامرتهم من شدة قوة الملكة فاستراداا . على أنه يجوز أن ندرك ما إذا كانت هذه الشكوى

---

(١) أنظر الفصل السابع .

(٢) لم يرد في المصادر عن هذه المؤامرة إلا ما يجعلها موضع شك ، فحوليات فولدا تشير صراحة إلى أنها ظهرت في بافاريا . أما حياة شارل التي ألفها أينهارد ، والتي تمت كتابتها بعد أن مضى على الحادث نحو ثلاثين سنة ، فإنها تبدو مضطربة فيما يتعلق بالظروف التي حدثت فيها المؤامرة . ويظن الكتاب أن المؤامرة تم اكتشافها في فصل الشتاء . ويعلل ذلك بما يزعمه من أن بين تخلف في استراسيا بحجة المرض . ومن الثابت أن فاردولف اكتشف المؤامرة . وأوردنا في المتن ما جاء في Monk St. Gall عن سلوكه وتصرفه . على أن الراهب أخطأ حين ظن أن الملك كان وقتذاك في آخن .

الخاصة تختفى وراءها شكاوى عامة أخرى ؟ منها ، على سبيل المثال ، ازدياد عبء الخدمة العسكرية ،والاشتداد فى تحصيل المقررات الملكية . ومع ذلك فإن خلق الملكة لم يكن له أدنى أهمية عند أحد من رعايا شارل . فعلى الرغم من أن زوجة شارل كانت صغيرة السن ، ولا تصلح للقيام بهذا الدور ، فإن الملك عهد إليها لا فحسب بكل شئون القصر ، بل أيضا بأمور الضياع الملكية ، ذلك هو الإجراء الذى درج عليه السادة الجرمان أيام الزعامة القبلية . وكان شارل مخلصا لتقاليد قومه فى هذا الأمر . ومن المؤكد أن فاسترادا أساءت استخدام مكانتها . ولإثبات الحقيقة ،لدينا إلى جانب النص الصريح الذى أورده اجينهارد ، ما اشتهر به تيودولف أسقف أورليان من النزوع إلى الصمت ، وما حدث من ايفاده لكتابة شاهد قبرها ، لم يسع تيودولف الذى دأب على التمدح بالأسرة الملكية ، إلا أن يلاحظ أنها تركت وراءها لرعاياها ، شطرها الطيب أى زوجها .

بيبن الأحدب :

والمظهر الجديد لهذه المؤامرة ، أنها ارتبطت بدعاوى الحكم . إذ أن بيبن الأحدب ابن الملك من الجارية الأولى هيميلترود ، تذمر من قانون العرف الذى حرمه من التطلع إلى حقه فى المملكة عند وفاة أبيه ، وتيسر التأثير عليه حتى انحاز إلى الثوار . فاجتمعوا ذات ليلة بكنيسة فى رجنسبرج ليضعوا خططهم ، وتصادف عند دخولهم أن كان بالكنيسة راهب لومباردى اسمه فاردولف ، فاختفى وراء مذبح الكنيسة ، وصار ينصت إلى مناقشاتهم ، وساورهم الشك ، فأخذوا يفتشون الكنيسة حتى عثروا عليه ، غير أنهم حلفوه على أن يحفظ السر ،بدلا من أن يعدموه . وما كادوا يخرجون من الكنيسة حتى أسرع الراهب إلى القصر ، وصاح طالبا مقابلة الملك ، واندفع بين الحراس النائمين ، ثم أفضى لقاهر أمته بما يحيق به من الخطر العاجل ، فأمر فورا بالقبض على الجناة

وتقرر تقديمهم إلى المحكمة أمام مجلس الزعماء . وما حدث فى أمر تاسيلو حدث فى هذه القضية ، إذ صدر الحكم بالإعدام . على أن الملك لم يظهر من التسامح مثلما أظهره فى أحوال سابقة من هذا القبيل . ومن العسير لومه لأن طريق الشفقة والرأفة لم يجد عنده قبولا . فلم يتدخل فى صالح أحد ، سوى ابنه غير الشرعى . لم يفعل ذلك رأفة به ، إنما لدافع سياسى ، هو كراهيته أن يحمل البيت الملكى فى مستوى الرعايا العاديين . وأجاز الفرنجة لبيبن أن يكون راهبا فحلق شعر رأسه . وعاش عشرين سنة فى دير بروم . ولما مات لم ينكر أحد من المؤرخين فى أن يعتبر هذا الحادث جديرا بالذكر . كان بيبن ألعوبة فى يد أحد الأحزاب ، وهلك أصدقاؤه قبله بزمن طويل ؛ إذ جرى شنق بعضهم ، وتم اعدام بقيتهم عقب صدور الحكم عليهم . وهذا المثال أدى إلى النتيجة المتوقعة . لم تعد فاسترادا سببا لأية ثورة أخرى . ومع ذلك فقد كان من صالح سلام الفرنجة وأمنهم ، أنها ماتت بعد سنتين ، وحل مكانها ليوتجارد التى تزيد عليها ظرفا ولطفا . أما فاردولف ، وهو آخر من بقى من ممثلى هذا الحادث ، فلقى جزاءه ومكافأته على صدق حنثه باليمين ، بأن حظى برياسة دير سانت دينى الغنى بخيراته . ونسمع عنه بعد سنوات يحمل مقدسات الأسقف النستورى أمام جموع الجيش فى سكسونيا .

قناة بافاريا .

وكأن المؤامرة لم تكن إلا اشارة لما شب من اضطرابات فى كل ركن من أركان أوربا ، إذ بعث السكسون الرسل إلى الآفار ، وعلقوا آمالا كبيرة على أن يحصلوا من وراء هذا التحالف على أمور عظيمة . ففى سنة ٧٩٨ نهضت سكسونيا بأسرها للقتال ؛ وفى هذه الأثناء نادى الأمير هشام بأسبانيا بالجهاد ، و بعث بالمؤمنين لغزو البلاد الواقعة شمال جبال البرانس ، فأنزلوا الخراب بسبتمانيا ، وتوجه

الأسرى المسيحيون للعمل فى مسجد قرطبة الكبير. وفى ايطاليا ظهر عدو جديد. ذلك أنه لما مات اريغيس دوق بنيفنتو سنة ٧٨٧، استجاب شارل لما طلبه رعايا اريغيس من اعادة ابنه جريموالد الذى كان رهينة بيده. على أن ذلك لم يكن حقا خالصا، إذ أن جريموالد حلف يمين الولاء، ووعد مثلما وعد أبوه، بأن يدفع الجزية. غير أنه انتهز أول فرصة لينقض التزاماته. فأرسل إليه بيبن ولويس لقهره، وزحفت القوات المتحدة للمملكتين على بنيفنتو، غير أنها لم تحرز نجاحا حاسما.

على أن قيام الثورة فى جهات عديدة لم يكن مجرد صدفة. إذ أسرف شارل فى تقدير موارده، فأمعن فى القيام بحملات إلى جهات بعيدة شاقة. وترتب على ذلك أن هاج رعاياه، وتجرأ عليه أعداؤه فى الخارج. والخلاصة أنه تحتم عليه ألا يضيع زمنا طويلا على نهر الدانوب. على أنه لم يذعن لما هو مقدر إلا بعد تردد طويل. فحوالى هذا الوقت، عمل شارل على أن يصل بين وادى نهرى الماين والدانوب، بقناة يبلغ اتساعها ثلاثمائة قدم.. والغرض الذى يرمى إليه، فيما يبدو، أنه يستطيع بهذه الوسيلة أن يستخدم القوات البحرية فى فريزيا وبلاد الراين فى الحملات المقبلة. فإذا نجح المشروع تيسر حل مشكلة النقل. فأمر بمساحة الأرض، وجمع عددا كبيرا من العمال، وما كاد يشرع فى العمل عند بوبنهيم على نهر آلتموهل، من روافد الدانوب، حتى سارت أعمال الحفر جهة الشمال مسافة بضعة أميال. غير أنه تبين لسوء الحظ أن المهندسين من الفرنجة لم يصلحوا للقيام بعمل لا تقل أهمية أغراضه التجارية عن أغراضه العسكرية. وبسبب الجو المطير، وما أصاب الأرض من نشع المياه والبلل، إذ كلما جرى الحفر، كلما انهار جانبا القناة، تخلى شارل آخر الأمر عن المشروع بعد أن يئس منه.

ومنذئذ ترك أمر الحرب ضد الآفار إلى الملك بيبن، وإلى جيرولد نائبه فى بافاريا، وإلى إريك دوق فريولى، وأرجع لويس إلى اكيتانيا كيما يقوى

استحكامات الحدود ، بينما انصرف شارل إلى الأمور الكنسية وتوطيد الهدوء والسلام فى سكسونيا . وفى السنوات الست التالية ،قاد حملات عديدة إلى نهر الإلب ونهر الويزر ، ترتب عليها ما سبقت الإشارة إليه من نتائج . وفى فترات الراحة القصيرة عقد المجالس الدينية ، والمجالس الوطنية ، التى سوف نتحدث عن أعمالها فى الفصل التالى . على أن مرحلة فتوحه أوشكت على النهاية ، بينما بدأت مرحلة التنظيم .

نهاية الأفار

وفى هذه الأثناء أثبت نواب شارل فى بافاريا ، بأنهم أهل للثقة التى وضعها فيهم . ففى سنة ٧٩٥ استطاع الدوق اريك مسترشدا بزعيم صقلبى مخلص، أن يعبر الراب ، وأن يهاجم الحلقة الشهيرة ، فاقتحمها ونهبها دون أن تصادفه مقاومة كبيرة ؛ لأن التتار وقتذاك كانوا فى حالة حرب داخلية . وفى السنة التالية ، وصل بيبن أيضا إلى هذه الحلقة ، فاستولى على ما تبقى من الكنوز ، وبلغ من تمام تدميره للاستحكامات أن موضع الأفار أمسى فى السنة التالية غير معروف .

وعلى هذا النحو انتهت آخر حروب شارل ، إن ولم تكن أقل حروبه مجدا وفخارا .ومن تبقى من الأفار استسلم وأذعن، إذ أن زعيما كبيرا منهم قدم إلى آخن حيث تم تعميده ، وأعلن رعاياه أنهم على استعداد لأن يحذوا حذوه . وتلقى أرنو أسقف سالزبرج الأوامر لإرشاد المتنصرين الجدد وتعليمهم مبادىء الدين . على أن تعاليمه لم تلبث أن اندحرت بسبب الظلم الفادح الذى نجم عن ضريبة العشور التى أصر شارل على أن تمتد إلى الإقليم الجديد الذى خضع للكنيسة ، على الرغم من احتجاجات الكوين الصريحة . أما بانونيا فإنها ظلت سنوات عديدة فى حالة قلق واضطراب . ولقى اريك دوق فريولى مصرعه فى ثورة نشبت سنة ٧٩٩ ، وهذا الحادث أشار إليه اجينهارد على أنه ثانى الكوارث العنيفة التى حدثت فى

عهده ، أما الكارثة الأولى فكانت مصرع رولان . وما كادت تمضى سنوات قليلة ، حتى رجع إلى المسيحية بقايا الآفار بعد أن أذعنوا نهائيا . ومن عجز منهم عن حماية أنفسهم من الصقالبة الذين سبق لهم أن قهروهم ، سألوهم أن يصرحوا لهم بالنزول فى داخل الحد الشرق (أوستمارك) فأجابوهم إلى طلبهم . وهرع الكارينتيانون Carentanians من أعالى التلال ، لشغل الفراغ الذى حدث فى سهل الدانوب نتيجة اختفاء الآفار . أما من تبقى من الآفار فاندمج فى السيل الزاحف ، ولم نعد نسمع عنهم ، أنهم أمة مستقلة .

وبقى الحد الشرق على ما كان عليه من قبل ، وهو الحد الذى كان للفرنجة فى أقصى الشرق . ولم يعد بألمانيا من الفلاحين من تدخره لبانونيا . فالحرب كانت سبباً من أسباب الإبادة ، ولم تؤد بعد الإبادة إلى نتائج مقبولة . ولا شك فى أن أوربا لم تخسر شيئاً باختفاء الآفار ، لأنه ليس لديهم ما يلقنونه لها . وليس فى استطاعتهم أن يتعلموا منها شيئا . ومع ذلك لا يسعنا إلا أن نشفق على الكوين حين طالب بقسط وافر من الاعتدال ، وندهش لأن سائر رجال البلاط اعتبروا هذا الانتصار المهين الأجوف ، أعظم ما أحرزه سيدهم وولى نعمتهم ، من الأعمال المجيدة . فلم يكن الذنب الذى صدرت ضده العقوبة إلا ذنبا هيناً يصح التجاوز عنه والتسامح فيه ، أما الخطر الذى ينبغى تجنبه فليس إلا من قبيل الوهم والخيال . والواقع أن البلغار ، لا الآفار ، هم الذين يعتبرون الخطر الحقيقى على أوربا ، وتولت الامبراطورية الشرقية قمعهم .

شارل وأوفا :

أما غنائم الحلقة فإنها على حد قول المعاصرين كانت وفيرة ، ولا بد أنها لقيت الترحيب والقبول من خزانة تكاد تكون خاوية من المعادن الثمينة . ومع ذلك فإن شطراً كبيراً منها تم توزيعه بين اتباع الملك ، والكنائس الرئيسية

عملكته ، ولم يصل أول جانب منها إلى آخن إلا أواخر سنة ٧٩٥ ، ومنه تقرر إرسال هدايا إلى البابا هادريان وإلى أوفا ملك انجلترا . على أن البابا مات قبل أن يتسلم نصيبه ، إذ أنه توفى فى ديسمبر من هذه السنة ، ولم يعش أوفا بعده إلا أشهر قليلة . أما الرسالة التى بعث بها شارل مع هداياه فتعتبر أصدق وثيقة عن علاقاته بالقصور الانجليزية :

«إلى صديقنا وأخينا المحبوب أوفا ، أبعث بالتحية ، نشكرك على ما ورد فى رسائلك السابقة عن الحب الخالص الذى تكنه للكنيسة الكاثوليكية . أما الحجاج الذين يرغبون فى القدوم إلى عتبة الرسل ، فلتدعهم يسيرون فى سلام ، إذ سوف يتعرضون لقلق أو اضطراب . وإذا أراد التجار القدوم ، فدعهم يدفعون ما هو مقرر من الرسوم فى المواضع المعروفة ، وسوف نجعلهم تحت حمايتنا . وما عندهم من شكاوى ، ينبغى أن يتقدموا بها إلينا أو إلى قضاتنا ، وسوف يجرى إنصافهم ، ونرسل مع هذا مما فى خزائننا من الثياب والأردية برسم أساقفة الكنائس بأقاليمك ، وأساقفة الفرد . وأرجو أن تقيم عندك الصلوات لروح البابا هادريان ، ونرسل باسمك منطقة وسيفا من سيوف الهون ، وعباءتين من الحرير»[١] .

والراجح أن الصداقة مع أوفا ، ترجع إلى السنوات التى تآمر فيها ذلك الملك كيما يحصل على تقليد بانشاء كرسى برئاسة أسقفية فى ليشفيلد . ولا بد أن هذه الصداقة جرت قبيل سنة ٧٨٧ ، لأنه حين نشبت المنازعات بين شارل وهادريان ، انتشرت الإشاعة بأن شارل سوف يتحد مع أوفا لعزل البابا . وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن على هذه الصورة ، فإن القصة تنطوى على شىء من الصحة . إذ أن أوفا فى سبيل مطامعه الخاصة ، اشتد اهتمامه بما تركز حول البابوية من مؤامرات عديدة ، واتخذ دائما جانب شارل . على أن العلاقات بينهما

(١) جرى تركيز الخطاب فى هذه العبارات ، وليس ثمة ما يدعو للترجمة الحرفية له .

فى السياسة المدنية كانت أقل إنسجاماً ووفاقاً ، فحينما طرد برتريك صهر أوفا ملك وسكس إجبرت ، وجد ملاذاً له فى البلاط الفرنجى . أما مملكة كنت الصغيرة ، فإنها ركزت آمالها فى أن تحصل على مساعدة شارل أثناء مقاومتها لملك مرقيا . وفى نورثمبريا أيضاً صادف حزب أوفا معارضة تستند إلى تأييد شارل . وفى سنة ٧٩٠ نشب نزاع بين الملكين ، وجرى التفكير فى الحرب . ومع ذلك فإن الكوين نجح فى إجراء التوفيق بينهما (٧٩١ — ٧٩٢) . وأورد تاريخ فونتانللى سبباً غريباً للخلاف ، إذ زعم أن شارل حين طلب يد إبنة أوفا لأبنه الأكبر ، تلقى مقابل ذلك طلبا يقضى بزواج الأميرة برثا من ولى عهد مرقيا . غير أنه ليس من المعقول أن تحالفاً شريفاً من هذا القبيل يدعو إلى المساومة من قبل أوفا . ومع ذلك فإن الرواية وجدت سنداً من الحقيقة ، بأن شارل هو الذى بدأ الحادثات بعد سنة ٧٩٠ . وأعقب هذا بأنه لم يعلق أهمية على صداقته لأخيه ملك مرقيا . ويظهر تفسير ذلك فيما اتخذه شارل من اتجاه ، أثناء حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة . إذ أنه عارض كلا من البابوية والأمبراطورية . ولذا لم يكن فى وسعه أن يزدرى تأييد الكنيسة الانجليزية ، ذلك التأييد الذى أحرزه بما أظهره من صبر شديد . واشترك علماء الدين من الانجليز فى المجمع الذى انعقد فى فرانكفورت (سنة ٧٩٤) ، وأنكروا عبادة الصور التى أقرها هادريان . وهذا هو السر فيما أورده شارل بالخطاب ، الذى سبق الاقتباس منه ، من عبارات المحبة التى وجهها شارل إلى أوفا ، على أن هذه الوثيقة المعروفة التى يحيى فيها « شارل أقوى ملك مسيحى فى الشرق ، أوفا أقوى ملك مسيحى فى الغرب » ، اعتبرها خيرة النقاد وثيقة مزورة[١] .

---

(١) هذا الكتاب نشره Bouquet فى 620 Rerum Scriptores.V. p . أما النص فى نصه فورد فى Jaffe : Monumenta Carolina p. 335

الفصل السابع

التشريع . السياسة الدينية . النهضة

٧٧٤ — ٨٠٠ م

وللكنيسة أثر في تشكيل حياة شارل باعتباره غازياً منتصراً ، ولها نفس الأهمية حين نلتفت إلى عمله التشريعي . رأينا أن أول مرسوم له ارتبط بأمور كنسية ، وحين أمسك بالقلم ليخط من جديد — بعد عشر سنوات ، مرسوما ، كان دستور كنيسة الفرنجة ونظامها ما زالا يعتبران من أغراضه الجارية . على أن للكنيسة أثراً في تشريعه المدني بطريقة خفية غير مباشرة . فإن عددا كبيرا من توصياته للعلمانيين تنطوي على إشارات لما يرتكب من الآثام والذنوب ضد الأخلاق والقوانين الكنسية ، وما يرتبط منها بالتجارة والتعليم والقضاء تأثر فيما يبدو بالاتصال بروما . فكل زيارة قام بها لإيطاليا أعقبها إصلاحات في الكنيسة أو الحكومة . فأحيانا يعود الملك من ايطاليا وبصحبته المهندسون والأساتذة وعلماء الدين، وأحيانا أدركنا منه الشعور العام بالمسئولية ، باعتباره قيما على مجتمع مسيحي كبير ، أثاره فيه ما نقله إلى بطريق المقر المقدس من الأفكار السامية، البابا هادريان الذي رفع شأنه بألفاظه أكثر من أفعاله .

لم تكن قوانين هذه المرحلة كثيرة العدد ، فمنها اثنان يرتبطان بسكسونيا ، وثمانى بإيطاليا، وخمسة تتعلق بكل المملكة ، على حين أن ما وجهه إلى المبعوثين من إرشادات عديدة يفسر تفصيل الإدارة . ولم تجر هذه القوانين أيضا على نظام معين ، فالإجراءات العامة ظلت مغمورة في مجموعات من القوانين الكنسية ، جرى نسخها حرفيا من المجالس القديمة ، ومن الالتزامات بمراعاة يوم الأحد ، وحضور القداس وحب العدالة ، والاعتقاد في إله واحد .

أعمال المبعوثين .

ومن التغييرات التى نستطيع إدراكها ، التغيير الدستورى الذى يتمثل فيما حدث بصورة منتظمة ،من استخدام المبعوثين الملكيين . لم تكن هذه الوظيفة مجهولة زمن الميروفنجيين . فكل مبعوث يرسله البلاط الملكى لغرض خاص يحمل اسم رسول مبعوث missus . غير أنه منذ سنة ٧٨٩ ، عند ما فتح ايطاليا، وأخذت عملية التوسع ،فيما يبدو ،تكتمل ، أضحى المبعوثون الوسائل الرسمية الذين يرسل شارل الكبير عن طريقهم قوانينه ومرسوماته إلى الأقاليم ، أو يجمع التحريات عن الإدارة المحلية ،أو يفحص عيوبها ،ويعمل على إصلاحها . والراجح أن المبعوثين فى هذه المرحلة السابقة على التتويج (٧٦٨ — ٨٠٠ م) قاموا بجولاتهم فى فترات غير منتظمة إلى أية جهة بالمملكة ، استرعت من الملك اهتماما خاصاً . فمثلا حدث فى سنة ٧٨٠ حين ترتب على إهمال لويس التقى الارتباك فى مالية مملكة أكيتانيا، أن أرسل شارل اثنين من مبعوثيه لتحقيق ماهو مطلوب من الاقتصاد والاصلاحات. ويقوم المبعوثون بالطواف بأنحاء المملكة كلها مرة أو مرتين . ففى سنة ٧٨٩ ، وسنة ٧٩٠ ، كلفهم بأن يحصلوا على يمين الولاء من جميع الرجال : « والآن أعد سيدى شارل وأولاده ، بأننى رجله المخلص ، وسوف أكون كذلك كل أيام حياتى » . وفى الجولة الثانية صاروا يتحرون أيضا عما إذا كان الكونتات فى كل إقليم ،يحكمون بين جميع الرجال وفقاً لقانونهم الوطنى ، كما قضت بذلك إرادة الملك . وأول واجبات المبعوثين أن يستمعوا إلى الشكاوى ضد الكونت ، وأن يلزموه إذا دعت الضرورة ، بأن ينصف هؤلاء الشاكين . وإذا لم يمتثل الكونت لأوامرهم، زاروا مقره الرسمى وأقاموا به، وتكفل بنفقات إقامتهم حتى يكسب ودهم ، فيحقق ما طلبوه منه لصالح المدعى المظلوم . ثانيا : يقومون بمساعدة الكونت ، إذا قام تابع كبير من اتباع الملك بعرقلة العدالة . ثالثا : يشاركون

الأسقف بما يقومون به من زيارات دورية ، فينزلون العقوبة بكل رجال الدين العلمانيين منهم والنظاميين الذين يتهاونون فى نظام الكنيسة . رابعا : يقومون بالإشراف على كل ما يمنحه الملك ،من أراضى التاج بالإقليم من الضياع المحبوسة على الخير، ويثبتون كل الحالات التى جرى فيها سوء استعمالها أو إهمالها، ويقررون الضرائب والخدمات المطلوبة . خامسا : يتحرون كيف يتحقق شرط الخدمة العسكرية ، وعما إذا كان الكونت قام بتنفيذه على ما ينبغى القيام به .

ومع ذلك فإن الوظيفة ما زالت فى هذه المرحلة فى مبدئها ومستهلها . فلا نسمع فى هذا الوقت عن جولات معينة ، ولم يكن للمبعوثين محكمة خاصة تمتاز عن محكمة الكونت ، فإذا ظهروا ، حجبوه فترة من الزمن ، أو جلسوا إلى جانبه فى دست المحكمة ،لينظروا أنه يحكم دون وجل أو محاباة . على أنه لم يرد فى هذه القوانين المبكرة ،ماصار لهم فيما بعد من اختصاصات عديدة .لم يكن المبعوثون يتخذون من فئة ممتازة ، بل جرت العادة باختيارهم من بين فقراء أتباع الملك .

ويلى ذلك فى الأهمية الإجراءات التى تتعلق بالتجارة والأمن العام .فلأول مرة فى تاريخ مملكة الفرنجة، دخل بها نظام موحد للموازين والمكاييل[١] . وتم أيضاً إصلاح النقد بعد أن مضى على غزو اللومبارديين بضع سنوات . إذ كان يوجد قبل سنة ٧٧٤ من دور الضرب مالا يقل عن سبع وستين دارا ، فألغى معظم هذه الدور . وتغير أيضا عيار النقد . ومنذ ذلك الحين أصبح الجنيه من الفضة يساوى عشرين شلنا ، والشلن عبارة عن اثنى عشر بنسا . ومن الأمور التى تعتبر جرما خطيرا موجها لسلام الملك ، ما يحدث من رفض نقود كاملة الوزن تحمل طغراء الملك . أما النقود التى لا تتوافر فيها هذه الشروط ، فإنه جاز رفضها دون أدنى عقاب . وفى إيطاليا تقرر عدم استخدام النقد اللومباردى القديم

---

(١) ما كان معروفاً فى ألمانيا العصور الوسطى باسم وزن كارل ، اشتهر فى انجلترا باسم الوزن الامبيرى English Troy Weight .

منذ أول أغسطس سنة ٧٨١ . ولا تختلف العملة الجديدة عن العملة القديمة في نقائها ووزنها وفي دقة سكها . غير أنها لم تحمل لسوء الحظ رسم الملك قبل سنة ٨٠٠ ، على الرغم من أننا نجد من حين إلى آخر شعاره — معبد أو باب مدينة ، مطبوعا على أحد وجهي النقد .

وما صدر من تشريعات تحرم الربا، وتحدد سعر القمح ، تدل على أن شارل استمد أفكاره في الاقتصاد من تعاليم الكنيسة . فليس في استطاعة مشرع كنسي أن يوجه اللوم لما جرى اتخاذه من الإجراءات الصارمة ، ضد أولئك الذين يهاجمون المسافرين على الطرق الرئيسية ، أو يجبون رسوما غير مشروعة . فمصالح التجار جرت حمايتها إلى هذا الحد. وما تعرضت له النقابات من الإنذارات المتكررة إنما يرجع من جهة، إلى ما اتخذته بعض النقابات من نظم شبه وثنية ، وترجع من جهة أخرى إلى مؤامرات الثورنجيين وبين الأحدب . والمرسومات المتأخرة تدل على أن النقابات التجارية التي تألفت بقصد التأمين المتبادل ،لم تعتبر معادية للقانون .

التشريع الكنسي

ويحمي الملك قوانينه الكنسية من تهمة ضرورة التسليم بها والإذعان لها ، باستشهاده بقوانين الملك يوشيا[1] « لأني لا أعتبر نفسي مساويا لهم في القداسة ، بل لأننا اتفقنا على أن نسير في كل الأمور على نهج القديسين » . وليس في الاعتذار شيء من المبالغة . إذ أنه درج تارة في مجلس يجتمع فيه العلمانيون ورجال الدين ،

(١) يوشيا — حفيد منسى — ملك اليهود (أنظر سفر الملوك — الإصحاح ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠) — ولد في سنة ٦٤٧ قبل الميلاد ، وارتقى العرش بعد مصرع والده في سنة ٦٣٩ . وشهد حكمه انهيار امبراطورية آشور — وترتب على استقلاله أن تفرغ إلى إجراء إصلاح ديني ، استند فيه إلى سفر الشريعة ، الذي عثروا عليه في الهيكل فتقرر تطهير هيكل بيت المقدس من كل الديانات ، وأصبح قاصراً على عبادة يهوه Ex. Brit Josiah .

ورجال الدين ، وتارة فى مجمع كنسى خالص ، على أن يضع للكنيسة القومية دستورها ونظامها ومذهبها . فمن ناحية الدستور فإنه جريا على نهج القديس بونيفاس ، أعاد السلطة للمطارنة وحدد أقاليمهم ، وأقر ولاية رؤساء الأديرة على رهبانهم ، وولاية الأساقفة على كهنتهم ؛ وجعل دفع العشر واجبا قانونيا يلتزم به جميع العلمانيين ، وجعل الحكم بحرمان الشخص من الكنيسة نافذ المفعول فى القانون ؛ ونظم حقوق « الإعفاءات » ، وجعل الدعاوى التى بين رجال الدين وسائر الأفراد ، يتولى سماعها الكونت والأسقف معا — أما من حيث النظام ، فإنه منع رجال الدين من الزواج أو اقتناء الجوارى ، أو دخول الحانات ، أو حمل الأسلحة ، أو ممارسة الصيد وتطيير الصقور والصيد بها ، أو الاشتغال بأعمال دنيوية . وشرح للأساقفة طبيعة أعمالهم ، وأنهى للعلمانيين بالحالات الثلاث التى يجوز لهم فيها قانونا أن يعملوا يوم السبت وهى : القيام بنقل أثقال الجيش ، ونقل الميرة ، ودفن الموتى . وغير طقوس الكنسية وألحانها، وقرر كتابا جديداً للمواعظ ، وقرر ما اعتبره صالحا من الصوم والصلوات . على أنه قلما رجع إلى رأى البابا فى كل هذه التدابير . على أنه فى حالة من الحالات ، أجاز للبابا هادريان بأن يقوم بتسوية حدود أقاليم اكس ، وأمبوروم وتارنت ، وفى حالة أخرى سمح له بأن يوافق على نزول رئيس الأساقفة انجيلوام بالقصر بصفة مستمرة. وللبابا أن يقترح أحيانا إجراء إصلاح من الإصلاحات ، على أنه لا يستطيع أن يأمر به ، حتى فى المملكة اللومباردية .

أما أمور العقيدة ، فإن تدخل البابا يعتبر طبيعيا . إذ أن البابا وقتذاك ، والآن يعتبر مصدر العقيدة . إذ أن كتابا جرى تأليفه تحت ملاحظة الملك نفسه ، يزعم أنه ليس ثمت من الكتب ما هو كنسى ، ومن العقائد ما هو ارثوذ كسى ، سوى تلك التى سبر ها بخاتمه ، رئيس المراكز الرسولية كلها . وحين عالج شارل المرطقة المعروفة بهرطقة « ومن الابن Filioque » حرص على أن يطبق نظريته

من الناحية العملية . فالاعتقاد بأن المسيح ليس إلا مخلوقا بشريا انبثق من الأب، فهو بذلك أدنى منه مرتبة ، لم يكن إلا مبدأ قديما شاع بين الأسبان المسيحيين . ومع ذلك اعتبره بعضهم مبدأ زائفاً غير صحيح ، وأرسل اليباند رئيس أساقفة طليطلة ، فيلكس أسقف أورجل لنقض هذه الآراء و إنكارها . وكرسى فيلكس يخضع للكنيسة الفرنجية لوقوعه فى اقليم ناربون . وعزم شارل على أن يصوّب أخطاء الأسقف ، فرفعها إلى البابا .[1] وما كاد يحصل منه على إقرار رسمى ، بانكارها و بطلانها ، حتى أقدم على إنكار الهرطقة وتدميرها فى عدد من المجامع انعقدت فى ريجنسبرج (٧٩٢) وفرانكفورت (٧٩٤) وآخن (٧٩٩) . ففى الحالة الأولى جرى إرسال فيلكس ، بعد اعترافه ببطلان رأيه ، إلى روما حيث أعاد قراره أمام البابا هادريان . وفى سنة ٧٩٩ عقد ليو مجمعاً بروما فى نفس الوقت الذى انعقد فيه مجمع فى آخن ، إنتهى إلى نفس القرارات ، وفى مجمع فرانكفورت شهد الاجتماع مبعوثان من قبل البابا .

مسألة عبادة الصور :

على أن شارل فى المجمع الأخير قدم دليلا قاطعاً على استقلاله ، حتى فى أمور العقيدة . إذ حدث قبل سبع سنوات من انعقاد هذا المجمع أن الامبراطورة إيرين وصنيعتها تاراسيوس ، الذى اختارته ، لما رسخ فى ذهنها من الاعتقاد فى ذلته وضعته ، ليتولى بطريركية القسطنطينية على الرغم من أنه من العلمانيين — عقدا مجمع نيقية ، وأعادا عبادة الصور مع شىء من الاختلاف ، إذ قرر المجمع عبادتها لا من حيث المعنى الحرفى ، بل على اعتبار أنها رمز وموطن القداسة والألوهية[2] . وحضر المجمع مندوبو البابا هادريان ووافقوا فى اخلاص على قراراته . إذ درجت

---

(١) كتاب من البابا إلى أساقفة أسبانيا ورد فى Mansi : Consilia XIII. 759

(٢) انظر الترجمة الانجليزية : Hefel : Consilia Vol. VIII Libri Caroline. Migne Patrologia (Opera Karoli Magni).

الكنيسة اللاتينية دائما على التمسك باستخدام الصور ، باعتبارها وسيلة للعبادة والصلاة ، وأدوات مساعدة على تعليم الأميين تاريخ الكنيسة . ووافق هادريان على أنه ينبغى تبجيلها ومراعاة احترامها ، وقبل ما أورده اليونانيون من التفرقة الدقيقة بين العبادة والتقديس . هذه التفرقة لم تكن مفهومة عند شارل ومستشاره الكوين . فوضعا الكتاب المعروف باسم (Libri Carolini حوالى سنة ٧٩٠) وأرسلاه إلى البابا ليثبتا بما للأناجيل والآباء اللاتين من سلطات ، أن عبادة الصور أو الرسوم ليست إلا عبادة خالصة للأوثان . والواقع أن القرار سديد وصحيح ، غير أنه لا صلة له بالموضوع . على أن دعاة عبادة الصور ، عاقهم أيضاً الحاجة إلى الاعتراف ، بأن أصدق الهيئات أجازت عبادة المخلفات الدينية والصليب ذاته ، بل إنها مارستها . وهذه الحقيقة لا بد أن تمنعنا من التهليل لهم على أنهم طلائع البروتستانتيين الذين اقتبسوا من Libri Carolini[1] فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ورد عليهم هادريان بإجابات مسهبة ، غير أنها لم تفد فى إقناعهم . وأعلن مجمع فرانكفورت بطلان قرارات نيقية ، ومن الواضح أنه لم يمنع حدوث الانشقاق إلا إذعان هادريان . ويزعم دولنجر أن ثمت دافعاً سياسياً للخروج على مبدأ الخضوع للمقر المقدس ، ويرى فعلا أن شارل عزم على أن يتخذ اللقب الأمبراطورى . على أن هدفه فى مجمع فرانكفورت ، لم يكن إنكار ما يعتقد أنه هرطقة بقدر ما كان يقصد إليه من الحط بقسطنطين وأيرين فى عين العالم المسيحى .

(١) ومن رسالة جرى تصنيفها حوالى ٧٩٠ — ٧٩٢ ، تعزى إلى شرلمان كتابتها ، ومن الواضح أنها من إنشاء عالم دينى كبير . وتتضمن مهاجمة المجمع الذى انعقد سنة ٧٥٤ لمناهضة عبادة الصور المقدسة ، ومهاجمة مجمع نيقية الثانى الذى انعقد سنة ٧٨٧ الذى يجيز تقديس الصور وتبجيلها . والغرض الحقيق منها يظهره ويوضحه ، ما هو معروف من غضب شارلمان وسخطه على الامبراطورة ايرين ، ورغبته فى أن يلتمس من الأمور ما يبرر حصوله على لقب امبراطور . والراجح أن الكوين هو مؤلف هذه الرسالة .

انظر D. de Bruyne : La Composition des Libri Carolini in R. Bened. VII [1932] P. 227-234

ومع ذلك فإن هذا الفرض يجوز أن يستند إلى بعض الحقائق . فالواضح أن هادريان كان يخشى دائماً خفياً ، إذ يقول فى رده على رسالة شارلمان، أنه على الرغم من أنه لا يستطيع أن يصم الأمبراطور وأمه بالهرطقة ،وفقاً لقرارات لاشك فى صحتها ، فإنه شديد الرغبة فى مهاجمتهما لسبب آخر ، وهو أنهما يحوزان دون سند شرعى أملاكا تابعة للقديس بطرس . وفى رسائل شارل ذاتها ، التى جرى تداولها على الأقل بين رجال الدين بمملكة الفرنجة ، ما يدل على ما تعرضت له أيرين وقسطنطين شخصياً من النقد . فأسلوب وثائقهما ، على حد ما يقال ، يجعل منهما أسوياء لله ولرسله . وما يحدث من تقديسهما وتبجيل صورهما، يعتبر من قبيل عبادة الأوثان ، وهما يرميان أباءهما وأجدادهما بأنهم هراطقة . ومن الواضح فى تلك الحالة أنهما تلقيا تعليمهما من متهرطقين، وأن إيمانهما إنما جاء من مصدر نجس. ومنذا الذى سمع من قبل عن امرأة تجلس فى مجمع للكنيسة وتتحدث فيه .

اتجاهات شارل والكوين .

غير أن هذه المناقشات من نوع مألوف للمتناظرين ، ولا يحتاج تفسير وجودها إلى نزعة خاصة . فالبابا هادريان كان مشتبكا وقتذاك فى منازعات مع شارل فى شأن ما للبابوية من ضياع ومن سلطات . وكان فى وضع يستطيع فيه أن يتعرف النوايا الحقيقية للملك ، فما اشتهرت به رسائل شارل من نزعة عامة، إنما تمثل نزعة رجال عكفوا فى إمانة واخلاص ، على أن يدافعوا عن التقليد الكاثوليكى ، وكانوا فعلا عاجزين عن إدراك ما حدث من الانقسام بين خصومهم . يضاف إلى ذلك أن سلفه جريجورى الكبير اتخذ جانبهم . لم يصدق شارل، وكذلك الكوين، بأن ثمت سبب شرعى يدعو للتطور المنطقى للعقيدة .فإذا كانت التفرقة حديثة ، فإنهما لا يصدقان بأنها حقيقية . ففى رسائل الكوين فقرات عديدة تدل على خوفه الشديد،حتى لا تؤدى أقل بادرة من الابتكار إلى

انقسام خطير . فهو يكتب إلى فيلكس أسقف أورجل « إن نهاية العالم وشيكة الوقوع ، وإن محبة كثير من الناس جموداً ، فماذا نفعل نحن الضعفاء المائتين سوى أن نتمسك بعقيدة الرسل وأصحاب الإنجيل » ، واستخدم لغرض معين كناية « الثوب السابل للمسيح » .

أفكار الكوين :

وعلى هذا النحو درج الكوين ، الذى تشبع بتقاليد تيودور وجريجورى الكبير ، على أن يثبت بأنه رومانى أكثر من الرومان . فلم يأخذ بالأفلاطونية الأيرلندية أو التدليل العقلى عند العرب ، وفى نزاعه مع البابا ، لم يعتمد إلا على سند البابوات السابقين . ولم يبلغ نفوذ روما فى بلاد الفرنجة من القوة فى أى زمن من الأزمنة ، مثلما بلغه حين أضحى الكوين المرجع الأخير لشارل فى الأمور الكنسية . وما حدث من اختلافات مؤقتة بين سيده وهادريان ، لم تكن إلا فقاقيع سطحية لم تؤثر فى المجرى الواسع لسياسة الفرنجة .

لو أن الكوين مجرد عالم دينى ، لما كان لهذه الحقيقة عندنا إلا أهمية ضئيلة . إنما كان أيضاً معلماً ومصلحاً للتعليم . ابتدع حركة فكرية ، وكان مصدر التشريع الذى تأثرت به وعاشت عليه . وفى هذه الناحية أيضاً ، غلبت عليه الأفكار الرومانية ، التى احتفظت فى موطنه نورثمبريا ، من حيويتها الأصلية ، ما يزيد كثيراً على ما فى التربة التى نبتت منها .

وعلى الرغم من أن قهر اللومبارديين لفت انتباه شارل إلى بولص الشماس وبطرس البيزاوى وباولينوس ، الذى صار بطريرك أكويليا ، وعلى الرغم من أن باولينوس ، على وجه التأكيد ، والآخرين ترجيحاً ، أضحوا فى سنوات قليلة معلمين نابهين فى البلاط الفرنجى ، فإن النهضة العلمية الكارولنجية لم ترجع بدايتها إلى ما أصدروه فى التعليم من مقالات متناثرة غير متسقة . على أنه لن

ينهض النزوع الفكرى إلا بعد أن يتألق نجم فى الدراسة يزيد لمعاناً عن هؤلاء النحويين النابهين . على أن ما اشتهروا به من المعرفة ، تعتبر فى تلك الأزمنة بالغة الأهمية ، وما كان عندهم من صناعة تعتبر وقتذاك غير مرهقة . اشتهر باولينوس بسداد الحكم ، واشتهر بطرس بميله للدراسة والعلم ، أما بولص فكان معروفاً بقوة تفكيره . على أن هؤلاء الثلاثة كانوا من الرهبان، سواء انغمسوا فى أمور تافهة جوفاء ، أو عكفوا على مواصلة الدراسة من أجل الدراسة . أما معلم ملك الفرنجة ونبلائه فلا بد أن يكون علمانياً ، نابهاً فى الأعمال ، اشتهر بسعة صدره وشدة حنانه . ينبغى أن يكسب احترامهم بإثبات تفوقه عليهم ، فى نواحى تفكيرهم وعلمهم . ينبغى أن يكون له من البصيرة ما تجعله يدرك ما يحول بالعقل الساذج من اضطرابات خفية ، وأن يكون له من المهارة ما يهديهم و يهذبهم دون غطرسة وكبرياء ، وأن يكون له من السياسة ما يجنبه تلك الموضوعات التى لا تلائم تلاميذه ، وأن يكون له من الفصاحة ما تخضعهم لتأثير أولئك الذين لا يظهرون نحوهم إلا أقل ميل . ولا بد من التماس الطريقة ، غير أن الطريقة ينبغى أن تكون مخالفة لمن يدعى منهم العلم . وكل تلميذ لا بد من معالجته من زاوية مختلفة ، ولا بد أن تتغير مادة الدرس وطريقته وفقاً لكل حالة ، وفوق كل ذلك ربما احتاج التلميذ إلى أن يتزود بإجابة معدة للرد على السؤال . إذا إلى أى حد ؟ ينبغى أن يتبين مدى انطباق دروسه على أسلوب الحياة وحكومة الدولة . لم يكن هذا النوع من المدرسين متوفراً ، غير أن شارل واتاه من الحظ ما جعله يعثر على شخص جمع كل هذه الصفات ، وأن يجده فى الأوقات التى أضحت من النضوج ما تستطيع به الاستجابة لتأثيره .

حياة ألكوين

كان ألكوين من سلالة بيت من بيوت نبلاء نورثمبريا ، البيت الذى أسدى خدمة جليلة لفرانكيا ، إذ نبت فيه القديس ويليبرود الرسول المبعوث للفريزيين ، وتعلق المعلم المقبل للامبراطورية بذكرى قريبه المشهور ، فاهتم بكتابة ترجمة حياته شعراً ، وأصبح هو نفسه معروفاً فى البلاط الفرنجى فى مطلع حياته . فهو رجل ثرى ، لم يلتحق بسلك رجال الدين إلا ليتجنب ما اشتهرت به السياسة النورثمبرية من الاضطرابات والتردد . ارتحل مرات إلى غالة ولومبارديا ، للحصول على الكتب والمدرسين . وظهر فى بلاط شارل فى إحدى سفراته . ولا بد أن حدث هذا فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٦٠ ، ٧٨٠ . إذ عهد إليه ملك نورثمبريا أو رئيس أساقفتها برسالة ، وبذلك تم اتصاله بملك الفرنجة . لم يفترق العالم عن الفاتح إلا على شعور بالاحترام المتبادل . والراجح أنه لم يكن لديهما فكرة عن الاتصال الوثيق الذى عاشا فيه معاً فيما بعد . وفى سنة ٧٨١ اجتمعا مرة أخرى فى بارما ، وفى هذه المرة انتزع الملك من ألكوين وعداً بأن يحصل على إذن من رؤسائه ، كيما يقوم بزيارة طويلة إلى بلاط آخن . وعلينا أن نستخلص الآن أن شهرة ألكوين العلمية قد رسخت واستقرت ، وهذا هو ما جرى فعلا . تلقى ألكوين تعليمه فى مدرسة يورك الشهيرة ، عن الأساتذة الذين تتلمذوا على بيدا الجليل ، ووعى من العلم ودراسة كتابات آباء الكنيسة ، والعلوم الكلاسيكية ، والدراسات العلمية ما انتقل من كانتربرى وروما وايونا إلى أكبر مدرسة دينية بانجلترا . وفى سنة ٧٨٢ وفى ألكوين بوعده ، ولم يزر بعدئذ موطنه الأصلى ، إلا مرات قليلة فيما بين سنتى ٧٨٦ ، ٧٩٣ . وحلت بنورثمبريا أيام سيئة . فالحروب الأهلية ، والغزوات الدانمرقية ، وتداعى مدرسة يورك ، كانت كلها أسبابا ملحة ، حتمت على عالم محب السلام أن ينطلق باحثاً عن مجال جديد لنواحى نشاطه . لن يشعر ألكوين

فى مقامه بين الفرنجة يمثل مايشعر به من القلق والاضطراب لو بقى فى مرقيا أو وسكس .

كان السكوين فى السابعة والأربعين من عمره ، حين قدم إلى شارل . وعلى الرغم من أن سيده وصديقه ، غمره بالضياع الوفيرة، فإنه لم يرغب ، أو يقبل أن يشغل وظيفة رسمية ، وبقى شماسا حتى وفاته ، ولم يكن الجهد والسرعة عنده إلا على حد قوله كالدخان للعيون المريضة . وانصرفت جهوده إلى أعمال الكتابة والتشريع والتعليم . وفى سنة ٧٨٦ انسحب من البلاط إلى دير القديس مارتن فى تور ، وهو أهم الأديرة التى حباه بها شارل . ولم تجد المساعى فى اغرائه بالعودة إلى القصر . وحدث عقب تتويج الامبراطور ، أن تحقق طلبه بأن تخلى عن كل وظائفه ، ومنذ ذلك الحين حتى سنة ٨٠٤ حين أصابه الشلل ، عاش حياة شديدة الزهد والتأمل . وفى نقش على شاهد قبره ، يصف نفسه فى تواضع شديد بأنه لم يكن « جوابا على سطح الأرض » وإنما كان ينشد دائما الحكمة ، ومع ذلك لم يكن ثمت من الأثر الشخصى ما بلغ من الانتشار والتأثير فى فرانسكونيا وأوربا ، مثلما بلغه نفوذ هذا العالم الانجليزى الزاهد[1] .

---

(١) أنظر ما يأتى من النهضة الـكارولنجية :

1 — Capitularies ed. Boretuis (M. H. O.)
2 — Letters of Alcuin ed-Jaffé
3 — Poems of Alcuin, Theodulf, Paul the Deacon, Peter of Pisa. (ed. Dummler.)
4 — Eginbard's. Biography. Monk of St. Gall.
5 — Eginhard : Translations of S. S. Marcellinus and Peirne.
6 — Bass Mullinger, M. Hsarésa Dictionary of Christian Biography.
7 — Mignet : Etudes Histonques.
8 — Histoire Litteraire de la France.

مدرسة القصر :

وفى المرحلة الأولى من حياة الكوين (٧٨٢ — ٧٩٠) قام بتنظيم مدرسة القصر وسائر المدارس التى من هذا النوع . وفى المرحلة الثانية حارب هرطقتى التبنى واللايقونية وانتصر عليهما . وفى المرحلة الثالثة أنشأ فى تور مدرسة ديرية أضحت نواة لمدارس أخرى كثيرة ، وغدت النموذج الذى سار عليه هذا النوع من المؤسسات قرونا عديدة . وفى هذه المراحل الثلاث ، كان يعتبر المستشار العام لسيده ، إذ صار مركز حلقة أدبية ، والمرجع الأصلى الذى يلجأ إليه العلماء ورجال الدين ورجال السياسة، يلتمسون منه حل مشكلاتهم .

على أن مدرسة القصر ربما نشأت منذ زمن بعيد ، غير أنها لم تتخذ طابعا معينا ، إذ أن الصبيان الطموحين من أبناء الأسرات الكبيرة ، لجأوا إلى قصور الميروفنجيين وحجابهم يلتمسون من العلم ما يرتضيه الحاكم . وربما اهتم سادتهم بأن يهيئوا لهم هذا التعليم . والراجح أن قس الملك وكتابه ، تلقوا من الأوامر ما يجعلهم يقومون بتعليم هؤلاء الطموحين فى أوقات الفراغ . على أن المدرسة لم يكن لها ، حتى زمن الكوين ، من النظام والمنهج ما يجعلها جديرة بهذا الاسم . وظل معظم الطبقة الأرستقراطية من الفرنجة ، مجردين من كل أثر للمعرفة والثقافة . وفى زمن الكوين ، أضحت المدرسة عاملا هاماً فى الحياة القومية ، إذ تطورت إلى معهد اشتهر بأهدافه النبيلة ، ولقى تشجيعا بالغاً . وكل زعيم من الزعماء أصبح فى استطاعته أن يرسل إليها أبناءه ، ولم يكن الأصل الوضيع ، مانعا للصبى الموهوب من الشعب أو البطارقة ، من الالتحاق بها ، إذ أن شارل لم يحفل بذلك . فبى عدالة مطلقة ، اختار شارل أنجب الطلاب وعينهم بالوظائف أو المراكز الخالية . وقام الكوين نفسه بالتدريس بها ، وأدخل الأدباء الآخرين فى الخدمة . ووضع الملك تقليدا بما حدث من تلقيه الدروس بها ، والتحق بالمدرسة كل أفراد أسرته .

ولما كانت المدرسة من أعمال القصر ، فإنها صحبت الدور الملكية أثناء تنقلاتها . غير أنه لم يعرقلها كونها من متعلقات القصر . وأرسل الكوين المبعوثين إلى سائر الجهات لشراء الكتب اللازمة للتلاميذ ، على أن المكتبة التي أنشأها لابد أنها كانت صغيرة يسهل نقلها من مكان إلى آخر . وصنّف الكوين بنفسه مبادىء العلوم الابتدائية مثل التهجى ، والنحو والبلاغة والجدل ، وهى ما تزال باقية ومحفوظة فى مؤلفاته .

وما كان يجرى بالمدرسة من علم أو معرفة لا بد أنه كان أوليا بسيطا . فلم يعرف الكوين من الفنون الحرة أكثر مما استخلصه من المصنفات الضئيلة التى لكاسيدووس ومارتيانوس كابيلا ، وموسوعة ايزيدور الأشبيلي ، ومن الترجمات غير الكاملة لكتابى أرسطو ، وهما التفسير De Interpretatione ، والكليات ولم يعلم من الفلك شيئا إطلاقا ؛ ولم يكن حظه فى الحساب والهندسة إلا قليلا . وعلى الرغم من أن بوثيوس نقل إلى اللاتينية الكتب الأساسية التى ألفها نيقوماخوس واقليدس و بطليموس عن هذه الموضوعات ، فلا بد أن نقرر أن الكوين لم يقرأ لهؤلاء المؤلفين ، ولم يدرس كتبهم . فمنطقه يسوده الاضطراب و بلاغته ليست إلا قاموسا للمصطلحات الفنية ، ولم يعرف من اليونانية والعبرية إلا قدر ما جمعه من منتخبات القديس جيروم . ودرس مؤلفات فرجيل ورسائل شيشرون ، غير أنه ، أواخر حياته على أقل تقدير ، لم يشجع من حيث المبدأ دراسة الكتاب الوثنيين . أما الكتاب الآخرون فاشتهروا باتساع دائرة اختيارهم فاشتهر اجينهارد و بدرايته الكبيرة بسيتونيوس وليفى . ودافع تيودولف أسقف أورليان عن الآداب القديمة ، على اعتبار أنها تعرض الحقائق العلمية العميقة فى صورة رمزية . وهذان الرجلان من تلاميذ الكوين . أما بولص الشماس و بطرس البيزاوى ، فإنهما أسهما بقدر من الدراسة الرفيعة التى تفوق ما عند الكوين ، و بإلمامهما باليونانية ، والتاريخ والدراسات القديمة .

دراسات شارل:

وعلم اللاهوت يعتبر الدراسة الأساسية للطلاب المتفوقين ، ويدافع شارل في منشوره المعروف الذى صدر سنه ٧٨٦ عن سائر الدراسات التى تعتبر متصلة باللاهوت . « وإذ يرد فى الصفحات بالكتاب المقدس ، كثير من الاستعارات والرموز وأمثالها ، فلا شك أن الشخص لا يستطيع أن يدرك المعنى ، إلا إذا تمرس فى الآداب ومهر فيها » . وأظهر تلاميذه تقدما كبيرا فيما جعل لهم من الدراسة التى تعتبر المرحلة الأخيرة لكل متاعبهم . سارعت كل من جيزلا أخت الملك ، وروترود ابنته ، بالكتابة إلى الكوين أثناء إقامته فى تور تطلبان منه تفسير عبارات غامضة فى الإنجيل الرابع ، وأخبرتاه بأنه منذ أن تلقيا عليه الدروس ، اشتدت رغبتهما فى التعمق فى الدرس والتحصيل . فأرسل إليهما بدوره مجلدين ضخمين عن التفسير ، ورأى ضرورة الاعتذار ، لأنه لم يرسل لهما أكثر من ذلك . وتعرض لويس التقى قبل وفاة والده لاحتقار المحاربين من الفرنجة ، لأن تعليمه جعله فى صميم قلبه راهبا . أما الملك فإنه أضحى أيضا متبحراً فى العلم ، على أنه ينبغى أن يكون معروفا أن النتيجة أدت إلى عكس الطيبة والدماثة . فمن أحب رياضاته أن يمطر البابا والكوين ، وكل أسقف يقيم لرأيه وزنا ، أو أراد إثارة اهتمامه ، بأسئلة كالتالية : « ما المقصود بالشعائر فى صلاة التعميد ؟ وماذا يقصد بزهى الروح القدس ؟ لا نعلم كيف برأ ليو نفسه فى هذه الحالات . غير أن أحد الأساقفة الذى نشك فى أنه كان صائدا قديرا ، استطاع أن يحل ما وقع فيه من من ارتباكات ، بأن حرض تيودولف رئيس دير اورليان ، المشهور بسلامة طويته ، على أن يكتب له مجموعة إجابات . ويمدح الكوين سيده ، على أساس أنه أقام نفسه لصقل مواهب الصبيان ، ولإزالة ما عاق بها من صدأ الإهمال والكسل ، بهذه الاختبارات المفاجئة . ونستخلص من الحالة التى سبق ذكرها ، أن المواهب جرى

تهذيبها وصقلها . غير أن هذا التهذيب يكاد لا يتفق مع أغراض الملك . فى كل الحالات ، كان الملك مثالا طيبا لأناس ، لديهم من وقت الفراغ أكثر مما لديه . وعكف شارل ، قبل وفاته بيوم أو يومين ، على تقويم نص للإنجيل بمساعدة علماء يونانيين وسوريين ، ترجموا له ماعندهم من روايات . لم يكن هذا اتجاها جديداً . إذ أن شارل كان دائما مستعدا للدفاع عن العقيدة بقلمه ، حين لا يستخدم سيفه . والمعروف عند الناس ، أنه أسهم بنصيب كبير فى وضع الرسائل الشرلمانية . وفى مراسلاته مع الكوين ، كان يبدى استعداده لأن يقترح وأن ينتقد أيضا . وبلغ اهتمامه اشده فى نقض هرطقة التبنى . إذ كتب بخط يده ، لصالح الأساقفة الأسبان . رأيا عن العقيدة الصحيحة التى تتعلق بتجسيد المسيح و بماله من طبيعتين . على أن البداية لم تكن مجردة من التأثير : « هذا هو الدين الكاثوليكى . فإذا كانت الكاثوليكية ديننا . فنأمل أن تكون مذهبكم أيضا . فليس ثمت إلا مذهب واحد ، وتنصير واحد . والسيد المسيح عيسى وحده ، اله خالص ، و إنسان خالص ، طبيعتان اندمجتا فى شخص واحد . وسيط بين الله والناس » . على أن المجادلة والمناقشة الحرة ، لم تكن مقبولة عنده . فهو ينتقل سريعا من العرض إلى التحذير إلى التضليل : « أصلحوا أنفسكم ، وسارعوا بإيمان خالص ، إلى الالتحاق بوحدة كنيسة الله المقدسه . فمتى تصورتم . أيها النفر القليل . أنكم اكتشفتم من الأشياء ماهو أصدق وأخلص من الذى جاءت به الكنيسة العالمية فى انحاء العالم ؟ ولم يستطع توركيادا ذاته أن يفسر كراهية الكنيسة للعقل البشرى . وكان شارل دائماً الفيصل الخطير فى كل مناقشة مثلما كان فى كل حرب من الحروب .

وما درسه شارل ، إلى جانب العلوم اللاهوتية ، كان عظيم الأهمية : إذ درس من اليونانية مايكفيه لان يفهم أحاديث المبعوثين البيزنطيين ، وتعلم النحو اللاتينى على بطرس البيزاوى ، وتلقى سائر الفنون الحرة على الكوين . وظهر فى محاورة الكوين على أنه متحدث بارع . يذكر اجينهارد أن شارل شرع فى تعلم

الكتابة ، ودرج على أن يجعل أدوات الكتابة تحت وسادته ، غير أنه لم يصب من التقدم إلا قليلا . ولعل المقصود بذلك ، أن نوعاً راقياً من الكتابه جرى استخدامه فى نسخ الكتب . ومع ذلك اعتمد الملك ، ترجيحاً ، على كاتب ، حتى فى رسائله . واستهوته دراسة الفلك ، على الرغم من أنه لم يتخذ قاعدة بطليموس دليلا له . ومن تحفه التى خلفها ، نعلم أنه كان بها كرة مصنوعة من المعادن النفيسة ، نقش عليها البروج والنجوم . ولما اشتدت رغبته للمعرفة بسائر أنواعها ، حوّل اهتمامه إلى فروع عديدة من العلم ، خارجة عن نطاق الدراسة العادية . واستطاع بفضل ما حصل عليه من معلومات من الأجانب والمسافرين ، أن يتعرف إلى البلاد النائية ، وأحب أيضاً التواريخ ، وصارت تقرأ له أثناء تناول الطعام ، وأمر بجمع قصص الفرنجة ، وشرع فى وضع نحو للغته القومية ، وحث موظفيه على ضرورة دراسة القانون ، وجعل الطب مادة إجبارية فى مدارسه . على أنه ظهر ما هو معروف به من الحكمة ، فى أن لم يجز لأطباء القصر أن يرتبوا قانوناً لأمراضه ، ولدينا قصة تتعلق بطبيب من أطباء القصر ، لم يرد فيها عن مهارته إلا النذر اليسير ، واشتهر هذا الطبيب باسم وينتر . إذ توجه وينتر ليقوم بمعالجة رئيس الدير شتورم فى مرضه الأخير ، فأعطاه جرعة غريبة ، ومنذ تلك اللحظة ازدادت حالة رئيس الدير سوءاً ، بدلا من أن تتحسن ، فصاح أخيراً بصوت حزين : لقد اشتدت بى العلة ، ولم يلبث أن لفظ نفسه الأخير . والواقع أن مدرسة القصر وما يماثلها من المعاهد والمنشآت احتفظت ، على الرغم من محاولة الملك أن يجعلها حقلا لتدريب الرجال من الناحية العملية ، بمالها من صفة لاهوتية قوية ، وولدت فى تلاميذها الشك الوبيل فى سائر العلوم .

تشريعات التعليم

على أن القوانين الخاصة التى حاول بها شارل إحياء العلم لم تكن مجردة من الأهمية ، ويصح أن نورد عنها شيئاً فى هذا المقام . ففى سنة ٧٨٦ ، جلب شارل

من إيطاليا مرتلين من روما ليصلح بهم صلوات الكنيسة ، وأقامهم فى متز وسواسون ، و بعث إليهم المرتلين من الكنائس المختلفة ليتعلموا عليهم . هذا الإصلاح فكر فيه بيبن القصير ، غير أنه لم ينفذه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن بالغ الأهمية ، فإنه يفسر أساساً الطابع الرومانى للنهضة الكارولنجية . وتشير الرواية إلى أن شارل سمع أثناء وجوده بروما ، المرتلين بكنيسته الخاصة ، يتناظرون مع المرتلين الإيطاليين فى مزايا أساليبهم . فقال للفريق الأول « الآن ، أخبرونى أيهما أفضل الينبوع المتفجر ، أو الجداول التى تنساب منه ؟ فأجابوا فى صوت واحد « الينبوع » . فقال فى شىء من الحدة : « فلترجعوا إلى ينبوع القديس جريجورى ، فالواضح أنكم أفسدتم موسيقى الكنيسة » . و بهذه الروح أصلح شارل طقوس الفرنجة ، وتخلص من الزيادات والإضافات ، التى سادت العرف المحلى ، وأعاد تنظيم الشعائر على النسق المعروف فى روما ، واستبعد ما أدخلته المذاهب الجديدة فى مقدمة غير سليمة ، وطلب إلى بولص الشماس أن يجمع من أعمال أخلص الآباء اللاتين ، كتاب صلوات ليحل مكان ما سبق استخدامه فى شمال أوربا ، من مختارات ساء انتخابها ، فأضحى الأساس الذى أقرته الكنيسة الرومانيه . على أن جهل رجال الدين هو الذى اقتضى هذه الإصلاحات ، فنصب نفسه لإزالة هذا الشر الأساسى . فحوالى سنة ٧٨٧ وجه إلى اساقفة ورؤساء الأديرة خطابا دوريا عن التعليم . يشير فى هذا المرسوم إلى أن دراسة الآداب تعتبر من جوهر الحياة الدينية . فالأعمال الطيبة خير من المعرفة ، غير أنه لولا العلم لما ظهرت الأعمال الطيبة . ولاحظ فى شىء من الأسى والحزن فيما يوجهه إليه رجال الدين من رسائل ، أن عبارات المدح يفسدها دائماً اللغة السقيمة ، ولذا أمر أولئك الذين بيدهم مقاليد السلطة أن يلتمسوا مدرسين ، وأن يراعوا بأن يتلق أولئك الذين فى رعايتهم وتحت اشرافهم ، التعليم السليم . وفى تصدير كتاب الصلاة ، نعى تدهور الكتابة الذى نجم عن اهمال سابقيه ، ولاحظ ما طرأ على

المتون المقدسة من فساد الأحوال ، ودعا رعاياه إلى التعاون معه فى إزالة هذه الأخطاء . وفى سنة ٧٨٩ أمر بأن يتم فى كل أسقفية إنشاء مدارس يتعلم فيها الأولاد المزامير ، وعلامات الموسيقى ، والإنشاد والحساب والنحو . وينبغى امدادهم بنسخ من الكتب المقدسة المشهورة بسلامتها وصحتها . وفى مرحلة تالية أمر بأن يتعلم كل كاهن، القراءة والكتابة والمذاهب الدينية ، وكتاب الصلاة، وكتاب القداسات ، وكتاب الواجبات ، وكتاب التوبة ، وكتاب القديس جريجورى ، وهو المعروف بكتاب الرعاة ، ورسالة البابا جيلاسيوس ، وينبغى أن يتعلم العلمانى على قسيسه مذاهب الرسل ، وكتاب الصلاة ، ونظرية التثليث .

ولم تضع هذه الجهود عبثاً، إذ يشير لايدرادأسقف ليون فى ٨١٣ — ٨١٤ إلى ما كان من مدارس للمنشدين ، وإلى ما حدث من تأهيل بعضهم للقيام بالتدريس لمنشدين آخرين ، وإلى مدارس للقراء الذين تعلموا كيف يشرحون الأناجيل، وأن يتجنبوا الخطأ فى النطق. وأقام تيودولف رئيس دير أورليان فى أسقفيته، مدارس أسقفية يقوم فيها رجال الدين بتعليم الأطفال الذين يبعث بهم أولياء أمورهم ، ولا يتناولون مقابل ذلك من المكافأة ، إلا ما يجرى تقديمه لهم عن طيب خاطر من الهدايا .

المدارس الإقليمية :

ومن الملحوظ أن هذا النظام التعليمى كان كله دينيا ، فالحساب نفسه دخل أساساً ، ليتمكن التلاميذ من معرفة أوقات الأعياد . والذين لا أمل لهم فى أن يكون لهم نفوذ فى الكنيسة أو الدولة ، لم تتهيأ لهم الفرصة لأن يواصلوا ما يجرى فى البلاط من التعليم الراقى . وتعتبر مدرسة الكوين فى تور ، انموذجا للمدارس الإقليمية . ولما أقام الكوين هذه المدرسة ، كان ازدراؤه للتعليم المدنى بلغ عنده من الشدة حد التعصب . ذلك أنه منع الرهبان أن يدرسوا هذا النوع من التعليم ، بل أنه منع دراسة فرجيل أيضاً . اشتملت الدراسة على مرحلتين : ففى المرحلة الأولى ، التى قدمة

تجاوزها العلمانيون ، اقتصر التعليم على ما حدده مرسوم سنة ٧٨٩ من موضوعات .
وفى المرحلة الثانية يتعلم الرهبان وسائر الأفراد المعدون لوظائف الكنيسة الأناجيل ، وكتابات آباء الكنيسة ، وقوانين الكنيسة ، وقدرا كبيرا من العلوم الحرة ليساعدهم فى التفسير والشرح . والذين ينتهون فى هذه الدراسة ، يصبحون عادة ، رؤساء للأديرة الفرنجية أو الجرمانية، وأشهرهم رابان ماور Raban Mauer .
ويرجع أساس شهرته ، إلى أنه أنشأ مدرسة فولدا . أما المدارس الأخرى التى نشأت على غرار مدرسة تور (أمثال مدارس أديرة كوربى والقديس واندرل ، والقديس جال) فكانت ، من غير استثناء ، مدارس ديرية ، المقصود منها تعليم رجال الدين . على أنه فى هذا النطاق الضيق ، أضحى أثرها السليم ، عظيم الأهمية ، على أن المستوى العام للثقافة بين العلمانيين لم يرتفع ، إذا قل من تعلم منهم القراءة أو مجرد كتابة اسمه .

غير أن هذه المدارس أدت إلى الأجيال التالية خدمة مزدوجة : إذ أنها — أولا أحيت اللغة اللاتينية ، وأعادتها إلى مكانتها ، من حيث أنها أصبحت لغة أدبية ، فقاومت من ناحية طغيان الألفاظ الجرمانية ، وقاومت من ناحية أخرى اللغة العامية الرومانية وما اشتهرت به من فساد الصرف والنحو . فتقرر الأخذ بالهجاء السليم ؛ وما جرى اتخاذه من أسلوب ، على الرغم من أنه يرجع إلى القديس أغسطين، أكثر مما يرجع إلى شيشرون ، يعتبر مع ذلك وسيلة كافية للتعبير عن الآراء السائدة . ثانيا : أضحى التلاميذ ينشرون وينسخون ، ما تبقى من أعمال هؤلاء الكتاب بعد أن انهار العلم القديم . فالإنجيل والآباء اللاتين وكتب الصلاة ، ومؤلفات كاسيدروس وبوئيثيوس وبيده ، والكتب الكلاسيكية التى لم تحتو على ما يثير شكوك الصالحين ، ازدادت العناية بتصويبها وإصلاحها ، ونقصت الفرص التى تتعرض فيها للضياع ، بكثرة ما جرى نسخه من المخطوطات وتعددها . ووضع الكثير من المبادىء التى ينبغى أن تهتدى بها هذه الأعمال ؛

فضرب مثلا رائعا لتطبيقها بما قام به من إعادة نشر الإنجيل . إذ أنه بعد أن قارن عددا من النسخ ، وأفاد مما وجده عند أغسطين وجيروم من اقتباسات ، استبعد أخطاء عديدة ، استمرت زمنا طويلا ، قدم للكنيسة الغربية متنا للأناجيل يفوق كثيراً ما كان معروفاً عند اليونانيين(١) ، وتقدم بعمله إلى شارل فى روما يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م . وبتأثير الكوين حفلت مناسخ ديرى تور ، وفولدا وسائر الأديرة الشهيرة بالناسخين المهرة . والمخطوطات التى ترجع إلى هذه الفترة لا نظير لها فى الدقة والاتقان الفنى . وإذ جرت كتابة هذه المخطوطات ، فى معظم الأحوال بالذهب على رق أحمر ، وجرى تزيينها بالحروف الأولى الرائعة وبالزخارف ، ما زالت موضع الإعجاب الشديد لما اشتهرت به من حروف هجائية منتظمة واضحة ، جرت صياغتها على انموذج الحروف الكبيرة المعروفة قديما فأعادوا استخدامها . وعلى الرغم من أن هذا يبدو إصلاحا آليا ، فإنه ترتب عليه نتائج بالغة الأهمية ، بأن ازداد تيسير الحصول على الكتب ، وتضاءلت فرص وقوع الخطأ فى النسخ المقبلة .

الأدب فى ذلك العصر .

ونتقل من المدارس إلى الرجال الذين أنشأوها ، والذين نشأوا بها . فتلاميذ الكوين ومساعدوه هم فى الواقع أدعى للالتفات باعتبارهم رجالا لا مؤلفين . إذ أن كتبهم بلغت من شدة الجدب مالا يقابله ، إلا ما بلغته حياتهم من شدة الاهتمام . فما درجوا عليه ، مثل استاذهم من التعلق بالبحوث اللاهوتية الدقيقة ، جعلهم يخرجون عددا من الرسائل الطويلة المملة ، لا يترتب على الامعان فيها والانكباب المضنى عليها ، إلا التفكير فيما انطوت عليه من مسائل ، مثل المعنى الحق للتعميد ، وطريقة التجسد ، والفيض الصادر عن الروح ، ومهما قلبنا من صفحاتها فلا نعثر على

---

(١) وردت أخطاء الترجمات العراقية مع تصويباتها فى الرسالة التمرلانية .

فقرة تشير فى وضوح إلى مزايا العرض الثابت ، والمنطق السليم أو اللغة المفهومة .
أما الدراسات العليا بالمدرسة فلم تكن بالغة الأهمية . فلم يشتهر المدرس والتلاميذ
إلا بما يصدر عنهم من أمثال وحكم مألوفة ، وتحيات جوفاء ، وألغاز تافهة ، ورموز
سقيمة . ولو أنها كتبت باللغة الدارجة لجاز، على الأقل، أن تكون مقبولة، لما فيها
من السذاجة الخالصة ، غير أنها جرت كتابتها باللغة اللاتينية ، وفى شعر جاف
سقيم . وشعر الكوين يخجل عروضه أحيانا تلاميذ السنة الخامسة الثانوية . على
أنه يحدث أحيانا ، أن يرد عفوا فى بعض القطع الصغيرة ما يمس الطبيعة ، أو الروح
التهكمية ، أو العاطفة الذاتية : ومع ذلك فليس هناك شىء من القيمة التاريخية. على أن تيودولف
هو وحده من بين شعراء البلاط ، الذى تستسيغ شعره، ولكونه أصلا من اسبانيا
أو إيطاليا ، قادته طبيعته الجنوبية الدافئة إلى المزاح اللطيف مع أقرانه ، وهدته
أحيانا إلى الانكار الشديد ، المفاسد التى تسرى كالدود فى قلب دولة الفرنجة . ففى
نصيحته إلى القضاة Advice to Judges ، يصف فى احتقار بالغ ، الكونت المخمور ،
والمتقاضيين القادمين برشاويهم ، وما يجرى فى محاكم الأقاليم ، من فساد ، ؤامرات
وندين له بما أورده من وصف حلقة البلاط ، فيعرض صورة أخرى لألكوين
تخالف تلك الصورة العامة الواردة فى Acta Sanctorum ، إذ جعله شخصا ممتلىء
الجسم ، يحب المآدب ، يسرف فى الأكل والشراب . و بين صحون الطعام
يضع القوانين لكل الأمور البشرية والإلهية . ومن شعر الكوين ، نعتبر
المحاورة الآتية بين الربيع والصيف ، أكثر محاوراته فيما يبدو قبولا واستساغة :

الربيع — إنى لسعيد بقدوم الوقواق الذى يعتبر خير ما أحبه من الطيور .
وليس تحت من السقوف ما يمنع الطائر من الهبوط التماسا للراحة
بعد تحليقه .
ومن منقاره الأحمر تنبعث الأغانى العذبة غير أنها تناديه — مرحبا
بالضيف .

الصيف — ألا طبت بتأخر قدوم الطائر؟ إذ أن مصدر المتاعب

لم يكن إلاه ،

يجلب معه المعارك ، وكل الناس فى العالم مهما استبد بهم التعب ،

يوقظهم من رقادهم بصياحه ، لينهضوا لمواجهة أخطار البر والبحر .

الربيع — وصوت الطائر يصحبه ظهور الزهور ، ويجلب السرور بما يخرج

من العسل من النحل .

ويبعث الزارع لتشييد بيته .

ويدفع السفينة إلى البحر الهادى الساكن ،

وتخرج على موسيقاه الطيور من البيض

ويخضر المرعى والشجر .

اجينهارد وانجلبرت :

لا شك أن أهم أثر أدبى لهذا العصر ، يتمثل فى الترجمة التى كتبها اجينهارد لسيده . تلقى اجينهارد تعليمه مع أبناء الأسرة المالكة ، وخدم بعدئذ فى البلاط على أنه مدير المنشآت العامة ، وتهيأ لمؤرخ المستقبل ما لم يتهيأ لغيره من الفرص لجمع المادة من مصادرها الأولى . ومن دراسته العميقة للمؤرخين القدماء ، لم يحرز فحسب الأسلوب العنيف الصارم ، بل استطاع أيضا أن يكتسب صفة فنية . فمن حيث الطريقة والمادة ، يعتبر اجينهارد خير مؤرخى العصور الوسطى المبكرة . لم يكن محايدا على وجه الإطلاق ، إذ نسب لبطله من الجاذبيـــة الأصلية ، ما لا تكاد تتفق مع ماورد فى سائر المصادر من المؤثرات والعواطف . وما اشتهر به شارل من الميل إلى التفاخر ، وحب المخاطرة ، والطموح العنيف ، لم نجد له ذكرا عند اجينهارد . أما الأعمال التى تعتبر موضع شك ، فإنه يلتمس لها عذرا مقبولا لجهله

بها ، أو يورد عنها دفاعا مبتكرا . على أنه أورد الحقائق فى بعض الحالات قصدا أو عن غير قصد . ولا بد لنا عندقراءته ومطالعته،أن نتذكر دائما العامل الشخصى. إذ أن أجينهارد انغمس فى كل ما حدث فى عصره من مظاهر الضعف ، ونواحى التعصب . على أن اجينهارد الصادق يظهر واضحا فى مؤلفه المعروف :

Translations of SS. Marcellinus and Petrus

فيخبرنا فى بساطة بالغة ، كيف أرسله إلى روما ليشترى مقدسات دينية لديره ، وإذا تناقصت كية المخلفات ،أمر البابا بألا يتم تصديرها . غير أن مندوب المؤرخ استطاع بمساعدة أحد الخبثاء أن ينهب قبسوا من الأقبية ، وأن يعود مسروراً . ولما اطمأن اجينهارد فى مكانه بعيداً عن روما ، أخذ يسجل فى هدوء هذه السرقة الصالحة ، ليظهر للأجيال المقبلةحقيقة كنوزه وثروته .

وتشير قصة ترجع إلى القرن الثانى عشر ، إلى أن اجينهارد أحب امرأة معروفة باسم إيمّا ، واعتبرتها أنها ابنةشرلمان. والمعروف أن زوجة اجينهارد معروفة باسم إيمّا ، غير أنه ليس ثمت من الأدلة ما يربطها بالأسرة المالكة . وما اشتهر به زوجها من الصرامة ، فى ذكر غراميات الأميرات. يستبعدأنها واحدة من المذنبات. أما انجيلبرت زميل اجينهارد فىالدراسة ،فإنه يتصل به كثير من الفضائح الظاهرة. أضحى انجيلبرت كاتماً لسر الملك ، واستغل ظروفه وأحواله فى إقامة علاقة مع الأميرة برثا . ولم يصرح شارل بزواجهما إلا بعد أن أنجبا طفلين،حتى يقطع دابر الإدعاءات والأكاذيب . ولما كان انجيلبرت منتمياً فعلا للطوائف الدينية ، فإن الزواج لقى من شدة التقريع ما لم تلقه المؤامرة التى سبقته . ولم تمض أربع سنوات حتى سلكا طريق الرهبنة ، ودخلا الدير معاً — وهذا العمل نفسه، يعتبر اتهاما لنظام الكنيسة . وحدث آخر الأمر أن وقع الشجار بينهما ، فعادت برثا إلى البلاط ، حيث لم يطل بها الوقت فى السعى عن عشاق آخرين . أصبح انجيلبرت رئيس قساوسة الملك ، وأحد وزيريه الكنسيين الكبيرين . وهذه القصة توضح

ما جرى في وقت واحد من انحلال الأخلاق في البلاط ، وما بلغته الآثار الأدبية من مكانة عالية في هذا العهد . فما بلغه انجيلبرت من مكانة ، إنما يعود أساساً إلى ما اشتهر به من العلم والدراسة التي أكسبته لقب «هوميروس». ولم يكن انجيلبرت الوحيد في هذا المجال . إذ أن الملك شجّع كل العلماء على أن يتحدثوا إليه ، على قدم المساواة . وتألف تحت رعايته هيئة ، تشبه ما تألف من الهيئات الإيطالية في القرن الثامن عشر . وفي حديثه مع الناشئة بالقصر ، اتخذ لنفسه اسم داود، واتخذ الكوين اسم فلاكوس ، واشتهر اجينهارد باسم بصنيل ، كما اتخذت سيدات القصر لأنفسهن أسماء كلاسيكية أيضاً . وجرى بين الأعضاء مطارحات في الشعر والمجاملات ، ومن حين إلى آخر قامت المآدب بالقصر ؛ وأخذ كل منهم ينقد أعمال الآخرين ، وصاروا يتناقشون في الموضوعات التي ترتبط بالصالح العام . وفي هذه الأثناء ، أمعن القوم في مقارعة الكؤوس وشرب النبيذ . واشتهر شارل نفسه باعتدال المزاج ،غير أن ذلك يجوز ألا ينطبق على كل الرفاق . ويصف ثيودولف كيف أن أتباعه المخلصين الذين جاز لهم أن يحضروا هذه الحفلات الفكرية ، لم يلبث أن يشتد حماسهم،وتكثر مجادلاتهم ،لما يجرى فيها من شراب، فإذا تولى الكوين إدارة الحديث والمناقشة استسلموا للنوم .

شارل والعلماء

ونلمس نوعاً من الكبرياء والغرور في هذا النوع من رعاية الآداب ، فالزعيم الاستقراطي يطمع في أن يجمع في شخصه أغسطس وما يكناس ، ولا بد إذن،أن يكون عنده فرجيل وهوراس،ليسبحا بحمد مملكته . ومن دواعي سروره أيضاً أن يكون قريباً منه ، من الأشخاص من يستطيع أن يجيب على الأسئلة،التي تحدث نتيجة شدة حب استطلاعه . ومع ذلك فإن هذه النزعات التافهة ،تنطوي على سياسة ثابتة ، تقوم على الإفادة في حكومته من كل ما يتيسر

من النشاط الفكرى . فلم تكن أسئلة شارل كلها سطحية . فباعتباره رئيساً للكنيسة، التمس افكاراً واضحة، فى موضوعات تتعلق بالمناظرات الدينية ؛ وباعتباره رئيساً للدولة ، التمس المساعدة والتأييد فى تشكيل مفهوم لواجباته وأعماله . ولم يدخل خدمته عالم حتى وجد نفسه ،عاجلا أو آجلا ، مكلفاً بتأدية عمل من الأعمال العامة . فغرس فى هؤلاء ، مثلما غرس فى المحاربين الغلاظ ،الذين قادهم إلى المعركة، قدراً من حماسته الملتهبة لتجديد المجتمع . فإذا لم يشتهروا بالعبقرية ، تحتم عليهم على الأقل أن يدأبوا على العمل « قبل أن يدركهم الليل » . هذه هى نصيحة الكوين لتلاميذه بالبلاط . ويؤكد الكوين ذاته ، أن شارل التزم بهذا المبدأ حرفياً ، وجعلنا نعلم أنه شخصياً وهب نفسه لخدمة هذا السيد المثالى . على أن الملك لم يقصر المساعدة على المدرسين ، فثمت من الحكايات المختلفة ما يدل على ما اشتهر به من دقة فى اختبار أثر قوانينه التعليمية ، إذ نجده تارة بمدرسة القصر يسأل التلاميذ ، فيطرح عنهم الخمول والكسل ، ويعطيهم درساً صارما فيقول لهم إن العمل لا النسب ، هو السبيل للحصول على رضاه ، وتارة بالكاتدرائية يشهد الأطفال محمولين إلى نبع التعميد ، فيوقف مايجرى من طقوس ، ويسأل الأطفال وشبابتهم ، فيتبين له أنهم يجهلون مبادىء العقيدة ، فيردهم إلى منازلهم حتى يتلقوا من قس الابروشية مزيداً من التعليم . ويقول راهب دير القديس جال « ليس بالمملكة من رجال الدين،من تلقى من التهذيب، مثلما تلقاه الكهنة فى الكنيسة الملكية ، إذ أن الخوف من سيدهم كان مسيطراً عليهم ، فلم يعرفوا سلفا أيهم سوف يجرى استدعاؤه لتلاوة الدروس ، وفى الوقت المحدد لمباشرة الطقوس يشير شارل بعصاه إلى أحد القسس ، وعندئذ تحتم عليه أن يبدأ التلاوة فوراً ، ويستمر فى تلاوته حتى يطلب إليه الملك أن يتوقف ، والويل لمن يخطىء منهم فى النطق ، أو لا يعرف موضعه فى القراءة » .

نقائص النهضة: الطاروتية

على أنه ينبغى ألا نبالغ فى أهمية هذه النهضة، وقدرة وكفاءة من قاموا بها .
فعلماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر رجعوا إلى أصدق المصادر ، ومن ثنايا الدراسات القديمة انتهوا إلى المبادىء الأساسية للأدب والفكر الفلسفى . واشتهروا بأنهم مبتدعون ، حتى فيما ادعوه لأنفسهم من أعمال غيرهم ، بينما تقيد الأفق الفكرى فى القرن الثامن بالآباء اللاتين وتقاليد الكنيسة . إذ أن أعظم ما يطمع فيه الدراس هو أن يفسر اللاهوت القائم ويقننه . وكل محاولة لاستخدام العقل والمنطق ، وكل تفكير حر يعتبر نذيرا لعاصفة من الكبرياء والاضطهاد .
وشهدنا مصير الأسقف فيلكس ، الذى لم تكن زلته من الزلات التى لا تغتفر ، إذ لم يتعرض إلا إلى أرفع مراحل ميتافيزيقية الإيمان . ولولا حماية الملك لشاركه فى المصير دنجال ، وهو عالم ايرلندى نابه ، قدم إلى القصر بعد انسحاب الكوين منه . وما اشتهر به دنجال من التصوف الذى ورثه عن معلمى إقليمه ، وما اشتهر به من ملكة الجدل ، والثقافة الرفيعة ، لم تكن إلا الصفات التى أثارت فى الوقت نفسه عداء أسلافه الذين ازدادوا تزمتا : فهو رجل جلف من سكان الغابات . شديد الوقاحة فى جدله وخصومته ، يظن أنه يعرف كل شىء لاسيما الأشياء التى لا يعرف عنها شيئا » . ومن الواضح أن دنجال كان على المذهب الغنوسى[1] الاسكندرانى ، واشتهر بإغراقه فى تحذيراته لتلاميذه على اختلافهم . وبهـذه المهاجات تم عزل أو هذا الرجل الايرلندى ، وجرى انتزاع نتائج الفكر الكلاسيكى من الكنيسة الفرنجية .

(١) الغنوسية مذهب دينى فلسفى ، ومحوره أن العرفان الحق ليس بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة ، وإنما هو العرفان الحدسى التجريبى عن اتحاد العارف بالمعروف . أما الغاية منه فهى الوصول إلى عرفان الله على هـذا النحو بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة خيال — ويقوم هذا المذهب على التعرض للأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير (أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية — الطبعة الثانية ١٩٤٦ ص ٢٤٤ .
بل . أيدريس : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى — ترجمة الدكتورين عبد اللطيف أحمد على ومحمد عواد حسين — القاهرة ١٩٥٤ ص ١٧٣ .

هذه هي نقائص الحركة الفكرية الكارولنجية . على أن مزاياها لا يتم تقديرها ، إلا عند مقارنة ما صنفه فردجير من تاريخ ضئيل الشأن ، بحوليات لورسهايم وكتابات اجينهارد ، أومقارنة لاتينية ماركولف بلاتينية الكوين وهنكمار ، وحين ننتقل مما اشتهر به علماء الدين في القرن التاسع ، من مؤلفات ومناقشات حافلة ، إلى إدراك ما خيم على المرحلة السابقة ،من صمت مطبق وركود شامل . أو حين نستعرض عدد الأديرة التي شيدها رواد الحركة في سكسونيا وغرب ألمانيا — التي لم تكن سوى سدود متينة لوقف تيار الوثنية والجهل ، والتي لولاها لاكتسحت الأراضي التي تم فتحها حديثا ، وغمرتها بالفوضى التي حدثت في القرن التالي . وللملك العظيم الفضل الأكبر في كل هذه النتائج . فهو الذي جلب المدرسين وعهد إليهم بالعمل ، وزودهم بكافة الموارد ، وهو الذي حدد لهم الاتجاه المثمر لجهودهم .

الفصل الثامن

تتويج شارلمان امبراطورا

٨٠٠ م

يؤكد لنا اجينهارد أن ما حدث سنة ٨٠٠ م من التتويج ، إنما جاء صدمة للشخص الذى لايهم الأمر سواه، « إذ أنه كان منذ أول الأمر عازفا عن اتخاذ اللقب الامبراطورى، وألح فى الاحتجاج ،بأنه لو علم بنية البابا، ما دخل الكنيسة فى ذلك اليوم، على الرغم من أنه من الأعياد الكبيرة »[1] .

غير أن الحقيقة المجردة لا نتوقعها من الملوك أو مؤرخيهم ، فليس انكارهم دليلا على أنهم ينكرون الشىء ، كما أن اعترافاتهم الصريحة ، إنما توحى طبيعيا بالشك، فالمفروض أن شارل باعتباره ملكا لا يقول إلا الصدق، وأن اجينهارد باعتباره من رجال البلاط يعتبر أمينا . ومع ذلك يصح أن ندرس عن قرب ، ادعاءاتهما فى ضوء الحوادث الثابتة . ألم يخطر ببال شارل مطلقا فكرة الأمبراطورية ؟ هل كان ممثلا ساخطا على ما دبّره ليو وحده من انقلاب مسرحى ؟ أو هل كان راغباً فى انتظار فرصة أكثر ملاءمة قبل أن يقدم على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة ؟ هذه الأسئلة ليس من المستطاع الإجابة عليها بالإيجاب المطلق . فينبغى أن نكتفى بأن نروى الحقائق ، ونوضح دلالتها الراجحة .

ليس ثمت ما يدل على أن التتويج جرت المناقشة فيه فعلا ، سواء فى روما أو فى آخن ، إلا قبل حدوثه بزمن قصير . وعلى الرغم من أنه ترتب على فتوح

---

(١) هذه العبارة أوردها اجينهارد عند حديثه عن تتويج شارل امبراطورا — أنظر
Eginhard : Vie de Charlemagne ed, Louis Halphen. Paris, 1947 p,81,

شارل، أنه أصبح سيداً على أراضي وأملاك ، تزيد على ما عند قسطنطين وايرين ، وعلى الرغم من أن معاهدتهما الذليلة مع بغداد والبلغار ، واتجاههما في مجمع نيقية دمر هيبة الامبراطورية الشرقية ، وعلى الرغم من أن الفرنجة أعلنوا تذمرهم وسخطهم لما اشتهر به البيزنطيون من الغطرسة ، فإن احترام الحق الوراثي في الحكم مازال قويا في الغرب. فني روما ، كما رأينا ، قدر البابا هادريان ، في مكر ودهاء ، وكذلك فعل سائر السياسيين الذين لم يبلغوا مكانته السامية ، إلى أين يقود البطريق حظه ومصيره . . وتطلع في شيء من الغموض، إلى قدوم مبعوثيه ليكرروا له نفس السؤال الذي وجهه ببين إلى البابا زكريا . أليس صحيحاً أنه حيث توجد القوة يوجد الحق أيضاً ؟ غير أن شارل بلغ من انصرافه إلى شئون ألمانيا أنه لم يسأل ماذا تقول روما . أما روما التي قطعت رسمياً منذ سنة ٧٨١ كل اتصال لها بالأمبراطورية الشرقية ، فلم تكن متعجلة لأن تتخذ لها سيداً آخر . فلم يكن هادريان أو ليو من ذلك الطراز من الرجال الذين يحفلون بالتفكير ، في أنهم استمدوا سلطتهم بتفويض من الأمبراطور الذي سخروا به . فطالما كان بناء الإمارة سليما فلا يهمهم الأعمال الزخرفية . ومازال لديهما ، على أسوأ الفروض ، الأسطورة الغريبة المنسوبة لقسطنطين وسلفستر ، حين يطلب منهما تبرير ما تحصل عليه البابوية من استقلال . ويضاف إلى ذلك، أنه كان بين المفكرين من يشعر بالحزن العميق على الأمبراطورية حينما كانت زمن القياصرة الأوائل ، واشتد شوق الايطاليين بصفة خاصة ، إلى أن يروا روما القديمة قلب العالم مرة أخرى . على أن هذه العواطف لم تكن واضحة ، ولم يحاول أحد من السياسيين ، حتى ذلك الحين ، أن يعيرها أهمية ، فلو أن ليو الثالث كان محبوبا في عاصمته ، أو أنه لم يكن سيء السلوك ، لما أصبح شارل امبراطوراً . وما جرى من مجادلات بمجلس البلدية ؟ وماحدث من فضائح غامضة نجم عنها ، أو على الأقل عجلت ، حادث بالغ التأثير في تغيير تاريخ أوربا .

انتخاب ليو الثالث :

كان ليو رومانيا لمولده بروما ، جرى استخدامه منذ سنواته المبكرة ، فى دار البابويه ، وحاز صيتا ذائعاً عن دهائه السياسى . والراجح أن هـذه الصفة الأخيرة ، لا ما يقرره له مؤرخه من الفضائل النادرة ومحبة الناس له ، هى التى جعلت رجال الدين، وأهل روما، ينتخبونه للبابوية ، فى نفس اليوم الذى توارى فيها جثمان هادريان (٢٦ ديسمبر سنة ٧٩٥) . والرجل السياسى فى حاجة إلى أن يحافظ على استقلال دوقيته والـكرسى المقدس من بطريقها القوى . ولما علم شارل بانتخاب ليو ، ساورته الشكوك عن مستقبل الـكنيسة ، إذ أنه اعتبر ليو خصما يبلغ من الخطورة مالم يبلغه هادريان ، وارتاب أيضاً فيما إذا كان البابا الجديد يصلح للبابوية من الناحية الأخلاقية . فما أرسله إليه من رسالة رسمية بالتهنئة، لا تنم عباراتها إلا عن التحية والمجاملة . على أن وفاة هادريان لن يترتب عليها فسخ التحالف بين الفرنجة والـكرسى المقدس . فليكن ليو، موسى آخر ، يرفع يده إلى السماء يلتمس النصر ، بينما يقوم شارل والشعب المختار بضرب العمالقة فى أعجازهم وأفخاذهم . ومن جهة أخرى، تمت نصيحة لها أهمية خاصة ، جاءت على لسان انجيلبرت، كبير قساوسة الملك. وهى أن كل بابا جرى الاحتفاء به ، تشجيعاً له على العمل الصالح ، أما ليو فجرى تحذيره من السيمونية[1] وعدم الاكتراث بقوانين الـكنيسة ، والاستهتار

---

(١) السيمونية (Simony) لفظ كنسى فى مصطلح العصور الوسطى ، ومعناه تعيين رجال الدين فى الوظائف الـكنسية بطريقة بيع هذه الوظائف أحياناً لمن يدفعون فيها ثمناً غالياً ، وأساءت هذه الطريقة وإلى سمعة بعض البابوات والـكنيسة الـكاثوليكية فى بعض العصور. وهذا اللفظ مشتق من اسم سيمون الساحر الذى أراد الحصول على بركة الروح القدس من أحد الرسل أتباع المسيح عليه السلام بمال قدمه لذلك الغرض ، ليقوم هو على بيع هذه البركة بثمن معلوم للراغبين فى اعتناق المسيحية — (أنظر كتاب العهد الجديد ، أعمال الرسل ، الإصحاح الثامن — سطر ٩ — ٢٥ — . وأنظر أيضاً تاريخ أوربا العصور الوسطى تأليف هـ . فيشر، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى — ج ١ ص ٨٦ — القاهرة ١٩٥٤

فى الحياة . لم يجر الملك ، على التطوع بأن يدعو إلى مكارم الأخلاق . وعلى الرغم مما اتصفت به عبارته من الحذر فإننا نستطيع أن نكتشف فى ثناياها ، تيارا خفياً من النذر أو الشكوك المخيفة . ونستطيع أن نكون واثقين من أن هادريان لم يكن ، حتى إبان أعنف خلاف وقع بينه و بين مريده ، موضوعا مناسبا لهذه الإشارات والتلميحات .

كان لليو أعداء ألداء بين رجال الدين فى روما ، وتزعمهم باسكاليس رئيس الكتاب ، وكامبولس متولى الخزانة ، وكانا من رجال داره . والأول كان ، على وجه التأكيد ، ابن أخت هادريان ، والراجح أن الثانى كان كذلك أيضاً . وضم المجلس البابوى أفرادا آخرين من نفس الأسرة ، وتأثروا بنفس روح الطموح الفاشل . وهذا أول مثال لأسرة بابوية تلعب دورا كبيرا فى سياسية روما ، ومن أمانى هذا الحزب ، انتخاب بابا يرتبط بمصالحهم . ولتحقيق هذا الغرض أعدوا أنفسهم ، لأن يطردوا ليو من منصبه بكل ما يلزم من الوسائل . وأغراهم سلوك البابا بمهاجمة أخلاقه الشخصية ، فأشاعوا ما رموه به ، من تهم الزنا والتزوير التى لابد أنهم أمعنوا فى المبالغة فيها ، غير أنها كانت فيما يبدو كافية لأن تثير فى آخن ، قدرا من القلق والاضطراب . و بناء على طلب الكوين ، والراجح أنه شاور شارل فى ذلك ، انتهز ارنو أسقف سالزبرج فرصة زيارته لروما ليفحص هذه الإشاعات . وعلى الرغم من أن تقديره ، أزال ما رسخ فى أذهان مستخدميه من أسوأ الشكوك ، فإنه بلغ من بعده عن صالح ليو ، أن الكوين ما كاد ينتهى من قراءته ، حتى ألقى به فى النار[1] ، ومع ذلك فإن شارل امتنع عن التدخل ، أما ليو فإنه رفض أن يرضى أعداءه بالتخلى عن منصبه إما لثقته واطمئنانه إلى براءته ، أو لثقته بأن ليس من المستطاع إثبات شىء ضده .

---

(١) أنظر . Jaffe, monumenta Alcuini pp. 445,453,488,511. لم يكن شارل باقل اهتماما من الكوين باحترام ليو .

باسكاليس وكومبولس :

لم يكن مركز ليو وطيدا كما تصوّر ، فما أحرزه فى يوم من الأيام من المحبة فى روما ، لم يلبث أن تدمر ، ولعل الخطأ فى ذلك يرجع إليه ، فيشير مصدر متأخر إلى ما حدث من التدخل الأحمق فى إدارة المدينة ، وكيفما جرى ذلك ، فإن الحكم النهائى يرجع إلى الملك ، فهو الذى يقرر براءة ليو أو اتهامه .

وفى هذه الإثناء لم يبد الملك من الحرص والرغبة ما يجعله يقدم إلى روما ، وصرح لأصدقائه أن تبرئة ساحة ليو ، تعتبر أمرا بالغ الدقة ، لا ينبغى التسرع فى اتخاذه . انتظر فى بادر بورن حتى ينجز ابنه الأكبر الحملة التى قام بها خلف نهر الإلب ، وجعل تحت حمايته سكان جزائر البليار الذين اشتد بهم الحرج والضيق ، فأرسل أسطولا لمساعدتهم ضد المسلمين . وعند عودته أمضى الشتاء فى آخن ، يستمع إلى ما أرسله له الكونتات من التقارير ، ثم زار بعد عيد الميلاد ، شمال غالة لإصلاح الموانى والسفن اللازمة لرد الشماليين عنها . وقضى عيد القيامة مع انجيلبرت والقديس ريكيبه ، ثم سار جهة الجنوب ، وصار فى كل مرحلة يتوقف ليؤدى للمشاهد المشهورة الطقوس والقرابين ، حتى وصل إلى دير السكوين فى تور . ثم عقد اجتماعا مع الزعماء البريتون ، واحتجزه فى هذا الموضع ، إلى نهاية يونيه مرض الملكة ليوتجارد ثم وفاتها .

مسألة محاكمة البابا :

وفى هذه الفترة اشتد توتر الشعور العام ، واستبد القلق بالذين ظنوا أن المسألة قد حُلّت ، وساد الخوف ، وانتشر الذعر ، فى كل مكان . فالبابا لم يتم نهائيا إدانته أو براءته ، ومهما كانت الأغراض والنوايا ، فإن البابا ظل أسيرا فى داره . وأخذ الناس فى إيطاليا ، وشمال جبال الألب ، يتساءلون فى قلق ولهفة ، ماذا تكون

النتيجة، لو أن شارل صدّق، آخر الأمر، المتآمرين واعتبر ليو مذنبا . منذا الذى يستطيع شرعا أن يعزل البابا؟ وإذا جرى عزل البابا، منذا الذى يستطيع أن يعتبر أن لمنصبه، من الاحترام الخالص ، مثلما كان له فى الماضى ؟ الواقع أنه سواء جرت تبرئة ليو أو لم تجر ، أصبح معروفا أن معجزة الله يصح أن تكون باطلة ، وأن نائب بطرس ليس إلا ذئبا فى جلد حمل . ومنذئذ إلى من يتوجه المسيحيون ليهديهم ؟ أليس ثمت سلطة أخرى تصلح تلك التى ثبت أنها ليست معصومة من الخطأ ؟ وأخذ الاعتقاد يرسخ بالتدريج، بأن ما حصلت عليه البابوية من استقلال ، وما تمتعت به من عدم المسئولية ، لم يؤد إلا إلى ما حل بالعالم المسيحى فى الغرب من فوضى الديانة والتفكك .

سمل عينى قنسطنطين :

لو أن الأحوال كانت عادية ، لكان الحل الواضح أن يعود الأمبراطور إلى سابق مكانته من الزعامة . فعلى الرغم من أن قنسطنطين نبت من أسرة شريرة ، فإنه مازال شابا صغير السن . فإذا تحرر من وصاية أمه ، فإنما ربما يعود إلى الطريق المستقيم ، وإذا رجع إلى الصواب والاستقامة ، صار له الحق المطلق فى أن يشرف على البطريرك فى الغرب ، غير أن الاقتراح جاء متأخرا ، لأن قنسطنطين وقع فعلا ضحية طموح أمه[1] .

---

(١) يروى راهب دير القديس جال ، أن ليو استنجد فعلا بيزنطه ات... اعده ، وأن الامبراطور ميخائيل قال إن البابا يقبض على مملكته بيمينه ، وهو أحق منا فى ذلك . فلينتقم لنفسه من أعدائه » . ومن الواضح أن القصة غير صحيحة فى هذه النقطة، إذ أن ميخائيل الأول لم يتول العرش إلا سنة ٨١١ . ولا تستطيع أن نزعم أن المقصود فى هذه الرواية هو نقفور الذى أعقب ايرين على الحكم ، ولم يتم عزل ايرين إلا سنة ٨٠٢ . وتدل القصة على أن تدخل البيزنطيين، يعتبر فيما يبدو، خطوة طبيعية . وعلى الرغم من أن البيزنطيين مكروهون، فإن اتخاذهم لقب الأمبراطورية، وما يتبع ذلك من السيادة الامبراطورية لم يكن موضع شك، إلى أن ارتكبت ايرين جرمها .

أنظر Monk of St. Gall . I. XXVIII ed. Bouquet .

أخذ نفوذ ايرين يتداعى إلى زمن قريب . وفى سنة ٧٩٠ ، انكشف أمرها وهى تحاول أن تغرى الجيش بالخروج على يمين ولائه وطاعته . والتزم قسطنطين جانب الحلم والعطف ، فاكتفى بحبسها فى السجن مدة سنتين . غير أنه لم يكن من القدرة والكفاءة، ما يستطيع بها أن يتحمل مسئوليات الحكومة ، فأطلق سراح أمه سنة ٧٩٢ ، وأضحت من جديد كبيرة وزرائه . وترتب على التجربة الأخيرة أن اتخذت ايرين جانب الحذر ، حتى أصبحت من شدة التيقظ، تدرك أدنى علامة من علامات البرود . ولما حدث فى سنة ٧٩٥ أن طلق قسطنطين الأميرة الأرمنية التى ألحت أمه عليه بالزواج منها ، عزمت على أن تدبر مؤامرة جديدة . ووضعت خططها بامعان وروية ، فلم تظهر إلا سنة ٧٩٧ . وفى شهر يونيه من هذه السنة تعرض قسطنطين للهجوم من قبل الجند بشوارع العاصمة . وحاول الفرار إلى آسيا الصغرى ، غير أن أتباعه خانوه فحملوه إلى القصر . فأمرت ايرين بسمل عينيه. وزعم الناس وقتذاك أنه لقى مصرعه ، غير أن مصدرا يروى لنا ، أنه انهار وتداعى فى سجنه ، سنوات عديدة . وكيفما كان الأمر ، جرى اعتبار العرش شاغراً . أما ايرين فإن رعاع الملعب هللوا لها، فأضحت بالها من حق امبراطورة . وثمت من الأسباب ما يدعو إلى التفكير فى أن عملها لقى سخطا شديدا فى الأقاليم ، وعند ذوى الآراء السديدة من الرجال . ويردد المؤرخ تيوفانس القصة التى تشير إلى أن الشمس اظلمت سبعة عشر يوماً، بعد حدوث هذه الجريمة الشنيعة ؛ وأن السفن التى تجوب البحار ، سارت على غير هدى، فلم تستطع أن ترسو إلى مرافئها . وهذا المؤلف جرت كتابته عقب الحادث مباشرة . ومن الواضح أن خيال الشعب أخذ يجسم ما اقترن بالجريمة من الرعب .

وازداد أثر الجريمة فى الغرب أيضا ، فعلى الرغم من أن الأنباء لم تنتشر إلا فى بطء ، فإن شارل ، فيما يبدو ، تلقى أول خبر عن الجريمة، حين ظهر فى آخن رسل ايرين حوالى نهاية سنة ٧٩٧ . ومن القصر صارت الأخبار تنتقل فى بطء ، إلى

الأقاليم . ولم تصبح مألوفة إلا بعد طرد ليو ، وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد ، وكان لوقوعهما معاً أهمية كبيرة ، فالبابوية والأمبراطورية هويتا سويا إلى الأرض ، إذ تلطخت سمعة البابويه بالعار ، بينما حل بالأمبراطورية الدمار .

لم يقبل الفرنجه مطلقا ، أن يتولى عرش الأباطرة امرأة ، تعتبر زعيمة المتهرطقين ، على أننا لا نعلم ما ردّ به شارل فورا على اقتراحات ايرين . ومع ذلك ، فنحن نعلم ما جال فى خواطر رعاياه ، اعتقدوا أن البيزنطيين فقدوا ما كان لهم من حق قديم فى الانتخاب ، وأن مسرى الأمبراطورية طارا من فوق ضفتى البوسفور ، وأن ما جرى من الحوادث ، ليس إلا نذيرا ودليلا على غضب الله ، على ماهو مقبل من الكوارث . استبد بهم اليأس فى مستقبل الكنيسة التى فقدت معلميها الأقدمين ، وتفككت عرى السلطان ، وتهدد العالم المسيحى الانحلال .

الذعر والرعب فى الغرب :

على أن مخاوفهم بلغت من الغموض ما لا يضارعه إلا درايتهم بالموقف ، ذلك أنهم ، فيما يبدو ، خافوا أن يحل ببيزنطة الدمار ، وأن تتعرض لتغلغل الوثنيين . فكل أوربا كانت وقتذاك تتغنى بشهرة هرون الرشيد ، وفخامة بلاطه فى بغداد ، ولم يتصور أحد منهم ، ولا المطلعون منهم ، ما حل ، بدولته من ضعف داخلى ! أما منازعاته مع الأمويين بأسبانيا فلم يعرفها إلا الصفوة ، الذين يعلمون أسرار الدبلوماسية . ولم يعد ثمت ما يحول دون توغل الخليفة فى أوربا على امتداد وادى الدانوب ، ليلتقى بقوة الجيش الذى اجتاز فعلا عمودى هرقل إلى أوربا ، فيتم بذلك سحق الأمم الغربية بين ذراعيهم . وأحس الناس فى آسيا الصغرى بشىء من هذا الرعب ، حيث كانت الحقائق الناصعة ، أكثر فهماً وإدراكا . أما بطريرك المدينة المقدسة (بيت المقدس) فإنه فقد كل أمل فى أن تتولى القسطنطينية حمايته ، فدعا شارل لإنقاذ المسيحيين فى الشرق . وأرسل رهبانه عبر البحر المتوسط إلى

إيطاليا بمفاتيح القبر المقدس ، و يحملون ملتمساً إلى ملك الفرنجة ، لينهض لمقاومة الأمم الثائرة insurgeret contrn insurgentes nationes[١] .

كتب السكوين : أن ثمت ثلاث قوى فى العالم : البابا والأمبراطور والملك . وحيث أن البابا والأمبراطور ، أصابهما الفشل والخيبة ، فلا بد أن يضطلع بأعبائهما وواجباتهما أقوى الملوك . ومن العبث أن نناقش فى هدوء ، رجالا يتصفون بهذه العقلية . إنما على الرغم من أنه يفصلنا عن هذه الحوادث فترة طويلة من الزمن ، و بفضل ماتتصف به من وجهة نظر شديدة الاختلاف فى ترتيب الأمور ، نستطيع أن ندرك أن هذه الأنظمة ، كالأمبراطورية والبابوية ، بلغت من الرسوخ والعمق ما لا تستطيع أن يدمرها ما يرتكبه الأفراد من جرائم . لم يكن عند العباسيين والأمويين ، خطة مشتركة للقيام بأعمال حربية ؛ ولم يلبثوا أن وجدوا أنه من الخير أن يتحالفوا مع المسيحيين لا أن يتحالفوا سوياً . على أن قوة الدولتين أخذت تتداعى ، وسواء جاءوا متحدين أو متفرقين ، فإن العالم المسيحى مازال قادراً على ردهم . وجهل الناس فى القرن الثامن بكل هذا الأمر . و يكاد لا يجرى بالعالم الحديث ما يقابل مشكلة سنة ٨٠٠ . إذ أن العالم المسيحى وقتذاك ، تحطمت وحدته ، فتخلى اليونانيون عن رسومهم القديمة ، ولم يكن للمؤمنين فى الغرب حاكم يرعاهم ، فكيف جرى إذن الدفاع عن الجمهورية المسيحية ؟ .

وفى هذه الأثناء اجتمع شارل فى تورء مع رئيس دير القديس مارتن ؛ ولم تكن نصيحة السكوين (رئيس الدير) تتفق تماماً مع آراء صديقه . فباعتباره رجلا

---

(١) ورد هذا النص فى الحوليات النورثمبرية Narthumberian Annals (Pertz) XIII p. 166) ، وجاءت السفارة معها علم المدينة ، كأنما تقلد شارل بطرفة مدينة القدس . وعلى الرغم من أن المسيحيين فى بيت المقدس ، يعتبرون من رعايا الخليفة ، فإن الشكوك ساورتهم فيما إذا كان التسامح سوف يستمر إذا استولى الخليفة على آسيا الصغرى ، وظلوا من ذلك الحين يعتمدون على حماية القسطنطينية .

كنسيا خالصا ، أراد أن يقطع دابر الفضيحة ، وأن يبذل كل تضحية لحفظ شرف البابوية ، وفوق كل ذلك أراد أن يتجنب إجراء محاكمة علنية ، فقال إن البابا ليس إلا قاضياً لا ينبغي محاكمته . على أن الصديقين اتفقا معاً في نقطة واحدة . وهي أنه ينبغي أن يسير شارل إلى روما ، وأن يعمل على إعادة الهدوء والسكينة . إذ أنه كان الشخص الوحيد وقتئذ الذي له الحق في أن يعيد البابا ، وهو وحده الذي يستطيع أن يقرر ما تحتاج إليه الكنيسة من الاطمئنان والأمان .

شارل في روما :

ولم يكد يجف مداد نقش شاهد قبر الملكة ليوتجادر ، حين التقى شارل بجموعه في ماينز ، وألقى في الحاضرين من السادة خطبة : استتب الهدوء في أنحاء المملكة ، وما حدث من التهم الموجهة إلى ليو يتطلب اهتماماً عاجلا ، وسوف يرحل ويعقد محكمة للاستقصاء والتحرى ولا يعلم إذا كان ألمع إلى أكثر من هذا . غير أننا نستخلص من رسائل الكوين ، أن نقطة التحول باتت وشيكة الوقوع . إذ يصح أن يكون الملك صادقا في بذل جهده ، إذ أن العقبات لم تكن من الضخامة والقوة ما يحول دون التغلب عليها ، فأيما اقترح الملك من تسوية فلا بد أن تصادف نجاحاً . على أن الكوين ، على الأقل أدرك ما سوف تكون عليه التسوية . إنما لا يمكن القول بأنه يتكلم على وجه التأكيد والتحقيق ، أو أن رأيه لم يكن إلا مجرد فرض يشاركه فيه آخرون .

أما شارل نفسه ، فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين ، أن قراره سبق أن انتهى إليه . والشيء الوحيد الذي يحتاجه في الوقت الراهن ، هو أن يعيد الثقة في البابوية ، وذلك سوف يكون هدفه الأول . والوسيلة الوحيدة للمحافظة على تلك الثقة مستقبلا هي إعادة الأمبراطورية . وعلى الرغم من أنه لم ير ما يدعو لأن يتخذ مباشرة اللقب الامبراطورى ، وعلى الرغم من أنه توقع حدوث مشاكل مع

اليونانيين ، وعلى الرغم من أنه تشكك فى شرعية العمل الذى عرضه ، فإنه أعد نفسه لأن يتخذ عاجلا أو آجلا الخطوة الحاسمة . انحدر إلى ممر برنر ، وسار على امتداد الساحل إلى رافنا ، و بعد أن استقر فى القصر القديم للإراحة فترة قصيرة التماسا للراحة ، أرسل بيبن على رأس جيش لـكبح جماح الثائر جريموالد الثالث دوق بنيفنتو ، ثم سار قدما بحاشيته نحو روما ، وهداه مسيره إلى أن يتخذ الطريق الحربى القديم من انكونا إلى بوروجيا ومنها إلى تومنتوم ، وفى هذا الموضع التقى به ليو فى ذلة وانكسار . فدخلا روما معاً ، وانقضت سبعة أيام فى الحفلات والمجاملات قبل أن يشرع فى القيام بالعمل الخطير الذى جاء من أجله .

اقتنع شارل وقتئذ أن المتآمرين لم يقصدوا مضيفه بسوء . ومع ذلك فإنه ما زال يصر على إجراء محاكمة علنية ليهدىء من جهة شعور الناس ، وليؤكد حقه من جهة أخرى . وأمام مجمع تألف معظمه من رجال الدين من الفرنجة والرومان ، وبينما راقب سائر السادة ما يعمله هؤلاء ، جرى الاستماع لآخر مرة لأقوال باسكاليس وكامبولوس . على أن محاضر المحاكمة كانت باللغة القلقة . وأهم من هذا ، هو التساؤل عما إذا كان فى استطاعة المتآمرين أن يحضروا اثنين وسبعين شاهداً ، وهم الذين تتطلبهم قوانين الـكنيسة . ولما كان من نـكد طالعهما ، أن هـذا الأمر كان مستحيلا ، تقرر اعدامهما ، وجرى سوقهما إلى السجن ، وصار الواحد منهما ، فيما نعلم ، يلعن اليوم الذى رأى فيه وجه الآخر أول مرة . و بفضل ليو الذى توسط وقتئذ لصالحهما ، وألح على سيده أن يستبدل بذلك القرار، الحـكم بالنفى،وهو أفضل وأكثر اعتدالا.غير أنه لم يتحرك ، إلا بعد ثلاثة أسابيع ، للسير ذليلا فى موكب التطهير . وفعل ذلك آخر الأمر فى كنيسة القديس بطرس فى ٢٣ ديسمبر . يشير مترجم حياته إلى أن الإجراء كان باختياره، إذ أن رجال الدين قالوا فى صوت واحد « لا نجرؤ أن نحاكم الـكرسى الرسولى

الذى يعتبر رأس كل كنائس الله ، لأنه هو الذى يتولى محاكمتنا ، ولا يجوز لأحد أن يحاكمه » ، فإذا قالوا هذا ، فكأنهم اتبعوا رأى الكوين[١] .

تتويج شارلمان :

وبعد يومين ازدحم بكنيسة القديس بطرس، حشد كبير من الفرنجة والرومان لغرض مختلف تمام الاختلاف . كان ذلك يوم عيد الميلاد . كان البابا يتلو قداساً وقام الملك وولداه بيبين وشارل ، بالركوع مع جماعة من البارزين أمام مذبح مشهد الرسل. ولا بد أن المشهد كان غريباً ومؤثراً . إذ جرى إسدال الستائر الارجوانية على ما يقع بين الأعمدة فى وسط الكنيسة من مسافات ، فأضحت بذلك إطاراً قاتما لألوف الوجوه التى تتطلع إلى أعلا . . وأخذ ضوء خافت يخترق ، خلال الزجاج الخشن ، نوافذ الطابق العلوى ، فأصبح بناء الكنيسة يخيم عليه الظلام . على أن القبو الشرقى لم يكن إلا البقعة الوحيـــدة المضيئة فى هذا الظلام الدامس . ولا يمكن الوصول إليه ، إلا عن طريق قوس النصر الضخم ، ومنه تدلت ثريا تشتمل على ثلاث آلاف شمعة ، تضىء باستمرار فى هذه الأعياد الكبيرة ، ويقع تحت القوس مشهد الرسل المرصع بالجواهر ، ويصونه صفائح من الذهب والفضة. وخلف المشهد ، وحول القبو ، فسيفساء فى ألوان الطيف تخلد ذكرى قسطنطين ، مؤسس الكنيسة وأول الأباطرة المسيحيين ؛ وراعى البابوية الأكبر . ووسط هذا الرواء والأبهة أخذت تغدو وتروح صور أشخاص ليو واتباعه من القسس فى أرديتهم البيزنطية الرائعة . وسر التضحية الأبدية تتكشف للنظر ، بكل ما حدث فى هذه الأحوال الرائعة ، من الأجراس التى تقرع ، والبخور الذى

---

(١) ورد رأى الكوين فى خطاب يرجع للهذه السنة (Jaffé : Mon. Alc. p 379) ، اقتبس الفقرة من قوانين الكنيسة . ويذكر أيضاً رأياً ثانياً يقضى بأن لا بد من حضور ٧٢ شاهداً ليثبتوا التهمة ضد البابا. غير أنه لم يكن المقصود من هذا أيضاً سوى الإمعان فى زيادة هيبة الكرسى الرسولى .

ينبعث منه الدخان المعبق بالرائحة ، والترانيم المرتفعة ، والصلوات الخافتة ، والإمعان في رسم علامة الصليب ، والركوع ، وما يحدث من التقدم والتأخر ، وقبلات التسليم . كانت ومازالت أروع ما ابتكره خيال نقي من الشعائر . غير أننا نظن أنه في هذا الصباح من عيد الميلاد ، لم تكن عيون الحاضرين تتطلع إلى مواكب عادية ، إذ أن نظرهم تركز على شخصية الملك حين ركع مع ولديه أمام المشهد على مسافة قصيرة من الجموع الحاشدة . إذ جرى تحذيرهم بأن شيئاً غير عادى وشيك الوقوع ، وأنه سوف لا يغادر الملك الكنيسة على الصورة التي دخل إليها بها .

وبينما كان الملك ينهض من ركوعه في ختام القداس ، أخرج البابا فجأة تاجاً ووضعه على مفرقه . وفي لحظة ضجت الكنيسة كلها بالصيغة القديمة للمناداة بالامبراطور « إلى شارل أغسطس ، المتوج من قبل الله ، الأمبراطور العظيم ، المحب للسلام ، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر » . وبينما كان البابا يقوده ، بادر الحاضرون في صوت جهوري بتلاوة الدعاء المعروف « لك الحمد » Laudes ، دعوا فيه القديسين لنصرة الأمبراطور الجديد وأبنائه ورعاياه . على أن مظاهرة بلغت هذه الدقة والنظام ، من العسير أن تحدث ، دون أن يكون ثمت اتفاق سابق . لم يكن شارل فيما يبدو قد أخذ على غرة ، لأنه قبل في هدوء وأناة وصبر ، أن يجرى البابا عليه عباءة الأمبراطورية . ويروى لنا مؤرخ بيزنطى ما كرأنه جرى مسح شارل بالزيت من قمة رأسه إلى إخمص قدمه[1] . على أن هذه الطقوس لم تكن غير مألوفة في تتويج الأباطرة . ويشير دليل آخر على أن كل الصور

(١) تيوفانس (Bouquet Rer. Scriplores V 158) . درج النوط الفرنجيون بأسبانيا على أن يستخدموا في احتفالاتهم المسح بالزيت . وربما جرى مسح شارل بالزيت على النحو الذى حدث مع بيبن وأبنائه في سنة ٧٥٤ . وجاء في كتاب البابوات Liber Pontificalis أن كلا من الأب والابن جرى مسحهما . ولم يحدث مسح لويس إلا سنة ٨١٦ .

التقليدية جرت مراعاتها ، وفى نفس الوقت تم تتويج الابن الأكبر للامبراطور على أنه المرشح لأن يتولى بعده مملكة الفرنجة .

ومن الواضح أن التتويج قام به جماعة . لا نستطيع أن نتصور أن ليو يسير على غير هدى ، فلابد أنه كان متأكداً من حضور هذا الجمع ، وأكثر من ذلك أنه كان متأكدا من أن البطريق سوف يكون حاضرا . على أن مؤلفا واحدا يعتبر من المصادر الوثيقة ، أشار فى انصاف إلى سبب مقبول عن ثقته . فحوليات لورش افترقت عن الرواية الرسمية للقصة ، وقالت أن ليو سبق أن استشار رجال الدين ، وأعيان الفرنجة والرومان ، وقرروا أنه حيث أن شارل امتلك روما أم الأمبراطورية ، ومدنا كبيرة أخرى بالأمبراطورية (ميلان ورافنا ، وتريبه .. الخ)، فينبغى أن يتخذ اللقب الامبراطورى . ينبغى أن يتم هذا ، لأنه لم يعد بالقسطنطينية امبراطور ، وسوف يسخر المتبربرون بالعالم المسيحى إذا بقى دون زعيم . و بعض المؤرخ، فيقول إن شارل تلقى هذا القرار بما يليق به من التواضع والإذعان . وأعقب هذا إجراء التتويج .

على أننا نفترض أن ما حدث تم فى سرعة بالغة أكثر مما أرادها الملك ، ووقف وحده يواجه أهواء روما الجديدة فى احترام مشوب بالحذر ، فإن قلة من الناس أدركت مثلا أدرك ، بأن قوته لم تقم على أساس سليم فى الأقاليم التى فتحها حديثا . ولم يكن ثمت إلا نفر قليل يعرف، مثلما يعرف شارل ، المرارة المتوطنة فيما اشتهر به منافسوه وخصومه من دبلوماسية شرقية . ومن الواضح أنه كان من مصلحة ليو أن يتوج فوراً و بيديه حامى الكرسى الرسولى . ويشرفه أن يثبت أن شارل ، حين أخضع قسيس بطرس (البابا) لاختبار مشين ، كان فعلا امبراطورا فى كل شىء ما عدا الاسم . أليس ثمت ما هو أفضل لاصلاح شرفه المثلوم من أن يمنح قاضيه ارفع لقب زمنى ، عرفه العالم المسيحى ، كأن ذلك من حقه وباختياره ؟ أما الدواعى الأخرى فإن الفرنجة والرومان لم يقتسموا سويا سوى

القلق والاضطراب . على أن مخاوفهم بالغت فى تقدير خطر الأزمة التى وقعت أخيراً فالتمسوا ضماناً لمنع تكرارها . وإنما خشوا أن يرفض شارل خطتهم بعد التفكير فيها وتمحيصها . و بذلك تآمرت كل الأحزاب على أن يكون الملك مديناً لطاعتنا ، لم يكن شارل كارها للامبراطورية ، وما يقترن بها من أخطار ومسئوليات . غير أنه كره الظرف واعتبره سابقاً لأوانه ، وجال بخاطره فيما بعد ، أو فى وقت التتويج، أنه ينبغى فوق كل شىء ، ألا يظهر للبابا ماذا تكون المكافأة عن ركوعه وحريته . ذلك هو على الأقل الغرض الذى يعتبر فى حد ذاته أكثر ترجيحاً ، والذى يكاد يوفق بين المصادر المتعارضة . ومن هذه الأسئلة المحيرة ، ننتقل فى شىء من الارتياح إلى موضوع أكثر صلابة وسلامة ، ونمضى فى دراسة أثر إحياء الأمبراطورية فى حياة شارل ومستقبل الامبراطورية[1] .

---

(١) أنظر عن تتويج شارلمان .

A. Kleinclausz : L'Empire Carolingienne Paris 1882

الفصل التاسع

فكرة الامبراطورية وآثارها

الفترة الواقعة بين سقوط الأمبراطورية الكارولنجية وقيام الأمبراطورية المقدسة ، تبلغ ٧٥ سنة (٨٨٧ — ٩٦٢ م) . على أنه برغم هذه الحقيقة ثمت سببان هامان لأن ترفض اعتبار أن أحدهما ليست إلا استمرار للأخرى : السبب الأول ، هو أن خلع شارل السمين آخر الأباطرة الكارولنجيين ، سبقه عقد معاهدة ميرزن ، وهذه المعاهدة مزقت نهائيا ذلك الاتحاد السياسى الذى يجمع بين غاله وألمانيا ، والذى يعتبر الفكرة الأساسية للنظام الكارولنجى . ولما تم تتويج أوتوا الكبير سنة ٩٦٢ ، لم يحكم فى ظل اقبه سوى قسمين من الأقسام الثلاثة الكبيرة ، التى تألفت منها المملكة الكارولنجية . فطوال حياة الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، ظلت مملكة آل كابيه قائمة بكل مظاهرها ودواعيها ، خارج نفوذ الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، ووقفت انجلترا بنجوة من النظام الأمبراطورى الثانى ، مثلما وقفت من النظام الأول . غير أن الحقيقة فى القرن العاشر أضحت من الخطورة ما لم يكن لها فى القرن الثامن . إذ أن إنجلترا زمن أوفا كانت ضعيفة ومنقسمة ، أما فى زمن ادجار فكانت من أعظم ممالك العالم المسيحى . ومن ثم كانت دعوى أوتو فى السيادة العالمية ، وفى الغرب أيضا ، تعتبر أقرب إلى الخيال من دعوى شارل . أما السبب الثانى . فهو أن ثمت اختلاف فى التنظيم بين الأمبراطوريتين . ذلك أن شارل كان مستبدا ، ولم يعترف بأية ارستقراطية سوى ارستقراطية الخدمة . ولم يجز أتباعه الأرض إلا بناء على رغبته وهواه ، ولم يكن لهؤلاء الأتباع من حقوق السيادة على سكان هذه الأراضى ، إلا ما منحهم من

امتياز خاص طوال حياتهم . ولم يحترم شارل عاطفة الاستقلال القومى ، إلا فيما يتعلق بالقانون الخاص . وفى نهاية حكمه لم يكن ثمت من الأقاليم إلا إقليمان : بنيفنتو وبريتانى ، تولى حكمهما أمراء بطريق الوراثة ، ونالا استقلالا ذاتيا . غير أن هذين الإقليمين يقعان على أطراف الأمبراطورية[1] . وما كان استثناء فى الأمبراطورية الأولى ، أصبح قاعدة فى الأمبراطورية الغربية الثانية . وقامت الأمبراطورية الغربية الثانية على هيئات عاشت سويا من قبل — هيئات قومية ، واقطاعية وبلدية . ولم تكن حقوقها على هذه الهيئات إلا حقوقا واهية غير مثمرة ، ولم يكن لاستمرار وجودها ، إلا أهمية ضئيلة تتعلق بالرخاء المادى للمجتمع.

على أننا نلمس وراء هذه الاختلافات، اتفاقا عاما فى العاطفة والغرض والمصير. فكلتا الامبراطوريتين دانت بقوتها إلى الرغبة الشديدة فى تحقيق الوحدة المسيحية ، وكلتاهما جعلت أهدافها الرئيسية إصلاح البابوية والسيطرة عليها ، وكلتاهما لم تحقق أغراضها : أولا ، لما حدث من ظهور الاختلافات الخفية بين الطقوس اليونانية واللاتينية . . ثانيا ، لما جرى من التعرض لهجمات الكنيسة التى كانت تعمل بالاشتراك مع الكنائس القومية وتستغل الأحقاد القومية . وفى كلتا الأمبراطوريتين اقترنت الآمال ، بل تعرضت إلى شىء من الفساد ، بما اشتهر به زعماؤها من الغرور أو الطموح .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن ما تعرض له الأباطرة السكسون من الهوم والتقريع ، لم يلبث أن فقد وخزه ومرارته ، حين جرى تطبيقه على شارل . إذ أن امبراطوريته لم تدخل بين السلطتين الدنيوية والروحية شيئاً جديداً من التعقيد ، بل حدث عكس ذلك ، إذ لم يكن لسياسته قبل سنة ٨٠٠ وبعدها من أثر ، إلا فى إيجاد

---

(١) على أن القبائل الصقلبية النازلة فى الطرف الشرقى تعتبر خارجة على هذه القاعدة ؛ ولم يكن هذا الطرف ، لأغراض عملية ، جزءاً من الأمبراطورية ، إنما دخل فى دائرة نفوذها .

تحديد أكثر قبولا ، للعلاقات الغامضة التي أوجدها أبوه ، بقبوله لقب بطريق وبذله المبة . لم يخرج عن طريقه للسعى وراء اللقب الأمبراطورى ، بل قبله على أنه مسئولية لا ينبغى أن يرفضها . لم يستخدم اللقب على أنه خطوة فى سبيل ازدياد عظمته ، بل ليضفى على سلطته صفة قانونية ، وليخفف النضال الأهوج الذى لا هدف له بين العناصر فى داخل ممتلكاته ، وليثير شعور الأخوة الروحية التى ثبت ، فيما بعد ، أنها عامل بالغ القوة فى التطور والرقى الأوربى . وما قام به أوتو وخلفاؤه من عمل ، لم تكن الحاجة ماسة إليه ، إنما ضربوا على نغمة عاطفة الوحدة التى استخلصها شارل وتماها : وليس من التاريخ فى شىء ، أن توجه اللوم إلى شارل لما حدث من الاتحاد بين ألمانيا وإيطاليا ، فلم يكن الفرنجى جرمانيا بالمعنى المعروف حديثاً ، بل كان تيوتونيا فى عنصره ونظمه ، لاتينياً فى حضارته، وترتب على فتوح شارل أن خضعت إيطاليا وألمانيا لعنصر يعتبر همزة وصل بينهما . والواقع أن هذه الفتوح لم تثر نضالا خطيرا بين القوميات ، فما بإيطاليا من حضارة وحياة اجتماعية ، ونظم ، تعتبر فى مجموعها متجانسة مع تلك التى بغاله . وتعتبر جبال الألب ، فيما ندرك ، الحائل الوحيد دون اتحاد الإقليمين .

فكرة بيزنطة :

وننتقل من الاعتبارات العامة، لنحال عن قرب ، الفكرة الكارولنجية عن الأمبراطورية ، وأثرها فى أواخر عهد شارل ، وسوف نجد أن شارل باعتباره امبراطورا دخل فى علاقات جديدة مع بيزنطة والبابوية ومع رعاياه ، ولزيادة التوضيح سوف نغفل الترتيب التاريخى ، ونعالج كل واحد من هذه الموضوعات على حدة .

اعتبر أغسطس الجديد نفسه ، كما اعتبره رعاياه ، الوارث الشرعى لقسطنطين الذى جرى خلعه عن العرش وسمل عينيه . وإذ تعتبر الأمبراطورية وحدة غير

قابلة للانقسام ، وتضم جميع الشعوب المسيحية ، فإنها انتقلت إليه كاملة غير منقوصة ، بفضل إرادة الله ورضى الشعب الروماني : أما الفكرة الشائعة عن وجود امبراطوريتين : «رومانية» و« بيزنطية » ، ولم يلبث أن جرى التسليم بها ، فلم تكن من رأى البلاط الفرنجي . إذ أن أخلاف شارل أنكروا، في شدة ، الرأى الذى يعتبر أن امبراطوريتهم ليست إلا خلقا جديدا ، ذا صفة محلية أو قومية .

كتب لويس الثاني إلى منافسه في الشرق : « تعجب بأنني أدعى أنني امبراطور الرومان لا الفرنجة ، فلتعلم إذن ، أنه إذا لم أكن امبراطورا على الرومان ، فلن أكون امبراطورا على الفرنجة ، فمن الرومان تلقينا هذا النهج واللقب[1] .

وما حدث من مراسيم التتويج ، التقليد ، يمين الولاء ، التهليل ، يكاد يكون كله مأخوذا من الشعائر القديمة بالقسطنطينية . ولم يكن المقصود منها إلا أن تمنح شارل ، ما كان لبيت اللايقونيين الزائل من سلطة عالمية .

أما البيزنطيون ، فمن الطبيعي أنهم لم يعتبروا ارتقاء شارل العرش ، إلا محاولة صبيانية لاحداث الانشقاق . ويختم مؤرخهم روايته في ازدراء وسخرية . « وعلى هذا النحو ، قضى السيف بين الأم وابنتها ، فنصل في غضب سريع الابنة الجليلة ، روما الجديدة ، عن روما العتيقة التي شاخت وهرمت ووهن تفكيرها[2] » .

والوضع المنطقي عند شارل هو أن يقرر ، بأن البيزنطيين بقبولهم قرارات نيقية ، وتساهلهم في استبداد أيرين ، فقدوا كل ما لهم من دعوى في الأمبراطورية. فالواجب الأول المفروض على كل امبراطور وفقاً ليمين التتويج هو أن يحفظ وحدة المذهب الكاثوليكي كما قررته الأناجيل والآباء والمجالس المسكونية . على أن الحكام المختارين لم يقوموا بهذا العمل ، بل ارتكبوا أشنع الجرائم. فأى برهان أسطع من هذا ، للدلالة على أن الشعب البيزنطي لم يعد كفئاً لأن يختار سادة

---

(١) Bouquet: Rerum Scriptores VII, 574 Eng. Hist. Rev. XVIII.

(٢) Constantine Manasses : Bouquets Scriptores V. 398.

العالم المسيحى ؟ فعليهم إذن إما أن يعترفوا بزعامة شارل ، وإما أن يجرى اعتبارهم ثائرين على الرسوم الكاثوليكية وخارجين عليها .

نظريات امبراطورية الفرنجة :

ولن يمضى الأمبراطور فى الغرب إلى هذين الرأيين اللذين على طرفى نقيض . إذ أدرك تماما ما فى سلاحه من نقط الضعف . لم تكن ثمت قاعدة تحتم اجراء انتخاب الأمبراطور فى القسطنطينية . غير أنه من العسير أن يقرر بأنه هو الذى أجمع العالم المسيحى على اختياره ، بينما لم تتم استشارة بطريرك روما الجديدة وسكانها . وتعلم من أيرين أنه من المستحيل أن يسحق مقاومتهم بالقوة ، وأن يتولى على دولة شديدة البعد عن أطراف مملكته . على أنه كان يسره ، اصلاح الوحدة الكاثوليكية ، أن يصل إلى اتفاق . وقامت فكرته الأولى ، إذا أخذنا برأى ثيوفانس،على أن يتم توحيد الشرق بالغرب بالزواج من أيرين . على أن ما بذله من عروض فى أعقاب التتويج ، لم تثمر بسبب نفوذ الطواشى ايتيوس الذى أراد أن تتزوج أيرين من قريبه نكيتاس قائد الحرس . غير أن ما حدث من ولاية نقفور للعرش ، غير أحوال المشكلة ، فعرض شارل إجراء محالفة على قدم المساواة مع أخيه السلطان مثلما حدث زمن دقلديانوس ، بأن تبقى الأمبراطورية واحدة من حيث الفكرة ، على الرغم من أنه يحكمها أشخاص عديدون . ولما لم تلق عروضه إلا الازدراء الصامت ، بادر إلى أن يثبت بأنه فى وسعه أن يكون عدواً خطيراً . ذلك أن كلا من إقليمى البندقية ودلماشيا وجد فيه حاميا له ، وإذ قامت الحرب فترة من الزمان بين الامارتين الواقعتين على ساحل البحر الأدرياتى ، تخلى شارل عن القيادة لابنه الملك بيبن ، على أن التفاصيل لم تكن ذات أهمية ، كما هو الحال دائما حين تتعرض دولة برية لهجوم دولة أخرى ، تعتبر دولة بحرية خالصة . غير أن النتيجة هى أن شارل حقق غرضه . إذ جرت المفاوضات

فى سنتى ٨٠٩ ، ٨١٠ ، وعرض نقفور اقتراحات محددة للصلح . وتلقى من شارل عرضاً بأن يعطيه البندقية ، ودالماشيا مقابل اعتراف رسمى منه ، بأن الأمبراطورية الغربية على قدم المساواة مع الأمبراطورية الشرقية . غير أن نقفور سقط صريعاً فى معركة جرت مع البلغاريين قبل أن يتم توقيع المعاهدة . على أن ميخائيل رانجابيه احتذى خطوات سلفه ، ففى سنة ٨١٢ ، ظهر بأخن رسل من بيزنطة ، وخاطبوا شارل باللقب الذى تمنّاه ، وهو باسيليوس .

غير أنه لم يجر النقاش فى أمر اتحاد أشد وثاقة بين الدولتين والكنيستين التى يتزعمانها . واستمر قرارات نيقية قائمة بعد سقوط أيرين . وفى سنة ٨٠٩ أضاف شارل إلى الاختلافات القائمة، اختلافاً جديداً ، نجم عن انكاره الإيجابى، بأن حذف من مذهب نيقيه ، المقدمة التى أكد بها اللاتين نظرية الانبثاق المزدوج[١] . ومنذ ذلك الحين عاشت الدولتان جنباً إلى جنب على قدم المساواة . أما أرباب النظريات فإنهم حينما ناقشوا أمر الأمبراطورية، عمدوا فى سهولة ويسر إلى حذف كل إشارة إلى الحقيقة المرة بأنه لم يكن ثمت امبراطورية واحدة غير منقسمة.

على أن بعد القسطنطينية ، وقلة اهتمامها بالسياسة الغربية ، وعدم استمرار الاتصال بين الإمبراطوريتين ، لم يجعل التفكير النظرى يثير اضطراب السكان . وحدث فى القرن الثامن ، كما حدث فى القرن الثالث عشر ، أن تنازعت نظريتان عن السلطة البابوية والسلطة الأمبراطورية . فرجال البلاط الفرنجى ، جعلوا لسيدهم أكمل وأتم سيادة . « أحرز بطرس مفاتيح السموات ، أما مفاتيح الكنيسة فأنها لك ، وعنك يتلقى البابوات حقوقهم المقدسة » . هذا ما يقوله تيودولف[٢] . ولم يكن

(١) فى نظرية التثليث ، يعتبر الانبثاق الصفة التى تميز الروح القدس عن شخصى الأب والابن . وهذا الانبثاق من خصائص مذهب نيقية — والروح القدس انبثق من الأب والابن — وفى العهد الجديد ما يؤيد ذلك — فأحياناً يسمى الروح القدس روح الابن ، وتارة روح المسيح ، أو روح المسيح عيسى .

أنظر : Cross : Dictionary of Christian Church Arts. Procession, Double Procession

(٢) Bouquet : Scriptores V 421 .

الكون أقل منه إيجابية . « أيها الملك، فليخضع لحكمك العادل زعيم الكنيسة ، ولا يحكمك إلا يمين القوى العزيز »[1] . فالأمبراطورية عند هذين المستشارين ليست إلا تقييداً للبابوية. وإذا راعينا جانب الاعتدال فى اللغة، فإن شارل تمسك بهذا الرأى عن مكانته ، بل وفى أمور العقيدة : فالإنجيل ، وقوانين الكنيسة ، والآباء ، حسب تفسيره هو والأساقفة، تعتبر السلطة الأخيرة لكنيسة الفرنجة. فهو يستشير البابا ، غير أنه يحتفظ لنفسه بحق اتباع رأيه . هذا هو الاتجاه فى سنة ٨٠٠ كما ورد فى الرسائل الشرلمانية ، وهو الذى حدث بعد هذا التاريخ فى المناظرة الطريفة حول مذهب نيقية .

أما النحلة المعروفة بنحلة[2] الإبن، فإنها أنكرت نظرية مساواة الابن بالأب، وهى عقيدة تعتبر ضرورية للخلاص فى الشرق والغرب معا. ولكى يبين ابتعاده عن الهرطقة ، أمر شارل بترتيل مذهب نيقية فى كنيسته الخاصة ، مضافاً إليه لفظة « Filioque » التى معناها « ومن الابن » . هذا التفسير الذى أجمعت الكنيسة اللاتينية على قبوله ، لم يلبث أن شاع استخدامه فى فرانكيا قبل أن يرفع أمر صلاحيته إلى روما . على أن رأى البابا لم يكن ليؤخذ به لولا أن حدث أن الرهبان الفرنجة فى بيت المقدس ، لجأوا إليه لمساعدتهم ، حين تعرضوا لمهاجمة جيرانهم اليونانيين بسبب هذه المسألة ، واعتبروا أنهم أخذوها عن شارل . وعلى الرغم من أن ليو أقر نظرية الانبثاق المزدوج ، فإنه هاجم من غير تردد المبدأ الذى يجيز تغيير المذهب ، حتى ولو حدث التغيير لمنع خطأ من نوع خطير . وترتب على

---

(١) أنظر Bouquet : Loc. Cit p. 414.

(٢) الصيغة المذهبية التى تفسر ما الروح القدس من انبثاق مزدوج ، أضافتها الكنيسة الغربية إلى مذهب نيقية بعد عبارة « الروح القدس ينبثق من الأب » ولم تكن أصلا من المذهب الأصلى ، إنما ظهرت لأول مرة فى قرارات المجمع الثالث المنعقد فى طليطلة سنة ٥٨٩ ثم شاع استعمالها منذ سنة ٨٠٠ حينما كان يجرى ترتيلها فى القداس فى أنحاء امبراطورية الفرنجة (أنظر Cross . op. cit. Art. Filioque) .

ذلك ،أن دعا شارل إلى عقد مجلس فى آخن سنة ٨٠٩ ،وطرح أمامه المناقشات التى فى ضوئها صاغ آراءه ، فأقرها المجلس ورفعها إلى رُوما ، حيث استمر مبعوثو ملك الفرنجة يومين يتناقشون فيها مع البابا . ظل ليو صلبا لا يلين ، وأعلن رأيه صراحة بأن أقام فى كنيسة القديس بطرس لوحتين نقش عليهما خلاصة المذهب من غير زيادة باللغة اليونانية على إحداهما ، وباللغة اللاتينية على الأخرى. غير أن شارل أبى أن يخضع ويستسلم . فجرى الإعتراف بأن مذهبه لا يصح نقضه ،حتى من قبل البابا. إذ تقضى المصلحة بأن المذهب ينبغى أن يظهر الحق فى أوضح لغة . وظلت الصيغة الجديدة مستخدمة فى أنحاء الأمبراطورية ، ورأى البابا أنه من الخير ألا يحفل كثيراً بالموضوع . والواضح عن المحضر[١] الذى تضمن حديثه مع المبعوثين أنه اعتبر نفسه المرجع الأخير ، ومن الواضح أيضا أنه تراجع عن أن يجرب قوته مع ولى نعمته » .

فسيفساء اللاتران :

ظل اللاتران حتى القرن الثامن عشر محتفظاً بجانب من الفسيفساء العجيبة ، إذ أن ليو أمر بأن يجرى عليها بالرسم رأيه فى السلطة البابوية ، وتمثل الصورة شارل وليو راكعين أمام القديس بطرس ، فيسلم الرسول علم روما إلى شارل ، ويعطى البابا العكاز ، فأصبح معروفا لنا نظرية « السيفين » الروحى والدنيوى ، وكل منهما سيد فى مجاله ودائرته .

ويرجع تاريخ الفسيفساء إلى زمن سابق لتتويج الأمبراطور ، فهى لذلك تعبر عن العلاقات بين البابا والبطريق ، لا بين البابا والأمبراطور ، غير أن رسائل ليو بعد سنة ٨٠٠ تشير تلميحاً ، إلى أن مكانة البابا ، إذا تعرضت لتغيير بسبب ما وقع من الحوادث فى هذه السنة ، فإنه كان تغييراً إلى أفضل . ويقول ليو إن

---

(١) هذا المحضر ورد فى Baronius : Annales .

مكانة شارل عند كرسي روما الرسولى، إنما هي مكانة الابن عند أمه، وما يجرى استنتاجه من ذلك، أن ما هو مطلوب من الابن من الطاعة لأمه، هو ما يصح انتظاره من الأمبراطور . هذا الزعم الذى لا يستند إلى تقاليد الأمبراطورية القديمة، يصح تفسيره على أساس أن ليو اعتبر شارل مديناً له، منذ أن منحه التاج الأمبراطورى، على الرغم من أنه فى الواقع لم يتصرف إلا على أنه ممثل للعالم المسيحى بوجه عام، وللشعب الرومانى بوجه خاص . ونستطيع أن نلحظ توكيد ذلك، فى أن شارل لم يسمح لخلفه لويس بأن يتوجه البابا .

البابوية والأمبراطورية :

ثارت مشاكل عنيفة بسبب تدخل السلطتين فى الأمور الانجليزية . فمنذ زمن قديم، كانت البابوية تعتبر الرأس الأعلى للكنيسة الانجليزية، وكانت تعرض على مجلس البابا أمور التنظيم الكنسى . وزعم شارل بعد سنة ٨٠٠، لنفسه سلطة من هذا القبيل على الممالك الانجليزية، إذ أنها باعتبارها تقع فى دائرة الممتلكات المسيحية المستقلة، ينبغى اعتبارها محميات للامبراطورية . وفى الوقت ذاته، لم يجرؤ شارل على أن يتصرف وحده دون الاستعانة بالبابا . واعتقد شارل، فيما يبدو، أن تمثيل الأمبراطورية فى الأمور الدبلوماسية لا يتم إلا باتحاد السلطتين الروحية والزمنية . وحينما تم سنة ٨٠٠ طرد ايردولف ملك نورثمبريا من مملكته على يد حزب مناهض له، التمس ايردولف المساعدة من الأمبراطور، فظفر بها . وتوجه مبعوثون من قبل الأمبراطور إلى نورثمبريا، و بفضل ما أوردوه من حجج قوية، استطاعوا أن يعيدوا ايردولف إلى عرشه، والمعروف أن مندوبين من قبل البابا كانوا معهم . وفى هذا الوضع صار لدينا صورة شكلية للمساواة، فإذا نظرنا إلى ما وراء الأحداث والمناظر، فلا نجد إلا أن هذا لم يكن إلا صورة وشكلا . وقام شارل بتسوية المنازعات بين اسقفيتى يورك وكنتربرى، و بين

رئيسيهما ، بأن طلب إلى ليو أن يدعو الطرفين للقدوم إلى روما ، وأن يستمع إلى إلى آرائهما ، ثم شكا بعدئذ من أن البابا حاول أن يقوم بهذا العمل دون الرجوع إليه . وألقى ليو اللوم على مندوبيه ، ولم يجرؤ على أن يتحدى دعوى الأمبراطور .

أما الإرث (السيادة) فأضحى موضوع نزاع طويل ، إذ أن ليو ظل حتى بعد سنة ٨٠٠ متمسكا بالحلم القديم ، بأن يقيم نوعا من السيادة فى داخل الأراضى التى تخلى عنها ، على أن الأمبراطور انتصر من الناحية المادية . استمع إلى الشكاوى ، وصدّق على الانتخابات التى جرت لكرسى رافنا ، وأرسل مبعوثيه لجمع الرسوم الملكية ، وعين السلطات البلدية ، حدث كل هذا على الرغم من الاحتجاجات الصارخة ، ولم يخاطر ليو مطلقاً بأن يثير مشكلة عامة ، واكتفى بتقديم شكاوى عن كل إجراء من هذه الإجراءات ، وردّ شارل على هذه الشكاوى فى شىء من البرود ، « ليس فى استطاعتى أن أجد من المبعوثين من ترتاح إليهم ، على الرغم من أنى أرسلت كثيراً من الرجال الأمناء ، فمن مات منهم لم يسلم من لومك أثناء حياتهم ، أما الأحياء منهم ، فلم يعجبك واحد منهم » . ومع ذلك ظلت دوقية روما تعتبر من الامتيازات الأسقفية . فحدودها وسلطات البابا ، إنما يحددها الأمبراطور حسب إرادته ومشيئته .

أما واجبات الأمبراطور نحو رعاياه ، فاختلف فى تحديدها المعاصرون لشارل ، ويصح أن نستخلص منها مذهبين كبيرين ، وأقوى المذهبين وأعلاهما صوتاً وأكثرهما أنصاراً ، يدعو إلى استئناف الحروب ضد الوثنيين ، وإلى الإمعان دون قيد فى بسط سلطة الكنيسة . واتخذ ليو هذا الرأى ، وعليه أيضاً جرت الكنائس الفرنجية حين كانت تدعو فى صلواتها ، « إن الله سوف يخضع لأمبراطورنا كل المتبربرين » . ويبين الحمار بين القدماء ، الذين حفظ أسماءهم فى معسكر النار ، راهب دير القديس جال ، يعتبر الأمبراطور « الحاكم على أمم عديدة » . وكلما ازداد عدد الأمم ، كلما ارتقى شأن الأمبراطور . ويتمنى تيودولف بفضل ترديده

رأى رجال البلاط والعلماء ، أن يحل الوقت الذى يهوى فيه العرب والسامرة ، كما تهوى الحيوانات فى الصيد ، تحت حربة شارل — هذه هى الفكرة الساذجة فى كل العصور — « فالذى يحكم ، سوف يرد إليه ذهب بلاد العرب » .

الفكرة الأولية عن الأمبراطورية :

ولحسن حظ أوربا ، توافر عند شارل مستشارون مستنيرون ، لم يحب شارل من الكتب مثلما أحب كتاب القديس أغسطين المعروف باسم مدينة الله[1] . إذ قرأ فيه أن الحروب فى حد ذاتها شر، ولا يتم تبريرها إلا إذا تحددت حالة المغلوب على أمره ، وأن الأمبراطورية الرومانية فى أوائل عهدها ، حين كان ابناؤها قلة اشتهروا بالفضائل ، ازداد تبجيلها عما حدث فى عهدها المتأخر ، حين لم ينقذها من النتائج الخطيرة لطمعها وترفها ، إلا اتساع أملاكها وثروتها . وفى هذا الكتاب أيضا تدبر وفكر ، فيما عثر به على وصف للامبراطور الكامل الذى لم يتول الحكم إلا على أنه شىء منحه أياه الله ، وسوف ينزعه فى الوقت المناسب ، والذى لم يرفعه الملق أو الاعتزاز بالرفعة والسمو ، ما زال يذكر أنه إنسان زائل ، وأنه يتطلع إلى أمبراطورية أخرى سوف يجد فيها اسوياء عديدين ، الذى يسخر كل قوته لرفع مجد الله وعبادته ، الذى يعتبر أنه خير له أن يحكم شهواته ، على أن يكون حاكما على شعوب عديدة . ومن الكوين ، وهو رجل تغلغل فى أعماق تعاليم القديس اغسطين ، تلقى من المواعظ والنصائح البالغة التفاصيل كالتى من هذا النوع : أن الأمبراطورية ليست إلا عبارة عن مسئولية ، وأنه بينما يقوم الملك بالاهتمام بأمة واحدة ، يعتبر الأمبراطور صانعا وحافظا لذلك النظام الاجتماعى ، الذى لم تكن فيه الممالك إلا أحداثا عابرة . وكتب الكوين . « وبفضل نجاحك ، جرت المحافظة على العالم المسيحى ، والدفاع عن المذهب الكاثوليكى ، وتعرف جميع الناس إلى

---

(١) أنظر Eginhard, Vita p. 24 .

قانون العدالة وطالما كرر العالم الشيخ التحذير له ، وتذكيره بأن ينصرف عن الحروب البعيدة ، وأن يمعن فى التفكير ، فى توطيد السكينة المسيحية ، وفى جعل العدالة تسود ، فى داخل البلاد التى فتحها فعلا[1] .

المرسومات Capitularies

اتبع الأمبراطور هذه النصيحة ، ففى الثلاث عشرة سنة التى تلت التتويج ، قلّ أن اشترك شارل فى قتال ، ولم يقم بحملة من الحملات الخطيرة ، وغلب على حروبه طابع الدفاع ، وترك قيادتها لأبنائه ؛ والسجل الصحيح لما قام به من أعمال أثناء هذه الفترة يظهر فيما أصدره من مرسومات . فلم تمض سنة من السنوات ، دون أن يصدر فيها ، سلسلة من الإجراءات العلاجية . لم تفلت دقائق الإدارة من نقد هذا العقل الجبار ، ولم يتخل عنه ، ما اتصف به من القوة قديماً ، فلم يزل ، كما كان من قبل ، يذرع الأمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ، واستمر يقضى وقت فراغه فى الصيد ، وما شاكله من الرياضات العنيفة . على أن ما حدث من التغيير فى حياته ، إنما وقع باختياره ، لا من ضعف الشيخوخة . ففى سنة ٨٠٢ أصدر مجملا لخطته فى المستقبل . إذ حتم على رعاياه أن يؤدوا يميناً جديدة للولاء ، تزيد شدة عن التى كانت مستعملة من قبل ، وأخذ المبعوثون ، الذين يتحدثون باسمه ، يشرحون للناس أهمية اليمين على النحو التالى : إن الطاعة التى يبذلونها بمقتضى اليمين تعتبر مطلقة ، فالغرض من حكم الأمبراطور هو الإنصاف ، وما يجرى من مقاومة له ، يعتبر تحدياً

---

(١) وقال ذلك أيضاً باولينوس : « إنه لجدير بك أيها الملك الصالح ، أن تحث الفلاسفة على التفكير فى الأمور الإلهية والأدبية ، وأن تحث الرهبان على الدين ، وأن تدعو جميع الناس إلى التمسك بالقداسة ، وتطلب إلى النبلاء أن يلتمسوا النصيحة ، وإلى القضاة أن يقوموا بالإنصاف ، وأن تشجع الجند على الحرب ، والأساقفة على الصلوات ، والرعايا على الطاعة ، وجميع الأشخاص على الحكمة والتعقل والعدالة ، والاعتدال والسلام والوفاق . انظر أيضاً رسالة الكوين إلى شارل ، يوصيه فيها بأن يتجنب الحرب مع بنفنتو Bouquet V 618 .

لله . يرغب الأمبراطور أن تسود العدالة فى معاملات الناس بعضهم مع بعض ، وأكثر من ذلك، يجب أن تسود فى صميم قلوب الناس ، وتلزم اليمين كل الرجال بأن يساعدوه فى عمله المزدوج، فاليمين ليست إلا وعداً، بأن كل رجل، بحسب درجته ومكانته، سوف يكون خادماً لله[1] .

لا نستطيع أن نعالج بالتفصيل، كل تشريعات الإمبراطور . فالفكرة العامة التى ابتدأ بها ، حجبها عادة سحابة من الأعمال والمضايقات التافهة . وليست المرسومات قانوناً ، فكل مرسوم عبارة عن خليط من الاقتراحات والأفكار والأوامر المتناثرة . ولم تكن أحياناً أكثر من أفكار عابرة ، لرجل من رجال الأعمال ، ترامى إلى أسماعه ، شكاوى أناس لا حصر لعددهم ، يروون قصة أخطاء يجرى التشهير بها كل يوم ، ومايحدث كل يوم من الفضائح . لن يقنع الأمبراطور بإنزال العقاب بالمذنب ، إنما يمضى ، فيتخذ من الجريمة فرصة لإصدار قانون عام . وتحمل المرسومات كل دلائل السرعة . فعلى الرغم من أنه تم وضعها ، بأحسن ما لديه من نية خالصة ، فإنها قلّما مست الشرور الخفية التى دلت عليها أخطاء خاصة . وعلى الرغم مما اشتهر به شارل من الحماس الشديد ، والدأب المتواصل ، فإنه لم يزل مفتقراً إلى ما يتصف به المشرع من النهج والبصيرة . فرسوماته تكاد لا تنفذ إلى أغوار الأشياء . ويصح أن نقرر باطمئنان ، أن هذه المرسومات لم يجر تنفيذ عشرها . فالزعماء صاروا يتجادلون فيها ويناقشونها ، واعتبروها صالحة ، وتلاها المبعوثون فى المجالس الإقليميـة ، وأقرها الكونتات والأساقفة وسائر كبار القـوم ، وعلى هذا النحو انتهى الأمر . وفى معظم الأحيان قام بتنفيذها الأشخاص الذين قُصد بالمرسومات تقييد سلطتهم . فالمصالح الطبقية والعادات ، وقصور الرأى العام ، أثبت كل ذلك أنه له من القـوة ما لا يستطيع المصلح القادم أن يقاومه . على أنه ثمة أشياء ثابتة ينطوى عليها ، ما اتصف به شارل من إخلاص عند الشروع فى العمل ؛

(١) من رسالته إلى العوامل فى سنة ٨٠٢ .

وفى بعض الحالات القليلة ، حين توافر لديه من الوقت ، ما يجعله يفكر فيما لوضعه الفريد من خصائص كبيرة ، وحين انبعث من جديد فى ذهنه ، ما كان لواجباته قديماً من مفهوم شعرى ودينى ، كان يعمد إلى الكتابة فى بلاغة وفصاحة ، وتنبعث منه روح المصلح الحقيق . وعلى الرغم من ضآلة هذه الإصلاحات ، المستمدة من فكرة الأمبراطورية ، وضعف أثرها ، فلا يجوز إغفالها ، إذا اتخذنا شارل مقياساً لرجل سياسى إنشائى . وتختلف المرسومات عن قوانينه الأخرى ، بأنها تلقائية شاملة ، لم يجر وضعها إلا فى ضوء المستقبل ، وليست ردوداً جافة ، معدة للاحتجاج على الأخطاء الضخمة الظاهرة . ومن هذه المرسومات ، نعلم إلى أى حد ارتفعت أفكاره عن القانون ، فوق مستوى عهده .

إصلاحات شارل :

وهذه الاصلاحات ، باستثناء إصلاح واحد منها ، ترتبط بممارسة القضاء . أما الاستثناء ، فهو خاص بما حدث من تغيير فى النظام الحربى ، الذى لم يكن له أهمية كبيرة لغرضنا . فالحاجة إلى الأموال حالت دون إقامة جيش ثابت ، وأقرب بديل له ، ما جرت به العادة والعرف ، من التزام الأتباع ، بخدمة خاصة فى البلاط والمعسكر ، ولم يكن هذا كافيا . وكل ما استطاع شارل أن يعمله لتحقيق واجب الخدمة الاجبارية ، هو أن يستعيض عن الالتزام الشخصى ، بالالتزام الاقطاعى المتعلق بالأراضى ، إذ حصل على أفدنة عديدة من الأرض ، تقوم بإعداد جندى وتجهيزه ، والحائزون لهذه الأفدنة ينبغى أن يتضامنوا فى أن يجهزوا ممثلهم بحصانه وسلاحه . على أن تفاصيل النظام صارت تتغير من سنة إلى أخرى ، ولا نعتقد أن هذا النظام ، تم تطبيقه تطبيقا عاما ، فلم يكن إصلاحا ، بل كان امتيازا اقتضته حاجة ملحة . والراجح أنه لم يكن الغرض منه ، سوى أن يضفى الصفة القانونية ، على إجراء تمت الموافقة عليه ، منذ زمن طويل . وعلى الرغم من أن

المرسومات تعتبر من أبرز حوادث تاريخ النظم ، فإنها لم تكن إلا أبسط حادث في حياة شارل . فإذا طرحها جانباً ، فإنما فعل ذلك من أجل ، (١) إصلاح نظام المبعوثين ، (٢) إصلاح المحاكم المحلية ، (٣) وضع القوانين القومية .

المبعوثون :

كل هذه الإجراءات ، تمتاز بأنه لم يجر إدراكها إلا بروح محافظة ، وما يقابلها من عيب الجمود . لم يعرف شارل عن الماضي إلا قليلا . ولم يتعلم من التواريخ التي كان يهواها ، دروسا عن السياسة ، ولم يكن له ، مثلما كان للاسكندر أو بناة روما ، من العبقرية ما تجعله يدرك المبادئ الأولية للادارة السليمة ، دون الاستعانة بأمثلة أو نماذج . لم يقدر شارل مطلقا الميزة التي ينطوي عليها التقسيم الصارم للوظائف ، الذي تستطيع الحكومة الأوتوقراطية بمقتضاه أن تضبط موظفيها . وجد شارل أنه تركز في أيدي الكونتات ، السلطات على اختلاف أنواعها ، من حربية وقضائية وإدارية ، فحاول أن يقوّم ما درج عليه الكونتات من سوء الحكم ، فأدخل ما هو معروف بإشراف المبعوثين . غير أنه غمر المبعوثين بنفس الوظائف العديدة المضطربة ، التي كانت للكونتات . فلما اكتشف وجود طائفة من المستبدين ، لم يسعه إلا أن يقيم طائفة من نفس النوع ، لمراقبة الطائفة الأولى . ولم يدرك إلا أخيراً ، في سنة ٨٠٢ ، فشل تجربته الناشئة ؛ إذ بلغه من سائر أنحاء الأمبراطورية ، صيحة الفقراء والمظلومين ، الذين ألقوا على المبعوثين اللوم ، وحملوهم مسئولية مايعانونه من المتاعب والآلام . لم يكن ردّه على ذلك ، أن يحاول إيجاد طريقة جديدة ، بل عمد إلى رتق الطريقة القديمة . فاختار وقتذاك لوظيفة المبعوثين ، رجالا من ذوي المكانة العالية ، واعتقد أنهم سوف يكونون أقل تعرضاً للفساد ، وجعل الطواف بالأقاليم نظاما سنويا ، وقسم الأمبراطورية إلى مناطق ، حتى تعرف كل لجنة

بالدقة دائرة عملها[1] . وتقرر إرسال مبعوثين لكل دائرة ، أحدهما علمانى والآخر كنسى ، فيتم بذلك حماية مصالح الدولة والكنيسة على السواء . ودرج الأمبراطور ، على أن ينقل المبعوثين كل سنة ، من منطقة إلى أخرى ، حتى يكونوا أكثر حيادا . وفى كل سنة يتلقون من التعاليم الدقيقة ، مايتعلق بالأمور التى ينبغى أن يكون لهم إلمام خاص بها . وصدر مرسوم عام ٨١٢ — ٨١٣ يحدد فى دقة واجباتهم : عليهم أن يقوموا بجولاتهم مرة كل ثلاثة شهور ، وينبغى عليهم ، كما حدث قديما ، إلى جانب حضورهم فى محكمة الكونتية ومحكمة الإقليم ، أن يعقدوا فى كل رحلة محكمة استئنافية ، فى أربع مواضع متفرقة ، وهذه المحاكم لا بد أن يشهدها كل الكونتات والأساقفة المجاورين . ويتحتم على المبعوثين ، كما حدث من قبل ، أن يعالجوا أخطاء الموظفين الدائمين ، وخير ما حدد سلطة الكونتات والأساقفة ، أن انتقل إلى هذه السلطة الجديدة ، أمر اختيار المدافعين ، وموظفى الإقليم ، وسائر صغار الموظفين .

وبذلك ازدادت سلطات المبعوث ، وازداد تبعا لذلك واجباته وأهواؤه . ولما كان المبعوث لايتناول اجرا مطلقا ، ويشغل عادة وظائف كبيرة المسئولية ، ويخشى كراهية الناس له ، ولم يكن مجرداً من شعور الزمالة ، مع أولئك الذين يعتبرون من طبقته ، والذين يتحتم عليه ، أن يراقبهم وينزل بهم العقاب ، أضحى بعد هذه الإصلاحات من الضعف والعجز ، مثلما كان من قبل . والمعروف أن وظيفته استمرت إلى ما بعد عهد لويس التقى ، ولم تكن منذ زمن طويل تخدم غرضا مفيدا . لم يكن شارل نفسه راضيا عنها ، فلم يلبث أن بادر بزيادة القضايا ، التى ينبغى على المبعوثين أن يرفعوها إلى محكمته ، ولم يترك لحكمهم إلا أقل ما يستطيع تركه من الحالات .

(١) اشتهرت هذه الدوائر باتساع مساحتها ، فألمانيا كلها اشتملت على أربع دوائر ، وكانت بافاريا دائرة واحدة ، وكذلك كانت راتوبيا . وفى شمال ذلك ، ثلاث دوائر تتركز حول باريس ولوران وروان . وفى أقصى الجنوب ، تألف من ناربون القالية ، دائرة واحدة — أما [illegible] ولومبارديا ، فلم تقم بهما دوائر ، لأنهما لم تخضعا للزيارات [illegible]

وحاول عبثا زيادة العامل الشعبي في المحاكم . ففي هذا الحين كان يتجدد اختيار سبعة من « Sachinburgs » في كل مجلس يؤدون عمل المحلفين . ولما اشتهروا به من العجز عن تحمل المسئولية ، والجهل بالقانون ، والخوف من الكونت ، فشل هؤلاء المحلفون ، في مراعاة العدالة أو الحزم في أحكامهم . وجعل شارل مكانهم لجانا ثابتة ، تتألف من مثل هذا العدد من الأشخاص جرى تسميتهم Scabini ، وجرت مراعاة الدقة والعناية باختيارهم من اشخاص ، من ذوى السمعة الطيبة ، لهم دراية بالقانون ، ويتولون الوظيفة مدى الحياة ، أو طالما احتفظوا بسلوكهم الطيب . غير أن الشكاوى أظهرت أن المحلفين لم يكونوا خيرا من سابقيهم . فأصبح ضروريا أن يستعيد الكونت ما كان له من مكانة ، وذلك أنه إذا حاد المحلفون عن القانون ، تحتم على الكونت أن يلغى حكمهم . فالخطة الرئيسية جعلت لطبقة الأحرار قدرا من الفطنة والروح العامة ، لم تكن قطعا تحوزها من قبل . على أن المحاكم الوطنية لا تعمل على النحو السليم ، إلا إذا كانت القضايا قليلة العدد ، وكانت العلاقات الاجتماعية بسيطة يسيرة . غير أن هذه المحاكم تعتبر سابقة لتاريخها ، في إمبراطورية شبه متمدينة . على أن تداعيها عجّل به ، ماحدث من الاتساع الضخم لتلك الامبراطورية ، التي هيأت للأكفاء من الرجال حياة رسمية عظيمة ، وجعلت المحاكم الإقليمية تافهة حقيرة ، وحقلا حقيرا للعمل . فجرى استنزاف دماء الإقليم لصالح البلاط وهيئة الموظفين الرسمية ، ولكي يكون الإصلاح ناجعا ، ينبغي أن يجرى على مقياس بالغ القوة ، كأن يتم مثلا تعيين عدد من الموظفين القضائيين يؤجرون وفقا لنظام معين ، لا حسب النتائج . على « أن روح التحفظ الشديد ، وخلو الخزانة من المال ، حال دون تحقيق هذا المشروع » .

جمع القوانين :

لم يكن إصلاح القانون بأقل شكلية من إصلاح المحاكم ، إذ حدث قبل سنة ٨٠٠ ، أن تم تدوين القانون السالى وقانون بافاريا ، وكذا سائر القوانين القومية . فالغالى الرومانى كان لديه موجز قانون ألريك Breviarium Alarici وهو موجز قانون تيودسيوس ، جرى تصنيفه أصلا للقوط الغربيين بأكيتانيا (سنة ٥٠٦ م) ، ثم صار اتخاذه فيما بعد مجلا شاملا ، وتوافر لديه أيضاً تصانيف مختلفة ، للصيغ المألوفة فى انتقال الملكية والعقود ، والتسويات . وهذه التصانيف لم تكن رسمية ، بل حفلت بالأخطاء ، وبألفاظ سقيمة غير مستعملة . وهذه الكتب لم تكن إلا مثل الألواح الأثنى عشرة زمن شيشيرون ، لم يجر استخدامها عادة ، إلا على أنها كالمشجب تعلق عليه القوانين الجديدة . ومن المرسومات التى أصدرها شارل وأسلافه ، نسخ رسمية جرى تداولها . غير أن معظم هذه المرسومات عالج الأمور الإدارية ونظام الكنيسة ، ولم يجرؤ اربابها على اقتحام قدسية العرف ، وهو القانون الخاص .

وترتب على ذلك ، أن صار يعتبر من الخطوات فى سبيل التقدم ، ماقام به شارل سنة ٨٠٢ ، من تدوين كل القوانين القومية ، وما أدخله من التغييرات التى أوصى بها الميمونون ، وما أخذ به محاكم الكونتات من اليمين ، على ألا تتبع من القوانين سوى قانونه . وأعقب ذلك بأن أصدر طائفة كبيرة من الملاحق أو المتجددات القانونية المرسومات القانونية Capitula legibus addenda ، لم ينطبق منها على كل القوانين الأمر سوم واحد ، أما الأخرى فاقتصر تطبيقها على قوانين بعض الأمم : على أن ماحدث من تغيير كان فى الواقع أقل مما هو ظاهر . إذ نعلم أن استخدام هذه الصورة الجديدة ، لم يكن من السهل تحقيقها ، فانصرف عنه القضاة ، واتبعوا غرائزهم

وأهوائهم . فالبلاد التى رسخ فيها موجز الريك ، ظلت حتى آخر العصور الوسطى ، مثلا كانت فى الماضى ، البلاد الوحيدة التى يسود بها القانون المدوّن .

ولم يكن الفشل فى تصنيف القانون من الكوارث . فالمصنف بلغ من الادعاء أنه التزم حرفية العرف . ولا نتوقع فى القرن التاسع الميلادى ، ما يقابل قانون نابليون ، فيقضى على احترام التقاليد المحلية ، ويعود إلى ما تنطوى عليه من مبادىء أوّلية . ومع ذلك فنحن نتطلع إلى إلغاء الإجراءات ، التى لم يقل عنا فى تقبلها ، خيرة مفكرى ذلك العصر . وفى هذه الناحية خاب أملنا ، ويثير ثيودولف انتقادات شديدة ، لما فى القانون الجنائى ، من شذوذ وانحرافات بالغة ، فبمقتضاه صارت جريمة السرقة ، عقوبتها الإعدام ، ولا يعاقب مرتكب جريمة القتل إلا بغرامة تافهة . وهذه الانحرافات لم يجر مسّ أصلها . وتقرر دفع مقدار « ديات » رجال الدين فى كل القوانين ، ووسيلة « الديات » تعتبر فى ذاتها مسألة لا تهم الأمبراطور .

ونستطيع أن نقول إذن عن الأمبراطورية ، فى أحسن أحوالها وأوج مجدها ، أنه لم يكن ثمت ما يربطها بالجمهورية الرومانية Respublica Romana التى زعمت أنها تمثلها ، فالظاهر كانت رومانية ، غير أن الجوهر كان تيوتونيا . وما تبقى من مؤثرات لاتينية فى خطة شارل ، إنما جاء من قوانين الكنيسة أو من قانون العرف بغاله . فيصح أن نعتبر شارل رومانياً طالما تمسك ، أكثر من معظم الرجال الذين سبقوه ، أو منذ عهده ، بما للنظام الرومانى من دلالة أخلاقية ، واستعمال النظام الرومانى . أما المهارة السياسية التى بلغ بها الرومان نتائجهم العظيمة ، فإن شارل عجز عن فهمها وإدراكها . إذ ظل حتى النهاية استراسياً خالصاً ، فى طرائقه فى الحرب والدبلوماسية والحكم .

شارل وحماية الكنائس :

والأمبراطورية ، حتى حين تم الاعتراف بها نهائياً ، على أنها الأمبراطورية الوحيدة فى الغرب ، حملت معها كلّ الالتزامات نحو جميع المسيحيين الضعاف فى كل مكان يسكنونه فى أنحاء العالم ، هذا هو على الأقل الموقف الذى أدركه شارل . والمعروف أن شارل جعل تحت حمايته ، قبل التتويج ، جماعات متعددة تعرضت على نحو خاص لضغط المسلمين . ففى سنة ٧٩٨م، تلقى شارل من ألفونسو ملك أشتوريا المستقل (٧٩١ — ٨١٠) جانباً من الغنائم التى حصل عليها فى غارة شنّها على لشبونة ، وجرت المراسلات بينهما ، وتشير الرواية إلى أن ألفونسو صار من رجال شارل (أتباعه) . ولم يكن العقد بينهما أكثر من خيال خصيب . وفى سنة ٨٠١ حين حاصر لويس برشلونة ، قاد ألفونسو جيشه، وأنزل هزيمة ساحقة بالقوة التى أرسلها « الحكم »[1] إلى الشمال لنجدة برشلونة . وثمت أمثلة كثيرة ، تدل على أن الأمبراطور ارتبط بأواصر الصداقة مع الرعايا المسيحيين للأمير الحكم. أخذ عنهم المذهب الاثناسيوسى وكذا عبارة «والابن»[2] «الواردة فى مذهب نيقية . وفى أثناء الفترة، التى حدث بها الاضطهاد ،فى مستهل حكم الأمير هشام ، (٧٨٧ — ٧٩٦) عبر حدود الطرف الأسبانى، عدد من المسيحيين الأسبان ، وتمّ إنزالهم بناء على أوامر الأمبراطور ، فى محلات زراعية ، يتمتعون فيها بحمايته الخاصة ، ويحتفظون بقوانينهم وعاداتهم الخاصة ، فضلا عن إعفائهم من كل المقررات والرسوم ما عدا الخدمة العسكرية .

---

(١) هو أبو العاصى الحكم (الأول) المنتصر بن هشام — تولى الحكم سنة ١٨٠هـ ٧٩٦م، وتوفى سنة ٢٠٦ هـ = ٨٢١م أنظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى — ترجمة الدكتور زكى حسن وزملائه جـ ١ ص ٢) .

(٢) فى اللاتينية Filinqle ، وهى لفظة جرت إضافتها بعد عبارة الروح القدس الصادر من الآب ، التى تضمنها مذهب نيقية . (Cross : Dictionary of Christian Church) .

شارل وهرون الرشيد :

والكنائس التي في قرطاجة وبيت المقدس والأسكندرية وسائر الجهات بالشرق ، التي تمتعت بقدر من التسامح في ظل الخلافة ، تلقت من الأدلة ما يشير إلى عطف الأمبراطور عليها . ففي سنة ٧٩٩ أرسل بطريرك بيت المقدس إلى شارل، عدداً من المخلفات المقدسة . وفي سنة ٨٠٠ أرسل إليه علم القبر المقدس ومفاتيحه ، وتلقى هاتين الهديتين في شيء من التواضع . والهدية الثانية تبدو كأنها رمز لسيطرة البطرقية على بيت المقدس ، إذ جرت الرواية على أنه بفضل علم روما ، ومفاتيح مشهد القديس بطرس ، تقرر الإنعام بالبطرقيه على ببين وشارل نفسه ، غير أن الأمبراطور تجنب هذا التفسير البالغ الحرفيه ، الذي يصح تطبيقه على إجرائه . لم يكن لديه مطلقا فكرة عن الدخول في حرب مع هرون الرشيد . ففي سنه ٧٩٧[1] أرسل السفراء إلى ذلك الملك . وفي سنه ٨٠٧ أرسل سفارة مرة أخرى ، ولم يكن الغرض في كل حالة ، سوى التوسط لصالح المسيحيين في الشرق ، وأحرزت هذه السياسه السلمية نجاحا كبيراً . إذ جاءوا له بهدايا رائعه ، ففي المرة الأولى أحضروا له فيلا ظل يعتبر مدة تسع[2] سنوات أجمل

---

(١) ما أورده إجينهارد عن السفارات بين شارل وهرون الرشيد ، استمده من الحوليات الملكية . وفي هذه الحوليات ما يشير أنه حدث في سنة ٧٩٩ ، أن شارل أنفذ إلى الشرق رسولا يحمل الهدايا والقرابين إلى القبر المقدس في بيت المقدس . وفي السنة التالية ، قدم رسول شارل ومعه مفاتيح القبر المقدس هدية من بطريرك بيت المقدس . وفي سنة ٨٠١ وصل إلى بيزا رسل هرون الرشيد ، ولم يلبث أن لحق بهم اسحاق اليهودي الذي أرسله شارل من جديد إلى فارس ، وهو الذي صحب الفيل الذي أهداه هرون الرشيد إلى شارل (٨٠٢م) — وفي سنة ٨٠٧ قدمت سفارة من هرون الرشيد إلى بلاط شارل ، تحمل هدايا تشمل منسوجات ثمينه ، وعطورا ، وساعة ، وشمعدان ، وخيمة — أنظر Eginhard ; Vie de Charlemagne
ed. L. Halphen p. 48-49. note 2) .

(٢) نفق هذا الفيل سنة ٨١٠ في ليبهايم في أثناء الطريق إلى سكسونيا ، ويرى استخدام هذا الفيل في الحرب ضد الدانمركيين .

ما يتصف به ثقل الأمبراطور الحربى من رواء وأبهة . وفى المرة الثانية عملوا له الساعة المائية «الغريبة التى تدق الساعات ، وفى دائرتها أثنتا عشرة نافذة ، يخرج منها فى الساعة الثانية عشرة، فرسان وما كادوا يخرجون حتى تغلق وراءهم النوافذ ثم تنفتح من جديد لكى يعودوا . ويرى لنا اجينهارد أن هرون قدم فى الوقت الذى أهدى فيه الساعة المائية ، هدية بالغة القيمة ، وهى أنه قبل أن يجعل تحت سلطان شارل بيت المقدس والقبر المقدس[1] . وربما كان راهب دير القديس جال أقرب إلى الصدق، حين جعل هرون يقول لسفراء الفرنجة «لأ سأجعل له الأرض المقدسة، وسوف أكون نائبه ، وسأجعله يرسل إلى مبعوثيه كما أراد ، وسوف يجدنى نائبا أمينا. ولم يزعم شارل لنفسه مطلقا ، حقوق السيادة فى بيت المقدس ، غير أنه أضحى يجوز له أن يرسل سفراء ، وأن يجرى هبات للكنائس إفريقية والشرق كما أراد . ونعلم من اجينهارد والمرسومات ما يدل على سخائه عليها . ويذكر رحالة عاش فى القرن التالى ، ماقام به شارل بصفة خاصة ، من تشييد مستشفى للحجاج اللاتين فى بيت المقدس وما أجراه عليه من الحبوس[2] . وربما جرى الظن بأن هرون لم يقصد من مجاملته ، سوى درء الخطر الناجم، عن تحالف هجومى بين الأمبراطوريتين الشرقية والغربية ، أو أنه كان يأمل، فى أن تغرس شوكة فى جنب الأمويين . ومن المحقق أن شارل لم يكن لديه هذه الأغراض الخفية ، إذ أنه يكن الاحترام المقرون بالفروسية والبساطة اللاأمبراطورية الإسلامية الموقرة ، التى تتفق مع امبراطوريته فى كثير من الوجوه . غير أنه لم يتطلع إلى مآرب شخصية مستمدة من هذا الاتصال . وفى ذلك يختلف اختلافا واضحاً عن ملوك فرنسا الذين بفضل استقرارهم تحت نموذجه ومثاله ، اتخذوا من حماية المسيحيين فى الشرق ، وسيلة لتحالف سياسى وثيق مع المسلمين .

---

(١) أنظر Eginhard, op. cit., ch. 16 .

(٢) هذا الرحالة هو برنارد ، وهو راهب من الفرنجة — وأشار إلى ذلك فى رحلته (حوالى سنة ٨٧٠م) — أنظر Richter : Annales p. 174 .

الفصل العاشر

الامبراطورية وبلاطه

شخصية شارل

تعرض الملاحم شارل على أنه نسطور[1] بين المحاربين ، شيخ ذو لحية فى بياض الثلج ، ولم تعد أيام قتاله وحربه سوى ذكرى عن الماضى ، وهو حسبما يمليه هوى الشاعر إما العقل المدبر الذى يوجه الفرسان ، أو ألعوبة تتقاذفها أهواؤهم . ولم يكن السبب بعيداً عن متناول البحث . ذلك أن الامبراطور تقدم به العمر ، فأصبح رجل سلام ، قبل أن يعكف أى مؤلف مشهور على وصفه وتصويره . وما لدينا من معرفة عن شخصيته ، مستمدة من أجينهارد ، الذى لم يظهر إلى الوجود إلا عقب أن تولى شارل الحكم ، ومن راهب دير القديس جال ، الذى كان وقتذاك من جيل الشباب . ولا نصادف أصداء مايصف شارل فى شرخ الشباب ، فى القصص المبكر إلا فى قصة تيربن Pseuds - Turpin وما تفرع عنها من القصص . وهذه الأقاصيص امتزجت بعناصر الخيال . ولم يكن الفن خيراً من الأدب ، فى المساعدة على تصويره . فعلى ختم من أختام شارل ، نجد ما يصح اعتباره صوراً له ، فعلى الرغم من أنها تختلف فيما بينها ، فإننا نستطيع فى واحد منها على الأقل ، أن نتعرف إلى ملامح المشترى سيرابيس Jupiter Serapis . بينما لم يكن للأختام الأخرى أية قيمة

---

(١) نسطور Nestor — هو حسبما ورد فى الأساطير اليونانية ابن نيليوس Neleus وكلوريس ، ملك بيلوس فى جزيرة إليس Elis ، وهو الوحيد الذى نجا من يد هرقل بعد أن قتل جميع إخوته — وورد ذكره فى الإلياذة على أنه فى الستين اشتهر بما يبديه من النصائح الغالية ، وبما تواتر عنه من القصص عما قام به فى شبابه من الأعمال التى تتسم بالبطولة. (En. Brit.)

باعتبارها من الأدلة على شخصيته . ولم تسعفنا النقود إلا بعد سنة ٨٠٠ . على أن بعض هذه النقود ليس إلا صورا، من نماذج بيزنطية. فتارة تمثل الأمبراطور بأنف مستقيم ، وتارة تجعل أنفه مدببا ، وفى بعضها يبدو حليق الشارب ، وفى بعضها الآخر يتخذ الأمبراطور الشارب الجرمانى الطويل . والراجح أن هذه النقود الأخيرة ، أقرب من غيرها إلى الحقيقة والواقع . إذ تكاد تنطبق تماما على تمثاله البرونزى الذى يمثله فارساً ، والمحفوظ بمتحف كارنافالد Carnavald ، ويطابق الفسيفساء فى اللاتران التى أمر ، كما سبق أن ذكرنا ، ليو بصنعها عند توليه كرسى البابوية . وعلى الرغم من أن أصولها جرى تدميرها ، فإن عددا من نماذجها التى صنعها فنانون مهرة ، فى القرن الثامن عشر ما زال محفوظا . وحيث أنها تؤكد فى دقة وتفصيل ما أورده مترجموا حياته من أوصاف ملابسه ، فيصح القول بأنها تعرض وصفا مقبولا لهيئته ، فهى تصورة لنا رجلا ذا أنف مقوس مثل منقار الصقر ، عريض الوجه ، طويل الشارب مرتفع الجبهة ، حليق الذقن ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، قوى البناء[1] . ويروى لنا اجينهارد ، أن شارل يتجاوز الحد المألوف فى الطول، إذ أنه يبلغ سبعة أمثال طول قدمه ، واشتهر بالصوت الواضح ، غير أن هذا الصوت أضعف مما نتوقعه من رجل فى مثل بنيانه ؛ وعيناه واسعتان حادتان ، مشرق المحيا ، غير أن ما يفسد مظهره قليلا، ما اشتهرت به رقبته من القصر والكثافة ، وفى أواخر حياته صار يميل إلى السمنة . على أنه أخفى كل هذه العيوب ، هالة من الوقار لا يمكن وصفها .

أما خلقه فنستخلصه من جهة حوادث حياته العامة ، فهو لا يختلف عن

---

(١) ويورد Monfaucon فى Monuments جـ ١، صورة نقلها عن مخطوطة قديمة، وتمثل الصورة الأمبراطور عبات يده عمودا من الكنيسة آخر، ويبدو فى الصورة ملتحيا، وصدرها عباءة طويلة بأزرار من الجهة الأمامية . على أن هذه الصورة تكاد لا تكون معاصرة على الرغم من أن ناشرها من أصحاب هذا الرأى .

سائر مواطنيه ، فى أنه سريع التأثر بالأفكار الكبيرة ، غير أنه يخالف معظمهم ، فيما اشتهر به من التمسك بما تكون عنده من عواطف ، و بما أحرزه من قوة تركيز كل جهوده على الغرض الحاضر ، وعلى الرغم مما توافر له من صفات الجرأة والهمة فإنه مازال معروفاً بالتروى والتفكير ، الذى يعالج به خططه الكبيرة ، فضلا عن العزم الذى يبديه فى تنفيذها ، ومازال أيضاً مشهوراً بقوة الإقناع ، إذا طلب منه النصيحة ، و بالحكمة الخالصة ، التى يبذلها لمن يطلبها ، فى إخلاص ودقة . وما اشتهر به من الدراية التامة بالتفاصيل ، كان موضع دهشة ، إذ استطاع أن يقف على كل ما يجرى من الأمور ، وما سمعه لم يفلت من ذاكرته . ووسعت فطرته الشاملة كل مصالح امبراطوريته ، ونظر إلى كل شىء فى وضعه الصحيح . ولا نستطيع أن نصفه بالابتكار ، غير أنه لم يكن ثمت فى زمنه ، من يضارعه فى الإفادة من الأحوال القائمة ، وعلى الرغم من أن ابتكاراته قليلة ، فإنها اشتهرت بحسن ملاءمتها لحاجات عصره . وما اشتهر به من الإدراك السليم ، حماه من الحب الأهوج لكل جديد ، ومن الإسراف الذى أفسد حياة أوتو الثالث الذى حاول فيما بعد ، تقليده . أراد شارل أن يمهد لحكم الكنيسة الكاثوليكية ، والامبراطورية العالمية ، لا بالتخلص من التقاليد القومية ، بل بإدماج الروح الجديدة ، فى الأشكال القديمة . إذ تمنى أن يصبح رعاياه كاللاتين فى حبهم للكنيسة والعدالة ، على أن يظلوا تيوتونا فى الملبس والقانون وحياتهم اليومية .

ملابس شارل :

أما كراهيته للمظاهر الحديثة فلدينا عنها أكثر من دليل . يقول إجينهارد : « إنه لا يحفل بالملابس الأجنبية مهما كانت جميلة ، ولم يلبسها مطلقاً إلا مرة فى روما ، لإرضاء البابا هادريان ، ومرة أخرى استجابة لدعوة البابا ليو ، فارتضى أن يتخذ السترة الطويلة ، والعباءة الرومانية والخف الرومانى . واحتفظ راهب دير القديس جال

بما ألقاه الأمبراطور من خطاب طويل، عن موضوع العباءات الغريبة التي اتخذها رجال بلاطه « مافائدة تلك الخرق ؟ إنها لاتكفى لغطائى عند نومى ، ولا تحمينى من الريح والمطر حينما أركب » ، ويصف المؤلف ذاته ، شارل كما شاهده ، مرتدياً الحلة الفرنجية المعروفة قديماً ، ومتخذاً حذاء طويل الرقبـة ، والتف على ساقه جورب أحمر ، واتخذ سترة من الـكتان، شد عليها منطقة، جعل بها سيفه ، واتخذ عباءة بيضاء أو زرقاء مربعة الشكل ، بلغ من شدة استوائها على كتفيه ، أنها وصلت إلى قدميه من الأمام والخلف ، وبلغت ركبتيه من الجانبين .

وثمت شواهد عديدة على ما اشتهر به شارل من الحماس المتدفق . يقول الشاعر : « ما استنجد به أحد حتى نهض إلى إنصافه » . ويزعم القصاص أن إحاطته بكل العلوم لا يفسرها إلا مؤثرات خارقة ، فرووا أن النسر النحاسي المنصوب بأعلى القصر لا يحركه أو يغير اتجاهه إلا عمل من أعمال السحر ؛ إذ يشير دائماً إلى الجهة التي اشتدت الحاجة فيها إلى الأمبراطور ، وبذلك وقف شارل على كل خطر عند ظهوره[1] .

ويروى لنا هنكمار أن شارل لا يطيق أن يبقى دون أن يكون بصحبته إثنان أو ثلاثة من أحكم مستشاريه ، يستشيرهم فى جميع أوقات فراغه[2] . ودرج شارل على أن يحتفظ تحت وسادته بأدوات الـكتابة ، فـكلما لاحت له فـكرة صائبة أثناء الليل ، والمعروف أنه اشتهر بنومه الخفيف ، أثبتها حتى يناقشها فى اليوم التالى .

وعلى الرغم من أن القضايا التي تنظر فيها دار العدل الملـكية ، تركها عادة

---

(١) تشير رواية أخرى (Karlomangus Saga c. 20) إلى أنه « أقام نسراً فوق القاعدة ، لا لأنه على أن فرنسا بدوا أهلا مكانة فى مملـكة الأمبراطور .

(٢) Opera Hincmari ed. Migne I. 1004 .

لأمناء القصر ، فإنه كان يختلس بعض الحفلات ، لينصحهم فى بعض ما غمض أو لابسه الشك ، من نمط القانون ، بل إنه كان يستمع إلى دعاوى المتقاضيين أثناء ارتداء ملابسه .

ومن الطبيعى أن يتجنب شارل ، باعتباره منصرفا إلى العمل ، إقامة المآدب والحفلات ، فإذا أقامها جعلها رائعة فخمة ، ودعا إليها عددا كبيرا . غير أنه جرت العادة بأن واجب ضيافة الأتباع ، وإدخال المرح والسرور عليهم يقوم به وزراؤه . ويركز اجينهارد اهتمامه ، فيما اشتهر به شارل من البساطة فى حياته وعاداته :

اشتهر بالاعتدال فى تناول اللحوم والشراب ، لا سيما الشراب ، واشتدت كراهيته لما يتصف به أى فرد من إدمان الشراب ، بل تزداد كراهيته له إذا أدمن ، هو أو أصحابه ، الشراب . أما الطعام فإن تهافته عليه لا يضارعه إلا كراهيته للشراب . وطالما اشتكى بأن الصيام يضر بصحته . وفى وجبة العشاء لا يجرى تقديم أكثر من أربعة أصناف ، فضلا عن لحم الصيد الذى يعده له الصائدون مشويا ، وآثر شارل هذا النوع على سائر أنواع الطعام . ودرج شارل أثناء الطعام على أن يستمع إلى شىء من التلاوة أو القراءة . وهذه القراءات مستمدة من تواريخ القدماء وسيرهم . ووجد شارل المتعة واللذة فى كتب القديس أغسطين لا سيما الكتاب المعروف باسم « مملكة الله » ، وبلغ من شدة اعتداله فى تناول النبيذ ، وسائر المشروبات ، أنه قلما تناول أكثر من ثلاثة أقداح أثناء العشاء . وفى الصيف درج على أن يتناول بعد العشاء شيئا من الفاكهة وقدحاً من الشراب ، ثم يخلع ملابسه وينام مدة ساعتين أو ثلاثة .

مدى صدق اجينهارد :

هذه ناحية من الصورة ، أما الناحية الأخرى التى مر عليها اجينهارد مرورا خفيفاً ، فلم تكن فيها الحقيقة التاريخية ضالته الأولى ، أو فيما يبدو هدفه الأساسى .

فالبلاط الكارولنجي لا بد أن يسوده الهدوء والوئام ، ولا بد من تخليد التفانى فى عمله بالترجمة له . يضاف إلى ذلك أنه اتخذ نموذجاً له حياة أغسطس ، التى ألفها سيتونيوس [١] ، ولم يكتف اجينهارد بمحاكاة هذا المؤلف فى أسلوبه ، بل حرص على أن يظهر ثقافته ، بما اقتبسه عنه من عبارات وجمل بأسرها . ويصر بعض النقاد ، على أن هذا الانتحال ، يفسد ما لكتاب اجينهارد من أثر عام . وأكثر من ذلك أنه يظن ، دون أن يتخلى عن الحقيقة ، أنه أصر على أن يسبغ على أول امبراطور للفرنجة ، من الصفات ما اشتهر بها أغسطس مؤسس الامبراطورية [٢] . غير أن هذه الموازنات والمفارقات مع العصور القديمة ، كانت أمراً مألوفاً فى تاريخ الأدب فى العصور الوسطى ، فنلا نجد أنه يصف السكون بنفس ألفاظ تاكيتوس ، وألفاظ كاتب توافر لديه من الوسائل ما جعلته يدرس موضوعه فى مصادره الأصلية [٣] . على أن شارل لم يكن يختلف مطلقاً عن أغسطس . إذ نستطيع أن نكتشف عند الرجلين ما اشتهرا به من تمجيد الماضى ، والعزم على الإفادة من الأحوال القائمة ، والاعتقاد بأن التقاليد القديمة للحياة المنزلية ينبغى الاحتفاظ بها ، مهما تطلب ذلك من تضحيات وتكاليف . وشابه شارل مؤسس الأمبراطورية ، فى أنه اتخذ من الملابس ما جرى نسجها محلياً . وليست

---

(١) أخبار العرب : اينهارت — القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢ — ١٥ .

(٢) من الملحوظ أن اجينهارد اقتبس أيضاً عبارات من تراجم أخرى ، أوردها سيتونيوس ، لاسيما تراجم قيصر ، وتيباريوس ، وكلوديوس . وكيفما كان الأمر ، فهذه المحاكاة لم تؤثر من ناحية الصدق أو الحقيقة ، إلا فى فصل واحد من الترجمة (الفصل السابع والعشرين من حياة شارل) . على أنه ينبغى الاحتراس ، عند دراسة الفصل الرابع والعشرين ، إذ أن ما ورد فيه من الحقائق ، إنما تتعلق بعاداته الشخصية وطباعه . واحتوت الفقرة على آثار تضمنت من عبارات سائدة عند سيتونيوس . وليس ثمت ما يدل على أن النقل حدث دون تمييز أو تفكير .

(٣) رودلف — مولف بالقرن التاسع .
Rodolf : Translatio Sancti Alexandri. M.H G. II. 674.

الملكة الوالدة برنافق بلاط آخن ، سوى ليڤيا أخرى ، غير أنه لسوء الحظ ، ثمت أكثر من جوليا واحدة فى هذه الناحية ، و بينما افتقر شارل إلى ما اتصف به أغسطس ، من ضبط النفس والاتزان ، فإن أسرته فاقت نظائرها من الرومان بتجاوزها حدود الحرية ، و إمعانها فى العبث .

فضائح القصر :

على أن العامل الأبوى لم يكن مفقوداً فى الحياة الداخلية ببلاط الفرنجة . إذ اشتهر الأمبراطور ببساطة أهوائه ، واعتبر الأبهة ضرورة مقلقة للدولة . ومع ذلك فإن حياته الخاصة ، وحياة أصدقائه المصطفين ، شابها قدر كبير من الخشونة الاستقراطية ، والاستهتار التوسترى . ولا يستطيع اجينهارد أن ينكر هذا العيب ، مهما ازداد حماسه لحماية ما يتمتع به سيده من سمعة طيبة . فما أورده نوتكر Notker من المرسومات والوثائق والقصص ، تجمع كلها على نفس القصة . واشتهرت دار شارل باستهتار كبار أفرادها . وحفلت الطرق الواقعة بأطراف القصر بشخصيات ذوى سمعة سيئة . ومن الطبيعى أن تنحط الحفلات والمآدب ، وتتحول إلى عربدة وسكر . وقد ينكر سيد البيت مرح أتباعه ، غير أنه لا يجرؤ على منعه[1] . وتجمعت البيوت المتنافسة ، وتقاتلت فى كل ظرف من الظروف ، فى سبيل المحافظة على تقليد من التقاليد ، فنسمع عن نزاع مسلح حدث فى حجرة استقبال الملكة . ووجد لويس التقى صعوبة لا حد لها ، فى استئصال الرذائل البالغة السوء . وما حدث من تمجيده للقوانين الأولية للأخلاق ، يقابله كثرة

---

(١) أنظر : Zeumer : Formulae p. 323 — اقدم تابعنا رتشارد وومش أمامنا وفى تحية قدمت الملكة X فسر ادامى بإقارية طفراتكفورت ، انقضى بها فصل الشتاء (الراجح أنه شتاء سنة ٧٩٦) ، حدث فى حضرتها اقتيال جده ولأنه هو نفسه مرح ، وجلا . وثمت دليل آخر وارد فى مرسوم لويس التقى عن البلاط De Ordine Palati — أنظر Pertz : Leges II 1 : 297.

ما قيل عن إهمال هذه القوانين ، زمن حياة أبيه . وسوف لا نغفل كثيراً عما كان لألكوين ، بعد اعتكافه في دير تور ، من مواعظ جافة . غاظ ألكوين ما أظهره انجلبرت وغيره ، من تذوق التمثيليات المسرحية ، فصار يحذر أصدقاءه من مناجاة الحمام الذي يرفرف حول القصر . ولو أن كل ملاهي البلاط كانت بريئة ، ولو أن أهل البلاط لم يتخذوا لأنفسهم أسماء جوفاء ، لصار كل شيء على الوجه الطيب . ونحن على استعداد أيضاً لأن نطرح جانباً الأسطورة القائمة عن أبوته لرولان ، وكل ما يشير إليه القصص ، من فضائح مشينة . فما تردد من أساطير تتعلق بالشمس ، وما أصابها من الاضطراب من عصر إلى عصر ، لم تستطع أن تستقر على أسماء أبطال الملاحم وأن تسوء سمعتهم ؛ وما جرت روايته من قصص عن شارلمان ، سبق أن ذاعت عن زيوس وبريندار Pernandar[1] ، وتكررت أيضاً عن أرثر الكلتي . غير أنه إذا جرت استعادة هذه الأساطير ، فإن الوقائع الحقيقية سوف لا تسر كل معجب بشارل وأمته .

وخضع شارل في كل مراحل حياته لتأثير النساء ، وكان التأثير أحياناً بريئاً وأحياناً غير بريء ، فتارة نلمس فيه شبهاً بما عند النبلاء الهمج في جرمانيا الذين وصفهم تاكيتوس بأنهم يعتقدون ، « بأن ثمت شيء مقدس إلهي عند النساء » وأبرز اعتقادهم فيما اشتهر به الفارس من تبجيل المرأة ، وتارة لا يسعنا إلا أن نتذكر داجوبرت الأول ، وما احتفظ به من حريم يفوق ماهو معروف في الشرق . وكان شارل ابناً يقدر الواجب عليه ، وزوجاً مقيماً بزوجته ، ووالداً شديد التهاون مع أبنائه . ذلك أن نساء القصر كن يصحبنه في جميع أسفاره ، ويقمن إلى جانبه ، سواء أقام حفلة عيد الميلاد في المعسكر في بافيا ، أو بين مستنقعات وغابات

(١) بريندار (٦٢٥ - ٥٨٥ ق. م) ثاني طغاة كورنثة ، وهو معروف بالاستبداد والقسوة . غير أنه ظل محتفظاً بأصالة النسب -- واشتهر في حكومته ببناء المدن وقوة العزيمة . وهو الذي وضع قواعد رخاء كورنثة من النواحي التجارية والصناعية ، ويعتبر نصيراً للآداب ، وأحد الحكماء السبعة في بلاد اليونان . (Enc. Brit.) .

سكسونيا ، وكانت ملكاته يعتبرن وزراء الدولة ، كان لكلمتهن عنده من الوزن ، ماليس لكلمة زملائهن من الرجال . أما بناته فلم يكن فى درجة الملكات من النفوذ ، غير أنهن شاركن أيضاً فيما جرى بالبلاط من التآمر . ووجد الطامحون من الرجال المتوسطين فى كفاءتهم ، فى رعايتهن فائدة لهم . على أن الأمبراطور ، حين يتعرض لشغل وظيفة عظيمة المسئولية ، كان نافذ البصيرة فى معرفة أقدار الناس . غير أنه لم يكن حذرا ، عند شغل الوظائف الصغيرة . فكل مقرب من أميرة ، يتوقع دائماً أن يحصل على أسقفية . ويروى نوتكر قصة تعتبر فى هذه الناحية ، أكثر أهمية ونفعاً من تواريخ عديدة ، واشتهر نوتكر بأنه محدث معروف بالغموض وكثرة السفسطة ، غير أنه شاهد الأمبراطور ، وتحدث إلى رجال يعرفون الجانب المشين من حياة القصر .

نفوذ النساء :

كان بمدرسة القصر رجل فى شرخ الشباب قصير القامة ، رفعه شارل إلى وظيفة بكنيسته . وحدث ذات يوم ، وعلى سمع من الرجل القصير ، أن علم الأمبراطور بوفاة أسقف من الأساقفة ، وسأل شارل عما إذا كان المتوفى خرج عن شطر من ثروته فى سبيل الإحسان . فأجاب المبعوث : مولاى لم يخرج إلا عن رطلين من الفضة . فلم يسع الرجل إلا أن ينفجر صارخا فى حضرة الملك ، « الواقع أن هذا الزاد قليل ، لا يكفى لرحلة طويلة » . وفكر شارل العاقل قليلا ، ثم قال « لو توليت أنت الأسقفية ، فهل تخرج عن مقدار أكبر لهذه الرحلة » . وتعلق الشاب بالألفاظ ، كأنما كانت حبات من العنب تتساقط فى فمه ، وقال « مولاى ، هذا يتوقف على إرادة الله ومشيئتكم » . وعندئذ طلب إليه الأمبراطور أن يختفى وراء الستار الذى يقع خلفه ظهره ، وأن ينصت إلى ما يقوله الوسطاء فى حجرته . وفى هذه الأثناء ، هرع رجال البلاط ، حينما سمعوا بوفاة الأسقف ، للفوز بالغنيمة ، بمساعدة

أصدقاء الملك المقربين . غير أن الملك تمسك برأيه ، وأنكرها عليهم جميعاً ، وقال إنه سوف لا يخدع ذلك الشاب . وحدث آخر الأمر ، أن أرسلت الملكة هلدجارد إلى الملك كبار رجال المملكة ، ثم قدمت إليه بشخصها ، تطلب الأسقفية لرجل يمتى إليها ، من رجال الدين . وحين أخذ ملتمسها على سبيل المزاح ، وقال أنه سوف لا يرفض لها طلبا ، غير أنه سوف لا يخدع مرشحه ، لم تلبث أن صارت تفعل ما يفعله النساء ، حين يردن إغراء الرجال ، فصارت تخفض من صوتها ، وتجعله حزينا وحاولت أن تتغلب على عناد الأمبراطور ، بما تظهره من المحبة والحنان ، فقالت له : مولاى ومليكى ، ماذا يضير ذلك الصبي ، إذا لم يَنَلْ الأسقفية ؟ مولاى العزيز ، كل مالى من مجد وقدر ، أرجو أن تمنحه لذلك الخادم الأمين الذى تحرص عليه » . وعندئذ حدث أن أمسك الشاب الذى اختفى وراء الستار ، بأطراف ثياب الأمبراطور ، وصار يصيح فى صوت حزين ، « احتفظ بشجاعتك ياصاحب الجلالة ، لا تسمح لأحد أن ينتزع من يدك ماوهبك الله من قوة » . وحينئذ استدعاه ذلك المحب للحق وقال ، « خذ هذه الأسقفية وقُمْ على رعايتها ، على أن تخرج عنى وعنك قدرا من الزكاة ، يكفى لتلك الرحلة التى لا عودة منها[1] » .

واشتهر بعض نساء القصر بقدرتهن على استخدام نفوذهن . على أننا لا نسمع عن ذلك ، إلا ما ورد عن ليوتجارد وهلدجارد . غير أن القاعدة لم يترتب عليها أسوأ النتائج ، إلا فيما يتعلق بأمر فاسترادا و بنات الامبراطور . إذ نقلت فاسترادا إلى البلاط ، كل ما اشتهر به مسقط رأسها ، من العداوات المريرة ، والكراهية العنيفة . وأشبع زوجها تعطشها للانتقام ، غير أنه دفع فى ذلك ثمنا غاليا . لم يجز شارل للأميرات أن يتزوجن . وربما كان للسياسة صلة بهذا الأمر . إذ ترتبت زيجات لهن مع بيوت ملكية صديقة ، غير أنه لما فترت الصداقات انهار الترتيب والمشروع .

---

(١) انظر Monk of St. Gall, Book 1, ch. IV.

وثمت أسباب معقولة ، حالت دون إتمـام زواج الأميرة روترود من الأمبراطور قسطنطين ، وزواج أخواتها من أبناء الملك أوفا . وربما كان لوالدهن من العذر ما يجعله يخشى النتائج التى تترتب على زواجهن داخل المملكة ، فإذا ارتبط أحد السادة الأقوياء بصلة النسب بالأسرة المالكة ، تيسر له بمضى الزمن أن يقيم حجابة جديدة للقصر . على أن اجينهارد يشير إلى أن الامبراطور بلغ من شدة تعلقه بأطفاله أنه لا يطيق فراقهن . وكيفما كان الغرض ، فإنه جعلهن يلزمن القصر ، ولكيلا يغضبهن ، تغاضى عن أسوأ ما ترتكبنه من المؤامرات دون أن يوجه إليهن اللوم . ولما شرع لويس التقى فى إصلاح البلاط ، كانت أول خطوة قام بها هى أنه أرسل كل أخواته إلى الدير ، فاتخذت اثنتان منهن الخمار فعلا ، أما روترود فإنها انفردت باكتساب حب الكوين ، بأن انصرفت إلى اللاهوت . غير أننا لا نعلم أن لويس أقر أية تفرقة ، إذ أنهن جميعا فى نظره مذنبات .

والواقع أن شارل لم يكن لديه من الوسائل ما يجعله يتخذ صفة الرقيب . إذ أن سلوكه لم يسلم من الشوائب والتعرض للوم ، فما حدث ، بعد أن طلق ديزيديراتا ، من عقد ثلاث زيجات سريعة متتالية ، إذ تزوج هلديجارد ، وفاسترادا ، وليوتجارد ، يدلّ على أنه رجل خشن الملمس ، جامد الشعور : غير أنه فى الفترات الواقعة بين هذه الزيجات ، وفى أثنائها عقد « عدة زيجات من الدرجة الثانية » ، على حد تعبير المعجبين به من رجال الدين ، ويرجع عدد من هذه الزيجات ، إلى الفترة الأخيرة من حياته حين تجاوز الستين من عمره[١] . والتزمت الكنيسة الصمت أثناء حياته ، إذ لا يصح أن تنكر متعة تافهة على حاميها الأمين . ولما مات شارل ، بادر أهل التقوى ، إلى الأخذ بالثأر الذى طال تأجيله ، فأمعنوا فى تجريح ذكراه

(١) يشير اجينهارد إلى أن من جواريه جيرسويندا ، وريجينا ، وادالندا ، وأنجبت منهن أولاداً أثناء شيخوخته ، ومنهن أيضا هيمالترود أم بين الأحدب ، وجارية لم يرد ذكرها ورزق منها بابنة (انظر Eginhard : op. cit. pp. 56-57) .

كيفما شاءوا . فالأمبراطور فى المطهر ، أضحى موضوع اسطورة لقيت ذيوعا وانتشارا .

زوجات الامبراطور :

على أن هلديجارد هى أكثر من تعلق بهن فى حياته من الزوجات ، ومنها وحدها أنجب أبناءه الشرعيين . وعبر عن حزنه لوفاتها ، بما قام به من إجراء عقد رسمى عن هبة . فحين وهب دير القديس إرنولف إمتز أضيعة صدقة على روحها ، حرّم على رئيس الدير وأخلافه ، باعتبار أنهم سوف يتحدثون باسمها أمام محكمة الله ، أن يغيروا الوصية إلى أغراض أخرى . « لأننا نعلم أن ما يجرى من تضاعف الصدقة ، وما يحدث من المثابرة على تأدية الواجبات ، أثناء الشيخوخة ، لم يلبث أن يجرى نسيانه بعد الوفاة » . ومما انطوت عليه الهبة من شروط ، تقرير صرف شموع لقبر « أحب زوجاته أبد الدهر ، وإذا تبقى منها شىء ، تقرر إنفاقه فى القداسات والصلوات من أجل سلامة روحها » ، وتقدم بالرجاء آخر الأمر إلى أخلافه وذريته بأن يحترموا رغباته . وهذه الوصية مؤرخة « فى يوم صعود السيد ، حيث حدث فى رعايته وتحت نظره ، أن فاضت روح زوجته الحبيبة[1] » . على أنه ينبغى أن نضيف إلى ذلك ، أنه ما كادت تمضى بضعة شهور على هذا التاريخ ، حتى سعد الأمبراطور بزواج جديد ، من امرأة تقل عن هلديجارد جمالا وخلقا .

فكاهة الامبراطور :

وهذا أمر خاص بالبشر ، ليس من البطولة فى شىء ، فليس بطلا ذلك الذى قام نوتكر بتسجيل ما ورد عنه من الفكاهة . لم تكن فكاهة الملك تتجاوز

(١) أنظر : Bouquet ; Rerum Scriptores V. 749 . وكنيسة القديس ارنولف كانت الموضع الذى اختاره الكارولنجيون لدفن موتاهم ، فهى تقابل من هذه الناحية كنيسة القديس دنيس .

المستوى المعروف فى زمنه . فما اشتهر به من الأمثلة الجافة اللاذعة ، صادفت هوى عند الفرنجة . فليس ثمت من أفصال البلاط ، من بلغ من شدة الخشونة والبداوة، ما لم يستطع تقدير النكتة الواقعة ، على حساب أسقف بدين . وفى هذه القصص يرد دائما اسم أسقف . على أن المؤرخ الراهب يحمل بين جوانحه ،الضغينة لأعدائه من طائفته ، فيبتعد عن رعاياه ويجول مسافة ،حتى يثير الضحك عليهم . ولم يكن رأى شارل سلبيا عن الأساقفة ، وما تظهر بلاغته وفصاحته ، إلا حين يوجه اللوم إليهم فى مجمع عام . والمعروف أن هذه المهاجات لم يكن لها أثر كبير على رعاياهم . وإذا جرى تصديق نوتكو ، فإن شارل بالغ فى انتقامه مما اشتهر به الأساقفة من راحة البال .

« وإذا روينا كيف أن شارل بحكمته رفع الفقير ، فعلينا أن نبين كيف أذل المتكبر ، يروى أن أحد الأساقفة كان يتيه غرورا ، ويهوى الأباطيل . ولما أدرك شارل هذه الصفة ، اتخذ تاجرا يهوديا درج على السفر إلى أرض الميعاد ، ويجلب معه إلى هذا الجانب من البحر سلعا عديدة غالية الثمن ، وطلب إليه أن يعبث بالأسقف . فأمسك اليهودى بفأر ،ودهنه بألوان مختلفة،وعرضه على هذا الأسقف ليشتريه وقال: «هذا الحيوان القيم جاء من يهوذا ،ولم يشهده أحد من قبل »فعرض الأسقف ثلاثة أرطال من الفضة ،ثمنا لهذا الحيوان النادر . غير أن اليهودى أجاب: هذا ثمن طيب فى الواقع . إنه خير لى أن ألقى به فى غياهب البحر من أن يشتريه أحد من الناس بثمن بخس » . فلم يلبث الأسقف الذى اشتهر بكثرة ما لديه من الأملاك ، وحرصه على ألا يعطى الفقراء شيئا ، أن عرض عشرة أرطال . وعندئذ تظاهر اليهودى الماكر بالغضب وقال : يا إله إبراهيم . لا تدعنى أفقد عملى وثمن عرقى » .فدفع الأسقف آخر الأمر جوالا من الفضة،وأخذ الفأر . وأخبر اليهودى الامبراطور بما حدث ، فاستدعى الأساقفة سوريا وعرض عليهم القصة ، وقال « انظروا ماذا دفعه واحد منكم ليهودى ، ثمنا لفأر جرى طلاؤه » . وتمضى القصة

تقول ، بأنه أصلح الموقف بحديث عن تقشف الرسل ، وأن الأسقف التعس الذى اشترى الفأر غمره الاضطراب ، وأصابته الحيرة .

عاصمة الأمبراطور :

وإذا اشتهر الأمبراطور بأخلاق وفكاهة شديدة البساطة ، فلا غرابة فى أنه تعلق بحياة الارتحال التى ارتبطت بالميروفنجيين وبأسلافه . وانتشرت العواصم الملكية فى سائر أنحاء ممتلكاته . ففى اكيتانيا أربع حواضر وهى كاسينى ، وثيودود ، وأودياك ، وإيبرى ، وفى باقاريا حاضرتان ، فى انجلشتات وريجنزبرج ، وحواضره فى إيطاليا ، تقع فى ميلان وبافيا وبارما وفيرونا ، وله حواضر عديدة بأودية أنهار الميز والراين والماين أمثال ثيونفيل ، وكيرسى ، وهرستال ، واتيجنى ، وفرانكفورت ، وفورمز ، ومايز ، وانجوليم ، وآخن . وكلها فيما يبدو زارها أثناء حكمه . ودرج شارل على أن يمضى عيد الميلاد فى إحداها ، وعيد القيامة فى حاضرة أخرى . ويتحرك البلاط بأسره مع الأمبراطور ، وينتقل معه من مكان إلى آخر ، مكتبته وذخائره ومحفوظاته ؛ بل إن مدرسة القصر لم تكن ثابتة . وهذا الارتحال والانتقال كان يخدم إلى حد ما غرضاً سياسياً . إذ أن الحاكم على أقوام جفاة بدو ، يحرص على أن يظهر حكومته فى كل جزء من أجزاء المملكة ، وأكثر من ذلك ، أن شارل تأثر بأهواء أسلافه فى المتبربرين ، فاعتمدت داره فى حياتها على ما ينتج من ضياعه الشاسعة . ومن حسن التدبير أن يجرى توزيع الأعباء عليها بالتساوى . فالحواضر البعيدة التى لا يزورها إلا نادرا ، حرصت على أن تبعث كل سنة قافلة طويلة من العربات المحملة بالمئونة إلى الحواضر التى شرفها الملك بالنزول بها .

ولم تكن القصور فى كل البلاد، ما عدا إيطاليا ، سوى بيوت ريفية ، جرى تشييدها على نسق جميل . وما آثره شارل منها ، شيده على حافة غابة من غاباته

مثل الأردن أو غابة بوهيميا الجنوبية ، حيث يستطيع أن يمارس رياضة الصيد المحببة إليه . أما آخن التى اتخذها عاصمة له ، فإنها اختصت بعطفه لما توافر بها من الينابيع العلاجية الدافئة ، لا لمزايا موقعها . ولوقوعها فى أشد أجزاء المملكة قسوة وغلظا ، بعيدا عن الطرق الرئيسية للحرب والتجارة ، لم تصبح يوما من الأيام موطنا لعدد كبير من السكان . وعلى الرغم من أن شارل ورجال بلاطه كانوا يميلون إلى أن يطلقوا عليها « روما الجديدة » ، فإننا لا نظن أنهم كانوا يتوقعون أن يقيموا مدينة كبيرة . فالقصر ودار السناتو والكنيسة الملحقة بالقصر ، تعتبر كلها نواة آخن ، وتولى جميع السكان تأدية حاجيات القصر .

لاشك أن عمائر آخن ابتدأ بناؤها منذ سنة ٧٨٤ ، لأنه حدث فى هذه السنة أن انتزع شارل من قصور أرخونات رافنا الأعمدة الرخامية والأفاريز ، والفسيفساء التى جرى استخدامها لتزيين الكنيسة . على أن الكنيسة لم يتم بناؤها حتى سنة ٧٩٩[1] . وظل فن العمارة مهملا زمنا طويلا ، فى شمال جبال الألب ، ولم يكن الفرنجة فيه تلاميذ نابهين . واتخذ البناءون نماذجهم من كنيسة سان فيتالى فى رافنا — وهى بناء مثمن الشكل ، يحيط به دير ، وتعلوه قبة ، وعقود مستديرة ضخمة ساذجة ، ليس بها إلا زخارف قليلة . وما زال تصميمها باقيا فى الكاتدرائية القائمة بآخن ، غير أن الكنيسة الأصلية أحرقها الشماليون ، فى القرن العاشر الميلادى . ولإتمام العمل جرى تدمير كثير من الآثار القديمة ، لاسيما الأسوار الرومانية فى فردان . وافتقر الفرنجة إلى المهارة أو الصبر على نحت حجارة مبانيهم . فالتمثال الضخم الذى يمثل شارل فارسا ، والذى زين الساحة الواقعة أمام الكنيسة ، إنما جاء من رافنا ، وكان تمثالا لثيودوريك ملك القوط الشرقيين . ولم يرجع إلى الصناعة الوطنية

---

(١) ورد فى الصحة وفى الجزء الخامس « علاقة شارل مع ليو » ما يشير إلى أن البناء ما زال جاريا فى هذه السنة . — أنظر Bouquet. V. 388 .

من حليات الكنيسة ، سوى ستار المذبح والشمعدانات والأبواب ، وكلها من البرونز الصلب .

وتم تشييد القصر على الخطوط التقليدية للدار الفرنجية ، غير أن الحجارة والرخام حلت مكان الخشب . والمعالم البارزة أمثال البهو ، والسقيفة والحجرة العلوية التي يستقبل فيها صاحب الدار الزائرين ، ومن نوافذها يطل على المنظر أسفل الدار ، إنما ترجع إلى ما هو معروف أيام كلوفيس . ويتبع القصر ملحقان بارزان — حمام مساحته كبير ، حيث يشهد الزائر أحيانا الأمبراطور يستحم فيه مع ما يزيد على مائة من فرسانه[1] ، ومتنزه حافل بالأشجار وزاخر بحيوانات الصيد ، شبيه بما كان معروفا عند الميروفنجيين فى باريس .

أما القصور الأخرى ، فإن قصر انجلهيم أقرب إلى قصر آخن فى الفخامة . ومن المؤكد أن سقيفته ترتكز على مائة عمود ، وأن نوافذه تبلغ الألوف عددا . ومن أعظم مفاخره ، ما يزين داخله من الفسيفساء ، وبها جرى رسم ، وربما قام بذلك فنانون إيطاليون، جميع قصص مشاهير الرجال والأمم ، أمثال حروب نينوس[2] وكورش وفتوح الاسكندر ، وهزيمة هانيبال على يد الرومان ، وإنشاء روما القديمة على يد روميلوس ، وقيام قسطنطين بتشييد روما الجديدة ، وهزيمة المسلمين على يد شارل مارتل فى معركة تور ، وانتصار ببين تحت أسوار بافيا ،

---

(١) وفى اجينهارد فصل ٢٢ ، وفى Karlomagnus Saga فصل ١٢ ورد ما يأتى : تشير الرواية إلى وجود واد معشب جميل ، وحمام جرى تشييده ، ليستخدمه كيفما شاء ساحناً أو بارداً ، وحوله أقام سوراً . وأمر الصناع أن يجدوا فى عملهم وأنه سوف يجزل لهم الأجر .

(٢) نينوس (Ninus) — تشير الأساطير اليونانية إلى أنه مؤسس مدينة نينوى ومنه اتخذت اسمها ، وأنه ابن بيلوس أو بيلو ، وأنه استولى فى خلال ١٧ سنة على غرب آسيا بفضل مساعدة ملك العرب ، فأقام له امبراطورية . وهو الذى اغتصب سميراميس من أحد قادته وتزوجها ، وأنجب منها بنياس — وبعد وفاته أقامت سميراميس هيكلاً اشتمل على مقبرته . (En. Brit Ninus)

والرسم الأخير يمثل شارل جالسا على العرش الأمبراطورى . وقرب القصر قامت كنيسة ، تزدان بالمرمر والمعادن والذهب ، وبها أيضا فسيفساء تحوى موضوعات من التاريخ الدينى (١) . ونستطيع أن تتوفر لدينا فكرة عن طرازها من التصاوير التى بإنجيل شارل الأصلع .

المبانى والأعمال العامة :

واشتهر الأمبراطور بولعه بالعمارة والهندسة . ولعل ما اشتهرت به من بساطة فكرتها ، وما اشتهرت به المنشآت من البقاء والاستمرار يتفق مع مزاجه . ففى ماينز أقام على دعائم حجرية ، جسرا من الخشب كما يستخدمه الجيش ، غير أنه حدث لسوء الحظ قبل وفاته بأيام ، أن دفع التيار إليه سفينة مشتعلة بالنار ، فلم يلبث أن اختفى جميع الجسر فى ساعات . وإلى جانب القصور التى أنفق فيها قدرا كبيرا من العناء والمال ، انصرف إلى القيام بأعمال بالغة الفائدة ، إذ نسمع عن الجسور الحربية التى أقامها من السفن ، على نهر الويزر ، ونهر الإلب ، ونهر الدانوب . وشيد سلسلة من المعاقل التى اهتم بحفر خنادق حولها ، لحماية الطرف الشمالى والطرف الشرقى من غارات الدانيين والصقالبة . والمعروف أن جسورا أخرى قامت من حين إلى آخر ، بجهات مختلفة من سكسونيا . قد يدهش الشخص أن الأمبراطور وقف عند هذا الحد ، بينما كان فى استطاعته أن يخلد شهرته بأعمال كثيرة من هذا القبيل فى أنحاء ممتلكاته . إذ كان تحت تصرفه ، ورهن اشارته ، حشود كبيرة من العمال . فأوربا ، فيما نعلم ، نهضت للعمل فى جسر ماينز ، إذ أرسل كل كونت خير من عنده من البنائين والنجارين . لم تتوافر لدينا التفاصيل الدقيقة عن قناة بافاريا ، غير أن حشدا كبيرا عمل زمنا طويلا فى حفر قناة عظيمة الأهمية ، يبلغ طولها ميلين ، وبهذه الموارد كان فى استطاعة شارل أن يصلح الطرق الرومانية

(١) انظر Einhard, c. 17 Einholdus Nigellus .

التى استخدمها فى تحركاته، والواقع أنه أقام فملاق سكسونيا طرقا رئيسية ،أو أصلح الطرق القديمة، غير أن ثمت من الطرق ما كانت الحاجة ماسة إليها فى تورنجيا وسوابيا و بافاريا. وفى المناطق التى لم يضمن ولاءها و إخلاصها ،صار للمدن المسورة، كالتى عند اللومبارديين ، أهمية كبيرة ، وما حشده من الأساطيل على السواحل الشمالية يتطلب موانى عديدة ، إذ لم يكن كافيا أن يصلح ميناء بولونيا . و إذا تساءلنا لماذا لم تتحقق كل هذه الأشياء ، لم تكن الإجابة ، أن شارل لم يكن يدرك مزاياها ، إنما جرى ذلك ،فيما نظن ، لأنه ليس فى وسع شارل أن يبذل أموالا فى سبيل استئجار العمال . فليس من اليسير الحصول على المال فى كل الأحوال . فلم يصل إلى بيت ماله من الأموال إلا القليل. فما يقدمه كل سنة ، الأفصال الملكيون من هدايا ، وما يدفعه الأحرار من ضريبة الرأس ، وما يرد من الضياع الملكية من خراج ، وما يأتى من رسوم المحاكم ، جرت العادة بدفعه عينا : من الخيول ، والسلاح ، والدروع والماشية ،ومن سائر الأموال المنقولة . على أنه ينبغى أن نذكر بأنه حدث فى الشطر الأكبر من عهد شارل،أن حصل بيبن على خراج ايطاليا ، واستولى لويس على خراج أكيتانيا . والمعروف عن أكيتانيا أن خراجها لا يكاد يكفى نفقات بلاط لويس باستمرار ،إلا بالحرص الشديد والعناية التامة فى التصرف فيه. ولم تكن أكيتانيا أفقر الأقاليم بالأمبراطورية،فمن المستطاع أن تقوم بها خدمة إجبارية من غير أجر .والواقع أن شيئا من هذا القبيل حدث فى بعض الأحوال . إذ التزم كل رجل بأن يسهم ، إلى جانب الخدمة العسكرية ، بالمساعدة فى إصلاح الطرق والجسور . وأفاد شارل،فيما يبدو،من هذا الشرط فى القيام بمنشآته فى مايتز . على أنه جرى العرف بأن يؤدى الشخص ما هو مقرر عليه من العمل ، فى عمارة ما بإقليمه من الطرق والجسور . واقترن اجراء الملك فى هذه الحالة بالعنف والاستبداد ،فأثار بذلك الشكاوى المريرة . وترتب على ذلك أنه

تخلى عن هذه الأعمال ، لكل كونت على حدة ، فلم تتم على الوجه المطلوب ، ومنها مالم يتم نهائيا .

ويتهم راهب دير القديس جال، مقدمى الينائين، عند الإمبراطور بشدة الفساد والظلم . ويقول إنه حدث فى ماينز أن مباشر الأعمال العامة، باع الإعفاءات لكل من أراد شراءها . والذين لم يتقدموا لشرائها ، ازداد عبء الأعمال عليهم ، ووجدوا من سوء المعاملة مالم يجده رقيق فرعون . وعلى الرغم من أن الحادث يعتبر بسيطاً ، فإنه يدل على القصور الفظيع فى حكومة شارل . فصار لا يثق إلا فى قليل من وكلائه . فإذا لم يستمر الإمبراطور على ملاحظته وإشرافه ، لم تسر الأمور سيراً سليما . والثلاثون الذين وردت أسماؤهم فى قائمة ، هم كل الرجال الذين اشتهروا فى عهده بكفاءتهم الإدارية . فإذا أجرينا تحليلا للقائمة ، لم نلبث أن نكتشف أن هذه الشهرة إنما جاءت فى معظم الحالات نتيجة القيام بأعمال حربية . أما رجال السلام فإنهم يعتبرون فئة قليلة العدد ، ولا يكفى ضعف هذا العدد، أو ثلاثة أمثاله، لشغل الوظائف البالغة الأهمية فى القصور والأقاليم . وترتب على ذلك أن شغل معظم هذه الوظائف أشخاص ضعاف غير أكفاء ، أما الممتازون من الموظفين فإنهم تاهوا تحت عبء المسئوليات .

السلطة التنفيذية والتشريعية :

وأدرك شارل الخطر ، فاستنفد جهوده فى محاولته القيام بعمل عدة رجال . ويحسن أن نغفل البساطة المتناهية لنظامه ، لأنه قام فى بلاطه كل ما تستلزمه الحكومة المركزية المعقدة من أداة ، فلديه فى البلاط كبير الأساقفة ورئيس القسس ، يتوليان كل ما يتعلق بالكنيسة من الأمور ، والمفروض أنهما يشرفان على سلطة الإمبراطور فى شغل الوظائف، ويفصلان فى الأمور المهمة، دون الرجوع

للامبراطور [١] .

ومن وظائف البلاط أيضاً وظيفة حجاب (كونتات) القصر الذين صارت لهم مكانة قيمة فى الأمور الزمنية ، فكان لكل أمة من أمم الإمبراطورية كونت ، فكل من له شكوى أو ظلامة ، عليه أن يتصل بالكونت الذى يشرف على أمور أمته ، و بذلك لا يصل إلى ديوان الملك إلا المسائل البالغة الصعوبة . ومن موظفى داره ، صاحب بيت المال والكونستابل وناظر الاسطبلات الملكية ، الذين ينهون بخبرهم إلى الملكة و يخضعون لإشرافها . ثم كان لديه ديوان الرسائل ، الذى يجرى فيه تحرير القوانين والعهود ، وفقاً لصيغ معروفة ، وصاحب ديوان الرسائل هو المسئول الأول عنه [٢] . ومع ذلك نجد من الناحية العملية ، أن هؤلاء الموظفين الكبار لا يعتبرون إلا مجرد كتاب وأمناء ، إذ أن الإمبراطور لسبب معقول ، رفض أن يجعل لهم مطلق الحرية فى التصرف ، بل أغفلهم وصار يستمع إلى كل شىء و يفصل فى كل الأمور ، فهو يذكرنا من هذه الناحية بلويس الرابع عشر ونابليون وكبار الأوتقراطيين . والمعروف أن الرغبة الشديدة فى معرفة التفاصيل ، وسوء الظن فى المرءوسين ، تسيطر دائما على الرأس المفكرة .

وقام مجلس البلاط بدور كبير فى خطة حكومة الفرنجة ، وهو ارستقراطى فى تشكيله ، لأن الجمع الذى يحضر المجلس الوطنى الكبير لا يدبر الأمور ، فإن ذلك امتياز ، بل واجب ، انفرد به الزعماء . والواقع أننا نميل إلى أن نظن بأنه يجوز أن يكون فى الاجتماع الارستقراطى ، ما يصح أن يكون أداة هامة لضبط الملك

---

(١) حدث فى معظم الأحوال أن اندمجت هاتان الوظيفتان وتولاها شخص واحد ، وحدث سنة ٧٩٤ أن صار انجلبرت رئيسا لقسس ، بينما كان هلديبولد رئيس أساقفة كلونيا يتولى وقتذاك وظيفة رئيس الأساقفة .

(٢) هذه التفاصيل أوردها هنكمار فى كتابه عن البلاط De Ordine Palatii، وهو من كتاب القرن التاسع الميلادى — ونقل هذا الموضوع عن أدلهارد Adlhard وهو من أشهر مستشارى الأمبراطور وموضع ثقته .

والإشراف عليه ، فإن الزعماء إنما يمثلون سواد الأحرار ، وأن ما يحدث فى معظم السنوات من اجتماعين منفصلين ، وأنه لم يتقرر اتخاذ تدابير مهمة إلا بموافقة الزعماء ، إنما يدل على أن حكومة شارل بلغت من القبول والديمقراطية ما يحدث فى عصر شبه متمدين . على أن هذا الرأى لا يستطيع أن يصمد للفحص والاختبار ، فحكومة شارل كانت مقبولة ، على الرغم من المجالس لا بسببها . والزعماء الذين يحتلون مقعداً وصوتاً فى هذه المجالس ، ليسوا إلا موظفين بالأمبراطوريه . فنهم أساقفة ، ورؤساء أديرة ، وكونتات ، ودوقات ، وأمراء الأطراف (ماركيزات) ، ولا يتولى العلمانيون وظائفهم إلا بمشيئة الأمبراطور وإرادته . على أن مصالحهم منعتهم من القيام بحماية العامة ، كما أنهم لم يستطيعوا أن يضحوا بمكانتهم ومرتباتهم فى سبيل مصالح تلك الطبقة . والواقع أن ماحدث من التصادم بينهم وبين الأمبراطور ، إنما نجم من أن الأمبراطور يمثل العامة بينما هم لا يمثلونهم ، بل إنهم لم يستطيعوا فى نضالهم الخاص أن يناوءوا سيدهم . فإذا أصر الأمبراطور على إجراء من الإجراءات ، نفذ هذا الإجراء . ومن الطبيعى أن يكون ثمت شيء كثير من المقاومة الخفية ، والإغفال المتعمد لتنفيذ القوانين الصادرة ، أما الاحتجاج الصريح أو معارضة الفكرة ، فيكاد لا يوجد منه شيء . ولم تقم هذه الهيئة بشيء من أعمال التشريع ، وأحياناً يجرى دعوتها لتعرض إصلاحات ، وتقوم فعلا باقتراحها ، وعندئذ يفكر الأمبراطور فيما يقوم به من الأمور . وفى أحيان كثيرة يعرض المجلس عليهم قائمة بالقرارات (المرسومات) ويتركهم يتناقشون فيها . فإذا طلبوا شروحاً أو تغييرات ، أو اقترحوا إضافات ، عاد الأمبراطور إلى نقاشهم ، غير أن هذا لم يحدث إلا فى أحوال نادرة . والقاعدة العامة هى أن الأمبراطور هو الروح المتحركة ، وله الكلمة الأخيرة .

المظهر الديمقراطى للإمبراطور .

ولم يكن التشريع هو الغرض الوحيد الذى تعقد من أجله هذه المجالس .
فنى المجالس التى تنعقد فى الخريف ، يرفع المبعوثون إليه تقاريرهم الرسمية ، وفى
كلا المجلسين يتطلع إلى الحصول على مايفيد من المعلومات ، وعلى أساس مايتلقاه
من الأخبار يصدر قوانينه ويضع سياسته . لم تكن حكومة شارل استبدادية ،
فعلى إرادة أتباعه والجيش الوطنى ، ترتكز كل سلطته . والواضح أنه جرى
الاعتراف بالسيادة الاسمية للشعب . والمعروف أنه لم يلتمس موافقتهم على القوانين .
ومع ذلك فإن حضورهم وموافقتهم يعتبر أمراً مطلوبا من الناحية النظرية . ولم
تكن مهمة مجلس الخريف ، كما هو معروف لنا ، إلا إعداد القررات التى تتخذ
قوة القانون بعد التصديق عليها من الزعماء ، أثناء انعقاد المجلس القبلى الكبير .
لم تكن هذه الحالة هى السائدة ، فنى سنة ٨٠٢ تولى شارل والزعماء وضع القوانين
الوطنية . ولا نظن أن كل الأحرار حضروا فى هذا الفصل من السنة . ومع ذلك
نستخلص من هذا المثال أن كل تغيير فى قانون العرف تطلب موافقة الشعب ، إذا
لم يكن فى المجلس القبلى الكبير ، كان على الأقل فى المحاكم المحلية بالأقاليم . أما
المرسومات التى لم تتعرض إلا قليلا للعلاقات الشخصية فى الحياة ، فيصح أن يجرى
تنفيذها ، على اعتبار أنها أوامر من الأمبراطور ، ويجوز إجراء تغييرا تهامة
فى الإدارة ، بناء على تعليمات خاصة أصدرها شارل إلى مبعوثيه ، ويورد رئيس
الأساقفة هنكمار وصفا لما يحدث فى المجلس القبلى ، يعتبر عظيم الأهمية فى إثبات أن
حكومة الامبراطور كانت حكومة شخصية بحتة . إذ شيد القاعات ليجتمع فيها الزعماء ،
وجعلهم يتناقشون فى الموضوعات التى يعرضها . وأحيانا يقسم المجلس إلى قسمين :
العلمانيين والروحانيين ، فلا يجتمعون إلا عند مناقشة الأمور التى تمس الصالح العام .
وفى هذه الأثناء يسير وسط المحاربين فى الجيش الوطنى ، لايمتاز فى ثيابه عن سائر

ببلاد الفرنجة ، ولا يميزه عن غيره سوى ما يحمله فى يده من قضيب مذهب الرأس. ويتلقى شارل الهدايا السنوية من أتباعه ، ويعمل على توطيد سلطانه ، بفضل هؤلاء الأتباع وغيرهم من الرجال . وهو يمزح مع الشاب ، ويعطف على الشيخ ، ويخص أولئك الذين لم يشهدهم إلا نادراً ، بلفتة خاصة . وفى أثناء كل ذلك ، تتفتح أذناه لتستمع إلى كل همسة ، تلقى ضوءاً على اتجاهات الشعور العام ، ويسأل كل من يتحدث إليه عن حالة إقليمه ، عما إذا كانت به ثورات ، وإذا كان به ثورات فما سببها ، وماذا يفعل أعداء الامبراطورية على الحدود .

ويستطيع جميع الناس أن يروا شارل وأن يقتربوا منه ، ويستطيع كل ذى مكانة ، أن يبادله الكلمة والكلمتين . ربما ازدادت المبالغة فى وصف الصورة ، غير أنها تكفى لأن تعطينا كل السر فى قوة الأمبراطور . فهو اوتوقراطى ، عمل على استرضاء قومه ، ودرس رغباتهم . فأحسوا أنه رجل أحرز من دواعى العطف والكراهية مثلما توافر عندهم ، رجل قد يستخدم الضغط عليهم من أجل الخير ولا شىء سوى ذلك . وما أصدره من المرسومات إنما أرادبها إجابة ظلاماتهم وشكاويهم .

وما أخفته دمائته فى طياتها من الصلابة والكبرياء ، إنما زاد فى تقدير الناس له . فالمحاربون الذين أقاموا الأمبراطورية بدمائهم أحبوا دائماً أن يشعروا بما لسيدهم من يد حديدية ، ولم يكن من صفاتهم اللين وطيبة القلب ، فاحتقروا الذلة والتواضع . فالرجل الذى أثبت أنه فى المعركة ، أعظم من شارل مارتل ، وأنه فى المجلس ، أحكم من ببين القصير ، إنما قام بما يرفع شأنه ويعلى قدره ، ولم يحرز هذا إلا بأعماله ، وأنه يرجع ذلك إلى الأمة القاهرة التى قادها ومثلها .

الفصل الحادي عشر

٨٠٠ – ٨١٤ م

مشاغل الإمبراطور :

وكلما اقترب شارل من سن الشيخوخة ، اشتد نزوعه وميله إلى الحد من مجال عمله ونشاطه . فحكومة أكيتانيا ، تركها على ما كانت عليه من قبل ، يتولى أمرها لويس . وفي إيطاليا صار لبيبن نفس الحرية . ولما مات بيبن سنة ٨١٠ ، صار يحكم شبه الجزيرة (إيطاليا) فترة من الزمن ، مبعوثون من قبل الأمبراطور ، وتهيأ أخيرا في سنة ٨١٢ ، للشاب برنهارد أن يخلف أباه بيبن . ولم يتدخل الإمبراطور في كلتا المملكتين ، على الرغم من أنه صار يرسل مبعوثيه من حين لآخر ، ويبعث بنصائحه وإرشاداته ، إلى لأفصال (الأتباع) الملكيين والقضاة المحليين ، أو يقوم بتغيير لوائح الخدمة العسكرية . ومن المرسومات التي أصدرها ، خطاب وجهه إلى بيبن ، تستخلص منه أن نواب الملك ينبغي أن يتلقوا دائما النصح ، وينبغي العمل على تشجيعهم أو تأنيبهم . ومن الملاحظات التمهيدية التي استهلت بها أحيانا القوانين الإيطالية ، يتبين أنها صدرت بناء على أمره . ولو توافرت واكتملت لدينا المصادر عن تاريخ أكيتانيا ، فالراجح أن نجد أن نفس الشيء حدث بها . والمعروف أن رعايا بيبن ولويس ، يعتبرون أيضا رعايا الإمبراطور ، وأن الأوامر الإدارية لكل مملكة الفرنجة ، يجوز عند الضرورة أن تصدر من آخن . غير أن المرسومات التي كرس لها الإمبراطور قدراً كبيرا من وقته وتفكيره ، لم يكن المقصود بها ، فيما يبدو ، أن تسري في أنحاء الامبراطورية ، ما لم تنص صراحة على أنه ينبغي أن تكون كذلك . ولهذه القاعدة استثناءات ، لا سيما أن القوانين

المستمدة من القوانين المحلية ، والقوانين التي جرت إضافتها إليها من حين إلى آخر ، كانت سارية في كل مكان . على أن هذه القوانين وافق عليها مجلس عام في دورة استثنائية ، اجتمع فيه سنة ٨٠٢ سادة الأمم بالامبراطورية . أما المرسومات العادية ، فإنها تصدر عن مجالس ، لا تتألف إلا من رجال تلك الأقاليم التي يحكمها الإمبراطور مباشرة . وعلى الرغم من أن شارل أوتوقراطي ، فإنه فيما يبدو لم يشأ أن يتجاوز القاعدة القديمة ، التي تعتبر أن القوانين لا يسنها ، إلا أولئك الذين يتحتم عليهم طاعتها . فأضحى من اليسير عنده ، أنه كلما أدرك أنه من الخير إجراء إصلاح جديد ، عمد إلى أن يتخذه في المجلس المؤلف من الممالك المستقلة استقلالا ذاتيا .

وإلى جانب التشريع ، اهتم أساساً بمشاكل الحدود الجرمانية . وهنا درج أيضا على أن يكتفي بأن يتصرف في الأمر نائبه . ولكي يجعل أكبر أبنائه على قدم المساواة مع بيبن ولويس ، منحه سنة ٧٩٥ ، لقب ملك نوستريا الغربية ، وبعد عشر سنوات ، طلب إلى البابا في روما أن يتوجه ، على أن المجال بنوستريا لم يكن من الاتساع ، ما يشبع نزعة شارل الصغير ، الذي ثبتت جدارته الحربية . فالبريتون هم الأعداء الوحيدون في هذه الناحية ، غير أن ويدو حاكم الأطراف كان كفئا لكبح جماحهم . ولذا درج شارل على أن يقيم بمملكة أبيه . فمن المقرر أنه سوف يخلفه ، إن لم يكن على الامبراطورية ذاتها ، فعلى الأقل في الزعامة والسيادة على أملاك الفرنجة ، ومن الخير أن يمارس التلمذة الصارمة على يد أبيه . واشتهر شارل بأن ميوله وأهواءه حربية خالصة ، ونعلم أن داره لم تكن إلا أشبه بمعسكر . وما حدث من حروب الأطراف بألمانيا ، وجد فيها خير ما يناسب أهواءه ، على الرغم من أنه ينبغي أن يكون معروفا ، بأن ما قام به من الأعمال الحربية تطلب منه من الجهد ما يزيد على مجرد المهارة .

وقل أن ارتحل الأمبراطور بعيداً عن آخن ، فإذا ارتحل ، فإنما يفعل ذلك من أجل الصيد . وفي سنة ٨٠٣ توجه إلى « ريجنسبرج » ، والتفت إلى تسوية الخلف

البافاري ، وفى سنة ٨٠٤ قاد جموعه إلى فيجمود ، وتراب البينجيا ، غير أنه عاد ولم يشتبك فى معركة من المعارك . وفى سنة ٨١٠ أقام معسكره فى فردن انتظاراً لهبوط الشماليين على الأطراف السكسونية ، غير أن مصرع الملك الدانمرق جودفريد ، ونزوع خليفته هيمنج إلى السلام ، هيأ له الفرصة للرجوع دون قتال. وفى سنة ٨١١ ، قام بزيارة أساطيله الراسية فى بولونيا وجنت . هذه هى الأحوال الهامة التى غادر فيها شارل أرض الراين .

وما حدث من وفاة شارل الصغير سنة ٨١١ ، لم يبعث فى أبيه ما يجعله يتولى من جديد قيادة الجيش . إنما حدث عكس ذلك ، إذ عجل شارل بالانتهاء من حروبه التى ما زالت مستمرة . ولما أدرك أن أجله بات قصيراً ، أراد ألا يترك أمام خليفته شيئاً من القيود والمشاكل .

السلام العام :

على أن رغبة شارل فى السلام كانت أكثر من مجرد نزعة طارئة ، إذ كان يفتخر بلقب « المحب للسلام » ، الذى اتخذه فى نفس الوقت ، الذى اتخذ فيه التاج الأمبراطورى ، وأحس بأن ممتلكاته أضحت بالغة الاتساع . تشير الحوليات إلى الحروب العديدة التى حدثت فى السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من عهده . غير أنه لم يترتب عليها فتح بلاد جديدة . فالاستيلاء على أراضى جديدة ليس له أهمية ، ولم يكن إلا أمراً طارئاً . ولتوطيد السلام على الحدود ، شن لويس الحرب فى أسبانيا ، ونهب بيبين بنيفنتو ، وانقض شارل على بوهيميا . إنما جرى توجيههم كيما يحيطوا الأمبراطورية بحلقة من الأمم الموالية لها ، فإذا استحال ذلك ، تقرر الاستيلاء على خط من المواقع الطبيعية القوية ، حيث يجرى إقامة معاقل منيعة . وتحققت هذه النتيجة فعلا فى سنة ٨١٠ . إذ حان الوقت وقتذاك لإقامة علاقات ودية مع الدول المجاورة . وطبقاً لذلك ، دارت المفاوضات مع الأمبراطورية الشرقية ، ومع الحكم أمير قرطبة ،

ومع همنج ملك الدانمرقيين . وفى سنة ٨١٢ انتهت المفاوضات إلى نتيجة طيبة ، والخطوة الأخيرة التى اتخذها ، هى أنه رتب عقد معاهدة مع بنيفنتو .

على أن هذه المعاهدات تعتبر من ناحية اعترافا بالضعف . ففى كل حالة، رضى الإمبراطور بأقل مما يريد، ومنح بنيفنتو والأمبراطورية الشرقية ، امتيازات كثيرة . ولم يكن المسلمون بأكثر منه رغبة فى تسوية الأمور . أما إذعان الدانيين ، فإنما يرجع إلى الحروب الداخلية التى أضعفت قوتهم . وتوافر لهذين العدوين من الأسباب السليمة ما يجعلهما يدركان الضعف، الذى يستتر تحت ما لدولة الفرنجة من قشرة سليمة .

فلو اتحد هذان العدوان لبلغت سخريتهما بجيوش شارل حد الاستخفاف . غير أن الفرص التى تجعلهما يتحدان فى الوقت الملائم لمواجهة أى هجوم مقرر ، تعتبر من أندر الفرص . فالإمبراطورية الغربية أمست من الضعف ، ما منعها من اتخاذ سياسة هجومية ، وصار من صالحها المحافظة على ما استولت عليه فعلا، من الجهات. وليس الأمر محتاجا إلى نبى يتنبأ بأن الإمبراطورية ، لا بد أن تتفتت متى انتقلت إلى أيدى سياسيين من طراز متوسط ، فما عانته من إذلال فى الثلاثة عشرة سنة الأخيرة كان ، برغم ما حدث فى هذه السنوات من انتصارات ، نذيراً بما سوف يقع من كارثة ، إذ حملت فى طياتها دليل ضعف الحكومة المركزية ، وعجز الحكومة المحلية ، وتداعى نظام الخطط الحربية والاستراتيجية ، وضعف العناصر الحربية التى أحرزت انتصارات الماضى ، فإذا أخذت النسور فى الهبوط ، كان ذلك دليلا على بداية الاحتضار والفناء .

أسباب سقوط المؤامرة

والتاريخ السياسى لهذه السنوات يعالج المحاولات التى جرت لتخفى وتحول دون ما هو مقرر من انحلال دولة تجاوزت حدود قوتها ، غير أن عملية التداعى.

وأسبابها لا تبدو ظاهرة . إذ أن أسبابا بالغة العمق ، ظلت تعمل فى صمت ، ولم تظهر إلا بعد أن كاد ينتهى عملها ، فالإمبراطورية الناشئة خرجت منتصرة من الحروب الطويلة المنهكة ، غير أن الامبراطورية ذاتها ، فى فترة تطورها ، صارت تهتز عند أقل ضغط يأتى من الخارج . ولم يذكر المؤرخون فى حوادثهم ما يفسر الانتقال السريع من الشباب إلى الشيخوخة . فلم يكن الدانمرقيون يضارعون فى كثرة العدد السكسون والآفار ، ولم يكن للمسلمين زمن الحكم من القوة مثلما كان لهم زمن عبد الرحمن . على أن الخطر يتمثل فيما يستخدمه هؤلاء الأعداء من طرائق القتال ، فبفضل سيطرتهم على البحر ، وما اشتهروا به من خطط حرب العصابات ، استطاعوا أن يهزأوا ويسخروا من كثرة العدد . فإذا تساءلنا عن السبب الذى جعل الفرنجة ، مع ما اشتهروا به من منذ زمن طويل بالتفوق فى فن الحرب ، لم يستطيعوا مواجهة القرصان بأسلحتهم أو مطاردتهم إلى أوكارهم ، لوجدناه فيما أصاب مجتمعهم من حالة اضطراب وانقسام ، لم يترك لهم من الوقت ما يجعلهم يفكرون فى تجارب الماضى ، ويضعون للمستقبل خططاً جديدة محكمة ؛ وإذا تقدمنا مرحلة أخرى فى دراستنا ، لأدركنا أن هذه الفوضى القاتلة ليست إلا النتيجة المباشرة ، لما اشتهرت به الطبقة الحاكمة من الاستهتار وحب الذات . فالكونت والأسقف مصدر الشر كله ، والأحقاد المتبادلة — كالنزاع الدائم بين الدولة والكنيسة فى أحط صوره وأحقرها — تعتبر مسئولة عن جانب كبير من هذا الشر ؛ كما أن العقول القاصرة ، والعقول المريضة ، والمطامع الشخصية ، مسئولة عما تبقى منه . وبسبب ما اشتهر به الزعماء الفرنجة من التمرس على حياة الحرب ، وما فرضته عليهم انتصاراتهم من هدوء نسبى ، فقدوا الصفات التى جعلت منهم حكاما على أوربا ، وأصبحوا لا يلائمون مكانتهم العالية فى اللحظة التى بلغوها فيها .

الأمبراطور نفسه هو الذى قام بتشخيص التدهور والانحلال الذى شاهد حوله . فرسوماته التى صدرت بعد سنة ٨٠٠ ، انطوت على كثير من الأسى ، إذ طفحت بالمرارة والكراهية لكبار الموظفين . ويشكو شارل بأن هؤلاء الأشخاص ، إنما ينفقون وقتهم فى مناوءة بعضهم بعضا . يتجسس الأسقف على الكونت ، ويأبى الكونت أن يقر الأسقف على القضاء . ويزداد الأمر سوءا إذا اتفقا فى العمل ، لأنه عندئذ يتحقق لنا أن مؤامرة يجرى إعدادها ، لنزع ما لدى مرءوسيهم ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، من ضياع وحرية . ويكتشف الأمبراطور أن الملاك الأحرار ، الذين يعتبرون العمود الفقرى لجيشه ، سوف يتناقص عددهم بالتدريج ، فيتحرى السبب ، فيعلم أن بعضهم التجأ إلى الكونتات ، وأن فريقا آخر باع أراضيه للكنائس ، واضطروا أن يفعلوا ذلك حتى يتجنبوا الظلم . أما البقية الباقية منهم ، فإن طائفة منهم ساومت الكونت على أن تشترى منه الإعفاء من الخدمة العسكرية ، بينما تعرضت طائفة أخرى ، أقل تعقلا وحكمة ، للاستبداد والغرامات ، فلم يبق لديها من المال ما يكفى للسلاح والمؤونة . وإذا التفت إلى الكنيسة ، وجد أن الرهبان ليسوا إلا متشردين كسالى ، ووجد القسس أميين منحلين ، فلا يؤدون واجب التبشير والتعليم ، فسأل من جديد لماذا يحدث ذلك ؟ جرى هذا لأن الأساقفة لديهم من أعمالهم الملحة ما يلزمهم باتباعها . فتوافرت الشكاوى العامة ، ولم تجد التجارة والزراعة الحماية من اللص أو الفاسق ، وتزايد عدد اللصوص والشحاذين الأشداء ، ولم يجدوا من يوقفهم عند حدهم . لم تتوفر الثقة فى المحاكم ، واشتهر القضاة بالسكر والعربدة ، إذا لم يكونوا غير عدول ، وانتشر الفساد فى كل مكان ، وأضحى من المستحيل استئصاله . فلجأ الأمبراطور ، آخر الأمر ، إلى تشجيع ظهور الجماعات الإقطاعية ، وازدياد سيطرة السيد الزمنى ، على تابعه ، والإكثار من الإعفاءات الكنسية . فإذا صارت فئة قليلة من الناس مسئولة عن عدد كبير من الناس ، فلا شك ، على حد ظنه وتفكيره ،

فى أنه سوف لا تكون ثمت صعوبة بالغة فى احترام القانون . وعلى الرغم من أن التجربة حدثت مرارا ، فإنها لم تصادف نجاحا . ففى هذه الحالات تتعرض الدولة للخراب من قبل الخلفاء الذين تلتمس منهم المساعدة . وأمسى الرؤساء الرسميون للأمة ضعافا فى قدرتهم وكفايتهم الرسمية . فلم يعد كل من التابع والمقطع الكنسى يتطلع إلى الأمبراطور منتظرا للأوامر ، وصار الايطيمان إلا أمر سيدهم المباشر ، وبذلك دارت العجلة دورة كاملة ، وهوى الكارولنجى إلى نفس ما كان لمنافسه الميروفنجى المغلوب على أمره ، من مكانة لا تستند إلا على سيادة لفظية جوفاء . ولم يلبث أن أصبح الكارولنجى واحدا من بين زعماء عديدين ، ولم تعد قوته الفعلية سوى قوة رفاقه فى الحرب ، والاتباع الملتفين حوله . على أنه سوف يأتى آخر الأمر ، الوقت الذى لا يستطيع فيه رفاقه فى الحرب أن يخوفوا سائر الناس ، ويقل عددهم ويتفرق شملهم ، ويتطلعوا مثلما تطلع غيرهم من النبلاء إلى الاستقلال .

على أن التغييرات التى من هذا القبيل لم تتم فى سنوات قليلة . فطالما عاش مؤسس الأمبراطورية ، فإن عملية تفكك المجتمع ، وإعادة تشكيله لم تسر إلا فى بطء ، غير أنها بدأت فى زمنه وتحت نظره ، واستمرت جارية برغم ما بذله من جهود مضنية لمقاومتها . فأنزل العقاب بآحاد المذنبين ، ومن هرب منهم من العقاب اشتد حذرهم بعض الوقت ، غير أن الأمبراطور لا يستطيع أن يلاحظ كل فرد من الأفراد ، أو ينزل العقاب بكل شىء يصل إلى علمه .

نمو الإقطاع :

وقام نظام التبعية بدور كبير فى كتابة التاريخ ؛ إذ لم ينهض بيت ارنولف إلى السلطة إلا على أكتاف اتباعهم . وما أحرزته حكومتهم من الاستقرار عند مستهل قيامها ، إنما يرجع إلى ما درجوا عليه من الاهتمام والعناية باستخدام هؤلاء

الأتباع ، فى إدارة الحكومة والكنيسة . فالمعروف أن كل كونت ، وكل دوق ، وكل مبعوث ، لم يتم تعيينه إلا لأنه رجل مخلص لهم . فتولى وظيفته على أنها إقطاع ، طالما ظل محتفظاً بسلوكه الطيب . أما الاتباع الآخرون الذين يقلون عن هؤلاء أهمية ، فإنهم أقاموا بضياع الملك المنتشرة فى طول الأمبراطورية وعرضها. ومن الناحية النظرية يعتبر هؤلاء جميعاً عبيد نعمة الملك وعطفه . والواقع أنهم نزعوا إلى أن يصبحوا فئة بالغة الاستقلال . فإذا ضعفت السلطة المركزية ، كانت الملكية هى جُلّ ما يحتويه القانون من نقط ، فالمالك لم يعد له قيمة ، بينما أضحى المنتفع هو كل شىء . لم يعد السيد الأعلى يستطيع أن يفرض الشروط التى يقتضا أجر ضيعته ، إلا إذا كان للمستأجر فعلا فى متناول يده. وعلى هذا النحو سار الإجراء ، بأن وظيفة الكونت وأراضى التابع ينبغى أن تنتقل ، كأنها من حقوقه ، إلى ابنه . أما الخوف من الاعتداء على الأرستقراطية القديمة ، وصعوبة اكتشاف رجل آخر كفء ، فلم يترك لنا كم من الاختيار ، سوى أن يقرّ نظرية الوراثة الخطيرة. وفى كل عملية من عمليات التغيير أو الانتقال، من وظيفة إلى أخرى أخذت الأسرات الكبيرة ترتبط بالأقاليم التى تحكمها وتشتهر بها . فاستخدمت من الحقوق الرسمية ، ما أدخل الموظفين الاقليميين فى نطاق تبعيتهم ، ولثقتها فيما أحرزته من قوة ، أغفلت واجباتها الرسمية . ولم يكد يستهل القرن التاسع حتى كانت الكونتية الكارولنجية الواقعة على الطريق الرئيسى ، قد أصبحت اقطاعا من إقطاعات العصور الوسطى . والكونت بحكم وظيفته صار يمارس القضاء العالى والمتوسط والابتدائى ، وإذ لم يرض بالنس الثالث الذى يعتبر الرسم المقرر له شرعا، أخذ يغتصب فى وقاحة، كل ما يتحصل من الغرامات من دخل، وبدلا من أن يسير وفقا لقانون الملك ، صار يطبق ما هو سائد من العرف المحلى، وما تقتضيه نيته الطيبة ، وإذا لم يعد المبعوث الملكى إلى مراجعة أحكامه ، وبرفع الدعاوى العامة

إلى محكمة الملك ، صار التحول بذلك كاملا ، فبدلا من قضاء الملك ، أصبح لدينا قضاء الأمير الاقطاعي .

الكنيسة والاقطاع :

والقوة الوحيدة التي استطاعت دائما أن تقف صامدة أزاء ما اتخذه الكونتات من سياسة الجنوح إلى العظمة والاستعلاء ، كانت سلطة الكنيسة القومية . إذ أنها صارت بعد وفاة شارل الكبير، تحفظ التوازن بين قوة التاج و بين قوة الطبقة الأرستقراطية . في حاضرة المملكة ذاتها، صارت تقوم بتعيين الأباطرة وعزلهم، وفي الأقاليم أخذت تحافظ على حقوقها و إعفاءاتها من أن تمسها قبضة الكونت، بل أكثر من ذلك عمدت إلى أن تتجاوز حدودها . غير أن هذه العملية كانت أيضاً خطيرة وقاصمة للتاج . فما لجأ إليه الملك من القضاء على الاعفاءات ، إنما تم عن طريق الكونتات والمبعوثين ، فلما امتنع المبعوثون عن القيام بطوافهم ، وتوقف الأساقفة عن أن يجعلوا ماليهم من المدنيين يمثلون في محكمة الكونت ، لم يعد التاج من عوامل الحياة اليومية لمقطعي الأسقف . فنشأت اقطاعات الكنيسة ، والاقطاعات العلمانية معا ، ولم يلبث أن صار كل ماتقدمه للدولة ، لم يتجاوز حصة غير محدودة من الخدمة العسكرية ، مصحوبة ببعض المساعدات والرسوم التي لم تكن أيضا معلومة .

والمعروف أن اللامركزية ، عجل بها ما لاحظناه في الفصول المتقدمة من الشعور القومي الحاد ، والإحساس المحلي الشديد . فالدولة الكارولنجية منذ أول ظهورها حتى سقوطها ، لم تكن إلا حلفا مؤلفاً من العناصر والقبائل ، يتولى حكمها إلى حد كبير ، أهلها وتخضع لقوانينها الخاصة ، التي تجمعت عادة فيما درجت عليه من مصالح محلية ، وقلما ارتفعت إلى شعور الزمالة في مجتمع أكبر ، إلا إذا تطالب نذير وقوع خطر من الأخطار العنيفة ، أو الدعوة للغزو ، أن تجتمع للخدمة في وفاق ووئام تحت راية قائد واحد ، تضع ثقتها فيه : فإذا زالت الأخطار ، ولم يعد ثمت

من البلاد ما يصح فتحه ، ولم يصبح واجب الخدمة العسكرية إلا لحماية الجار من إغارات التخريب التي تحدث من حين لآخر ، اختفى فورا النزوع إلى السعي إلى اتحاد أكثر دواما واستمرارا .

وازدادت الأحقاد القومية شدة ، كما ضعفت القوة التي طالما سيطرت عليها . وفي القرن التاسع بلغت عقول الناس من ضيق الأفق ، أن للميزة الكبرى لما يجرى الاستمتاع به من السلام العام،والحكومة الواحدة ،تجاوز حد فهمهم وإدراكهم. فما كان يحلم به دائما شارل والكوين ، من سيادة القضاء والديانة بالأمبراطورية ، لم يكن عند اتباعهم وخلفائهم سوى حلم عديم المعنى . وحينما صور تيودولف الامبراطورية، بأنها تقوم على الفتح ،وتزداد قوة بالحروب الصليبية المستمرة ، إنما يعرض مثالا جافا ، غير أنه المثال الوحيد الملائم للعصور والأزمنة .

سوء الإدارة في إستريا

ولإيراد تفسير محسوس لما يجرى داخل الإمبراطورية من ميول عامة ، لا بد أن نلقى نظرة عابرة على ما حاق بإقليم واحد من الآلام ، كما سجلها الذين عانوها وقاسوها . فإستريا التي تم انتزاعها حوالى سنة ٧٨٩ من بيزنطة ، والتي باعتبارها من أطراف الامبراطورية ،تصاقب اليونانيين في دلماشيا،والصقالبة الجبليين في كارنيولا ، تولى أمرها دوق يتمتع بامتيازات وسلطات غير عادية . على أن الإقليم ، نظراً لبعده عن كل من آخن وبافيا ، ووفرة سكانه من فقراء الناس وسذاجتهم ، لم يلبث أن وقع فريسة سهلة لهذا الموظف الجشع . وبعد أن مضت سنوات عديدة ، صبر فيها الاستريون على ما حاق بهم من البؤس والفقر ، عمدوا آخر الأمر إلى أن يطلعوا الامبراطور على آلامهم . فأرسل شارل مبعوثيه ليستوضحوا الأمر ، فشكلوا هيئة من المحلفين للتحقيق والفحص ، ووصلت إلينا أقوالهم عن طريق الصدفة المحمودة . وهذه هي القصة كما روتها هيئة المحلفين : وبسبب ماوقع

من ظلم واستبداد الدوق حنا ، أصاب السكان الفقر ، فإذا نهض الامبراطور لمساعدتهم نجوا وأنقذوا ، وإذا لم يقم بذلك ، فالموت عندهم خير من الحياة ، إذ أن حنا جعل الناس أرقاء لأبنائه وبناته وصهره ، فأرغم السكان الفقراء على العمل فى تشييد القصور له ، ولأقاربه الذين سبق ذكرهم ، واستولى على قدر كبير من الأراضى التى يملكونها ، وجلب من خارج الحدود صقالبة يقومون على فلاحتها . « يحرثون حقولنا ، ويحصدون محصولاتنا ، ويقومون برعى ماشيتهم فى أعشابنا ، ومن أراضينا يدفعون الإيجار للدوق » ، ويأخذ حنا وأقاربه من الاستريين الماشية والخيول دون أن يدفعوا أثمانها ، وإذا « قلنا شيئاً ، قالوا إنهم سوف يقتلوننا » ، وأجبر الحلفيين على أن يحفروا له ، وأن يشذبوا كرومه ، وأن يطعموا كلابه ، وأن يحرقوا الجير — وكلها من المظالم المريعة التى لم يعانها أحد زمن الحكم اليونانى . يضاف إلى ذلك أنه جعلهم يرحلون للمتاجرة له لا فحسب فى الأنهار ، بل عبر البحر ، إلى البندقية ودالماشيا ، وإلى راقنا البعيدة . واغتصب غاباتهم وأراضيهم العامة . وحين يتوجه إلى خدمة الملك ، صار يحصل على خيولهم لحمل الأمتعة ، وألزم أبناءهم بأن يقودوا الخيول . فإذا ساروا معه مسافة ثلاثين ميلا أو أكثر ، استولى من كل واحد منهم على كل ما يمتلك ، فيعودون عرايا ، مجردين من كل شيء ، فيرسل خيولهم إلى بلاد الفرنجة أو يعطيها إلى أفصال الدوق حنا . قال ذات مرة للناس . « فلنجمع هدايا لتقديمها للامبراطور ، كما كنا نفعل زمن اليونانيين ، وسوف يأتى معى واحد منكم لتقديمها » ، وعندئذ قام الاستريون برغبة خالصة ، كما صرّحوا بذلك علنا ، بجمع الهدايا . غير أن الدوق حين تأهب للسير إلى الأمبراطور التفت إليهم وقال . . سوف لا تأتون معى ، فإنى وحدى سوف أنوب عنكم عند الأمبراطور » ثم انطلق وحده ، وبفضل هداياهم ، حاز فى البلاط شرفاً كبيراً ، له ولأولاده ، وبقى المشتركون فى الهدايا يئنون من الظلم ، ويقاسون الأسى والحزن ، ولم يكونوا بنجوة من الخطر فى أى مكان ،

فلا يجرءون على أن يمارسوا ، ما اعتادوا ممارسته قديماً ، من صيد السمك فى البرك والمناقع العامة، لأن رجال الدوق حنا يقبلون عليهم و يضربونهم بالمقارع ، و يمزقون شباكهم .

علاج الإدارة السيئة :

ولذا صاروا يطوفون بأنحاء البلاد ويجولون ، واضطر حنا أن يعترف صراحة بمختلف الاتهامات . ومن دواعى السرور أن نعلم أن المبعوثين الملكيين أعادوا الدوق إلى صوابه ، فتحتم عليه أن يعيد ما حصل عليه من الغنائم، وأن يتنازل عن دعاويه المزعومة ، التى لم يسمع بها أحد ، وتقرر اتخاذ الضمانات لكى يلتزم السلوك الطيب هو و بناته وصهره ، ومع ذلك فإن الخوف كل الخوف فى أن يشتد الأمر بالأسترينى ، بعد رحيل المبعوثين ، فالخطر كل الخطر أن توجه الاتهام إلى سيد اقليم . و بمضى الزمن ، وجد أهل الإقاليم أن خير وسيلة لمعالجة مصالحهم هى التزام الصمت . ويفصح شارل عن شكواه من هذا الجبن فى مرسوماته ، لأنه يظهر الشك فى قدرته على حماية البائسين ؛ غير أننا لا نعلم أن الثقة عادت إليهم بفضل مواعظه وارشاداته . على أن الكونتات والدوقات طالما استغلوا ما لدى رعاياهم من وطنية محلية . إذ تساءلوا ما الذى يدعو هؤلاء المبعوثون الأجانب ، إلى التدخل فيما يحدث من منازعات خاصة ، بين الجيران والأقارب ، فمن الخير الانتظار حتى يرحل هؤلاء المبعوثون ، فتتم تسوية كل شىء بطريقة ودية . ولهذه الأسباب كان علينا أن نستخلص من مثال واحد ، الحالة بأقاليم عديدة . إذ لم يكن أهل استريا بأسوأ حالا من جيرانهم ، ولم يكن الدوق حنا ، فيما يبدو ، مثالا سيئا من زعماء الفرنجة . ففى الحروب الإيطالية بلغ من بلائه بها أن شارل خصه بالمدح والثناء ، على أننا نتصور كيف أن أهل الأقاليم حين يكثر هذا الطراز من الحكام ، فقدوا كل احترام للحكومة المركزية ، ولم

يفكروا إلا فى العمل على استرضاء طاغيتهم الصغير ، ودللوا على ذلك بأنه من الخير لهم ، أن يشاركوا فيما ينجم عن الظلم من أرباح ، لا أن يصبحوا من ضحاياه . فإذا أصبحوا أتباعا للدوق حنا ، ألا يصيبهم ، كما حدث فى الأيام الطيبة السابقة ، الخيول والأراضى وحقوق الأراضى العامة وسائر المنح ؟ هذه كانت مغريات النظام الاقطاعى عند ضعاف التفكير .

ومن الأدلة الواضحة على زيادة الجشع وحب الذات ، مانجده من الكراهية العنيفة الحديثة العهد بالخدمة العسكرية ، إذ انقضى الزمن الذى كانت هذه الخدمة تجرى فيه عن طيب خاطر ، والذى كان فرسان الأمبراطور الكبار يهيبون بالأمبراطور أن يلتمس لهم أعداء ، جديرين بصلابتهم[1] غير أن ما وجهه شارل من إرشادات خاصة إلى المبعوثين فى السنوات المتأخرة يكشف لنا عن قصة مختلفة . فهو يكرر تحذيرهم مما سوف يصادفهم من الحيل ومحاولات التهرب ، وأنه ينبغى عليهم إزاء ذلك أن يقفوا موقف الحزم . فأهل أكتيانيا وإيطاليا سوف يحتجون ، بأن الخدمة فى ألمانيا ليست جزءاً من واجبهم ، وبأنهم رجال بيبين ولويس ، وليسوا رجال الأمبراطور . وسوف يشير آخرون إلى ما حصل عليه رفاقهم من إعفاءات ، ويتساءلون لماذا لم يحصلوا على امتياز من هذا القبيل . وسوف يجد المبعوثون ، أن كبار الأتباع يتركون المستأجرين فى مواطنهم ، وهؤلاء المستأجرون الصغار ، إما أن يلزموا السكوت بأن يلتمس بديلا عنهم (وفى هذه الحالة يخصص لهذا الغرض قدراً من المال) ، وإما أن يثبتوا بأنهم سوف يمكثون فى مواطنهم ، وينتهزون الفرصة التى تجيز لهم بأن يدفعوا غرامة لعدم تأديتهم الخدمة heriban . ولجأ بعضهم إلى أن يبيعوا أنفسهم رقيقاً ، كيما يعيشوا

---

(١) أشار القصة الطريفة التى أوردها راهب دير القديس جال : إذ أن أحد المحاربين القدامى يجأر بالشكوى من « أن الامبراطور وأنا تحتم علينا ، أن نحارب الضفادع الصغيرة أمثال الوالبر والبوهيميين » .

فى سلام ذليل . أما الذين يلبون منهم داعي الخدمة ، فإنما ينهضون ولم يتجهزوا تجهيزاً كافياً ، فينتهزون أقرب فرصة للهروب من الجيش . وحاول شارل عبثاً أن يعين بالدقة التزاماتهم ، وأن ينتزع منهم بكل شدة، ماهو مقرر عليهم من غرامات لتخلفهم عن الخدمة ، وحاول عبثاً أيضاً أن ينصح المبعوثين سراً، بأن يكتفوا ، إذا استطاعوا ، بأن يخرجوا جندياً عن كل ثلاث أو أربع قطائع من الأرض . فازداد سخط الجيش الوطنى سنة بعد سنة ، وتضاءل أثره وقوته . وتستطيع أن تقرأ بين سطور هذه القصة الرسمية عن حملات ، تقرر الاستغناء عنها عند قيامها ، وعن هزائم أنزلها أعداء ضعاف ؛ ولعل مصدر جزع الأمبراطور للهدوء والسلام يرجع إلى ما يكنه لجنده من عدم الثقة بهم . واقترب الوقت فعلا الذى سوف يسر الناس فيه سقوط الأمبراطورية ، التى توقعوا منها إن تتمخض عن عصر ذهبى ، وذلك لأن انهيارها سوف يخلصهم من هذا العبء البغيض [1] .

انهيار الرياسة

ومن المؤسف أن نجد أن الوسائل ، التى توسل بها شارل ليطيل أجل أمبراطوريته ، والتى لم تكن من الكفاية ما تفى بعلاج هذه الأمراض المتأصلة، ليست إلا وسائل آلية خالصة . إذ أنه عمد إلى تدعيم الأعمال الظاهرية ، ولم يحفل بانهيار البناء الداخلى . بل أن النظام المعدل للتعليم لم يلبث أن أصابه الضعف بعد وفاة المكوين . أما الإصلاحات الدينية فإنها بقيت ، غير أنها لم تستمر زمناً طويلا . إذ زالت مدرسة القديس بونيفاس ، وحل مكانهم رجال أقل شأناً . لم يستطع الأمبراطور أن يبث فيهم مثله ومبادءه . فالقوة المثيرة التى بعثت فى كنيسة الفرنجة القوة والنشاط فترة من الزمن ، لم تلبث أن خمدت وزالت . وظهر من جديد ما جرى قديماً من مساوىء وعيوب ، ونبتت شرور جديدة . وصار الأمبراطور يشكو فى مرارة وحزن ، غير أنه لم يستطع أن يرتب العلاج .

---

(١) انظر .Rerum Scriptores V 302. ...ont

أما الشعاع الوحيد الذى يعتبر سارا ، والذى ما زال ملحوظا ، فإنه جاء من مملكة لويس التقى ، حيث اشتهر بنيدكت رئيس دير ابيانى يعمل على تدريب الرهبان وفقا لقاعدته الجديدة ، ويبعث بهم إرسالا وكتائب ، ليجعلوا من المؤسسات الدينية القديمة ، دُوَرا جديدة صالحة . غير أن هذا لم يكن إلا إحياء محليا ، تمّ بتشجيع شارل وبلاطه ، وإنما استند فى نجاحه إلى ما يقدمه لهم لويس ونبلاء اكيتانيا من مساعدات . وعمد البند كتيون من هذه الطائفة الجديدة ، إلى أن ينتشروا فى أنحاء الأقاليم الواقعة جنوب نهر اللوار وغربيه ، وقامت لهم بعض المحلات فى وادى الرون ، ولم يكن منها بأملاك الامبراطورية فى ألمانيا إلا دير واحد (وهو دير مارمونستر) فى الألزاس . على أن قاعدة ابيانى ، كما يشير المؤرخ جيزو ، عند مقارنتها بقاعدة القديس بنيدكت ، التى سارت على نموذجها ، تثبت على وجه التأكيد ، ما حدث فى داخل صفوف الطائفة القائمة ، من نمو الصفة الشكلية ، وتداعى الحماس الروحى .

نمو الكنيسة الألمانية :

الواقع أن الكنيسة فى الشرق ، فى ألمانيا ، عمدت أثناء عهد الأمبراطورية إلى مد حدودها ، وإدخال تنظيم صالح ، فارتفع كرسى سالزبرج ، بناء على رجاء شارل إلى مرتبة المطرانية . وصارت الأسقفيات الباڤارية الأخرى خاضعة لولايتها (٧٩٨) ، وقامت أسقفية جديدة فى زيبن ، فى الطرف الجنوبى للإقليم . أما التشيكيون والآفار والصقالبة ، سواء كانوا فى داخل الطرف الشرق أو كانوا متاخمين له ، فإنهم تحولوا فى أعداد كبيرة إلى المسيحية ، بفضل مبشرى القديس أرنو أول رئيس للأساقفة فى باڤاريا . وفى سكسونيا نشأت كنائس بريمن ومنّدن ، وفِرْدِن ، ومونستر ، وبادر بورن ، وهلديهايم ، وهالبرشتات . وفى شرق الراين نشأ عدد كبير من الأديرة ، جرت معرفة أسماء ثلاثين منها ، أما العدد الحقيق ، فالراجح أنه أكبر من ذلك . وهذه المؤسسات ، القديمة منها والجديدة على السواء ، أمدّها

شارل وتيلاوه ، بأراضى شاسعة و إعفاءات كثيرة . ففى سجلات فولدا وحدها ، ورد ذكر ٢٤٨ هبة ، تمت أثناء عهد الإمبراطور . وحاز الدير الذى يقع جوار هايسفلد ، ضياعا فى ١٩٥ موضعا . وما وهبه له شارل من أراضى ، تزيد مساحتها على ٤٠ ألف فدان . و بهذه الثروة ، وما أصبح لها من نفوذ محلى ، ازداد إحساس الكنيسة الألمانية ، باستعدادها لمواجهة كل محاولة للعودة إلى الوثنية والقضاء عليها . فتم بذلك رسوخ المسيحية فى الأمة الجرمانية .

على أن هذه القوة التى تم إحرازها على هذا النحو ، لا بد أنها كانت قوة عالمية . غير أن فائدتها للكنيسة تعتبر موضع شك ، فعند العلمانيين ، أدت إلى نتائج سيئة . فما اتبعه شارل وأخلافه من سياسة كنسية ، عرقلت نمو ذلك الشعور الوطنى الذى نجم عن سياستهم العلمانية . فبينما أقام الأول دولة ، هيأ الآخرون السبيل للكنيسة لتصبح دولة داخل دولة . فرؤساء أساقفة كلن وتريبه ، وماينز ، يدينون إلى شارل بما صار لهم من أقاليم شاسعة ، وما ترتب على ذلك من تفوق وسيطرة فى مجالس الإمبراطورية ، إذ أن الولاية على ماينز قبل عهده كانت محفوفة بالخطر ، ومحدودة السلطان ، بينما ترجع الولاية على كلن وتريبه إلى سنة ٧٩٤ ، وتحتم عليه أيضاً أن يتحمل المسئولية عن الإمارات الكنسية ، التى احتوت عليها تلك الأقاليم ، منذ أقام إمارات سكسونيا ، وزاد فى إمارات هس وفرانكونيا والميانيا . وليس ثمت من الحكام الجرمان ، باستثناء أوتو الكبير ، ما يصح فى وقت من الأوقات ، مقارنة خدماته المادية للكنيسة القومية بخدمات شارل ، بل إن أوتو ذاته ، يعترف بالزعامة فى ذلك لسلفه ، ولم يضف أوتو إلا دابرقه وإقليم مجدبرج ، إلى النظام الكنسى الذى وجده قائماً حين تولى الحكم ، فلم يقم إلا بالإكثار من الضياع ، وازدياد الإعفاءات ، التى أوجدها الكارولنجيون ، و يصح أن نضيف إلى ذلك ، بأنه سار مرغماً فى نفس الدرب الذى اختاروه طوعاً لأنفسهم ، فلم يتخذ الكنيسة شريكا له فى السلطة فى أطراف الإمبراطورية ، أو فى قلبها ، إلا على مضض ،

وفى شىء من الشك، وبعد تردد طويل، وعلى أنها الملاذ الأخير. أما شارل فإن غرسه للارستقراطية الدينية، بلغ من الرسوخ والقوة، ما جعل خلفاءه لا يجدون بديلا ثالثاً، للإذعان المطلق أو الخراب التام. والواقع أن أخطار النظام الكارولنجى احتاج ظهورها وتطورها، قرناً من الزمان، اشتد فيه ضعف الحكومة. وفى أثناء حياة شارل ظل رؤساء الأديرة والأساقفة، مفتقرين إلى أن تكون لهم ولاية عامة على أتباعهم (مقطعيهم). غير أنه حينما تم منح الإعفاءات، ترتب على ذلك أن صار لهم حتما الولاية العامة. وعندئذ صارت الكنيسة معادية لكل نظام، لم تتوطد فيه زعامتها وسلطانها.

أخطار النظام الكنسى.

وظل شارل ممسكا بزمام الكنيسة طالما بقى عائشاً. فليست مجالسها سوى مجالسه، وكلمته هى قانونها. والأساقفة ورؤساء الأديرة كانوا دائماً أنصاره، بل أنهم فى معظم الأحيان كانوا من ذوى قرابته. وفى جميع أنحاء الأمبراطورية صار كبار رجال الكنيسة من أخلص اتباعه. على أن الزمن سوف يظهر، ولا بد أن يتعلم ابن شارل، نتيجة تجربة قاسية، أن هذه الاحتياطات الصغيرة سوف لا تجدى نفعاً، حين تتراخى عند الموت ما أبتدعها من يد حديدية. فلم يجد أبناء لويس التقى المتمردين، من الحلفاء من هم أشد حماساً من والا، وادالهارد، وكلاهما من كبار رجال الكنيسة الألمانية، وكلاهما من بنى عمومة الأمبراطور الأول، ومن وزرائه الذين يثق فيهم. وحاول شارل عبثاً أن يمعن فى ملاحظة ما درجت عليه الكنيسة من تجاوز حدود العدالة. وحاول أيضاً عبثاً أن يجعل للمبعوثين السلطة المطلقة فى اختيار الحماة[1] advocati الذين يمارس الأساقفة، عن طريقهم

(١) الحماة — ومهمتهم أصلا أن يمثلوا المتقاضين بالمحكمة، وأن يقبضوا على المجرمين من الأقنان فى الضياع الكنيسة، وأن يسلموهم إلى القضاة المدنيين، وأن يقوموا أحياناً — فى القضايا الصغيرة — بتقدير العقوبة. على أن هؤلاء الحماة، وهم من العلمانيين، يؤدون ما يؤديه الموظفون الدنيون (العلمانيون) من واجبات. انظر:
H. Fichtenau : The Carolingian Empire. Oxford 1957. pp. 140 - 141.

سلطات الولاية ، وحاول عبثاً أن يحدد حق الحماية ، وأن يفرض أشد الشروط ، على ما حدث من ازدياد إجراء الالتجاء إلى القديسين . ولم تحظ كل هذه السياسة الدفاعية بأى نجاح ، ولم يكن هذا استثناء للقاعدة .

لم يكن الخطر الناجم عن النظام الكنسى أمراً جديداً . فى أوائل القرن الثامن واجهه ساسة الفرنجة فى صورة حادة . وفى زمن شارل مارتل ، لم تكن الكنيسة الفرنجية ، إلا ما صارت عليه كنيسة ألمانيا فى المستقبل ، عدواً خطيراً ، وصديقاً مريباً ، وحشرات تمتص دم حياة المجتمع الذى تعلقت به ؛ وعلى حساب ما تحمله من كراهية ، أصلح حاجب القصر القوى، لصالح الدولة ، مساحات شاسعة من الأراضى التى منحها دون اكتراث للكنيسة . وواصل بيبن القصير وشارل الكبير ، بروح أكثر ميلا للمسالمة والتراضى، نفس السياسة فى الجهات التى تقع جهة الغرب من نهر الراين . ويصح القول صراحة أنه لا يجوز للامبراطور أن يكرر فى جهة من الجهات، ما ارتكبه الميروفنجيون من أخطاء . ولو سلمنا أن الكنيسة أسهمت فى توطيد الإمبراطورية، وأنها ساعدت فى نمو موارد الأرض البكر ، والتى لولاها لظلت خرابا ، فإن ما جرى دفعه من ثمن لذلك كان باهظا ، وأن الأخطار أضحت شديدة الوضوح والظهور .

ومن جهة أخرى، ينبغى أن نتذكر بأن الكنيسة تدين بما تملك ، لما يجود به الملك والأفراد . وصار من المحتم أن يقيم الملك أسقفيات وأديرة فى البلاد التى فتحها باسم الكنيسة ، وإذ قام بذلك ، فلا يستطيع أن يمنع ، حتى إذا أراد ذلك ، عما يساور رعاياه من المخاوف والآمال، من إغداق الهدايا والهبات على هذه الطوائف. على أنه لم يهب الكنائس العديدة ما وهبها من أراضى وامتيازات ، إلا حسب طاقته الخاصة لا بوحى ميول حكومته ، إذ أنه بذلك ردد الشكر على ما أحرزه من انتصار ، وعلى حمايته من الهزيمة ، وعلى تجنب غضب الله على مملكته ، أو استدراراً للرحمة على أرواح المتوفين من زوجاته وأبنائه ، ولا يستطيع أن يحرم

على اتباعه أن يفعلوا مثلما فعل . فنهضت الكنيسة بفضل فعل هذه القوى ، التى لا يستطيع حاكم أو أسرة ، أن يأمل فى قمعها والقضاء عليها . فكان مصير أعدائها الزوال والفناء ، أما هى فظلت خالدة . فلم يكن الغرض من حرصهم على القتال إلا احراز المجد والكسب ، ومن العسير الإبقاء عليه فى أذهانهم ، أما اهتمامها وصالحها فكان واضحاً ظاهراً . وما اشتهرت به الكنيسة من نزعات إنما تتسم بالحنان والعطف ، أما نزعاتهم فلا يلائمها إلا النفاق وعدم التدين . ولم يكن فى وسعهم إلا أن يجلوها و يقدسوها ، بينما لم تكن لهم ، أى احترام أو إجلال .

شهدنا فى أمبراطورية الفرنجة فى أوج عظمتها ، دلائل الزوال والسقوط . فإذا توقفنا قليلا ، كيما نصف بإيجاز الحروب الأخيرة التى قام بها مؤسسها ، وتتبعنا بإجمال ما انتهت إليه من الحدود ، فإننا نخشى الاتهام بالإسهاب الممل الذى لا مبرر له . على أن هذا العرض يعتبر عظيم الأهمية عند أولئك الذين اعتقدوا أن أوربا العصور الوسطى ، ليست أكثر من حطام الأمبراطورية الكارولنجية واكتشفوا كيف أن خيوطاً عديدة من التاريخ ترجع إلى نقطة الابتداء . فعلينا حينئذ أن ننظر إلى أقصى النقط التى امتدت إليها هذه الأمبراطورية ، وما جرى اتخاذه من إجراءات لتأمينها .

برتانى :

وسوف نبدأ من بريتانى . لم تلعب بريتانى إلا دوراً صغيراً فى تاريخ ذلك العصر ، غير أن لها من الارتباطات الأدبية ما يجعلها عظيمة الأهمية . فلا نستطيع أن نغفل المدرسة التى تعلم فيها رولان فن الحرب ، والتى تعتبر المعقل الأخير للكلتيين بالقارة ، ومهد الشعر والقصص الكلتى ، ولا نستطيع أن ننسى أنه ، إلى سياسة شارل وما قام به نوابه من الغارات ، يرجع اجتماع المصالح والعواطف التى جعلت من الأقاليم المتنافرة أمثال كورنواى Cornouaille ودول Dol ،

وليون ودومنونيه Domnonée ، قومية متحدة ، وأنه إلى هذه القومية ، تدين فرنسا العصور الوسطى ببرتراند دى جوسلين، وتدين أوربا العصور الوسطى بما انطوت عليه آدابها من أروع العناصر .

والبريتون الذى أخضعهم أولا ، داجوبرت الطيب ، استعادوا استقلالهم فى سنة ٦٩٥ . وكان لزاماً على البريتون أن يوجهوا الشكر ، على ما أصابهم من حظ طيب، إلى الميروفنجيين، لا إلى أنفسهم . إذ أن بريتانى لم تبلغ من الانقسام مثلما بلغته وقتذاك . ولم يحرز إقليم من أقاليمها الأربعة من دلائل الوحدة مثلما أحرز إقليم كورنواى. ومع ذلك فإن الوحدة الحقيقية للمجتمع فى هذا الإقليم إنما تتمثل فى العشيرة، ولم تتمثل السلطة الفعلية إلا فى زعيم العشيرة machtiern . أما غالبية رجال القبيلة فكانوا أقنانا ارتبطوا بالأرض، ودفعوا لزعيمهم مقابل حيازاتهم ، إما قدراً من العمل أو جانباً من المحصول[1] . أما الزعيم فلم يكن فعلا قوة حقيقية، على الرغم من أنه يبدو مستبدا . ومن أهم أعماله، ممارسة القضاء ، بل ربما كان ذلك عمله الوحيد فإذا جلس للقضاء، تلقى النصيحة ، وخضع لسلطان أقاربه والأرستقراطية القبلية . وموضع الغرابة فى هذا النظام السياسى ، أنه استطاع أن يقاوم ما تعرض إليه من الهجوم . ومع ذلك فلم يكن البريتون أعداء خاملين ، إذ أن بيبن لم يستطع أن يخضعهم ، على الرغم من أنه استولى على حصنهم فى ڤان Vannes ولقنهم (٧٥٢م) دروساً فى أن يحترموا حدود الفرنجة . أما شارل فإنه وجد مشقة شديدة فى إتمام الفتح . وفى عهده قام كونتات ڤان ، ورن ، ونانت ، بزعامة والى الأطراف، بملاحظة هذه القبائل المعادية ومراقبتها . وفى سنه ٧٨٦ سار الصنجيل[2] أودولف إلى الإقليم ، واقتحم حصوناً عديدة ، يحميها مستنقع وغابة ، وجاء بكثير من الزعماء البارزين، فركعوا عند قدمى

(١) انظر La Borderie : Histoire de Bretagne. vols I. II.

(٢) الصنجيل — senechal — موظف كبير ، ينوب عن الملك فى مراقبة أعمال رؤساء الإدارة المحلية ، ويتولى تصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء ، وينوب عن الملك فى قيادة الجيش) انظر Jacob : The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1926. p. 490. (

سيده إظهاراً للولاء والخضوع . وفى سنه ٧٩٩ ظفر و يبدو أيضاً بالنجاح . وفى سنه ٨٠٠ جاءت الأرستقراطيه البريتونيه بأ كملها إلى تور ، وأعلنت للملك شخصياً ولاءها وخضوعها . وحدث أيضاً فى سنه ٨١١ ،أن وقعت الحروب فى الإقليم حول St. Malo . وعلى الرغم من أن الثوار صاروا يفخرون بأنهم أشجع فرسان العالم ، فإنهم تراجعوا أمام كتائب سادتهم الثقيلة ، فحلت الهزيمه بجيشهم ، وتعرضت قراهم للنهب ، واشتعلت الحرائق بأديرتهم . ولم يحدث بعد ذلك إلا قدر كبير من السخط الأجوف ، غير أنه لم تجرؤ قبيلة من القبائل على أن ترفع اصبعها فى وجه الإمبراطور . وخضع رجال الحدود لسلطة كونتات الإمبراطور ، أما بروسلياند Brocéliande الغابة المظلمة ،المشهورة بأسرارها الخفية وكثرة أساطيرها وخرافاتها، فإنها فقدت ما يثير مخاوف المسافر الإفرنجى . واضطلع لويس التقى بعمل أبيه ، غير أنه لما اشتهر به من عدم التعقل،والتجرد من الحكمة،عهد بإدارة شبه الجزيرة إلى زعيم وطنى معروف باسم نومنوى . وما كاد يموت سيده لويس التقى ، حتى اتخذ نومنوى اللقب الملكى بموافقه البريتون ، ولم تنقرض أسرته ، إلا بعد ثلاثة أجيال ، غير أن فكرة الوحدة ظلت باقيـة بعده ، وتولد عنها فيما بعد الدوقية المستقلة الشامخة التى حافظت على كيانها ، مدة خمسه قرون ، من خطر النرمان والأنجو بين وآل كابيه . والمعروف أن خير عناصر الخلق البريتونى ، نبتت فى السنوات العشر الأولى من القرن الثامن.إذ استمدوا مسيحيتهم أصلا من أقاربهم الغاليين ، الذين هربوا عبر القنال حتى ينجو من المغير التيوتونى . ولم تكن مسيحيتهم أقل جنوحاً إلى المهاجمة ، وأقل استثارة للعواطف ، وأدنى حظا من التعليم،مما كان معروفاً عند الإيرلنديين،الذين نزلوا فى ايونا وأوغلوا فى سيرهم حتى بلغوا منابع نهر الراين . ومع ذلك ففى قصص القديس سامسون ، والقديس تيلو والقديس جيلداس والقديس ماجلوار ، يستطيع القارىء لأساطيرهم أن يميز ذلك النوع الجذاب من الطباع، كالذى يبدو فيما كتبه القديس باتريك فى ترجمته

أو تاريخ بيدا . ولم تكن الكنيسة فى بريتانى، وفى إرلندا ، قد تم تنظيمها ، فالدير القبيلى ، والمبشر المتجول، هما كل شىء . ولم يحفل الرهبان الكلتيون بإدراك الوحدة السياسية . ومع ذلك فإنهم قاموا فى بريتانى، بترقية أسباب المدنية بوسائل مختلفة ، فالبساتين التى غرسوها حول دول وامتدت مسافة ميل ظلت قائمة فى القرن الثانى عشر . أما بساتين محلاتهم الأخرى فكانت فى الغابات ، ولم يلبثوا أن أزالوا الأشجار ، وحرثوا الأرض البكر ، و بذروا الحبوب التى أطعموا منها ، زمن المجاعة ، المستجدين فى المسيحية . و بذلك تجاوزت تعاليمهم المذهب والشعائر ، إذ أن فضيلتى الاقتصاد والمهنة التى لا تستقيم حياة السلم إلا بهما سارتا فى إثر نشاطهم . على أن عامل التمدن لم يكن هو كل ما تركوه من أثر . فالجماعات القبلية وما اشتهرت به من العداوات ، وجمود العاطفة ، تعتبر أساس البساطة والولاء ، وموطن فضائل اجتماعية عديدة . فازدهر الشعر فعلا فى هذه الجهات المصحية . فالطيور التى تتكلم ، والأشجار التى تتنبأ ، والعفاريت التى لا نستطيع الإمساك بها ، وكل القصص عن السحر والشعوذة ، التى نستمتع بها فى شذرات من الأدب الكلتى ، ليست إلا موضوعات معروفة عند أقدم الشعراء البريتونيين . وفى هذا الجو من التقاليد العابسة ، و إرهاصات الوحدة القومية اتخذت أسطورة آرثر الصورة التى أصبحت بؤرة التجمع لوطنية جديدة .

الطرف الأسبانى :

ومن بريتانى ننتقل إلى جارتها اكيتانيا ، و إلى الطرف الأسبانى . فعلى الرغم من أن لويس التقى لم يكن محاربا ، وأن بلاطه، على حد قول نبلاء الفرنجة لم يكن فيما يبدو إلا كأنه دير من الأديرة ، فإنه تعلم من والده أن يعتبر المسلمين عدوه الطبيعى ، وأن نهر الإبرو هو الحد الحقيقى لمملكته . ووجد فى الدوق وليم صاحب تولوز وقتذاك ، قائداً كفءاً لتنفيذ سياسة حازمة على الحدود

فمنذ سنة ٨٠٠ حتى سنة ٨٠٨ ، اشتد ضغط الملك والدوق على المسلمين ، و إذ أطلق المسلمون سنة ٧٩٣ آخر سهم فى جعبتهم ، حين ألهب حماسهم فترة من الزمن الأمير هشام ، فنهبوا سبتمانيا ، واندفعوا إلى أبواب ناربون (أربونه) . غير أن هشاماً مات سنة ٧٩٦ ،ولم يسع خلفاؤه إلا أن يلتزموا خطة الدفاع ،وتذبذبت المدن الإسلامية الواقعة على الحدود فى ولائها،واستخدم الفرنجة القوة إلى جانب ما بذلوه من الإغراء والتحريض ، فأذعنت لهم لريدا(لرده)سنة ٨٠٠ ،وسقطت فى أيديهم برشلونه سنة ٨٠١ ،بعد حصار استمر سبعة شهور ، و بعد محاولة يائسة قام بها الأمير الحكم لإنقاذ الحامية . وفى السنوات الخمس التالية عمل الدوق وليم على أن يدعم الطرف الأسبانى ، لا بحسب بما استولى عليه من هذه البلاد ، بل بما أضافه إليه من بلاد شردانه ، وأمبورياس ، وجيرونا ، وأوزونا ، وأورجل ، وبيسالو ، ونافار ، وبامبلونا . ولما انتهى من ذلك ، عمد إلى أن يقضى ما تبقى من أيامه فى الدير ، الذى شيّده فى جيلونا (٨٠٦) مقتدياً فى ذلك بصديقه القديس بنيدكت . والواقع أنه لم يكن ثمة من الرجال من يضارعه فى الكفاءة والمقدرة ، حتى يخلفه فى عمله . فتوقف كل امتداد جديد للحدود ، فيما عدا أن طرطوشة سقطت سنة ٨١١ فى يد لويس التقى . وأعقب ذلك مباشرة عقد هدنة مع الحكم ، واستمرت هذه الهدنة قائمة حتى وفاة الإمبراطور . وفى العهد التالى له تداعى الطرف الأسبانى وتفكك ، فأصبحت أكبر قطعة منه مركيزية برشلونة ، وما تبقى منه ،تألف منه اثنتا عشرة كونتية ، فاندمجت المجموعة الغربية من الكونتيات فى مملكة نافار المسيحية بفضل سانكو الكبير (٩٧٠ — ١٠٣٥) ، ودخلت مجموعة أخرى فيما بعد فى مملكة ارجون (١٠٣٥) . أما ما يقع فى الشمال الشرق من الطرف الأسبانى من بلاد — برشلونة ، وأمبورياس ،وأورجل ،وناربون — فكنها عنصر مختلط ، ولذا بقيت زمناً طويلا فى مركز غامض ، تارة تميل إلى جانب

أسبانيا ، وتارة تتجه إلى جانب فرنسا . وفى هذا التذبذب ، نستطيع أن نتتبع ما غرسه شارل الكبير، من أثر فى تلك المجتمعات المسيحية الأسبانية .

جريموالد صاحب بنيفنتو :

أما حروب الأطراف بإيطاليا فلم يترتب عليها نتائج عظيمة الأهمية فى المستقبل. إذ أن بيبين ظل حتى وفاته سنة ٨١٠ م فى قتال مستمر مع البيزنطيين وأتباعهم ، ومع بنيفنتو ، وقرصان البربر ، غير أن هذه لم تكن إلا حروبا دفاعية لم يترتب عليها الاستيلاء على بلاد وممتلكات . فالبندقية ودالماشيا اللتان جعلتا نفسيهما سنة ٨٠٥ تحت حماية والده ، لم تلبثا أن ندمتا على اتخاذ هذه الخطوة ، وعادتا إلى التبعية القديمة (بيزنطة) . وما حدث بعدئذ من عبور أسطول فرنجى إلى دالماشيا لم يلبث أن ارتد على عقبه أمام الأسطول اليونانى ، وفى تلك الأثناء لم يستطع جيش الفرنجة أن يفرض الحصار على البنادقة فى خلجانهم مدة ستة شهور (٨٠٩). وفى الصلح الذى تم عقده سنة ٨١٢ ، تنازلت الإمبراطورية عن كل ما لها من دعاوى فى هذه الأقاليم ، وتقرر التخلى عن البندقية ، فسارت على ما انتهجته من سياسة الحياد بين الشرق والغرب ، إلى أن التهمت دالماشيا فى القرن العاشر، واستهلت حياتها القائمة على التوسع صوب الشرق .

وما حدث للفرنجة من الفشل فى هذه الجهات، يعتبر أمراً طبيعيا ،وبسبب ما اشتهروا به فى أزهى عصورهم من التأخر فى فن الحروب البحرية ، عرقلهم ، فى جميع العمليات التى وقعت فى الإدرياتيك ، حاجتهم إلى الاحتفاظ بأسطول ضخم فى جنوه وبيزا، للدفاع عن الساحل الغربى . على أن قادة هذا الأسطول ، اكتفوا بالقيام بأعمال لا هدف لها . إذ جرى طرد البربر أكثر من مرة من جزيرتى سردينية وقورسقة ، وفى سنة ٨٠٨ ، قام بورشارل Burchart حاجب القصر الإمبراطورى ، بذبح ثلاث آلاف منهم ، ودمر أو استولى على ١٣ سفينة . غير

أنه لم تجر محاولة لرد الهجمات التي وقعت على الموانى الإسبانية ، وعاد البربر مراراً للنهب . وعلى الرغم من أن الصلح مع الأمير الحكم سنة ٨١٢ نجم عنه هدوء مؤقت ، فإن سردينيا وقورسقه ظلتا طول عهد الكارولنجيين تحت رحمة هجومهم .

وما هو أكثر غرابة ودهشة ،هو أن ماحدث من العمليات الحربية ضد بنيفنتو لم يؤد إلى نتيجة من النتائج . فغريموالد الثالث الذى اتخذه شارل سنة ٧٨٦ رهينة ، حتى يضمن السلوك الطيب من أبيه اريغيس ، أذن له شارل سنة ٧٨٨ بالعودة إلى بنيفنتو كيما يخلف أباه فى الحكم . غير أنه لم يعترف بالجميل، ذلك أنه عند اعتلائه العرش ، وعد بأنه سوف يسك النقود باسم شارل ، و يؤرخ وثائقه بسنوات حكم شارل ، و بأن يلزم رعاياه بأن يقصوا لحاهم،و يتخلوا عن زيهم الوطنى ، و بأن يدفع جزية سنوية قدرها ٧٠٠٠ صولدا . وراعى الشرطين الأول والثانى من حين إلى آخر ، غير أنه لم يعبأ مطلقاً ببقية الشروط . ولم تمض إلا سنوات قليلة ،حتى تحولت أفكاره ، مثلما حدث زمن أريغيس ، إلى الحرب ضد الفرنجة . ولاشك أنه تطلع إلى القسطنطينية ،يطلب منها المساعدة،ووعد رسل قسطنطين بأن اداجيس سوف يقوم بأسطول لمهاجمة تريفيسو ورافنا . وتلقى شارل فى كل الأحوال ،من الانذار والتحذير ما يكفى لمنعه فى سنة ٧٩٣ من إرسال القوات المتحدة إلى ايطاليا واكيتانيا لقتال تابعه المتمرد . وفى سنة ٨٠٠ اشتعلت الحرب من جديد،وظلت قائمة حتى وفاة جريموالد سنة ٨٠٧ . وكان جريموالد ، كما يلحظ مؤرخ من مواطنيه،أميرا فارسا ذا شجاعة نادرة.ومن المؤكد أنه أظهر فى هذه الحملات من الحكمة والكفاءة ، مالا يقابله إلا ما اشتهرت به عمليات بيبن من سوء النظام والعنف . إذ أنه لما اطمأن لمدنه المسورة ومعاقله الجبلية،أمعن فى إغراء الفرنجة واجتذابهم،حتى استنفدوا جهدهم فى ضرب الحصارات والزحف الاضطرارى.ولما حانت الفرصة،عرف كيف يضرب ضربته القاضية . أما أعداؤه فإنهم بعد أن اخضعوا ثلاث مدن : شيتى فى سنة ٨٠١ ، واورتونا ولوكيريا فى سنة ٨٠٢ ، لم يعمتوا

فى فتوحهم إلى أبعد مما سبق . على أن هذه الانتصارات ، جرى سنة ٨٠٣ ما يرجحها بما حل من هزيمة الفرنجى و ينجيز وأسره ، وهو دوق سبوليتو . و بعد وفاة بيبين ، تخلى أبوه عن مشروع ، اتضح أنه لا جدوى منه ولا أمل فيه . فتقرر عقد الصلح فى سنة ٨١٢ . ووفقاً لشروط الصلح ، احتفظ جريموالد الرابع بأراضى الدوقية بحدودها القديمة ، ووعد مقابل ذلك ، بأن يدفع ما تأخر عليه من أقساط الجزية ، وأن يواصل دفعها كل سنة . غير أن هذا الوعد لم يتحقق . وفى العهد العاصف للويس التقى ، جرى الحنث فى اليمين دون أن يترتب عليه عقاب. وما تلى ذلك من تاريخ بنيفنتو ، على الرغم من أنه غير مشرف ، يعتبر حافلا بالحوادث . إذ أن بنيفنتو تأرجحت بين الأمبراطوريتين الشرقية والغربية ، تستخدم الأولى لمناوءة الثانية ، ولا تحترم كلتيهما . وحاولت بنيفنتو فعلا أن تسير على سياسة البندقية ، غير أنها لم تظفر بشىء من النجاح ، إذ لم يتوافر لها ما للبندقية من الموقع الطبيعى المتين ، ولا حيويتها الكامنة ، فلم تلبث أن أخذت تتداعى بسبب ما تعرضت له فى جهات ثلاث ، من هجمات أعداء ، يفوقونها فى القوة . وحدثت المرحلة الأولى من الانهيار فى سنة ٨٤٠ ، حين انفصل عنها كابوا وسالرنو وتألفت إمارتان مستقلتان .

جنوب إيطاليا والبابا

وتكررت أحيانا العملية على مقياس أصغر ، وتالت فروع صغيرة ، من بيت الإمارة إقطاعات ، وأخذت تنفصل عن أصولها ، وفى الوقت ذاته حدثت سلسلة إغارات من الخارج . فترتب على استيلاء المسلمين على بارى ومونتى جارجانو سنة ٨٤٠ ، أن أضحى لقرصان المسلمين شوكة فى جانبها مدة ثلاثين سنة . فلما اختفوا تقدمت الأمبراطورية الشرقية ، واستولت على الأقاليم التى تخلوا عنها . فأبوليا وكالابريا اندمجتا نهائيا ، وتألف منهما إقليم بيزنطى . والتزم دوقات بنيفنتو

بأن يدفعوا جزية للقسطنطينية ، وفى أثناء فترة الشغور (٨٩١ — ٨٩٥) تولى موظفون بيزنطيون . إدارة الدوقية ، وأعقب ذلك فترة إحياء قصيرة الأمد .
وتجدد اتحاد كابوا و بنيفنتو سنة ٩٠٠ ، وأضاف إليهما باندولف المعروف بشدة مراسه وصلابته (٩٤٣ — ٩٨١) سالرنو وسبوليتو . وإذ أدرك ما حدث فى الماضى ، أراد أن يفصم الصلة بالامبراطورية الشرقية ، التى لم تلبث أن أصبحت أقاليمها فريسة للمسلمين.وصار من المحتمل أن تندمج ،فى وقت من الأوقات ، آخر إمارة لومباردية ، فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن حكم بيت أوتو . غير أنه بوفاة باندولف (سنة ٩٨١) حدث مرة أخرى ماحدث من التردد والتداعى ، إذ ظهر النرمان فى جنوب إيطاليا ، وتطلعوا إلى أراضيه على أنها فريسة لهم ، فسقطت فى يدهم كابوا فى سنة ١٠٦٢ ، ثم سالرنو فى سنة ١٠٧٥ . أما أخلاف باندولف ، فإنهم لجأوا إلى البابوية يلتمسون حمايتها . غير أنه لم تحل سنة ١٠٧٧ حتى اختفى الفرع الحاكم من اسرتهم ، وانضمت ممتلكاتهم إلى إمارة القديس بطرس . كان هذا أيضاً مصير سبوليتو فى القرن الثالث عشر . فما صاغه البابا هادريان فى سنة ٧٧٤ من ادعاءات عن امتلاك جنوب ايطاليا تحققت فعلا ، وما منحه الكارولنجيون للبابوات من إعفاءات ، هددت بانتزاع كل ما للملكة مستقلة ، من امتيازات واعتبارات .

وتختلف دوقية سبوليتو عن بنيفنتو ، فى أنها كانت دائما تؤلف جزءاً من الإمبراطورية ، لأنها إحدى إمارات الأطراف الخمسة ، التى اغتصبت فى القرن التاسع معظم النفوذ الإمبراطورى فى إيطاليا ، أما الإمارات الأربعة الأخرى فكانت افريا وتورين ، التى اتخذت أحيانا اسم الطرف الإيطالى ، وتسكانيا وفريولى . فتوسكانيا مثلا حازها بالتدريج الأسرة التى حكمت فى لوكا والجهات المجاورة لها . أما فريولى فحدث بها عكس ذلك ، إذ كانت دوقية لومباروية احتفظ بها شارل،حين قسم بقية شمال إيطاليا إلى إمارات صغيرة المساحة . وتعتبر فريولى

جسراً بين الأراضي الألمانية والأراضي الإيطالية التابعة للامبراطورية ، إذ أنها تتصل من جهة الشمال الشرقي بوادي الدانوب ، ومن جهة الجنوب بساحل الأدرياتيك . على أنها بلغت من الاتساع والضخامة ما يعرضها للخطر ؛ فتعرضت بالتدريج لعملية التفكك . ففي سنة ٨٢٨ خرج من دائرة نفوذها كونتيات كارينثيا وكارنيولا ، وإستريا . وما تبقى منها ألف منه أوتو الكبير الطرف المعروف بطرف فيرونا — اكويليا . غير أن لم يلبث أن نبت هنا كانبت في سائر شمال إيطاليا ، الكومونات ، فتحطمت على يدها قوة نائب الامبراطور . إذ أن فيرونا وبادوا وفيشنزا Vicenza وسائر المدن ، جرى منحها حقوق الحكم الذاتي ، أو أنها اغتصبت هذه الحقوق ، وأضحت تريفيزو مقرا الحكومة أطراف أخرى ، على الرغم من صغر مساحتها ، فاجتمع في يدها كلها ما تبقى من فتات النفوذ الإيطالي . وفي القرن الثاني عشر تم إلغاء هذه الإمارة ، وما سبق أن مارسه حكامها من حقوق انتقل إلى بيت استي Este .

التطورات المتأخرة في إيطاليا .

وما حدث في الإمارات الإيطالية الأخرى من تغييرات ، تعتبر بالغة الأهمية في تقدير تاريخها المقبل . فما قام به حكامها من منازعات لاتخاذ تاج إيطاليا ظل ، حتى قدوم الأباطرة السكسون ، البقايا الوحيدة للنشاط السياسي في شبه الجزيرة . إذ أن برنجار صاحب افريا وسميه (برنجار) أمير فريولي ، ولامبرت أمير سپوليتو ، لم يستمر مجدهم إلا زمناً قصيراً ، ذلك أن اوتو الاول أخضع هذه الإمارات الناشئة ، وأعادها إلى مكانتها الأولى . غير أن قصتها لم تنته بما حدث من تتويجه . ففي سنة ١٠٢٧ اجتمعت سپوليتو وتوسكانيا في يد بونيفاسيو ، وهو من أشد أنصار الأباطرة الفرانكونيين ، وانقرضت أسرته بعد أربعة أجيال ، وما جمعته من ممتلكات ، جرفتها السياسة الإيطالية المضطربة ، وبفضل وصية الدوقة

ماتيلدا ، أصبحت مصدراً جديداً لما وقع بين البابوية والأمبراطورية من عداء . وعلى هذا النحو اجتمعت تورين وإيفريا ، حين تزوجت في سنة ١٠٦٠ اديلائيد صاحبة تورين من أدوتي صاحب سافوى . ويعتبر اتحادهما نقطة البداية للأسرة الوحيدة التي نجت من التقلبات التي وقعت في التاريخ الإيطالي .

وهذا الموضوع الطريف يتطلب كتابا مستقلا إذا أمعنا في استقصائه وتتبعه، فنكتفي بما شرحناه من الأمور التي يخبئها المستقبل لمملكة لومبارديا . وكل هذه التطورات ،وما أعقبها من الثورات ،ليست إلا النتائج الحتمية لما أجراه شارل من تنظيمات . فمتى صار إقليم من الأقاليم اقطاعا وراثيا ، لم يكن أمريقية الأقاليم إلا مسألة وقت . يصح أن نلقى اللوم على ابن الأمبراطور وأحفاده ، غير أنه ينبغى أن نتذكر أنه عهد إليهم بنظام فاسد .

الحدود على بوهيميا :

وننتقل إلى شرح تسوية الطرف الألماني .

في الجنوب الشرقي ، تحقق ذلك نهائيا سنة ٨٠٣ . ففى أثناء صيف تلك السنة ، الذى أمضاه شارل فى ريجنسبرج فى الصيد فى غابة بوهيميا ، أقام الطرف الشرقى ، وأجاز للآفار الذين يقيمون خارجه،أن يحكمهم زعماؤهم الوطنيون،بشرط أن يعتنقوا المسيحية ، وأن يعترفوا بسيادته ، ولم تسمع عن الآفار شيئاً بعد سنة ٨٢٦ ، إذ امتصتهم جموع المهاجرين من الصقالبة . ولم يكن ثمت ما يخيف الإمبراطورية من الصقالبة . على أن ألمانيا لم تواجه مغيرا متبربرا ، جاء من وادى الدانوب الأدنى ، إلا فى مستهل القرن العاشر . أما الأميران اللذان توليا إدارة الطرف الشرقى ، فإن أحدهما قام بملاحظة البوهيميين والمورافيين ، واتخذ الآخر مقره فى الوادى ،حيث تقع الآن برسبرج وفينا . وفى جنوب الطرف وخارج حدوده، نزل الكارنتانيون Carentanians فى استيريا وكارنيولا ، وكارنثيا . ويعتبر

أمير فريولى مسئولا بصفة عامة عن هدوئهم والتزامهم السكينة، على أن يكون لهم من قبلهم كونت وأسقف . وظل الطرف الشرق محتفظاً بكيانه حتى سنة ٨٢٦ : حين تم توحيد الإمارتين فى يد دوق واحد . وعلى الرغم من أن الدوقية استولى عليها الجريون ، ثم أوتو الكبير ، فإنها ظلت محتفظة بشخصيتها، مستقلة فى كل ما تعرضت له من تغيير فى حكامها . وأضحت فى الوقت المناسب ، بعد أن اتخذت اسم أوستريا نواة ممتلكات أسرة هبسبرج .

أما مشكلة بوهيميا فلم تتم تسويتها إلا بصورة دون تبلغ نهايتها المرجوة . ذلك أن الإمبراطور أرسل حملتين ضد التشيكيين ، غير أنهما لم تحرزا نتيجة حاسمة . وفى سنة ٨٠٥ ، دخلت بوهيميا ثلاثة جيوش من ثلاث جهات مختلفة ، فالجيش القادم من سكسونيا عبر نهر الألب ، وسار مخترقاً ايرتزجيبرج ، وجاء الثانى من باقاريا ، بعد أن تتبع وادى نهر المولداو ، وقدم شارل الصغير على رأس الجيش الثالث ، من فرانكونيا حتى بلغ منابع نهر ايجر ، فالتقى فى هذا الموضع بالجيشين الآخرين . وظلت الجيوش الثلاثة أربعين يوماً ، تخرب الأراضى المزروعة على جانبى نهر الألب ، والتمس بعض التشيكيين لهم مأوى فى المعسكرات الحصينة فى فيزهراد Wysehrad وغيرها ، التى لم يستطع المغير أن يخرجهم منها ، بينما لجأ آخرون إلى الغابات ، وأصابوا النجاح فى قتالهم ، الذى اعتمدوا فيه على نظام الكمائن والمباغتة ، ولم تلبث أن نفدت مؤونة الفرنجة ، فارتدوا إلى بلادهم . وفى السنة التالية ، جرى إرسال البرجنديين والألمانى والباقاريين لمواصلة القتال ، غير أنهم عادوا دون أن تحل بهم ، على حد الرواية ، كارثة خطيرة ، ودون أن يحرزوا نجاحاً يذكر . فتخلى شارل عن هذه الخطط الهجومية ، وترك أمرها للمستقبل ، وأقام فى غرب فيشتلجيبرج Fishtelgibirge حكومة الطرف البوهيمى ، وعهد بها إلى الصنجيل أودولف ، الذى أكسبه انتصاره السابق على البريتون ، شهرة تختلف فى نوعها عما كان متوقعا ممن اتخذ لقب « مينالكاس »[1] Menalcas . والراجح

(١) مينالكاس ، اسم راع مشهور فى شعر الرعاة عند فرجيل — وأطلق شارلمان هذا اللقب على أودولف — انظر (Hodgkin : Italy and Her Invaders, vol. VIII, p. 137.)

أن ما اتخذه أودولف من طرائق فعالة،أمدت النفوذ الفرنجي،إلى ما وراء الجبال، لأن الرواية البوهيمية تتحدث عن جزية سنوية قدرها ٥٠٠ قطعة من الفضة ، و١٢٠ رأسا من الماشية ، تقرر دفعها كل سنة فى آخن . ولا زال اسم شارل فى اللغة التشيكية ، إنما يقصد به حتى اليوم « الملك » . وورد ذكر بوهيميا فى وصية لويس التقى (٨٠٧م) باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية[١] .

ونستخلص من أدلتنا القليلة ، أن ما تعرضت له بوهيميا من قبل شارل وأخلافه ،من الهجوم بلغ من الشدة والاستمرار ، ما يزيد على ما تعرضت له البلاد الشرقية . ومع ذلك لم يجد التيوتون ما يدعو إلى الهجرة فى هذا الاتجاه . وما أحرزه الإمبراطور من الفتوح المتقدمة، يصح اعتبارها أنها جاوزت الكفاية . فسكان ألمانيا كانوا أقلية ، ومن الحماقة أن يستولى على بلاد جديدة ، بينما تبقى بسكسونيا وفرانكونيا وسوابيا ، من الأراضى الخالية من السكان ، ما يجزى المزارع ويغنيه . ولذا جرى التخلى عن أرض الآفار عقب الاستيلاء عليها . ولم يكن منتظرا من حكام أطراف الألب وأخلافهم ، زمن بيت أوتو ، أن يمدوا سلطان الإمبراطور جهه الشرق إلى أبعد مما بلغه . إذ يكفى الاحتفاظ بما تم امتلاكه فعلا ، و إنزال العقاب من حين إلى آخر بالمتبربرين المجاورين لألمانيا . على أن هذا الاعتدال لم يطرح جانبا إلا فى حالة بوهيميا .واشتهر وادى مولداو بالخصوبة وسهولة المواصلات .ومنذ الأزمنة المتقدمة، صار يتردد إليه المغامرون من تجار الفرنجة، ومن هؤلاء تاجر اسمه سامو ، استطاع فعلا أن يرتفع إلى مكانة ملك قوى (٦٢٣ م) . وصار من يعود من التجار ، يروون ما أصابه سامو من الثروة ، ويذكرون ما عند هؤلاء السكان من نواحى الضعف ، فأضحى من الطبيعى أن يحمل القدر من التشيكى رعية للفرنجى ، ومنذ البداية وضع الفرنجى خططه دون خوف أو تردد .

(١) انظر W. W. Tomek : Geschichte Böhmens. Prage, 1875. p.16.

الصقالبة والتيوتون :

على أن الأمبراطور كان أقل حرصاً على هذا الفتح من أخلافه ، والذين حذوا حذوه . وعلى الرغم من أهمية حملات شارل الصغير وأودولف الصنجيل ، فإنها تتضاءل إذا جرت مقارنتها بالحملات التي قادها لويس الجرماني . وفي بداية القرن التاسع لم تكن العداوات العنصرية إلا في مهدها ، ولا نستطيع أن ندرك ، إلا بعد سنوات عديدة ، بوادر الكراهية الشديدة ضد « العنصر السكربه » ، عبيد الأقوام التيوتونية ، الذين ليسوا إلا كالثيران يستهويها التبن ، وكالحمير لا تنطاق إلا بالضرب . ولم يكن الصقلبي أيضاً يعتبر خطراً سياسياً زمن شارل . فالمعروف أن جماعات من التشيكيين ، هامت على وجهها حتى بلغت وادي الماين واستقرت به ، غير أن الأمبراطورية المورافية والتحالف الصقلبي لم تكن معروفة. والواقع أن شارل كان يرمي إلى الاستيلاء على بوهيميا ، وإلى أن يوهن قومية السكان ، غير أنه وجد في المبشر ما يفيده ، أكثر من الجيوش ، فدبر اجراء ادماج سلمي تدريجي . ففي سنة ٨١٤ قام القسس من الجرمان والإيطاليين بالتبشير فعلا في الجهات الواقعة وراء غابة بوهيميا ، تحت رعاية الكنيسة والأمبراطورية . وفي مورافيا والبلاد المجاورة ، أضحى الحزب الجرماني من القوة ما جعل كيرلس ومثوديوس « رسولي الصقالبة » يجدان أنه من الخير ، على الرغم من أنهما من يونان بيزنطة ، أن يعترفا بسيادة البابا ، وأن يدخلا في نطاق النظام الكنسي الجرماني . على أن التيوتون لم يفيدوا من هذه الأسلحة في فترة متأخرة. ذلك أن موجير وسواتو بلك ، أخضعا لنفوذهما بوهيميا وسيليزيا وبلاد الصورب ، وغاليسيا الشرقية . وعلى الرغم مما تعرضت له هذه الجهات من هجوم شديد من قبل جيوش لويس الجرماني ودبلوماسيته ، فإن قوتها ظلت قائمة ، ولم ينل منها لويس شيئا ، وهددت بأن تقيم سداً عظيم الأهمية ضد كل توسع جديد من قبل العناصر التيوتونية . وعلى

الرغم من أن إغارة المجريين زعزعت أسس ما أقامه شارل الكبير من بناء سياسى ، فإنها حالت ، على الأقل ، دون الخطر الصقلبى . وتمزقت مملكة سواتوابلك ، وانضم جانب منها إلى بلاد المجر ، وانضم جانب آخر إلى الدولة الناشئة بولندا ، وما تبقى أصبح دوقية بوهيميا . وهذه تولى حكمها، على أنها إقطاع ، من قبل الأمبراطورية ، أسرة ذات ميول جرمانية ، وكنيسة غلب عليها العنصر الجرمانى . والواقع أنه حدث فى الموقف بالشرق، تغيير أساسى، بين سنتى ٨٠٠، ١٠٠٠، وتغيرت تبعاً لذلك سياسية الأمبراطورية .

أما أمر بوهيميا ، فإن ما ابتدعه شارل الكبير من أفكار، ظل متمسكا بها حتى الوقت الذى ولد نفوذ لوكسمبرج انفجاراً للعاطفة القومية عند التشيكيين ، ونزع بوهيميا من علاقتها الشديدة المتانة بألمانيا .

طرف نهر الإلب :

أما الأراضى الواقعة بين نهر الإلب ونهر الأودر ، فليس لدينا ما نقوله عنها إلا قدراً قليلا . إذ أن شارل كشف هذه الجهات وتركها لمن يسكنها من قبائل انتثرت فى أنحائها . وأهم هذه القبائل وأشهرها الصتوربيون والولتزيون والأبوتريت . ومن هذه القبائل ما اشتهرت بنزعتها للقتال ، واشتدت فى تمسكها بالوثنية ، غير أنه لم يكن منها ماتبلغ من العدد ، مايكفى لإثارة القلق والاضطراب الخطير . على أنه أفزعها مايحدث من إغارات من حين إلى آخر ، فقامت بدفع الجزية للأمبراطور . فالابوتريت الذين يعتبرون أقوى هذه القبائل ، تشجعوا ليبسطوا سيطرتهم على جيرانهم ، وليستعمروا تلك الأجزاء الواقعة من سكسونيا وراء نهر الإلب ، التى صارت قفلاء بعد أن حدث فى سنة ٨٠٤ من الشدة والصرامة ما حدث فى طرد سكانها . ولحماية أطراف الأمبراطورية شيد الأمبراطور عما اتخذ من تسخير الفرنجة ، وإقامة حاميات عسكرية من الفرنجة ، سلسلة من

المعاقل امتدت من مجدبرج إلى فورسهايم فى أعالى وادى الماين . وعلى امتداد هذا الحد ، قدم الصقالبة ، دون أن يصادفوا ما يمنع حركتهم ، لمبادلة العنبر والسلع النادرة مقابل ما لدى تجار الفرنجة من سلع . غير أن تجار الفرنجة تقرر منعهم من عبوره . أما حظر المتاجرة غير المشروعة فى الأسلحة ، فكان بالغ الشدة . ولذا اتخذ التيوتونى فى شمال ألمانيا خطة الدفاع ، أما جموع القبائل النازلة جهة الشرق ، فتولى إخضاعها مستقبلا ، النبلاء السكسون ، ومدن الهنسا ، وفرسان التيوتون ، وأساقفة كاتدرائية مجدبرج ، وتم الزحف إلى الأودر زمن أوتو الأول ، لا زمن شارل .

غير أن ظهر وقتذاك على هذا الجانب ، عدو أشد خطورة من الصقالبة . فمن شبه جزيرة دانمرقة ، لاحظ النورثمن ، فى قلق شديد ، تحركات الفرنجة فى طرف الإلب . إذ أن قوة معادية حلت مكان حلفائهم القدماء ، السكسون ، وهذه القوة من الراجح أن يغريها الانتقام لما حدث من القرصنة البحرية ، بما تقوم به براً من هجوم عنيف .

على أن مخاوفهم لم يكن لها فيما يبدو أى سبب ، إذ يكفى أن الأمبراطور أقام بساحل فريزيا ونوستريا أسطولا بلغ من كثرة عدد سفنه ، ما يكفى لرد المغيرين . ولم يكن ، حتى هذه اللحظة ، يخطر على باله أن يوجه حملة إلى ما وراء نهر الإيدر . فما زال الوقت بعيداً ، حتى تلتزم دانمرقة بدفع جزية للامبراطورية الرومانية المقدسة . غير أنه منذ اللحظة التى أقام فيها شارل جالياته من الأبوتريت فى ترانسالبنجيا ، أخذ الملك جودفرد يظهر دلائل القلق (سنة ٨٠٤) . وفى سنة ٨٠٨ هاجم جودفرد جيرانه الجدد ، بفضل مساعدة منافسيهم من الويلتز . واتبع حملته بما شيده جنوب نهر الأيدر ، من سور ضخم من الطين يمتد من البحر إلى البحر ، وليس له إلا باب واحد بلغ من الاتساع ما يكفى لأن تجتازه العربات والخيول ، ولم يكن شىء من هذا القبيل معروفا فى ألمانيا منذ أيام الرومان . وإذ اشتهر

بأنه عميل دانمرق ، فإنه عاش زمناً طويلا بعد وفاة منشئه ، وظل خط الحدود الفاصل بين التيوتون والاسكنديناويين حتى سنة ٩٣٤[1] . ولحرص جودفرد على طلب الأمن والسلامة ، دمر فى نفس الوقت متجر روريك المجاور الذى ظل ، حتى ذلك الحين ، يعتبر ملتقى تجار الفرنجة مع تجار الدانمرقيين .

شارل والدانمرقيون :

وأظهر الأمبراطور الرغبة التامة فى المفاوضة مع النورمن . ففى سنة ٨٠٤ وافق على ما جرى من الاقتراحات لعقد اجتماع بين كونتاته وزعماء النورمن ، وقرر ذلك أيضا سنة ٨٠٩ ، على الرغم من أن الجانب الآخر لم يحضر الاجتماع الأول . لم يفكر شارل فى الحرب ، إلا إذا لم يستطع الوصول إلى تسوية سلمية عملية ، بل إنه فى هذه الحالة نفسها ، درج على أن ينزع إلى اتخاذ جانب الدفاع . أمر بأن تتولى سفن جديدة حراسة الساحل ، وأقام حاميات فى كل الموانى المهمة والمواضع التى يجرى النزول إليها من البحر . وأقام فى وسط نورد البنجيا ، المعقل المنيع فى اتزهوى Itzhee لمراقبة دانمرقة . وظهرت شجاعة جود فرد حين شهد ما اشتهر به عدوه من الصبر . والمعروف أن جود فرد ، فيما يروى ، كان يتباهى بأنه يود أن يسير إلى آخن ، ليشهد كيف يستطيع الأمبراطور أن يحمى قصره . وبناء على تحريضه ، هبط على فريزيا أسطول مؤلف من مائتى سفينة مشحونة بالقرصان ، فاستباحوا البلاد طولاً وعرضا ، ولم يرحلوا إلا بعد أن حصلوا على جزية من السكان . واستشاط الأمبراطور غيظا آخر الأمر ، فتوجه على رأس جيش ضخم إلى فردن ، وهذه كانت المرة الأخيرة التى خرج فيها للقتال . ولحسن الحظ أن هيئته الضعيفة لم تتعرض لامتحان المعركة . ففى فردن تلقى من الأنباء ما يشير إلى أن جودفرد لقى مصرعه على يد شاب معتوه . وأعقب سقوط الملك

---

(١) أنظر Giesebrecht I p. 234.

نشوب حرب أهلية ، من النوع المعروف لقراء التاريخ الاسكنديناوى . أما هيمنج ، وهو ابن أخته ووريثه ، فإنه عرض ، عن طيب خاطر ، الصلح على الفرنجة حتى لايتعرض للقلق والاضطراب ، عند معالجته أمر رعاياه المتمردين (سنة ٨١١) . غير أنه لم تمض إلا سنة واحدة ، حتى خر هيمنج أيضاً صريعاً فى المعركة . ومع ذلك فإن خليفتيه هارولد وريجنفريد جددا المعاهدة ، على أنهما تعرضا أيضاً لمتاعب فى داخل البلاد ، إذ نشبت الثورة فى أملاكهما بالنرويج . وقبل الأمبراطور الهدنة ولم يهاجم النورثمن . وكل ما فعله ، أنه ركز أساطيله الجديدة فى غنت و بولونيا . وتقرر استبدال الخدمة العسكرية البرية بالخدمة البحرية على سواحل البحر . وفى بولونيا تم إصلاح الميناء الرومانى القديم والمنارة ، غير أن ذلك لم يكن كافياً . إذ أنه لم يدرك تماماً أنه حان الوقت الذى ينبغى فيه على الفرنجة أن تصير لهم السيطرة على بحر الشمال مهما كلفهم ذلك من ثمن .

وروى راهب دير القديس جال خبرين متعلقين بالعلاقات مع القرصان ، ولقيا ذيوعاً كبيراً . ويروى الخبر الأول ، كيف أن الإمبراطور ، فى حملة من الحملات ، قبض على أطفال النورثمن ، وذبح منهم كل من كان أطول من سيفه . بينما يذكر الخبر الثانى فى عبارة أكثر اعتدالا ، أنه حدث ذات يوم أثناء جلوسه لتناول الطعام ، فى قلعته فى نار بون ، أن رأى خلال النافذة لمعان أشرعة بيضاء تسير بعيداً عند الأفق ، فقال « ليس هؤلاء تجاراً » . ثم نهض من مقعده ، وصار يرقبها حتى غابت عن نظره ، وأذرف الدموع قائلا « إنى لشديد الحزن والأسى ، لأنى أرى ماسوف يجلبه هؤلاء من الكوارث على ذريتى ورعاياهم » . وكلتا الروايتين يغلب عليهما ، فيما يبدو ، الصنعة والانتحال . إذ أن الأمبراطور لم يهاجم الدانيين مطلقاً فى ديارهم ، كما أن سفن الفيكنج الطويلة ، لم تجتاز فى زمنه بوغاز جبل طارق (عمودى هرقل) . ومن جاء بعده بأجيال من الأشخاص إنما قرأوا ترجمته فى ضوء تجاربهم الخاصة .

ولم يمكن بعدهم سوى أن يزعموا أن بطلهم تنبأ بأخطر ما حلّ بالأمبراطورية من كارثة قاصمة ، وحاول أن يمنع وقوعها .

تقسيم سنة ٨٠٦ :

والواقع أن المستقبل سبّب له كثيرا من القلق . غير أن ما كان يخشاه من خطر ، هو ما يحدث من منازعات بين أفراد الأسرة . ويبدو أنه فكر فى أنه لو جرى تجنب هذه المنازعات ، فإن ما يترل وراء الحدود من الأعداء ، وما فى داخل البلاد من إدارة داخلية ، سوف لا يكون لها إلا أهميه ثانوية . ذلك أن تجربته وتاريخ الميروفنجيين ، تعلم منهما خطورة تجزئه الإرث وتقسيمه . ومع ذلك فإنه نفّر من الامتناع عن توريث أبنائه الصغار . ولإرضاء مطالبهم ، ولكى يتجنب فى الوقت نفسه التفكك التام للإمبراطورية ، وضع سنة ٨٠٦ عقد التقسيم الذى أقره زعماء الفرنجه والبابا[1] . فجعل للويس اكيتانيا وغسقونيه وسبتمانيا وبروفانس وجنوب برجنديا ، وجعل لبين لومبارديا وإيطاليا وبافاريا وألمانيا وجنوب الدانوب ، وجعل لأخيهما الأكبر شارل جميع ما تبقى من الأملاك ، وهى : بلاد الفرنجة وشمال برجنديا وفريزيا وسكسونيا وهس وفرانكونيا .

ولما قام شارل بالتقسيم ، كان عليه أن يحل مشكلة بالغه الأهمية . وجريّاً على سنة أبيه ، أراد شارل أن يتم رسم خطوط الحدود على النحو الذى تسهل معه تغييرها ومحوها كلما تطلبت الأحوال ذلك . غير أن الوضع الذى ابتدأ به ، ازداد تعقيداً عن الوضع المعروف سنه ٧٦٨ . إذ أن ممالك صغيرة كانت قائمة

---

(١) لعل السر فى طلب موافقة البابا ، أن الوصية تضمنت وراثة لقب الإمبراطورية — ووردت الوثيقـة فى Boretius Capp. vol I. p. 126. (M.H.G.). Bouquet : Rerum Scriptores. v. 791.

فعلا ، ولم يكن ثمت من الأسباب ما يلزم عند وفاته تغيير حكامها ، وتعتبر كل منها عندئذ نواة للنصيب الذى اختص به حاكمها . وترتب على ذلك أن الممالك الأخلاوية بلغت من التجانس ما لم تبلغه مملكتا شارل وأخيه كارلومان . ولتجنب نمو العداوات القومية ، تقرر اتخاذ تدابير معينة ، أولها أن يكون الابن الأكبر من المكانة ما يظهر سيادته ، فكان لزاما أن يختص بأقاليم الراين وفرانكيا القديمة وما تشتمل عليه من المعاقل، وما ترتبط به من أسباب القوة . يضاف إلى ذلك أن مساحة هذه المملكة تكاد تضارع المملكتين الأخريين معاً . ومن الناحية القانونية لا يلتزم بيبن ولويس أن يقبلا زعامة أخيهما . غير أنه من الناحية الواقعية سوف يكونان من الضعف الشديد ، ما لا يجعلهما يغامران بمقاومته صراحة . أما الإجراء الثانى ، فإنه قضى بمنح جميع الإخوة الثلاث لقب بطريق ، و بمقتضاه يلتزمون أن يعملوا معاً فى وفاق ، لحماية البابوية والمصالح العامة للعالم المسيحى . والإجراء الثالث مستمد من تقسيم بيبن . إن أن كل مملكة من هذه الممالك الثلاث الصغيرة ، انضم إليها أقاليم تختلف عنها فى عناصرها ، فضلا عن التشكك فى ولائها . وتحتم أن يسهم الإخوة الثلاث ، بالتساوى ، فى المحافظة على الحدود . فاختص شارل الصغير بسكسونيا و بريتانى ، وتولى بيبن المحافظة على حد بافاريا وحد لسبوليتو ، أما لويس فقام بأمر الأقاليم الإسبانية ودوقية غسقونية . ولكيلا يُظن أن هذا الترتيب كان اعتباطا،عبر الإمبراطور عن قصده فى غاية الوضوح : إذ يتحتم على الاخوة أن يعيشوا فى سلام ووفاق ، وينبغى تسوية منازعاتهم عن طريق التحكيم ، وينبغى على كل منهم أن يساعد الآخرين ، عند الحاجة ، لرد هجمات الأعداء الأجانب . وعلى الرغم من أن مملكة الفرنجة تقرر تقسيمها ثلاثة أقسام ، فإنها احتفظت بوحدة سياسية ، وفى الوثيقة نص يوصى بتشجيع المصاهرة وعقود الزواج بين الرعايا فى الممالك المختلفة . وتوقع شارل حدوث نزاع على وراثة الحكم ، فوضع لذلك قاعدة محددة : إذا مات أحد الاخوة ، فإن لرعاياه من القوة والسلطة

ما يجعل لهم الاختيار فى أن يتولى حكمهم أحد أبنائه ؛ ومنع الأعمام من منازعة ابن الأخ فى لقبه . فإذا لم يكن ثمت وريث يقبله الناس ، انقسمت المملكة الشاغرة بين الأخوين العائشين بالتساوى . لم يترك الإمبراطور طريقة التقسيم دون تحديد . إذ عيّن الأنصبة التى سوف ينقسم إليها عند الضرورة كل من الممالك الثلاث ، وبذلك احتاط لكل ما سيحدث . ويبدو أنه توقع أن اثنتين من الأسرات القائمة جنباً إلى جنب ، سوف تتعرضان ، كما حدث فى حالات سابقة على التقسيم ، للزوال أو العزل فى زمن غير بعيد . والخلاصة أن نصوص التقسيم تعتبر مثالا طيباً للذكاء الفطرى ، الذى يناضل ضد التعصب الموروث والتقاليد السيئة ، ومن الغريب أنه لم تحدث محاولة لتدبير ما يتعلق بلقب الإمبراطور . فلو أنه أنعم به على الإبن الأكبر ، لزاد فى تقوية دعواه فى السيادة على الأبناء الصغار . على أن شارل ، فيما يبدو ، لم يعتقد ، حتى ذلك الحين ، بأن تكون الإمبراطورية وراثية أو أنها تنظيم دائم . فهو نفسه قد تم انتخابه ، وقد يجد الفرنجة والرومان خليفة له ، إذا أرادوا ذلك .

تفاصيل التقسيم :

من العسير أن نقرر أن هذه الإجراءات ثبت نجاحها . ومع ذلك فإنها لم تتعرض للاختبار . فلم تمض على هذا التقسيم خمس سنوات ، حتى مات شارل الصغير ولم يترك وريثاً ، ولم يلبث أن أعقبه بيبين ، فلم يبق لاقتسام الإرث إلا لويس وابن أخيه برنارد الصغير ملك إيطاليا ، ولم يكن برنارد إلا صبيا صغيرا ، وظلت شرعية مولده موضع نزاع ، ومن اليسير تجنب التقسيم بإغفاله والتغاضى عنه . ومع ذلك أبى الأمبراطور أن ينتهز الفرصة ، إنما عامل برنارد على أنه وريث شرعى لبيبين ، غير أنه اشترط أن تكون إيطاليا إقطاعاً مستمدا من التاج الفرنجى . ولقى هذا التنظيم الموافقة من الجميع . ولم يعد لدى شارل من الوقت ما يجعله يصدر

تشريعات تتعلق بإرثه . ومن صالح هدوء باله وتفكيره ، أنه لم يشأ أنه يتنبأ بما سوف يحدث مستقبلا ، وإلا لعلم أنه فى خلال سنوات قليلة ، سوف يتجرد ابن الأخ من نصيبه على يد عمه ، وأن العم سوف يقع بدوره فريسة ، لما بين أبنائه من أحقاد ومطامع غير طبيعية . وظل لويس حتى وفاة أبيه كمية مهملة . إذ أن حياته فى أكيتانيا بلغت من شدة الاضطراب ، أنه لم يتيسر الوقوف منها على شىء من طباعه وصفاته . فأصاب إدارتها فى الأمور المالية ، الإهمال الخطير ، وما بذله المبعوثون الإمبراطوريون من جهود ضخمة ، لم يكن القصد منها سوى إنقاذ مالية أكيتانيا من الارتباك الذى وقعت فيه . ومن جهة أخرى انقيت سياسة الحدود منه الإدراك السديد ، وما حدث من نتائج ، يرجع الفضل فيها إلى إرشاده وقيادته . وإذا حدث أن ظهر منه الضعف ، إزاء الإقطاع الأكيتانى ، فإنه يستطيع أن يعتز بما أجراه فى كنيسة أكيتانيا من إصلاح سليم ، بمساعدة القديس بنيدكت ، والقصيدة المعروفة باسم تتويج لويس Couronnement de Louis تؤكد لنا أن الأمير لقى فعلا الازدراء والاحتقار من فرسان الفرنجة ، كما غلب عليه الضعف وروح التخنث . وهذه القصيدة إنما جرت كتابتها فى ضوء الحوادث المتأخرة . إذ نعلم أن شارل أعلن فى أحوال عديدة ، ارتياحه لسلوك ابنه الثانى . وليس ثمت من الأسباب ما يجعله يعتقد بأن قلبه قد تغير ، حين جعل مصائر الفرنجة فى تلك اليد الضعيفة .

طباع لويس

يغلب على خلق لويس التعقيد . فما أصابه من حظ حسن أو سىء ، جعل له من الفضائل الطيبة ما يزيد على ما أحرزه أبوه . غير أنه ما خلفه لنا مداح المعجبين به من الأثر العام ، يكاد يدعونا إلى احتقاره . إذ صوروه لنا رجلا يعتبر حلية وزخرفا لإحدى قلايات الدير ، وأن ما يتصف به من فضائل ، لا تؤهله لأن يتولى منصب

القيادة . أما علمه ومعرفته ، فهو أبعد عمقاً مما كان عند شارل ، غير أنه بينما أظهر أبوه تهما شديداً فى الأمور العقلية ، حفز علماء بلاطه على العمل فى كل فرع من فروع الدراسات النافعة ، لم يكن لدى الابن إلا مايشتهر به الشارح من الأغراض المحدودة ، فاشتد تعلقه بتلك الفروع من المعرفة ،التى لا تنتظر منها فائدة أيا كان نوعها . فنعلم أن لويس كان يكره الشعراء القدماء لوثنيتهم . وهذه الصفة تكشف لنا عن تلميذ أمين من تلاميذ الكوين ، غير أن غرائز الكوين كانت أكثر سداداً وسلامة من عقله . فإن ارتوذكسيته الصارمة لم يخفف منها إلا ما اشتهر به من تذوق أصيل للآداب . ويعزو شارل سيطرته الشخصية على أعنف الارستقراطيات وأكثرها اضطرابا ، إلى ما اشتهر به من اللياقة وروح الفكاهة من جهة ، وإلى ما اشتهر به من هيبة بلغ من شدتها أن مجرد ما يصدر عنه ، من كلمة عنيفة أو نظرة شديدة ، تعتبر لموضوعها أشد رعباً وأكثرا خطراً من وميض البرق . أما لويس فلم يكن فى استطاعته أن يرضى الناس أو يخيفهم . فما اشتهر به من التواضع والهدوء ، والسلبية جعله أقل الناس شهرة فى بلاطه . فلم يسمع أحد عنه أنه يمزح ، ولم يعرف كيف يضحك . واشتهر الأب والابن بشدة التقوى . غير أن تقوى الأمبراطور الشيخ كانت مشوبة بالعسكرية ، تقوى رجل معروف بنفوذه وسلطانه ، كان يذهب إلى الكنيسة كما لو أنه ذاهب إلى ميدان عرض الجيش . أخذ يتعرف عما إذا كان المرتلون ينشدون فى نغمة واحدة ، أو أنهم يهتمون بارتداء ملابسهم ، أو أنهم يعرفون ألفاظ ما يصدر إليهم من أوامر ، وما يصدر من الأوامر اليومية . أما لويس فإنه منذ مستهل اللحن إلى منتهاه استغرق فى تأملاته الصالحة . ولم يكترث حين يهوى بوجهه على باب الكنيسة ، فيعترف أمام الله وأمام خدامه بأنه مذنب شقى . ويظهر على وجهه التأثر الشديد أثناء تأدية الصلاة ، فتجرى دموعه على خديه . وفى سائر الأمور تختلف طرق معالجتها عند الاثنين ، فالوالد يتحرى عن كل شىء ، ويقف على جميع التفاصيل ،

ويحل كل ما تنطوى عليه من عقد . ومهما كان له من أخطاء ، فإنه لم يكن من هذه الأخطاء التواكل والتردد . أما الابن فلم يثق فى حكمه ، ويكره تحمل المسئولية . لا يبلغ حظه من السعادة ، إلا إذا تخلى عن كل شيء لوزرائه ، وانصرف إلى مايعتبر من أعمال التلاميذ . على أن هذا التواكل يعتبر شديد الخطورة ، لأنه قلما جرت مراعاة الحكمة فى اختيار نوابه ،فبينما اجتاز وكلاء والده اختباراً طويلا صارما ،جعل لويس ،دون اكتراث ، كل ثقته فى رفقاء الساعة . وبينما اشتهر شارل بالصلابة فى سياسته وصداقاته ، لم يكن لويس إلا التغير والتقلب بذاته . وزاد الأمر سوءاً أن لويس لم يبذل شيئاً إلا عن ضعف ، بينما كان شارل متزنا فى جوده وسخائه . وما قدمه شارل من هدايا ، إنما كانت مكافأة لخدمات صادقة ، أما لويس فإنه قد يضحى بتاجه ليسترضى صديقاً تافهاً ، أو ليسترد ابن عاق .

ضعف لويس :

ربما كان الأمل فى توطيد مركز خليفته ، بل لعل منافسة بيزنطة ، هو الحافز الأساسى، الذى دعاه وقتذاك ، الأمبراطور الشيخ إلى أن يمعن فى اعتداله السابق ، وأن يعلن بأن اللقب الأمبراطورى وراثى . إذ حدث قبل سنة ٨١٢ من الأخطار ما جعل هذه الخطوة ، تقحم سلالته فى اعداء يفيض مع منافسيهم على اليوسفور . إذ أن ما يتحملونه من مسئوليات شرعية، بلغت من الكفاية ما يجعلهم لايحتاجون إلى أن يحميهم لقب يكتنفه الشك والغموض . غير أن معاهدة سنة ٨١٢ بددت هذه المخاوف . فحيث أن اليونانيين (البيزنطيين) اعترفوا بأن شارل مساو لأمبراطورهم (باسيليوس)،فسوف لا يكون لديهم ما يدعو للشكوى، إذا مارس نفس مالهم من الحق فى اختيار خلفه .وتلقت الأمبراطورية الثانية ،الاعتراف الشرعى من اولئك الذين اعتبروها أول الأمر نهباً أو اغتصابا . و إذ صارت الأمبراطورية قانونية أضحى لها الحق فى أن تبقى وتستمر .و إذ صارت الأمبراطورية قائمة مستمرة ، ينبغى

أن تهبط بنفس الوسيلة ، التي هبطت بها الدولة التي اتخذتها لنفسها مثالا . على أن روعة اللقب الملكي ، بلغت من عظم الشأن والقدر ، أنه ليس من اليسير التخلي عنه . وترتب على ذلك أن تم اجتماع الزعماء في آخن ، وطلب إليهم أن يدلوا برأيهم فيما يتعلق بمصير الأمبراطورية . فأدركوا ما ينبغي عليهم أن يجيبوا به . فاجنهارد ، وهو المتحدث باسمهم ، ركع على ركبتيه أمام عرش الأمبراطور واقترح اسم لويس . وعندئذ جرت دعوة لويس للقدوم من اكيتانيا ليتلقى القرار . وأعقب ذلك مباشرة (١١ سبتمبر سنة ٨١٣) تتويجه بكنيسة آخن . ولم يلتمس شارل موافقة البابا ليو أو مساعدته بسبب ما تمخض عن تجربته السابقة ، من الخوف من المزاعم البابوية . فالأب والابن كانا الممثلين الوحيدين في الاحتفال ، الذي روعي فيه ، بقدر الإمكان ، التجرد من المظاهر الكنسية .

وبعد أن تمت الطقوس الملائمة لهذه الحالة ، ألقى الأمبراطور الشيخ على ابنه حديثاً طويلا . وخلاصته ، كما أورده مؤرخ حياة لويس ما يأتي : ينبغي عليه أن يحب الله ويحمى الكنائس ، وأن يظهر العطف الدائم على كل أفراد البيت الملكي ، وأن يكن لرجال الدين من الاحترام مثلما يكنه لوالديه ، وأن يحب الناس كأبنائه . ولما أعلن لويس ، في شيء من الاتزان ، وعده بمراعاة هذه النصائح ، تناول ، بناء على أمر والده ، التاج من فوق المذبح ووضعه على رأسه . وشهد هذا الاحتفال الباهر كل النبلاء ورجال الدين . وما حدث من أن الأمبراطور المقبل لم يتلق لقبه من سيد ، سوى الله وحده ، يعتبر احتجاجا رمزيا . والواقع أن كل شيء جرى ، بألا تنطوى الصيغ أو العبارات إلا على منح لقب غير ملزم ، لا يضجر منه صاحبه ، أو حماية الرجل من الضعف ، الذي يترتب على اتخاذ قرار من القرارات . غير أنه ما كاد يمضي على هذه الميزة ثلاث سنوات ، حتى استعاض عنها لويس بالصداقة الزائلة للمقر المقدس[1] . وفي أثناء عهده التمس لم يخجل لويس من التصريح بأنه صنيعة أسقفيته .

---

(١) انكرت البابوية ما قام به شارل من تتويج لويس ، وفي سنة ٨١٦ قدم البابا =

الساعات الأخيرة فى حياة شارل :

وما كاد التتويج ينتهى ، حتى بادر لويس بالعودة إلى مملكته . على أن سلطاته ظلت مقيدة محدودة أثناء حياة أبيه ، غير أن ما بقى لأبيه من أجل ، كاد ينفذ ، فإن شارل درج على ما جرى عليه من الركوب للصيد ، وتصريف الأمور بعد رحيل ابنه . غير أن بناءه المتين ، أصابه الضعف بسبب ما كابده من الأعمال الكثيرة المرهقة مدة أربعين سنة . بلغ ما حدده داود فى مزاميره من أجل فى الحياة . زاد عمره عشرين سنة على عمر معظم كبار رجال السياسة فى العصور الوسطى . فلا عجب أن يتحدث عنه القصاص بأنه بلغ من العمر مائة أو مائتى سنة . فيعتبر متوشالح[1] بين رجال ذلك الزمن . أحس بأن رسالته تمت تأديتها ، وفكر فى الالتجاء إلى دير ، يرتاح فيه فترة قصيرة ، قبل أن يرتحل إلى مثواه الأخير . انتهى من وضع وصيته فعلا ، قبل سنتين من تتويجه ، ووردت نصوص هذه الوصية فى كتاب أجينهارد عن حياة شارل : أشار بأن ثلاثة أرباع ما فى خزانته من الذهب والفضة ، ينبغى أن يتم التحفظ عليه فوراً ، والاحتفاظ به لتوزيعه عند وفاته على الكنائس الكبيرة (المطرانيات) بالإمبراطورية ، والتى يبلغ عددها ٢١ مطرانية . أما الربع الباقى فيجرى استخدامه لتغطية النفقات السائرة . فإذا مات أو لجأ إلى الدير ، جرى تقسيمه أربعة أقسام : منها قسم يضاف إلى نصيب الكنائس ، وقسم يوزع على أبنائه ، والثالث يختص به العبيد والخدم بالقصر . أما القسم الرابع

= ستيفن الرابع فى الى ريمز ، وأوعز الى لويس بأن يقبل تتويجه للمرة الثانية . وحدث ذلك أيضا حين توج لويس ابنه الأكبر لوثير فى سنة ٨١٧ . وفى سنة ٨٢٣ أغرى البابا بسكال لوثير بالقدوم الى روما ، فتوجه بها من جديد .

(١) متوشالح Methuselah وهو الثامن من البطاركة الواردين فى سفر التكوين ، والذين يرجعون الى ما قبل الطوفان ، ويعتبر أطولهم عمرا ، إذ بلغ عمره ٩٦٩ سنة . انظر (سفر التكوين ٥ : ٢٨)

فيجرى إنفاقه فى الصدقات . ووهب الفقراء أيضاً ما يتحصل من بيع كتبه وأثاث داره . وجرت إضافة نص خاص ، يتعلق بثلاث موائد من الفضة ، ومائدة رابعة من الذهب ، تعتبر أثمن موجوده . فالمائدة الأولى ، نقش عليها خريطة القسطنطينية ، جعلها لكنيسة القديس بطرس بروما . والثانيـــة تحمل خريطة روما أهداها لكنيسة القديس ابوليناريس فى رافنا ، وهى المدينة التى ارتبطت بها بطرقته ارتباطا وثيقا . والثالثة تحمل رسم الكرة السماوية التى تمثل أفلاك النجوم ، والعالم كما يتصوره بطليموس ، وجرى عملها من ثلاثة أقراص اتصلت بعضها ببعض ، وتقرر سبكها ، مع اللوحة الذهبية التى لم يرد لها وصف معين . ويصير توزيع معدنها بالتساوى بين ورثته والفقراء[1] .

وأمضى الإمبراطور الأسابيع الأخيرة من سنة ٨١٣ فى آخن . وأنفق كل وقته فى الإحسان والصلاة وتصويب مخطوطاته عن الكتب المقدسة . وفى أواخر شهر يناير هاجمته حمى عنيفة لم تلبث أن تطورت إلى التهاب بالورى . لم يؤمن شارل مطلقاً بالأطباء ، وأبى أن يستمع إلى نصيحتهم . وآثر أن يجرى علاجه الذى يأنس إليه ، وهو الامتناع عن الأكل . غير أن هذا العلاج لم يؤد إلا إلى زيادة ضعفه . وفى اليوم السابع بلغت حالته من السوء واليأس أن جرت دعوة رئيس قسـه ليتلو المناولة الأخيرة . وفى اليوم التالى ، وقبل شروق الشمس ، فاضت روحه ، ويقال إن آخر كلمات لفظها ، وجرى سماعها منه : « مولاى ! اسلم روحى إلى يدك » . وفى نفس اليوم تم دفنه فى كنيسة العذراء . وربما نستخلص من هذه السرعة البعيدة عن اللباقة فى دفنه ما ظهر عليه ، مثل والده من أعراض التقيح . وتؤكد الرواية أنه تم إقامتـه على كرسى ملكى فى داخل

(١) نفذ لويس الوصية بأكملها ما عدا هذه الهبات الثلاث . فالخرائط واللوحة الذهبية ظلت بخزانة الأمبراطور فى سنة ٨٤٣ فأمر لوثير بصهرها .

ضريح صغير أو كنيسة صغيرة مستديرة البناء مشيدة من الحجارة ، وأن سيفه المعروف باسم المرح Joyeuse ، جرى وضعه غير مغمود على ركبتيه .

وفى سنة ١٠٠٠م دعا حب الاستطلاع أوتو الثالث إلى أن يتحقق من صدق هذه الأسطورة ، ويروى لنا من يزعم بأنه حضر فى هذه الحالة ، بأنهم وجدوا الجثمان ما زال متخذاً وضع الجالس ، وأن ملابسه لا تزال متماسكة ، وأن جسمه لم يتطرق إليه الفساد ، وأمسك الإمبراطور الميت بصولجان ، وحول رقبته التفت قلادة ذهبية ، وطالت أظافر أصابعه حتى اخترقت ما يلبسه من قفازات . ولم يظهر من علامات الفناء سوى أن أنفه زال واختفى . فأمر أوتو بأن يتم إصلاح هذا التشويه بالذهب ، وأن يجرى لف الجثمان فى رداء أبيض . وانتزع السلسلة وسنا من أسنان الإمبراطور، ليتخذها تذكاراً . على أن القصة لم تخل من المشاكل . فالواضح من طابع السرعة فى تشييع الجنازة أن الجثة لم يتم تحنيطها ، ولم يستطع هواة الآثار أن يكتشفوا فى آخن ، بقايا القبر الذى ورد ذكره فى الملاحم ، وعند مؤرخ أوتو الثالث . فلو أن مقبرة بهذه الشهرة كانت موجودة ، لما نجت من نهب النورثمن فى آخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر .

وأورد اجينهارد الكتابة ، التى جرى نقشها على قوس النصر القائم فوق المقبرة : « تحت هذا الغطاء يرقد جثمان شارل ، الأمبراطور العظيم المؤمن ، الذى وسع رقعة مملكة الفرنجة ، وحكم حكما مقرونا بالسعادة ، سبعاً وأربعين سنة . مات فى السن السبعين ، سنة ثمانمائة وأربع عشرة من تجسيد المسيح » . وطالت احزان رعيته وازدادت شدة ، فما زالت الأمبراطورية التى أقامها تحظى باحترام الناس ، وماجرى توقعه من تفككها ، ملأ قلوب الناس حزنا وغما .

الويل لك يا روما ، والويل لأهل روما ، فشارل العظيم المظفر جرى انتزاعه منكم ، الويل لك يا ايطاليا ، ولكل مدنك الجميلة . شهدت أرض الفرنجة متاعب كثيرة ،

غير أنها لم تعرف من الحزن والأسى مثلما عرفت حين وارت فى الثرى فى آخن شارل للعظيم البالغ » . هذه مرثية ألفها راهب مجهول .

على أن الانتقادات الوحيدة المخالفة لما جرى عليه رهط المادحين ، إنما جاءت من قِبَل الكنيسة ، التى أنفق فى خدمتها خيرة سنوات حياته . فالأسطورتان اللتان تتعلقان به ، واللتان أقرّتها الكنيسة لا تخلوان من الضعف . إذ تروى احداهما كيف أن الراهب وتين Wettin بعد أن انتقل فى الرؤيا إلى المطهر ، رأى شارل يقاسى التعذيب والنكال ، من دودة لا تموت أبداً ، ويندم على ما ارتكبه من الآثام أثناء حياته . أما الأسطورة الثانية ، وهى ترجع إلى أصل اسبانى ، فإنها أشارت إلى أنه حين تمّ القيام بوزن حسناته مع سيئاته ، كادت السيئات ترجح الحسنات ، لولا أن بادر القديس جيمس الكومبوستلاوى ، فألقى فى الكفة الأخرى ما شيده سيده من كنائس .

وظلت الكنيسة زمناً طويلا ترفض أن تقدّس الرجل الذى رفع السلطة الدنيوية على السلطة الروحية ؛ وظلت الكنيسة ، حتى قبل أن يحتج عليها بروتستانت الإصلاح الدينى، ويفحمونها بالرسالة الشرلمانية ، تنطوى على كراهية عميقة خفية ، ضد الأمبراطور القوى الذى أثار بما اشتهر به من عناد ، أعصاب أسرة الهوهنشتاوفن . على أن فردريك بربروسه هو الذى هيأ آخر الأمر لشرلمان ، مكاناً فى التقويم الكنسى ، إذ استجاب لرجائه البابا الأمبراطورى ، ولم يضع شارلمان فى الفردوس ، جنباً إلى جنب ، مع يوشع وجودفرى البولونى ، سوى شاعر من الجبليين (دانتى) فى القرن الرابع عشر . وماحدث من اعتباره ، حتى القرن الحالى ، أبا الكنيسة ، وورود اسمه فى سجلات القديسين ، إنما

يرجع إلى شدة محبة الناس له ، و إلى ما اتبعه من سياسة عميقة، لويس الحادى عشر الذى ظن أن فكرة المملكة الفرنسية لن تجد خير ما يخدمها، سوى ارتباطها باسم شارلمان ومكانته . وامتاز العلمانيون على الروحانيين بالتقدير والحكم السليم . فلم تجد الكنيسة الكاثوليكية، من كان أخلص منه فى خدمتها . أما كنيسة ألمانيا الوطنية ، فتعتبر من أعظم آثار عهده .

الفصل الثانى عشر

مصير الفرنجة . أسطورة شارلمان

وفى مقبرة شارل بآخن ، توارت امبراطورية الفرنجة ، بأغراضها وأهدافها . إذ حصل خمسة من أخلاف شارل على الاعتراف التام بولايتهم : لويس التقى (٨٤٠) ، ولوثير (٨٥٥ م) ولويس الثانى (٨٧٥ م) ، وشارل الأصلع (٨٧٧) ، وشارل السمين (٨٨٨) . على أن الأمبراطورية باعتبارها لفظاً أجوف ، ظلت قائمة حتى بعد أن عزل النبلاء الألمان شارل السمين ، واختاروا ارنولف صاحب كارنثيا ملكاً عليهم . والواقع أن السبعين سنة الأخيرة من تاريخها ، لم تكن إلا فترة احتضار طويلة الأمد ، ولقى سقوطها ترحيباً كبيراً ، عند الأمم التى خضعت لها . ولم يبق الميل للفكرة القديمة عن وحدة أوربا ، إلا فى دوائر البابوية ، وعند بعض الأسرات ، التى تزعم أنها تنحدر من صلب الأمبراطور شارلمان .

على أن أسباب التداعى ، كما سبق أن رأينا ، إنما نلتمسها أساساً فى التنظيم الداخلى للأمبراطورية . ذلك أن شارل الكبير لم يحكم إلا بمساعدة الكنيسة والنظام الإقطاعى الجاف . و إذ سيطر شارل على نظام الوظائف ، ووثق من نفوذه الشخصى فى المقر المقدس والمجامع الوطنية ، تساهل فيما حدث من ازدياد ثروة ونفوذ رجال الدين دون أدنى قيد . ولما اعتقد فى أن كل النبلاء ليسوا إلا أتباعه ، ولإمعانه فى الثقة ، بأن ما أقسموه من يمين الولاء ، سوف يلزمهم بأن يخلصوا لأخلافه ، لم يكترث بمراعاة ، أو على الأقل لم يحفل بأمر كبح جماحهم ، الإجراء الذى جعل كل الملاك الأحرار يلتفون حول لواء كونت أو أسقف . فالدوق والكونت ، ورئيس الدير والأسقف ، هم الذين استنفدوا قوة الأمبراطورية الكارولنجية .

غير أن أسباباً ثانوية خاصة عجلت بسقوطها . فأمة الفرنجة التى ظلت أجيالا عديدة ، تفرض سيطرتها على التيوتون واللاتين على السواء ، والتى أمدت شارل بالمحاربين ورجال الإدارة ورجال الكنيسة ، والتى فاقت غيرها فى التشبع بالفكرة الأمبراطورية ، دهمتها نهاية مفاجئة عنيفة ، بسبب ضعف لويس التقى ، وما اشتهرت به أسرته من مطامع همجية . فما ترتب على مجادلات ومناقشات الأحزاب المختلفة بالبلاط من الحيرة والارتباك ، وبفضل ما تكنه هذه الأحزاب من التعلق بالأمبراطورية ، على الرغم من عدم الاطمئنان إلى الطريق السليم الذى ينبغى أن تسلكه الأمبراطورية ، فإن صفوة هذا العنصر وجدوا أنفسهم مساقين تارة إلى هذا المعسكر ، وتارة إلى ذلك المعسكر . فالفرنجة يقاتلون الفرنجة على حيازة الأمبراطورية . ولم يعلموا أن الجائزة التى يتناحرون من أجلها ، قد تفتتت وصارت هباء . وبدأت هذه العداوات القاتلة سنة ٨١٧ حين أثار لويس التقى لأول مرة المشروع الخطير الذى يقضى بأن يشترك أبناؤه معه فى الحكم . وهو يشبه الملك لير (عند شكسبير) فى أنه نزع ملابسه قبل أن ينام ، ولقى نفس الجزاء الذى لقيه الملك لير . أما الفرنجة الذين رماهم بشرة الكراهية والخلاف ، فلم يعيشوا إلا بضع سنوات . إذ تحطمت قوتهم باعتبارهم أمة ، فى معركة فونتانيه (٨٤١) . ففى فونتانيه حارب أبناء لويس من أجل السيادة . وتعتبر أعنف معركة ذكرتها تواريخ الفرنجة ، إذ أن أربعين ألفاً ، من خيرة رجالهم وأشجعهم ، لقوا مصرعهم فى ساحة القتال . ويلاحظ ريجينو أسقف پروم ، أنه لم يعد ، منذ ذلك اليوم ، فى استطاعة أولئك الذين كانوا غزاة العالم ، أن يحشدوا من الرجال ما يكفى لحماية أطرافهم [١] .
وظهرت النتيجة فى معاهدة فردان (٨٤٣ م) ، إذ اعترفت بثلاث ممالك : ذلك أنه انفصل فعلا عن الأمبراطورية ، الجانب الأكبر من غاله ، والجانب الأكبر

---

(١) انظر Scriptores I. 568 (M. H. G.)

من جرمانيا ، وعلى الرغم من أنه كان يحكمها أمراء من أصل كارولنجى ، فإنهم لم يعبأوا بإظهار الولاء للأمبراطور لوثير . فأضحى الأمبراطور وفرنجته يقنعون بمملكة متوسطة حائرة . والواقع أن هذه المملكة لم تكن صغيرة المساحة ، إنما امتدت من الراين إلى أطراف الإمارات البابوية ، فشملت السهل اللومباردى ، ووادى نهر الرون والألزاس واللورين ، والإقليم الواقع بين نهرى الراين والميز ، والإقليم المعروف قديماً باسم فرنجة ، والذى يقع صوب الغرب ، والذى ابتدأ منه كلوفيس ، ما قام به من فتوح . غير أن معاهدة فردان ، لم تكن إلا إذلالا خطيراً لأمة شارل ولوارث لقبه وملكه .

ومع ذلك فسوف يأتى ما هو أسوأ من ذلك . إذ أصاب الشلل الفرنجة بسبب وقوع أمتين متعاديتين على أطرافهم . غير أن هاتين الأمتين لم تستطيعا أن تستوليا على المملكة المتوسطة . فلما مات لوثير سنة ٨٥٥ ، اقتسم هذه المملكة أبناؤه الثلاثة ، فأصبحت إيطاليا دولة مستقلة ، وسار وادى الرون على نهجها[1] . ولم يبق فى أيدى رجال آخن وتورناى ، الا لوثرنجيا ، ولم يعودوا سادة على الأمم الأخرى ، بل إنهم لم يعودوا سادة على أنفسهم . فما كاد ملكهم لوثير الثانى يتوفى سنة ٨٦٩ ، حتى بادر عماه لويس الألمانى وشارل الأصلع ، إلى اقتسام الفريسة . وكانا وقتذاك ملكين على ألمانيا وغالة على الترتيب ، أو على الفرنجة الشرقيين والفرنجة الغربيين على حد المصطلح الخادع فى ذلك العصر . وبمقتضى معاهدة مرزن المعقودة فى سنة ٨٧٠ ، تم اقتسام لوثرنجيا بينهما ، ويبدأ الحد الفاصل بينهما من هرستال على نهر الميز ، إلى متز على نهر الراين . فالفرنجة الذين يقيمون غرب ذلك الحد ، دخلوا فى نطاق فرنسا ، والذين يقيمون إلى الشرق منه ، أضحوا فى نطاق ألمانيا . ومنذئذ صار من الحتم أن

---

(١) أما أبناء لوثير الأول فكانوا : لودفيج الثانى ، الذى تقلد إيطاليا ، مع الاحتفاظ بلقب الأمبراطور ، ومنه اتخذت لوثرنجيا اسمها ، وشارل الذى اختص بمملكة بروفانس التى اشتملت على بروفانس كلها وإمارة ليون ، وأعالى برجنديا . وفى سنة ٨٤٦ انتزع أخوه منه برجنديا ، وفى سنة ٨٨٨ أضحت مستقلة بمقتضى معاهدة التقسيم .

ينشب النضال من أجل الإمبراطورية ، لا بين الأسترامى ورعاياه ، بل بين ملوك مختلف الإمارات القومية ، التى تكونت ، فى داخل نطاق الإمبراطورية . وانصب على مملكة إيطاليا ، مزاعم لويس الثانى (٨٥٥ — ٨٧٥) الإمبراطورية ، أما ادعاءات خليفته شارل الأصلع (٨٧٥ — ٨٧٧) ، فتركزت على مملكة الفرنجة الغربيين ، ولم يحتفظ شارل السمين بسيادته القصيرة الأمد (٨٨٢ — ٨٨٧) إلا بسبب أن الممالك الثلاث : فرنسا وألمانيا وإيطاليا اختارته الواحدة بعد الأخرى سيداً عليها وزعيماً لها . فصارت الإمبراطورية أقرب ما تكون إلى لقب شرف أجوف ، لا يخول لصاحبه الحق فى أن يكون له سلطان ، ولم يترتب عليه مسئوليات جديدة .

الشماليون فى أرض الفرنجة :

أما من جهة الفرنجة ، فإن الشماليين أتموا ما بدأ من نضال اقتتل فيه الأخوة. فحوالى سنة ٨٨٠ قدمت إلى فريزيا السفن الطويلة . ووجد الغزاة ، أن البلاد مجردة من الدفاع ، فأقاموا معسكرهم فى مايسترخت ، واندفعوا ، دون أن يعوقهم عائق ، على امتداد نهر الميز ونهر الراين حسبما هداهم تفكيرهم ، فتهاوت أمامهم كل ما للفرنجة من المدن والمعاقل الكبيرة — تونجر ، ولييج ، ويوليخ ، وكلن ، وترنيه ، ونيمجين ، وأتت النيران على كل ما لم يستطع الناهبون حمله . وتوج الشماليون قسوتهم بأن نهبوا آخن ، وأنزلوا خيولهم فى القبة التى شيدها شارل[1] . وما كاد الشماليون يرحلون ، حتى نهضت الكنائس والمدن من جديد . غير أن آخن لم تعد تظهر فى تاريخ أوربا على أنها عاصمة الفرنجة وحاضرة الإمبراطورية ، إذ أن يد

---

(١) انظر Regino Scriptores.

ثم انقاذ المخلفات بنقلها إلى ستابلو ، وما بقى منها اليوم فى آخن ، إنما كان من مخلفات شارل الخاصة .

الدانيين هوت فى قوة، على بقية شمال أوربا ، فاجتاحوا فعلا الحد الشمالى لألمانيا ، حيث أشعلوا الحرائق فى همبرج ، وطردوا أسقفها زمن لويس التقى . ولم تفد بسالة لويس الثالث، إلا فى أن يعقد لفرنسا هدنة مؤقتة، مقابل دفع مبلغ من المال، ولم يلبثوا أن انتزعوا بعد بضع سنوات نرمانديا من خليفته ، وهـذا آخر ما أحرزوه من انتصارات . فتمّ بذلك إذلال فرنسا وألمانيا . على أن الموطن القديم لشارل الكبير صار خرابا يبابا . أما من حيث المبانى والعمائر فإن الإقليم لم يكن، فيما يبدو، آهلا بالسكان منذ انسحاب الرومان . ولم يعد اسم الفرنجة معروفا فى البلاد الواقعة بين نهر الميز ونهر الراين . فلفظة فرانكونيا فى الشرق ، وجزيرة فرنسا فى الغرب ، ما زالتا تعملان على تذكيرنا بالأمة التى اختفت وزالت . وما بينهما من الأراضى لم تعد معروفة باسم أرض الفرنجة . على أن لوثرنجيا هى التسمية الوحيدة الباقية منذ ذلك الحين .

تأثير شارل :

على أن الفرنجة خلفوا وراءهم آثاراً من نوع آخر، لا تمت بصلة للألفاظ والبناء . إذ نستطيع من خلال طرق ملتوية ، أن نتتبع لأجيال عديدة ، تأثيرهم على التاريخ . فألمانيا حتى سنة ٩١١ تولى حكمها أسرة يجرى فى عروقها الدم الفرنجى الخالص . والدوقات السكسون الذين تلقوا صولجان الحكم حينما سقط من أيدى كنراد الفرانكونى، زعموا لأنفسهم صلة قرابة ، تربطهم بشارل الكبير من ناحية الأناث . وظل يحكم فى لاون حتى سنة ٩٨٧ ، أسرة كارولنجية أخرى ، تتحدث بلغة الفرنجة، وتتمسك بتقاليد مملكة الفرنجة، التى تستند إلى التفويض الإلهى فى الحكم . أما بيت كابيه الذى خلفهم ، فما زال يحرص على الإبقاء على ما يرتبط بالماضى من علاقة . إذ أن الامبراطورية التى ازدادت ازدهاراً ، مدة خمس عشرة سنة ، لم يجر نسيانها . لأنها وهبت أعظم دولتين فى أوربا العصور الوسطى تأييداً بالغ المثالية ، والاعتراف بنظرية سياسية قائمة برغم اضطرابها . وصار شارلمان

يعتبر قديسا مختارا ، عند الحكام على اختلافهم ، من أمثال بربروسه ولويس الحادى عشر .

والمهارة السياسية التى اشتهر بها أول امبراطور من الفرنجة ، لم يكن لها من الناحية العملية إلا تأثير ضئيل على أخلافه . فرسوماته ولجانه ، لم يترتب عليها إلا فقاقيع لم تنفذ من سطح قانون العرف إلى أغواره . وفى القرن التاسع ذاته جرى التخلى نهائيا عن نظام المبعوثين ، فأضحى عديم الفائدة ، وبفضل وسائل أخرى سوف يقوم هنرى الصياد ولويس الكبير ، بالحد من اضطراد النزعات الإقطاعية . أما سياسته بشأن الحدود ، فإنها انقلبت رأسا على عقب . ارتدت فرنسا عن طرف الابرو ، وتقدمت ألمانيا إلى ما وراء نهر الإلب ، ولم يكن لشارل من تأثير فعال إلا فى حالات قليلة : إذ أن لويس الألمانى اتخذ من تلاميذ مدرسة الكوين مستشارين له ، أمثال اوتجار ورابان ماور ، وهما من أشهر الكنسيين عند الفرنجة ، ومن أعظم من رجال السياسة عند الكارولنجيين ، وفى القرن التالى سوف يهتدى أوتو الكبير بأخيه الذى ما زال يحتفظ بمبادىء اوتجار ورابان ماور ، ومن برونو سوف يعلم سر الأمبراطور الكارولنجية — المثل الذى يقول بأن الطريق إلى السيادة العالمية لابد أن يجتاز روما ، وفى جربرت الماكر ، نستطيع أن نتتبع أثر أفكار هنكمار ، متلفة فى كنيسة ريمس . أما أحلام أوتو الثالث الخيالية فإنها تغذت على أفكار مضطربة عن شارل والكوين . على أنه فى بعض التفاصيل جرت محاكاتهما ، من حين إلى آخر . فالنقود والأوزان والمكاييل ولوائح التجارة بألمانيا العصور الوسطى تشهد بتأثير شارل على بعض مظاهر حياتها الاجتماعية ، غير أن ما اتخذه شارل فى كل ذلك من معايير وأساليب طموحة ، جرى إغفالها ، وأضحت كأنها لم تكن . إذ تطلبت القوميات الجديدة ، صورة جديدة من الحكم . فلا غرابة إذن فى أن يذكر شارل الإدارى ، بعد قرون بفضل ابتكاراته الكنسية ، وما أدخله من تجديد فى مذهب نيقية ، وماقام به من

الخط من المذهب الاثناسيوسى ، و بفضل ما اشتهر به من الاحتجاج القوى العنيف ، برغم خلوه من المنطق ، وعدم اكتماله ، على ما انطوت عليه المسيحية الشرقية من الأساطير الوضيعة . لم يكن شارل فرنسيا ، ولم يكن ألمانيا ، فإذا كان تعليمه جذبه إلى اللاتين ، فإن أصله ربطه بالتيوتون . و إذا جاز أن تكون آماله وميوله لاتينية ، فإن تقاليد الحياة السياسية والاجتماعية، التى يدين لها و يشتد تعلقه بها تعتبر من غيرشك تيوتونية . وهاتان الخاصتان اجتمعتا واختلطتا فى طبيعته المتعددة الجوانب . والواقع أن شارل لم ينتم إلى أمة من الأمم الحديثة التكوين ، بل انتمى إلى الأمة الوحيدة التى كانت زمنه جديرة باسمها، و إلى تلك الأمة التى انعدمت فيها الاختلافات المحلية والعنصرية، أو تجاوزت عنها ، وهى أمة الكنيسة الكاثوليكية. و باعتباره خادم الكنيسة أخضع شارل السكسون ، وحارب الدانيين ، وأذل الصقالبة . و باعتباره خادم الكنيسة قاد جيوشه أول الأمر عبر جبال البرانس . أما المدنية التى جاء بها فكانت أيضا كاثوليكية ، مثل ديانته ، وتعتبر تراث العالم الكاثوليكى بأجمعه .

شارل فى القصص :

« و بناء على توسل السيد القديس جاك ، وهب الله شرلمان هذه المنحة ، بأن جعل كل الناس يتحدثون عنه أبد الدهر » . هذه الكلمات قالها رجل فرنسى. وهذه النبوءة تحققت فى أناشيد التروبادور الفرنسيين . وأحب اسم اشتهر به شارل فى التاريخ ، إنما هو من الابتكارات الفرنسية، كان الأمبراطور معروفا عند معاصريه باسم كارولوس Karolus أو كارل . بينما يشتهر عند (الانجليز) دائما باسم شرلمان. واللفظة اسم مركب تركيبا مزجيا من اللاتينية والأصل التيوتونى . وعلى الرغم من أنه يصح الحط من قدره ، فهو مازال باقيا . وجاز للأمة الفرنسية قانونا أن تفخر بأن شرلمان ابن من ابنائها قد تبنته . فهو يدين للفرنسيين بأشياء كثيرة ، وهم مدينون له

بكثير من الأمور . إذ أنهم من جهة، أحاطوه بسلسلة من القصص ، ومن جهة أخرى أخذوا عنه من الأفكار السياسية كل ما كان منها شديدا ، بالغ الخيال والتصور — تمجيد المقر المقدس ، والاهتمام بالمعاقل الشرقية للعالم المسيحى ، الحماس الصليبي — والتى لم نر منها فى حياته إلا آثارا واضحة[1] .

أما ألمانيا فلديها أيضا جانب من الأساطير عن شارل ، غير أن ما دخل منها فى الأساطير الشعبية كان قليلا وجافا . إذ كان شارل صورة باهتة الآلهة الفالهالا ، اتخذ مقره جبل أودين[2] . والمسافر الذى تأخر عن ركبه ، سمعه يركب عربة ثور ، وسط قصف العواصف أو فى المجرة وسط السماء . ولا بد أن نرجع إلى الشعر الفرنسى ، كيما نتعرف إلى قصص رولان وتيربن ومارسيلا وجانيلون والرحلة إلى بيت المقدس ، والاثنى عشر نبيلا ، والحروب مع المسلمين بكل جهات أوربا . على أن الحقيقة ربما كانت غريبة ، على أولئك الذين يظنون أن ألمانيا ، وليست فرنسا ، هى التى تدين بوجودها إلى شارل . على أن ذلك لم يكن شديد الغرابة ، لو تذكرنا أن أول ما ظهر شارل عند الجرمان ، ظهر على أنه محارب شديد القسوة مجرداً من الشفقة ، ودمّر ما يعتزّون به من الانفرادية . ولم يلبث أن نسى الباقارى والسكسونى ، والثورنجى والسكسونى ، السلام الذى وهبه لهم فى سنواته الأخيرة ؛ وأهم ما تذكروه هو الفترة التى صار ينقضّ فيها على أطراف بلادهم ، يقمع ثورتهم ، وينتزع منهم شبانهم ، ليقاتلوا فى حروب بعيدة ، ويعتبر عندئذ ، من ناحية أخرى ، منقذا وحاميا ، إذ درأ عنها عدوا قديماً يتمثل فى المسلمين ، وعدواً حديثاً يتمثل فى الدانيين . على

---

(١) أنظر Gautier (Léon): Bibliographie des Chansons des Gestes, Paris 1897,
Faral (Edmond) : La chanson de Roland. Paris 1932,
Bedier (J.) La Chanson de Roland-Paris. 1927
Paris (Gaston). Histoire poetique de charlemagne Paris 1866.

(٢) ورد فى قصة Gudensberg in Hesse أن شارل أقام بهذا الجبل منتظرا الوقت الذى يظهر فيه من جديد . هذه الأسطورة ترددت أيضا ، وارتبطت باسم فردريك بربروسه .

أن البلاد استمتعت بهدوء نسبي، على الرغم من حروبه المستمرة التي لم تنقطع ؛ أما تلك الحروب ، فبرغم كثرة تكاليفها ونفقاتها ، فإنها نشبت من أجل مصالح غاله ، ونبتت من أفكار لم تتردد غاله في قبولها .

على أن أصول أسطورة شارلمان ، ظلت مطوية في زوايا الغموض . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها على وجه التحقيق ، أن أسسها ترجع إلى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن قصصا لا حصر له عن بيت ارنولف ، انتشر في أنحاء فرنسا . واتخذ الشعراء المنشدون الوقائع المثيرة ، مثل حصار بافيا ، والهزيمة في رونسيفال ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة ، اعتبرها السامعون لها، موجزا لما وقع من الحوادث . وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان مثل اريك دوق فريولي، وجيرولد دوق بافاريا، واجيهادر الصنجيل، ووليم دوق تولوز[1] . على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسج خيالهم أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، وجرت رواية الحكايات القديمة بأسماء جديدة . وبذلك تطورت التقاليد الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية . فالأناشيد القديمة المعروفة باسم أناشيد المآثر Chansons de Gestes، تتيح لنا الإلمام بتواريخ البلاط ، والوقوف على كتاب أجينهارد عن حياة شارل ، والتعرف إلى كتاب Limousin Astronomer عن حياة لويس التقي . غير أن ما استمدته هذه الأناشيد من معلومات، من هذه المصادر ، تعتبر شديدة الغموض وبالغة الشيوع ، إذ تناولها من التغيير ما جعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته . فتعاليم المتحمسين من رجال الكنيسة أمثال هنكمار ونوتكر ، كان لها تأثير قوي

(١) ألحق بالقصص عن جيرولد تهمة أثرا في رؤية الراهب وتين (Bouquet V. 399.) ، إذ رآه وتين بين الشهداء في الفردوس. أما اريك دوق فريولي ، فهو موضوع قصيدة لاتينية منسوبة إلى باولينوس الاكويلي . وفي القصص الرونسفالي، ما يشير إلى أعمال الدوق وليم . ويطلعنا اسطرونومس Astronomus (M. H. G. Scriptores II. 608) على شيوع القصص عن رونسيفال في القرن التاسع الميلادي .

على الأنشودة فى مطلعها ، لأن هؤلاء المؤلفين علقوا أهمية خلقية على طباع شارل، فجعلوه أنموذجا للفارس الكامل والسياسى الكامل .

الأساطير المتقدمة :

وما تعلق بشارل من آثار أدبية كان فى القرن التاسع معروفا ومستمرا . ذلك أن نوتكر نفسه ، الذى يعتبر كتابه مرآة القصص التى انتقلت من لسان إلى لسان ،فى الطبقات الدنيا من المجتمع،التزم فى كتابته شيئا من الحذر،ذلك أنه نفسه رأى الأمبراطور ،وتحدث كثيرا مع الرجال الذين خدموا فى حروب الامبراطور . ومع أنه ليس ثمة مايحرجه ، فإنه توافر لديه من وسائل المعرفة وصحتها ، مايجعلها لاتخرج عن جادة التاريخ . ثم طرأت بعده فترة ركود ،لأن العالم الأدبى فقد ماله من صلة بعصر الكارولنجيين، إذا انطمست أمامه كل المعالم ، ولم يعد أمامه من سبيل ، سوى التوسع فى الأساطير والخرافات . فمثلا لجأ بيندكت رئيس دير سوراكت إلى تحوير قصة اجينهارد، كيا يثبت أن شارل بنفسه زار بيت المقدس. فإذا حدث هذا فى مصنف تاريخ اشتهر بقدر من العلم والدراية والاتزان ، فيصح أن نتصور مايتسع له الإطار المرن،للأساطير الشفوية،من الحرية والتساهل.

ولدينا أمثلة فى اللغتين اللاتينية والفرنسية، ترجع إلى عصر متقدم ، من القصص المتماسك المفهوم . فمن القصص اللاتينى الفصول الخمسة الأولى من تاريخ تيربن Chorniele of Turpin ،وهذه الفصول جرت كتابتها قبل سنة ١١٠٠ من قصة قصيرة ، كاملة المعنى ، عن فتوح الامبراطور باسبانيا . اشتد اهتمام المؤلف بمشهد القديس جيمس فى كومبولاستيلا ، وجعل المؤلف هدفه أن يجعل صلة بين شارل وهذا المشهد . فهذه القصة ليست إلا من عمل كاتب متصل بمشهد من المشاهد أو مزارة من المزارات ،أو من عمل حاج متحمس. ورأينا فيما سبق كيف أنه جاء بالامبراطور إلى اسبانيا بناء على وساطة القديس جيمس ، و بعد أن قاده إلى تلك

الجهات، لم يكترث بشيء من أعماله سوى زيارة القسطنطينية. يروى خبر الاستيلاء على بامبلونا، وكيف هوت الأسوار من تلقاء نفسها أمام الفرنجة. ويذكر لنا أيضا أن شارل مكث ثلاث سنوات بأسبانيا، وحطم كل الأصنام ماعدا ما كان منها في الأندلس. ولم يظهر تربين رئيس الأساقفة في القصة، إلا على أنه مبشر يصحب الامبراطور، ويقوم بتنصير كل من يخضع له من المسلمين. ومن كان منهم شديد التمسك بدينه، تقرر إعدامه واسترقاقه. ويعود شارلمان آخر الأمر مجتازاً البرانس دون أن تحل بهم هزيمة من الهزائم. ومن الواضح أن المؤلف لا يعرف شيئا عن هزيمة رونسيفال أو لا يحفل بأن يدونها.

أنشودة رولان :

على أن أعظم انتصار إنما أحرزه الكاتب المجهول، الذى ألف أنشودة رولان عقب فتح انجلترا على يد النورمان، وقبل قيام الحملة الصليبية الأولى. ومن الواضح أن شاعراً نورمانيا، عاش في انجلترا، هو الذى ألفها لتلقى على مسامع الناس. وما زال يعتبر من كبار الأدباء الفنانين، وتشتهر أنشودته، بالإضافة إلى محاسنها الأخرى، بما لها من وحدة تمثيلية رائعة. ولا ينبغى أن تختلط بالأنشودة التى أنشدها تايلفر، حين قاد الهجوم النورمانى فى معركة هاستنجز، والتى ينبغى أن تحاكى فى أصولها قصص الفرنجة، جرت كتابتها فى مقاطع حادة، فى سطور قصيرة. وأنشودة رولان تشتمل على أربعة آلاف بيت، جرت كتابتها بأسلوب، يصلح للالقاء لا للغناء. وكان لدى المؤلف عدد من الأنشودات الصغيرة المعروفة، يشير إليها إشارة عابرة من حين إلى آخر. ومن الواضح أن أنشودته، إنما يقصد منها أن يملأ فجوة فى حلقة طويلة. والمعروف أن الأمبراطور كان فعلا فى اسبانيا قبل سبع سنوات من بداية القصة، واستولى الأمبراطور على كل اسبانيا من البحر إلى البحر، ماعدا حصن مارسيلا فى سرقسطه.

ومن المسلم به أن السامع يعلم ما حدث من حصار نُوبل وبيني وتوريلا ، واشبيلية ، وقرطبة ، وبالأحوال التى اغتال فيها غدرا المسلمون رسولى الفرنجة ، بازان وباسيل ، وممثلى الأمبراطور رولان وأوليفر وجفرى الانجوى ، وجارن اللوريني وغيرهم . ويعمد الشاعر إلى التذكير بأن كثيراً من الأعمال الحربية المجيدة ، قام بها أيضاً الفرسان فى بلاد عديدة ، واشتمل ماضى الأمبراطور ، ذى الشعر الناصع البياض على كل الملاحم المتعلقة بالفتوح :

يقول رولان مخاطباً سيفه دورندال :

وبفضلك أحرزت له انجو ، وبريتانى ، وبواتو ، وماين .

وكسبت نورمانديا أرض الأحرار ، وظفرت ببروفانس واكيتانيا .

واستوليت على لومبارديا ، ورومانا بأسرها ، وبافاريا والفلاندرز .

وخضعت بلغاريا وبولندا والقسطنطينية .

ووجد بغيته فى سكسونيا ، وحصلت له على اسكتلنده .

وأرض الغال وإيرلندا وانجلترا صارت كلها له ضياع ملكية (١) .

وعلى الرغم من أن هذه الأنشودة ترجع إلى زمن مبكر ، فإنها تبتعد كثيراً عن روح القرن التاسع ونغمته . ودخل فى هذه القصة التى بلاها الزمن ، خيوط جديدة تثير الاهتمام والانتباه . فما بها من أفكار رئيسية ، تعتبر من النوع الذى يناسب العصر ، الذى أخذت فيه الروح الصليبية تثير نفوس الناس . فخيانة جانيلون ، وهيام رولان بالفتاة أولده ، وتمجيد طبقة النبلاء الإقطاعيين ، التى تضم بين صفوفها سلالة الأسرات الفرنسية الكبيرة ، والحماس العاطق عند الجيش للمقترب بعيداً ، «من أجل فرنسا العذبة » ، كل ذلك من المبتكرات البارزة الظاهرة . وازداد نزوع

(١) انظر Chanson de Roland تر. Spencer & Way (١٨٩٠) .

الشعراء المتأخرين لتطوير هذه الأغراض الثانوية،على حساب الشخصية الأساسية. فالأمبراطور لم يكن إلا مشجبا يجرى عليه تعليق القصص الحديث .

العامل الصليبي فى الملحمة :

ومن هنا حدث فى فترة الحروب الصليبية ، أن دخلت الملحمة الأسطورية فى مرحلة جديدة من التطور . إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان،نهض من الموت،ليقود أول حملة صليبية . واستغل الشعراء هذه الناحية،فاخرجوا ترجمة جديدة لحياة أول امبراطور غربى يصورونه فى هيئة محارب صليبى ، ليست حياته إلا عبارة عن حروب متصلة ضد الكفار . وأحكموا ابتداع قصة رحلة ،قام بها إلى بيت المقدس، وما حدث بعدئذ من زيارته للقسطنطينية .وعمدوا إلى تشويه الأناشيد القديمة، التى أشارت إلى الحروب القومية ضد الفرنجة فى اكيتانيا و بريتانى وسكسونيا ولومبارديا . ففى كل مكان من هذه الأمكنة أقحموا اسم المسلمين . ففى انشودة Saisnes [1] . التى ألفها جان بوديل Jean Bodel ،ورد ذكر ويتيكند على أنه مسلم، وتعرض ديدير لنفس التغيير والتحول فى انشودتى Aspremont Chevalerie , Ogier [2] . إذ نجد امبراطورا مسلماً يقيم فى بريتانى . ومن الطبيعى أن أسبانيا لم يجر اغفالها ، إذ أن تربين المزعوم pseudo- Turpin [3] اتخذ اسطورة القديس جيمس الكومبوستيلانى، وأضاف إليها مايتصل بخبر رونسيفال ، وكذلك قصة الحرب الكبيرة بين شارل وارجولاندر،ملك الأفريقيين وهذه القصة بعد أن طرأ عليها

(١) انشودة السكسون ـ ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى ـ انظر Robert Bossuat Manuel Bibliographique; de la Litterautre Française du Moyen Age pp. 81-82

(٢) انشودة ترجع إلى القرن الثانى عشر — انظر المرجع السابق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣) هذه الاسطورة عنوانها Historia Laroli magni et Sotholandi ألفها باللاتينية فرنسى حوالى سنة ١١٣٠ ، عن النزاع بين الأسبان والفرنجة من جهة،وبين المسلمين فى اسبانيا من جهة أخرى . وعرفت ترجمتها إلى لغات عديدة . انظر Robert Bossuat Manuel Bibliograprique de la Litterature Françaises du Moyen Age-pp. 80-81.

ماطرأ من الصنعة ، جرى نشرها فى صورة رسالة موجهة من تيربن رئيس أساقفة ريمس ، إلى شماس كبير من اصدقائه . أما تايين رئيس الأساقفة المعروف بهدوئه ، والذى يرد ذكره أحيانا فى الوثائق الكارولنجية ، فإن الناس لم يدهشوا كثيرا لما قام به من أمور خارقة اكسبته الاسم الذى اشتهر به. غير أن فردريك بربروسه اتخذ التاريخ دليلا لتبرير ماقام به بابا مزوّر ، من تقديس شارل . و بلغ من ذيوع القصة وشهرتها ، أنه لم يكن ثمت من المؤلفات الأخرى ، سوى انشودة رولان ، مايفوقها فى التأثير على تطور الملاحم .

نماذج من الملاحم الإقطاعية

وفى القرن الثالث عشر ، ظهر عامل جديد فى القصص القديمة . ذلك أنه لما انتهت الحروب الصليبية ، تركز انتباه أوربا على ما وقع فى داخلها من نضال دائم بين الأقطاع والملكية . والمعروف من الناحية التاريخية أنه كان لشرلمان أتباع ، خرجوا على يمين الولاء الذى اقسموه . على أن أناشيد المآثر (Chansons de gests) ربما صورت تجارب سلالته التعساء فى لاؤون جعلت لشارل اتباعا عديدين، لم يرد لهم ذكر فى التاريخ . وجنحت عاطفة الشعراء إلى جانب العصاة ، ووفقا لذلك ، جرى الحط من أخلاق الأمبراطور ، حتى تبرز فضائل نبلائه . فجعلوه ملكا من طراز ملوك الميروفنجيين ، ملكا مثل شارل الساذج . وأبطال هذه الحلقة فى مرحلتها الثالثة هم جيرارد، صاحب روسيلون Gerard of Roussillon وراؤول صاحب كامبرى Raoul of Cambri ، ورينو صاحب مونتوبان Renaud of Montauban . ووليم صاحب مونترى Guillaume of Montreuil ، وإذا عمدنا إلى إحصاء القصائد المتعلقة بهم فإن هذا أمر يدعو إلى الملل ولافائدة منه ، لأن قوة الشعراء المنشدين وحيويتهم ، أخذت تتداعى كلما ابتعدوا عن الخطوط الأصلية لغرضهم ، وترتب على انتصار الفردية ، أن اختفت الأفكار العظيمة التى أثارت الملاحم القديمة .

فمقدمة الأنشودة Saisones للمؤلف جان بودل، تعتبر نموذجا طيبا لهذا التطور الجديد.
إذا استهلت بوصف هجوم قام به ويتيكند على كلونيا. لقد سمع بوفاة الاثنى عشر نبيلا فى رونسيسفال، فحشد المسلمين سويا، كما يطارد شارلمان صاحب اكس، ويطرده من فرنجة. وفى كلونيا يقتل الدوق ميلو، ويتم نقل هليسانت Halissant الجميلة إلى السجن بسكسونيا. ثم ينتقل المنظر إلى لاؤون، حيث يحتفل شرلمان بعيد العنصرة. فجلس إلى المائدة مع الامبراطور، أربعة عشر ملكا. وشهد المأدبة عدد كبير من رؤساء الأديرة والأساقفة. وقام البابا ميلو بنفسه بتأدية القداس أمام المجلس. واضطرب الاحتفال بما ورد من نبأ إغارة ويتيكند. وأعلن شارلمان الحرب، غير أن نبلاءه احتجوا، لأنهم حاربوا كثيرا؛ فليفرض على الهربويين Herupois ضريبة من أجل الحرب، إذ اشتد عطفه فعلا على هؤلاء القوم، وحان الآن الوقت الذى ينبغى أن يحملوا فيه جانبا من الأعباء. ولم يكن الهربويون إلا رجال نورماندىا وماين وبريتانى، فغضبوا لما حدث من انتقاص حقوقهم وامتيازاتهم. وهددوا بأنهم جميعا سوف يحشدون جموعهم، ويعلنون الحرب ضد الامبراطور. وسوف يركب منهم مائة ألف مقاتل، ويتقدمون لاشعال الحرائق فى مدنه وقلاعه وقراه. غير أنهم لم يلبثوا، فيما بعد، أن اتخذوا سبيل الحكمة والاعتدال. فتوجهوا إلى لاؤون فى نظام عسكرى، ورفعوا على أسنة رماحهم ماهو مقرر عليهم من الجزية. وسمع الأمبراطور هذا الخبر، وهو جالس بقصره المشيد من الرخام. وكان البابا يقرأ له حياة القديس مارتن، ويشرح له أثناء القراءة، اللغة اللاتينية. فنهض الأمبراطور، وركب لمقابلة باروناته المتمردين. غير أنه حينما رآهم، أصابه الخجل وحل به الندم، فأعلن أنه ندم على ماقام به من أعمال ظالمة، وسوف لايطلب منهم سوى الخدمة الشخصية ضد الوثنيين. فأعلنوا فى سرور، وعن طيب خاطر، موافقتهم على هذا الطلب، وركب الأمبراطور وباروناته معا، لمواصلة القتال فى سكسونيا.

والملحوظ أن الجزء الأول من هذه القصة المثيرة ، قام على رواية تاريخية صحيحة . ودأبت أغانى المآثر على اتخاذ هذه الوسيلة للتشويق . فمؤلفو القصائد البالغة الطول ، أدخلوا فى عملهم وصناعتهم ، كل ماصادفوه من مادة قديمة ، وجدوها ملائمة . ففى المؤلفات التى ترجع إلى عصر متأخر مثل Chevalerie Ogier[1] ، Gestes de Charlemagne devant Carcassonne et Narbonne.[2] نجد من حين إلى آخر النزوع إلى التفصيل والإسهاب ، ولعله جاء مباشرة من القرن التاسع . وتارة نتعرف إلى مؤلف معروف مثل اجينهـارد أو ليموزين استرونومر ، أو أعمال القديسين Acta Sanctorum . على أننا فى غالب الأحوال نتخبط فى فروض لاطائل تحتها . على أن جهودا بالغة الضخامة جرى بذلها لفصل الطبقات المختلفة للأسطورة ، فى مجموعات معينة من الحلقات . لاسيما تلك التى تتعلق بحروب ناربون ومولد شرلمان . غير أنه من العسير أن نقول أن هذه الأبحاث أضافت إلى محصولنا التاريخى شيئا جديدا . فالشعور المحلى ، والرغبة فى مجاملة الأسرات الكبيرة ، والحاجة إلى الابتكارات ، والعزوف عن التمييز بين الصحيح والمزيف ، كل هذه المؤثرات أصابها الخلط والاضطراب ، وازداد الخلط كلما حفلت القصائد بالمزاعم والمظاهر ، وكلما أصبحت بالغة التنظيم . إذ أن رامبرت البارسى

---

(١) قصيدة ألفها رمبرت البارسى Raimbert de Paris ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وتتألف من شطرين مختلفين تمام الاختلاف ، الأول معروف باسم Enfances Ogier ، والثانى مشهور باسم Chevalerie . وصدرت فى طبعات كثيرة ، أقدمها يرجع إلى سنة ١٨٤٢ ، بعنوان La Chevalerie Ogier de Danemarche ، نشرها فى مجلدين فى باريس Barrois . ومنها طبعة صدرت فى بروكسل ١٨٧٤ نشرها A. Scheller وعنها ظهرت دراسات كثيرة — انظر : Robert Bossuat :Manuel Bibliographique de la Litterature Française du Moyen Age- Melun .1951 pp. 60-62.

(٢) المشوهة ترجع إلى القرن الثالث عشر ، تشير إلى أنها من تأليف فيلومن Philomen كاتم سر شرلمان .

Raimbert of Paris ، وأدنيس Adenes [١] ، وجـــيرار الأميني [٢] Gerard of Amiens وجان بودل،وأمثالهم من المؤلفين المجهولين، لم يستطيعوا أن يجعلوا الأغراضهم المتداعية من عوامل التشويق والاهتمام،إلا بالمبالغة في التزويق.

وما كاد قصص شرلمان يبلغ اكتماله في فرنسا ، حتى جرى تقليده في بلاد أخرى . ففي سنة ١١٥٠ صدر في ألمانيا أغنية روتلاند Ruotlands Liet ، وهي صورة أخرى من أغنية رولان . وفي نفس ذلك القرن ، ظهر تاريخ منظوم لشرلمان يشتمل على قصة مستقلة لحربه في أسبانيا ، إذ لخص شاعر ألماني قصة شارل مينيه. على أن الملك هاكون الذى حطم الوثنية النرويجية ، اعتبر أناشيد المآثر عاملا من عوامل تمدين مواطنيه . ومن النرويج انتقلت الترجمات السكنديناوية إلى إيسلنده ، ونشأ عنها ما يعرف بسيرة شرلمان Karlamagnus . أما المؤرخون الأسبان فإنهم ، بسبب نقمتهم على غطرسة جيرانهم الفرنسيين ، عالجوا قصة رونسيفال وحروب اسبانيا،ليبرهنوا على ماحدث من المبالغة في تقدير الأمبراطور. فلم يكن على حد قولهم مخلصاً ومنقذا ، بل كان لصا وقاطع طريق . هاجم الفونسو الطاهر، بسبب طمعه وطموحه ، فرده على أعقابه برنارد دى كاربيو Bernard de Carpio [٣] . وسخر الإيطاليون بماورد في القصص من الحوادث الرئيسية والشخصيات الكبيرة ، فجعلوا شرلمان رجلا شيخا ، أصبح يخرف ولا يدرى مايقول ، ولم يكن

---

(١) مؤلف الشرودة عن طفولة شرلمان ، ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى. وعنوانها Berte au Grand Pied — انظر Robert Bossuat : op. cit pp 29-30.

(٢) مؤلف الملحمة المعروفة بأسم شرلمان ، حوالى سنة ١٣٠٠ — انظر المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) التاريخ المعروف بأسم Cronica General d'Espagna تم تأليفه بفضل رعاية الفونسو العاشر ملك قشتاله .

أورلاندو إلا فارسا مغامرا مغرورا . وتظهر طبيعــة معالجتهم للموضوع فى قصة Morgnte Maggiore التى ألفها Liugi Pulci ، وكذا فى Orlando Furioso التى وضعها Ariosto . والخلاصة أن شرلمان الأسطورى كان فرنسيا ، ولما انتقل إلى بلاد أخرى ، أصبح مجرد صورة باهتة أو ممسوخة .

ملحـــق

عن العلاقات بين شارلمان والمسلمين

أولا — المصادر والمراجع الأوربية :

لم يرد فى مؤلف واحد ما حدث من علاقات دبلوماسية زمن ببين وشارل الكبير ، بل جاءت متفرقة فى المصادر المختلفة ، وفى الفترة الواقعة بين سنة ٧٥١ م ، وسنة ٨١٣ م .

وعلى الرغم من قلة الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع ، فإن ما ترتب على قيام الدولتين العباسية والكارولنجية من نتائج ، كانت لها أهمية فى قيام هذه العلاقات . إذ دلت وثائق الفرنجة على أن فى الوضع السياسى بالعالم الإسلامى ما دعا العباسيين للتدخل فى أمور الغرب والاتصال بالغرب ، كما أن فى الأحوال السياسية فى العالم المسيحى ما جعل شارل يحرص على التماس صداقة الخلفاء العباسيين فى بغداد ، لا سيما هرون الرشيد .

وهذه الأوضاع السياسية تتمثل فيما يأتى :

أولا — العداء المستحكم بين بيت أرنولف (أسرة شرلمان) و بين الأمويين فى الأندلس .

ثانياً — النضال بين الأمويين والعباسيين فى الشرق ، ومحاولة العباسيين انتزاع الأندلس من يد الأمويين .

ثالثاً — الحروب المستمرة بين المسلمين فى الشرق و بين البيزنطيين .

رابعاً — العداوة بين البابوية والأمبراطورية البيزنطية .

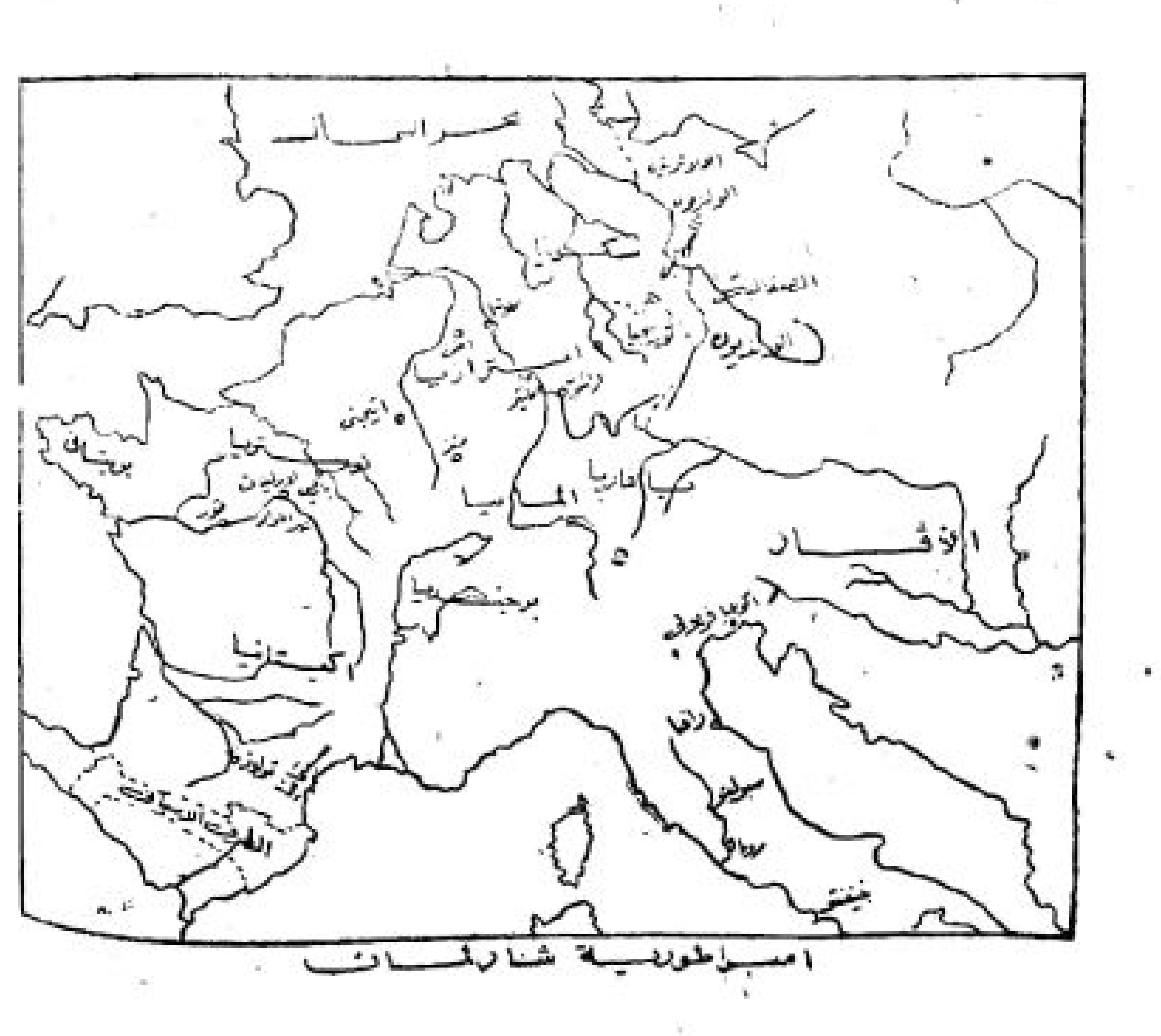
فالمعروف أن العباسيين بعد أن تولوا الخلافة ، صاروا يطاردون الأمويين ، وينزلون بهم من صنوف التشريد والقتل ما أدى إلى مصرع عدد كبير منهم ، ومن نجا منهم من القتل ، اتخذ طريق الهرب ، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الذى فر إلى أسبانيا .

وتأثرت اسبانيا بما وقع من الحوادث فى الشرق ، فانقسم المسلمون معسكرين: القيسيين واليمنيين ، واستطاع عبد الرحمن بن معاوية ، بفضل مساعدة اليمنيين أن يقيم له ملكا باسبانيا . على أنه حدث فى السنوات السابقة على قدوم عبد الرحمن، أن أعلن أحد القرشيين ، وهو عامر ، نفسه واليا على اسبانيا من قبل الخليفة العباسى المنصور(٧٥٣/٧٥٤م) . وفى تلك الأثناء تطلع والى برشلونه وجيروند إلى ببين الأول ليساعده ضد قوات اليمنيين ، فنشأت بذلك العلاقة بين ببين والمسلمين فى اسبانيا ، ووقع فى تلك الأثناء أيضا من الثورات فى شمال أفريقية ما دعا العباسيين إلى إرسال حملات انتهت بالاستيلاء على القيروان سنة ٧٦١[١] .

وفى شمال جبال البرانس ، حدث من الأحوال ما يماثل ذلك ، إذ لم تهدأ ثائرة جنوب غاله ، منذ أن نهض بأعباء الحكم حجاب البلاط ، فالكونت اود Eudo كونت أكيتانيا ، زوج ابنته من أحد الزعماء المسلمين ، ولعله قصد من وراء ذلك توطيد مركزه ضد شارل مارتل (سنة ٧٣٠ م) ، بينما تنازل موورونتوس Maurontus كونت مرسيليا ، لأمير ناربون (أربونه) ، عن آرل وأفينيون ومدن أخرى . وما وجهه شارل مارتل فى سنة ٧٣٩ من حملة حربية، لم يكن يقصد بها المسلمين ، بل وجهها ضد موورونتوس الذى لاذ بالهرب ، وازداد العداء بين بيت شارل ودوقات الجنوب ، بعد أن تم عزل شلدريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين ، وتولية الملك ببين ؛ وعندئذ وجد عبد الرحمن بن معاوية

---

(١) انظر .Buckler, F. W. : Harun l'Rashid and Charles the Great
Cambridge Mass. 1931 pp. 4 - 6.
اخبار مجموعة ص ٦٣ .



امبراطورية شارلمان

فى وايفر دوق اكيتانيا حليفاً قويا ، ضد خصمه الفرنجى . على أن سقوط ناربون فى يد الفرنجة سنة ٧٥٩ ، أدى إلى أن تصبح أطراف مملكة بيبن ملاصقة لأملاك المسلمين (والى برشلونه)[١] .

وما حدث فى السنوات الواقعة بين ٧٦٠ ، ٧٦٨ من قهر وايفر وتطور التحالف بين البابا والفرنجة لمقاومة الدولة البيزنطية ، يعتبر عاملا هاما فى تطور العلاقات بين الفرنجة والمسلمين . ذلك أن سياسة البابوية درجت وقتذاك على منع قيام التحالف بين بيبن ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس (كوبرنيموس) الأمبراطور البيزنطى[٢] .

على أنه وقع من الحوادث ما جعل بيبن يبعث بسفارة إلى بغداد ، وجدت ترحيباً من قبل الخليفة العباسى . إذ أن العلاء بن المغيث الذى أرسله المنصور سنة ٧٦٣ لاسترداد الأندلس من الأمويين ، حلت به هزيمة ساحقة أدت إلى فشل سياسة المنصور ، وربما دعاه ذلك الفشل إلى الترحيب بقدوم سفارة من قبل الفرنجة . يضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية ، يعتبر من العوامل التى جعلت بيبن يسعى لالتماس صداقة الخليفة العباسى ، عدو الأمبراطور البيزنطى . ففى سنة ٧٦٥ أرسل بيبن سفارة إلى بغداد ، مكثت بها ثلاث سنوات ، ثم عادت يصحبها رسل من قبل الخليفة يحملون الهدايا إلى بيبن . ولقى رسل الخليفة الترحيب والحفاوة من بيبن ، ثم عادوا بطريق البحر إلى بغداد ، وحملوا معهم هدايا بيبن . ولم يكن المقصود بسفارة بيبن سوى إقامة حلقة من المحالفات ضد الأمويين والأمبراطور البيزنطى .

---

(١) انظر Hodgkin : Italy and her Invaders. Oxford 1931. p.270

(٢) انظر Hodgkin : op. cit, p. 271, 298.

(٣) انظر Buckler : op. cit. p. 8.

وفى سنة ٧٦٨ مات بيبن ، فخلفه فى الحكم ولداه شارل وكارلومان . وبتولية هادريان الأول البابوية سنة ٧٧٢ بدأ التحالف بين شارل والبابوية وهو الذى ظل قائماً حتى وفاته . والسنوات الخمس التالية أمضاها شارل فى قتال السكسون واللومبارديين ، وانتهت هذه الحروب بعقد هدنة مع السكسون سنة ٧٧٧ . وفى تلك الأثناء تعرض مركز عبد الرحمن بن معاوية للخطر ، نتيجة ارتباط الحزب العباسى بالأندلس بثورة البربر فى وسط اسبانيا . وهذه الثورة أعدّها ودبّرها ثلاثة ولاة، والى برشلونة وهو سليمان بن يقظان العربى ، وعبد الرحمن بن حبيب الذى اشتهرت أسرته بمداوتها للأمويين ، وأبو الأسود بن يوسف الذى حبس أباه عبد الرحمن بن معاوية . وتضمنت خطتهم حشد قوات من المغاربة بأفريقية ، وقطع طريق الاتصال بين عبد الرحمن بن معاوية والبحر المتوسط ، ولتدعيم مركزهم فى الشمال ، توجه سليمان وابنه يوسف إلى شارل الكبير فى بادربورن سنة ٧٧٧ ، وعرضا عليه أن يتولى حمايتهم وحماية ممتلكاتهم [١] . مقابل الحصول على مواضع عديدة فى شمال أسبانيا [٢] .

(١) انظر ما سبق ص ٩٩ — ١٠٠ . هذه الرواية منقولة عن دوزى ، وخلاصتها أن سليمان بن يقظان الملقب بابن العربى من بنى كلب ، كان عاملا لعبد الرحمن بن معاوية على سرقسطه والثغر الأعلى ، إلى أن ساءت العلاقات بينهما، واضطرمت الحرب ، فلجأ إلى شارلمان ، سليمان وبصحبته عبد الرحمن بن حبيب الفهرى حفيد يوسف الفهرى، والى الأندلس المعروف، وانضم إليهما الحسين بن يحى المعروف بأبى الأسود ، فاستمدوه على بنى أمية فى الأندلس . والواقع أن دوزى خلط بين موضوعين : الأول محاولة العباسيين إثارة الفتن فى اسبانيا لمناوءة الأمويين ، والثانى يتعلق بالاتصال بشارلمان . ذلك أن المهدى الخليفة العباسى أرسل فى سنة ٧٧٣ (١٥٧ هـ) عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الملقب بالصقلى الذى عبر إلى الأندلس ، واستغل ما وقع من الوحشة بين سليمان بن يقظان وبين عبد الرحمن بن معاوية ، وحرضه على الخروج معه لقتال عبد الرحمن ، فرفض إجابة طلبه ولو أنه دس له من اغتاله سنة ٧٧٨ (١٦٢ هـ) . أما عبد الرحمن بن معاوية فإنه حارب سليمان وأقصاه عن سرقسطه، فارتحل عنها إلى بلاد الفرنجة ، وصحبه فى هذه الرحلة أبو ثور صاحب وشقة ، فاتصل بشارلمان فى بادربورن وحرضه على غزو الأندلس (انظر Levi - Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane T 1 pp. 87-88.

(٢) انظر Kleinclausz : Charlemagne p. 100.

وسار شارلمان بجيوشه فى ربيع سنة ٧٧٨ ، فعبر جبال البرانس عند رونسيفال ، وفى باميلونا أعلن البشكنس خضوعهم له ، ثم توجه إلى سرقسطة ، وكان ابن العربى قد أشار بأن سرقسطة سوف تفتح له أبوابها ، غير أن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، إذا اعتصم حسين بن يحيى بداخل المدينة ، وحاصر شارل المدينة مدة طويلة . ولما بلغ شارل نبأ اندلاع الثورة فى سكسونيا ، أمر برفع الحصار عن سرقسطة ، وانسحب بجيشه راجعاً إلى غاله ، فخرب أثناء سيره أسوار باميلونا ، وحمل معه ابن العربى أسيراً[١] . وفى معركة رونسيفال سنة ٧٧٨ ، تعرضت مؤخرة جيش شارلمان للهجوم من قبل المسلمين والبشكنس ، ولم يكن الغرض من الهجوم الحصول على الغنائم فحسب ، بل حرص المهاجمون على استخلاص ابن العربى من أسر شرلمان . ويشير ابن الأثير إلى أن ولدى ابن العربى ، وهما مطروح وعيشون ، اشتركا فى ذلك الهجوم ، واستطاعا أن يخلصا أباهما وأن ينقلاه إلى سرقسطه[٢] .

على أن سرقسطة لم تخضع للأمويين إلا بعد سنوات ، إذ أن ثعلبة بن عبيد ، قائد عبدالرحمن بن معاوية ، والذى وقع فى أسر ابن العربى ، فسلمه إلى شارلمان ، جرى الإفراج عنه بعد مفاوضات تمت بين أمير قرطبة وملك الفرنجة[٣] .

أما ابن العربى فلقى مصرعه على يد خليفة الحسين بن يحيى الأنصارى ، ففى صيف سنة ٧٨٢ (١٦٦ هـ) هاجم جيش أموى مدينة سرقسطة ، وقدم عبد الرحمن بن معاوية واشترك بقواته فى الهجوم على المدينة ، ووقع فى أسره الحسين بن يحيى ، فأمر بإعدامه[٤] .

---

(١) انظر Levi - Provençal : op. cit p. 88.

(٢) انظر Ibid p. 89.

ابن الأثير : الكامل — طبعة ليدن سنة ١٨٧١ ، جـ ٦ ص ٨ .

(٣) انظر Levi - Provençal : op. cit. vol. I. p. 89

(٤) انظر Ibid p. 90.

وما حدث لشارلمان من الهزيمة فى رونسيفال جعله يفكر فى إقامة إمارة مستقلة فى داخل مملكة الفرنجة ، وهى مملكة أكيتانيا ، وجعل مهمتها الأساسية ، ملاحظة نشاط المسلمين فى طرف البرانس . ونصب عليها ابنه لويس الذى اشتهر فيما بعد باسم لويس التقى [١] .

وفى الشرق أرغم الأمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس سنتى ٧٧١، ٧٧٢ على أن يعقد صلحاً مع الخليفة المنصور على أن يؤدى الجزية . غير أن الصلح لم يستمر طويلا ، لأنه حدث فى سنة ٧٧٥ ، أن زحفت الجيوش العباسية على الساحل الأيزورى واستمر القتال زمن الخليفة المهدى ، الذى وجه ابنه هرون على رأس حملة أوغلت فى آسيا الصغرى حتى بلغت البوسفور ، و بلغ من نجاح الحملة ووفرة الغنائم ، أن وافق الخليفة على عقد الصلح سنة ٧٨١ مع ايرين ، مقابل دفع الجزية [٢] .

وازداد مركز ايرين حرجا ، بسبب افتقارها إلى التأييد فى داخل البلاد ، وما تعرضت له من عداوة الغرب . وحاولت ايرين أن تعقد محالفة مع شارلمان ، يزيدها قوة ومتانة زواج ابنها قسطنطين السادس من روترود ابنة شارلمان . ولكى تزيل اعتراض البابا ، شرعت فى إعادة عبادة الصور المقدسة ، واختارت تاراسيوس بطريركا للقسطنطينية ، وطلبت إليه أن يدعو للانعقاد ، مجلساً عاماً ، للنظر فى مسألة عبادة الصور بأسرها [٣] .

أما وضع البابا هادريان الأول فى هذا الدور من الحوادث فله أهمية خاصة . فبينما كان هادريان يتظاهر بتشجيع ايرين فى جهودها لإعادة عبادة الصور ،

---

(١) انظر Levi-Provençal : op. cit. p 90

(٢) انظر Buckler : op. cit. p. 14.

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك — نشر المطبعة التجارية — ج ٦ ص ٣٧٩ .

(٣) انظر Buckler : op. cit. p. 15

Hodgkin : op. cit Vol. VII, pp. 13– 14.

ساوره من المخاوف ما ساور أسلافه من النتائج التي تترتب على التحالف بين بلاطي بيزنطه وآخن . ولذا عمد إلى إخطار شارل بما جرى من العلاقات بين ايرين والعباسيين ، وأشار بالتفصيل إلى ما يقوم به اليونان (البيزنطيون) من التآمر في إيطاليا ، لا سيما بين الأمراء المقطعين من اللومبارديين في الجنوب[1] .

وفي سنة ٧٨٧ أرسلت ايرين سفارة إلى أريغيس دوق بنيفنتو لتقلده خلعة البطرقية ، على أنه من أتباع قسطنطين السادس . وبادر هادريان بإخطار شارل بكل ما حدث . غير أن أريغيس مات قبل قدوم السفارة ، وخلفه في الحكم جريموالد في أغسطس سنة ٧٨٧ ، فأبى أن يزوج ابنته من قسطنطين السادس ؛ فأمر قسطنطين حاكم صقلية بالإغارة على بنيفنتو ونهبها ، وطلب جريموالد المساعدة من شارل ، فهاجم حاكم صقلية ، وهزم اليونانيين ، واستولى على استريا. غير أنه حدث من الأحوال ما دعاه إلى المسير إلى الشمال مرة أخرى ، فأمضى سبع سنوات في حروب الآفار والسكسون ، و بذلك أغفل أمور الشرق .

وشن الرشيد الحروب المستمرة على أملاك البيزنطيين براً وبحراً ، وكان أخطر هذه الحروب ، تلك التي وقعت سنة ٧٩٦ ، إذ قاد الرشيد الجيوش وأوغل في آسيا الصغرى حتى بلغ افسوس وأنقره ، وعقد صلحا مع ايرين لمدة أربع سنوات ، بشرط أن تدفع الجزية وذلك سنة ٧٩٦[3] . وفي نفس السنة أرسلت ايرين سفارة إلى شارل ، تعلن تنازلها عن دعاويها في بنيفنتو واستريا . والراجح أنها احتاجت إلى مساعدته ضد الأحزاب البيزنطية وضد هرون الرشيد . والمعروف أن شارل قبل استئناف العلاقات الودية مع ايرين[4] .

---

(١) انظر Hodgkin : op. cit. pp. 45 - 46.

(٢) انظر Buckler : op. cit. p. 18.

(٣) انظر Bury : History of the Eastern Roman Empire. p. 240.

(٤) انظر Hodghin : Italy and her Invaders. Vol VIII. p. 182.

تعرضت أملاك الفرنجة فى سبتمانيا للغارات المستمرة من قبل المسلمين . وفى أكتوبر سنة ٧٨٨ (١٧١ هـ) مات عبد الرحمن بن معاويه ، وخلفه فى الحكم ابنه هشام ، الذى اشتهر بالحماس الدينى ، فدعا الناس إلى الجهاد ، فهرعوا إليه من كل الجهات ، وتألف منهم ٧٩٣ (١٧٧ هـ) جيش قوى ، بقيادة عبد الملك ابن المغيث صار يغير على غاله ، وبلغ فى زحفه مدينة ناربون (أربونه) حيث أشعل النيران فى أرباضها ، وبعد أن وقع فى يده عدد كبير من الأسرى وقدر وفير من الغنائم ، توجه إلى كاركاسون (قرقشونه) ، وحاول وليم ، حاكم تولوز بمساعدة الكونتات المجاورين ، وقف زحف الجيش الإسلامى ، فوقعت معركة على شاطىء نهر أوربيه Orbieu ، غير أنه لقى هزيمة ساحقة ، فعاد المسلمون منتصرين ، وقد ملأوا أيديهم بالغنائم والأسرى[1] .

وعلى الرغم من الهزيمة التى حلت بالفرنجة ، فإن ما احتلوه من المواضع والأماكن فى الجهات الشرقية من جبال البرانس ، لم يتغير وضعها برغم ما أصابها من النهب والتخريب . على أن شرلمان اعتبر هذه الهزيمة أنزلت بهيبته من المهانة مالا يقل عما أنزلته هزيمة رونسيفال ، بل إن الحوليات الملكية أشارت فى حوادث سنة ٧٩٧ ، وسنة ٧٩٩ إلى أن شارل يعتبر مسئولا عن هذه الهزيمة ، نظراً لانصرافه عن جنوب غاله ، والتفاته إلى قتال الآفار ، واهتمام ابنه لويس بمهاجمة البنفنتيين .

وحرص شارل على إصلاح خطأه ، فأفاد من النزاع الذى وقع بعد وفاة هشام سنة ٧٩٦ بين ابنه الحكم الذى خلفه فى الحكم وعمه عبد الله ، وكذا

---

(١) انظر Kleinclauz : Charlemagne, p. 153.
Levi - Provençal : op. cit. Paris 1950, T. I. pp. 145 - 146.

(٢) انظر Kleinclauz : op. cit. p 154.

نزوع ولاة المدن الواقعة بشمال اسبانيا إلى الاستقلال ، وقرر أن يعود للاتصال بالمسلمين . فأضحت عاصمته آخن مركزاً لحركة دبلوماسية ناشطة ، ففي أوائل صيف سنة ٧٩٧ قدم إليها زيد الذي اغتصب الحكم في برشلونة ، وأعلن أنه جعل مدينته تحت حماية شارل . وفي نفس السنة جاء إلى آخن الفونسو ملك اشتوريس ، وأبدى استعداده لمساندة شارل في قتاله ضد المسلمين في اسبانيا ، وكذا قدم عبد الله عم الحكم ، واقترح على شارل إرسال حملة لمهاجمة أملاك الحكم في اسبانيا . كل هذه الوفود أعادت لشارل ذكرى ما حدث في سنة ٧٧٨ وما أصاب حملته من الهزيمة في سرقسطة ، فضلا عما وقع لوليم من الهزيمة في وقعة أوربية . فلم يقطع برأى ، غير أن لويس في اجتماع انعقد في تولوز سنة ٧٩٨ شهده ممثلو الأمراء المتمردين ، نجح في إقناع أبيه ، فتقرر توجيه حملة إلى الأراضي الإسلامية . وهذه الحملة التي لم يرد لها ذكر في المصادر الإسلامية جعلت لها أهدافا محددة ، وهي أن تحتل ، دون قتال ، الإقليم الجبلي الواقع بين جيروند وأعالي وادي نهر سيجر [١] . استولى لويس على برشلونة سنة ٨٠٣ ، فأضحت ثغرا من الثغور الأمامية للفرنجة ضد المسلمين [٢] .

يشير الأستاذ بكار إلى أن فكرة التحالف بين هرون الرشيد وشارل إنما ترجع إلى ما دبره البيزنطيون من مؤامرات في جنوب ايطاليا ، وإلى ما وقع من التخاصم بين أفراد البيت الأموي على الحكم ، والاستنجاد بشارل للتدخل في تسوية المشاكل الأسبانية ؛ فتألفت سفارة شارل إلى هرون الرشيد من سجسموند ولنتفرد ، ومن يهودي اسمه اسحاق يتولى الترجمة . ويبدو أن السفارة ارتحلت

---

(١) انظر Kleinclausz : op. cit. p. 154.
Levi - Provençal : op. cit. T. I. p. 179.

(٢) انظر Levi - Provençal : op. cit. T. I. p. 181.

حوالى سنة ٧٩٧ ، واستمرت ثلاث سنوات ، مات أثناءها سجسموند ولنتفرد ، والراجح أنهما ماتا بعد أن انجزا مهمتهما ، لأن هرون الرشيد أرسل مبعوثين رداً على سفارة شارل . ويزعم بكلر أن أغراض السفارة اشتملت على السعى لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الثلاثة الآتية : الأول تنظيم وضع شارلمان فى أسبانيا وغرب البحر المتوسط باعتباره مسئولا عن مصالح العباسيين فى هذه الجهات . الهدف الثانى — التحالف مع هرون الرشيد وما يترتب على ذلك من التعاون المشترك ضد أسبانيا والدولة البيزنطية . الهدف الثالث — تسهيل قدوم الحجاج المسيحيين إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين[1] . فما اتبعه شارل من سياسة هجومية فى أسبانيا أرضت الخليفة العباسى ، إذ استولى على برشلونة سنة ٨٠٣ وعلى وشقة وبامبلونا ، وأقام حكومة الطرف الأسباني ورد هجوم العرب على جزائر البليارسنة ٨٠٧ . وما حدث من هجوم إسلامى آخر إنما يعتبر تأييداً من قبل حكومة بغداد لنشاط شرلمان . ففى سنة ٨١٠ ، وسنة ٨١٢ هاجم المسلمون قورسيقة وسردينية وصقلية ، وأعقب هـــذا الهجوم النزول بإيطاليا ذاتها فى سنة ٨١٣[2] . وما أرسله نقفور إلى شارل فى سنة ٨٠٣ من مقترحات لتسوية الأمور بين الدولة البيزنطية ودولة الفرنجة ، إنما يرجع ، فيما يبدو ، إلى أن الحكومة البيزنطية ربما ساورها الشك فى قيام تحالف بين شارل وهرون الرشيد ، أو على الأقل حدث شىء من التفاهم بين آخن و بغداد . غير أن المفاوضات بين شارل ونقفور توقفت بسبب حرص شارل على أن ينال من الأمبراطور البيزنطى اعترافا به امبراطوراً فى الغرب ، وهذا الشرط لم يجد قبولا فى الشرق ؛ ولعل ما حدث من استمرار غارات المسلمين فى الشرق زمن هرون الرشيد وابنه المأمون

(١) انظر Buckler : op. cit. pp. 22 - 23.
(٢) انظر Buckler : op. cit. pp. 23 - 24.

على أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى، ارتبط بانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة[١] والغرب، وما حدث فى سنة ٨٠٦ من استيلاء شارل على البندقية ودالماشيا، أى فى الوقت الذى هاجم فيه هرون الرشيد أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى، ربما نجم عن تحالف بين شارل وهرون الرشيد، ولعل ما أصاب نقفور من خيبة أمل فى القضاء على التفاهم الودى بين شارل وهرون الرشيد، هو الذى أرغم آخر الأمر الأمبراطور البيزنطى ميخائيل على أن يعترف بشارل أمبراطوراً سنة ٨١١[٢].

أما الأمر الثالث الذى يتعلق بالحجاج المسيحيين، فالمعروف أن المسيحيين لم يتعرضوا لأية معاملة سيئة من قبل المسلمين. وأن عدداً كبيراً من الموظفين المسيحيين دخلوا فى خدمة الدولة العباسية. غير أن الحركة المناهضة لعبادة الصور فى بيزنطة، وظهور نحلة التبنى فى الغرب، أدت إلى أن ينفصل عن القسطنطينية، لا الغرب فحسب، بل الكراسى الرسولية الأربعة روما، الأسكندرية، أنطاكيه، بيت المقدس[٣]. وما أورده اجينهارد من الإشارة إلى قبول هرون الرشيد بأن يكون لشارل السلطة والإشراف على الأماكن[٤] المقدسة، ربما كان المقصود منها التخلص من النفوذ البيزنطى فى بيت المقدس[٥]. على أن ما حدث

(١) Buckler : op. cit. p. 27

(٢) أنظر Buckler: op. cit. p. 27.
Hodgkin : op. cit. Vol. VIII, p. 253.

(٣) Buckler : op. cit. p. 29.

(٤) Eginhard : Vie de Charlemagne ed. Halphen - Paris 1947. p. 47

(٥) أشارت الحوليات الملكية، وهى المصدر الوحيد المعاصر، فى شىء من التفصيل إلى ما قام به بطريرك بيت المقدس من إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارل (نوفمبر سنة ٨٠٠). وهذا الحادث لم يختلف عما جرى من إرسال البابا جريجورى الثالث، والبابا ليو الثالث، مفاتيح كنيسة القديس بطرس إلى شارل مارتل وإلى شارلمان، ولم يترتب على ذلك انتقال السلطة إلى هذين الملكين، والراجح أن اجينهارد أساء استخدام ما ورد فى الحوليات من نصوص أنظر (Eginhard : op. cit. p. 48,note.1.).

فى سنة ٨٠٨ يدلّ على كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين البيزنطيين ، إذ أرسل رهبان دير جبل الزيتون إلى البابا يخطرونه بأن رئيس دير القديس سابا (بين بيت لحم والبحر الميت) رماهم بالهرطقة ، وطاردهم من كهف كنيسة المهد فى بيت لحم ، ومن الواضح أنهم يأملون فى حماية ملك الفرنجة منافس نقفور وحليف هرون الرشيد ، من ظلم البيزنطيين المتغطرسين [١] .

(١) انظر : Hodgkin : op. cit. Vol. VIII, pp. 221 - 222.

ثانيا — المصادر والمراجع العربية

١ — ابن الأثير : الكامل . نشر تورنبرج Tornberg
جـ ٦ — ليدن سنة ١٨٧١

(ص ٤) — في سنة ١٥٦ هـ (٧٧٣ م) بينما كان عبد الرحمن الأموي يقاتل شقيا[1] ، جاءه كتاب من ابنه سليمان الذي استخلفه على قرطبة ، يخبره بخروج أهل أشبيلية مع عبد الغفار ، وحياة بن ملامس[2] عن طاعته ، وعصيانهم عليه ، واتفق من بها من اليمانية معهما .. فرجع عبد الرحمن ،وتوجه لمنازله أشبيلية ، وحمل مع قومه على اليمانية وأهل أشبيلية فهزمهم ، فلم تقم بعدها لليمانية قائمة وقطع عبد الرحمن الخطبة للمنصور . أما عبد الغفار وحياة بن ملامس ، فإنهما سلما من القتل . وبسبب هذه الوقعة وسوء ظن عبد الرحمن في العرب ، مال إلى اقتناء العبيد .

(ص ٧) . وفي سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ / ٧٧٤ م) أخرج سليمان بن يقظان الكلبي قارله ، ملك الإفرنج ، إلى بلاد المسلمين من الأندلس ، وسار معه إلى سرقسطة ، فسبقه إليها ، الحسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عبادة ، وامتنع بها . (ص ٨) فاتهم قارله ، ملك الأفرنج ، سليمان ، فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده . فلما أبعد من بلاد المسلمين ، واطمأن ،هجم عليه مطروح وعيشون ابنا سليمان ، في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ، ورجعا به إلى سرقسطة ، ودخلوا مع الحسين ، ووافقوا على خلاف عبد الرحمن[3] .

---

(١) من زعماء البربر — كان يدعو إلى أن يتولى الحكم في الأندلس أحد سلالة علي من فاطمة ، وانحاز إليه عدد كبير من البربر في الأندلس

انظر : Levi - Provençal : op. cit. T. I, pp. 112 - 113.

(٢) في ابن الأثير حيوة بن ملابس ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) هذا الخبر ورد في سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤) على حين جعلته المصادر الأوروبية سنة ٧٧٨

انظر Levi - Provençal : op. cit. T. I, pp. 125 - 126.

(ص ٣٦) . وفى سنة ١٦١ هـ وقيل سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ / ٧٧٨ م) ، عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، المعروف بالصقلبى ، و إنما سمى به لطوله وزرقته وشقرته ، من أفريقية إلى الأندلس محاربا لهم ، ليدخلوا فى الطاعة للدولة العباسية . وكان عبوره فى ساحل تدمير ، وكاتب سليمان بن يقظان بالدخول فى أمره ، ومحاربة عبد الرحمن الأموى ، والدعاء إلى طاعة المهدى . وكان سليمان ببرشلونه ، فلم يجبه ، فاغتاظ عليه ، وقصد بلاده فيمن معه من البربر ، فهزمه سليمان . فعاد الصقلبى إلى تدمير ، وسار عبد الرحمن الأموى نحوه فى العدد والعدة ، وأحرق السفن تضييقا على الصقلبى فى الهرب ، فقصد الصقلبى جبلا منيعا بناحية بلنسيه ، فبذل الأموى ألف دينار لمن أتاه برأسه ، فاغتاله رجل من البربر ، فقتله . كان ذلك سنة[1] ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) .

(ص ٤٢) . وفى سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ / ٧٨٠ م) ، أظهر عبد الرحمن الأموى ، صاحب الأندلس ، التجهز للخروج إلى الشام ، لإزالة الدولة العباسية ، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد الأنصارى . بسرقسطة ، فترك ما كان عزم عليه .

(ص ٤٣) — وفى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ / ٧٨١ م) سار عبد الرحمن الأموى إلى سرقسطة . وكان سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى قد اجتمعا على خلع طاعة عبد الرحمن ، وهما بها ، فقاتلهما ثعلبة بن عبيد الجذامى ، (قائد عبد الرحمن الأموى) ، قتالا شديداً . وفى بعض الأيام ، عاد الى مخيمه ، فاغتنم سليمان غرته ، فخرج إليه وقبض عليه ، وأخذه وتفرق عسكره . واستدعى سليمان قارله ملك الافرنج ، ووعده بتسليم البلد وثعلبة إليه . فلما وصل إليه ، لم يصح بيده غير ثعلبة ، فأخذه وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء . فأهمله

---

(١) انظر: Levi - Provençal : op. cit. T. I, p. 122.

عبد الرحمن مدّة ، ثم وضع من طلبه من الفرنج ، فأطلقوه . فلما كان هذه السنة ، سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، وفرق أولاده فى الجهات ، ليدفعوا كل مخالف ، ثم يجتمعون بسرقسطة ، فسبقهم عبد الرحمن إليها . وكان الحسين بن يحيى قد قتل سليمان بن يقظان[1] وانفرد بسرقسطة ، فوافاه عبد الرحمن على أثر ذلك ، فضيق على أهلها تضييقاً شديداً ، فرغب الحسين فى الصلح ، وأذعن للطاعة ، فأجابه عبد الرحمن وصالحه ، وأخذ ابنه سعيداً رهينة ورجع عنه . وغزا بلاد الفرنج ، فدوّخها ، ونهب وسبي ، و بلغ قلهرية ، وفتح مدينة فكيرة[2] ، وهدم قلاع تلك الناحية ، وسار إلى بلاد البشكنس ، ونزل على حصن مثمين الأقرع فافتتحه . ثم تقدم إلى ملدوثون بن أطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبلها ، وقاتلوهم فيها ، فملكوها عنوة وخربها ، ثم رجع إلى قرطبة .

(ص ٤٥) وفى سنة ١٦٥ هـ (٧٨١ م) غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة ، فنكث مع عبد الرحمن ، فسيّر إليه عبد الرحمن ، غالب بن ثمامة بن علقمة فى جند كثيف ، فاقتتلوا ، فأسر جماعة من أصحاب الحسين ، فيهم ابنه يحيى ، فسيرهم إلى الأمير عبد الرحمن ، فقتلهم . وأقام ثمامة بن علقمة على الحسين يحصره . ثم إن الأمير عبد الرحمن سار سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) إلى سرقسطة بنفسه ، فحصرها وضايقها ، ونصب عليها المجانيق ، ستة وثلاثين منجنيقا ، فملكها عنوة ؛ وقتل الحسين أقبح قتلة .

(ص ٥٢) وفى سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى بالاندلس . وكان من حديثه ، أنه كان فى سجن عبد الرحمن بقرطبة ، من حين هرب أبوه ، وقتل أخوه عبد الرحمن . وحبس

---

(١) انظر Levi-Provençal : op. cit, T. I. p. 126

(٢) يرى الأستاذ ليفى بروفنسال أن هاتين المدينتين تقابلان مدينتى Figueras و San Miguel de Culera.

أبو الأسود وتعامى فى الحبس ، و بقى دهرا طويلا حتى صح عند الأمير عبدالرحمن الأموى ذلك . وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه ، فاستطاع ابو الأسود أن يهرب ، ثم لحق بطليطلة فاجتمع له خلق كثير (ص ٥٣) . فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن الأموى ، فالتقيا على الوادى الأحمر بقسطلونة[1] ، واشتد القتال . ثم انهزم ابو الأسود ، وقتل من اصحابه أربعة آلاف سوى من تردّى فى النهر ، ثم عاد إلى قتال الأموى فى سنة ١٦٩ ﻫ غير أنه انهزم وقتل اكثر رجاله ، و بقى إلى سنة ١٧٠ ، فهلك بقرية من أعمال طليطلة .

(ص ٨٠) وفى سنة ١٧٢ ﻫ (٧٨٨ م) ، خرج بالأندلس سعيد بن الحسين الأنصارى بشاغنت من اقاليم طرطوشة فى شرق الأندلس ، وكان قد إلتجأ إليها حين قتل أبوه كما تقدم ، ودعا إلى اليمانية وتعصب لهم ، فاجتمع له خلق كثير ، وملك مدينة طرطوشة ، وأخرج عامله (ص ٨١) يوسف القيسى . فعارضه موسى بن فرتون ، وقام بدعوة هشام (بن عبد الرحمن الأموى) ، ووافقته مضر ، فاقتتلا فانهزم سعيد وقتل . وسار موسى إلى سرقسطة فلكها ، فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر فى جمع كثير ، فقاتله وقُتِل موسى . وخرج أيضا مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة ، وخرج معه جمع كثير ، فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقة ، وتغلب على تلك الناحية ، وقوى أمره ، وكان هشام مشغولا بمحاربة أخويه سليمان وعبدالله .

(ص ٨٣) — فى سنة ١٧٥ ﻫ (٨٩١ م) فرغ هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس من أخويه سليمان وعبد الله ، وأجلاهما عن الأندلس . فلما خلا سره

---

(١) وهى المعروفة فى الاسبانية باسم Cazlona حسبما ورد فى الترجمة الاسبانية لكتاب أخبار مجموعة ص ٢٥٠ .

منهما ، انتدب لمطروح بن سليمان بن يقظان ، فسير إليه جيشاً كثيفاً ، وجعل عليهم أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، فساروا إلى مطروح وهو بسرقسطة ، فحصروه بها . ثم إن مطروحا خرج فى بعض الأيام آخر النهار يتصيد فقتله صاحبان له ، وأخذا رأسه وأتيا به أبا عثمان ، فسار إلى سرقسطة فكاتبه أهلها بالطاعة فقبل منهم .

(ص ٨٤) . ثم إن أبا عثمان لما فرغ من مطروح ، أخذ الجيش ، وسار بهم إلى بلاد الفرنجة فقصد البه[1] والقلاع فلقيه العدو ، فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح الله عليه . وفى هذه السنة سير هشام أيضا يوسف بن بخت فى جيش إلى جليقية ، فلقى ملكهم وهو برمند[2] الكبير فاقتتلوا قتالا شديدا ، وانهزمت الجلالقة ، وقتل منهم عالم كثير .

(ص ٩٢) ، وفى سنة ١٧٧ هـ (٧٩٣م) سير هشام صاحب الأندلس ، جيشا كثيفا ، واستعمل عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أربونه وجرندة . فبدأ بجرندة . وكان بها حامية الفرنج ، فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها ، وأشرف على فتحها ، فرحل عنها إلى أربونة ، ففعل مثل ذلك ، وأوغل فى بلادهم ووطئ أرض شرطانية[3] ، فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهوراً ، يخرب الحصون ويحرق ويغنم ، قد أجفل العدو من بين يديه هاربا ، وأوغل فى بلادهم ، ورجع سالما معه من الغنائم ، مالا يعلمه إلا الله تعالى ، وهى من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس .

(ص ٩٩) فى سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) سير هشام صاحب الأندلس عسكرا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فغزا البه والقلاع ، فغنم وسلم . وسير أيضا جيشا ، مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد

---

(١) Alava ، اقليم شمال اسبانيا ، يقع خلف الضفة اليسرى لنهر الأبرو .
(انظر Levi - Provençal : op. cit. I. p. 142. note 1.)

(٢) هو المعروف بأسم Vermudo I. (Levi-Provençal : op. cit I, 143.)

(٣) وهى المعروفة باسم Cerdana الواردة فيما بعد

الجلالقة ، فخرب دار ملكهم اذفنش وكنائسه وغنم . فلما قفل المسلمون ضل الدليل بهم ، فنالهم مشقة شديدة ، ومات منهم بشر كثير ، ونفقت دوابهم ، وتلفت آلاتهم ، ثم سلموا وعادوا .

(ص ١٠٢) ، فى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) ، سير الحكم بن هشام ، (تولى الحكم فى هذه السنة) ، صاحب الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فدخل البلاد ، وبث السرايا ينهبون ، (ص ١٠٣) ويقتلون ويحرقون البلاد ، وسير سرية ، فجازوا خليجا من البحر ، كان الماء قد جزر عنه ، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ، ظنا منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم ، فجاءهم ما لم يكن فى حسابهم ، فغنم المسلمون جميع مالهم وأسروا الرجال ، وقتلوا منهم فأكثروا ، وسبوا الحريم وعادوا سالمين إلى عبد الكريم . وسير طائفة أخرى فخربوا كثيراً من بلاد فرنسيه ، وغنم أموال أهلها وأسروا الرجال . فأخبره بعض الأسرى أن جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسالك على طريقهم ، فجمع عبد الكريم عساكره ، وسار على تعبئة وجد السير . فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون ، فوضعوا السيف فيهم ، فانهزموا وغنم ما معهم ، وعاد سالما هو ومن معه .

(ص ١٠٨) ، وفى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبى الحجاج فى ناحية الثغر من بلاد الأندلس ، ودخل سرقسطة وملكها ، فقدم على بهلول فيها ، عبد الله بن عبد الرحمن الأموى عم صاحبها الحكم ، ويعرف بالبلنسى ، وكان متوجها إلى الفرنج .

(ص ١٨٢) ، وفى سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) ملك الفرنج مدينة تطيلة بالأندلس .

وسبب ذلك أن الحكم ، صاحب الأندلس ، استعمل على ثغور الأندلس ، قائدا كبيرا من أجناده ، اسمه عمروس بن يوسف ، فاستعمل ابنه يوسف على تطيله[1]. وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت من الأندلس ، اولو قوة وباس ، لأنهم خرجوا عن طاعته ، فالتحقوا بالمشركين ، فقوى أمرهم واشتدت شوكتهم ، وتقدموا إلى مدينة تطيله ، فحصروها وملكوها من المسلمين ، فأسروا أميرها يوسف وسجنوه بصخرة قيس . واستقر عمروس بن يوسف بمدينة سرقسطة ، وجمع العساكر وسيرها مع ابن عم له ، فالتقى المشركين ، وسار الجيش إلى صخرة قيس ، فحصروها وافتتحوها ، ولم يقدر المشركون على منعها منهم ، لما نالهم من الوهن بالهزيمة . ولما فتحها المسلمون ، خلصوا يوسف بن عمروس أمير الثغر ، وسيروه إلى أبيه . وعظم أمر عمروس عند المشركين وبعد صوته فيهم ، وأقام في الثغر أميراً عليه .

(ص ١٣٨) ، وفى سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م) ، تجهز لذريق (لويس) ملك الفرنج بالأندلس ، وجمع جموعه ، ليسير إلى مدينة طرطوشه ليحصرها ، فبلغ ذلك الحكم . فجمع العساكر وسيّرها مع ولده عبد الرحمن ، فاجتمعوا فى جيش عظيم ، وتبعهم كثير من المتطوعة ، فساروا فلقوا الفرنج فى أطراف بلادهم ، قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئا . فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، فانهزم الكفار ، وكثر فيهم القتل والأسر ، ونهبت أموالهم وأثقالهم ، وعاد المسلمون ظافرين غانمين .

(ص ٢٢٣ — ٢٢٤) وفى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥م) جهز الحكم أمير الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث ، إلى بلاد الفرنج بالأندلس ، فسار بالعساكر حتى دخل بأرضهم ، وتوسط بلادهم فخربها ونهبها ، وهدم عدة من حصونها . ووقع فى أسر المسلمين جماعة من كنودهم وملوكهم وقامصتهم .

(١) انظر Levi - Provençal : op. cit I p. 156.

٢ — أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله ، والحروب الواقعة بها بينهم

مدريد سنة ١٨٦٧

(ص ١٠٧) — ثم ثار الفاطمى بعد ذلك إلى أربع سنين ، وكان أسمه سفين ابن عبد الواحد المكناسى ، وكان أسم أمه فاطمة ، وأصله من لجدانية ، معلم كتاب ، فادعى أنه فاطمى ، فوثب على سالم أبى زعيل ، عامل ماردة ليلا ، فقتله ، وغلب على ناحية قورية ، وأفسد يمينا وشمالا ، فخرج إليه الأمير (عبد الرحمن الأموى) ، الغزاة التى تسمى غزاة الدوز ، فهرب إلى الغار ، فدوخ الأمير البلد ووطئه ، وأنزل بكل من شايعه ، أو دخل فى شىء من أمره ، النكال ، فهو يخرب ويحرق ، وينسف [١] ، حتى قدم عليه كتاب من قرطبة من عند بدر مولاه وكان يخلفه ، يذكر أن حياة بن ملامس ، ثار فى أشبيلية فى أهل حمص ، وكان حضرميا وثار معه عبد الغفار اليحصبى ، وكان مع الأمير فى العسكر من رجال أشبيلية ، ملهب الكلبى وابن الخشخاش وابنه . فلما قرأ الكتاب قفل وأغذ السير حتى نزل المسارة (ص ١٠٨) . فقبض على ثلاثين رجلا من أهل أشبيلية ، وأسرهم إلى الحبس . ثم مضى إلى القوم ، وكانوا قد أقبلوا حتى نزلوا بعيسر [٢] ، وخندقوا على أنفسهم ، فنازلهم الأمير ، فحاربهم أياما ، وكان معهم بربر الغرب ، فأمر بنى ميمون بمكاتبتهم ، وأن يعدهم بحسن رأى الأمير . ثم وضع الشراء فى المماليك واللحق ،

---

(١) انظر ما أورده ابن الأثير فى هذا الشأن . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ص ٤٣ طبعة ليدن سنة ١٨٧١)

(٢) فى الترجمة الأسبانية — ص ١٠٠ وردت بهذا الرسم Bembezar .

فثاب الناس إليه ، وسارعوا نحوه ، حتى صار منهم فى ديوانه جماعة ، فأمر بجريه . وأوصت البربر إلى بنى ميمون ، إذ ملّت الحصار والقتال ، أنا ستنهزم غداً بالناس ، إذا نشبت الحرب ، فليبق علينا . فلما كان الغد ، واستحرّت الحرب ، فعل ذلك البربر ، وجروا الهزيمة ، فلم يبق على أحد لا بربرى ولا عربى ، وأخذهم السيف ، فقتلوا قتلا ذريعا .

(ص ١١٠) ثم ثار على الأمير إلى سنة ، عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، الذى كان يقال له ، الصقلابى ، بتدمير . فكاتب سليمان الأعرابى الكلبى ، وكان ببرشلونه ، ودعاه إلى الدخول فى امره ، فكتب إليه الأعرابى ، إنى لا أدع عونك فامتعض الفهرى من جوابه ، إذ لم يجمع له ، فغزاه فهزمه الأعرابى ، فكّر الفهرى إلى تدمير ، فخرج إليه الأمير ،فدرس تدميرا ، فنزع إلى الفهرى رجل من البرانس من أهل أوريط ، فصار من أصحابه (ص ١١١) . وظهرت له منه نصيحة ، حتى صار من ثقاته واطمأن إليه ، فاغتاله البرنسى ، فقتله وأخذ خيله ، ونزع إلى الأمير .

(ص ١١٢) . ثم ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير ثعلبة بن عبيد (ص ١١٣) فى جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياما . ثم إن الأعرابى طلب الفرصة من العسكر ، فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب ، وقالو قد أمسك عن الحرب ، وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلا . ثم لم يشعر الناس ، حتى هجم على ثعلبة ، فأخذه فى المظلة ، فصار عنده أسيرا ، وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابى إلى قارلة . فلما صار عنده،طمع قارله فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده . وخرج الأمير (عبد الرحمن الأموى) ، غازيا إلى سرقسطة ، ومضى حتى حل بقرية

شنتبرية[١] ، فأخذ بها ناسا بلغت عدتهم ستة وثلاثين رجلا ، فردهم إلى قرطبة لحبسوق دار فى المدينة ثم مضى ، فقبل أن يبلغ الأمير سرقسطة ، (ص ١١٤) ، عدا حسين بن يحيى الأنصارى على الأعرابى يوم جمعة ، فقتله فى المسجد الجامع ، وصار الأمر لحسين وحده ، فنزل به الأمير . وكان عيشون بن سليمان الأعرابى قد هرب إلى أربونة ، فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة ، أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوما إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة ، فأقحم عيشون فرساله خلف وقتله ، ثم رجع إلى أصحابه ، فسمى ذلك الموضع إلى اليوم مخاضة عيشون . ثم استدعاه الأمير ، حتى صار فى عسكره ، وحارب سرقسطة معه . فلما ضاق أهل المدينة من الحصار ، طلب حسين الصلح ، وأعطى ابنه رهينة ، فقبل ذلك الأمير منه ، ورجع عنه ، وكان اسم ابنه ذلك سعيدا ، غـــير أنه لم يقم فى عسكر الأمير إلا يوما ، حتى أعمل الحيلة فهرب . ومضى الأمير فدوخ بنبلونه وقلنبرة ، وكر على البشقنس ثم على بلاده الشرطانيين[٢] ، فحل بابن بلسكوط ،[٣] فأخذ ولده رهينة وصالحه على الجزية ، وخاف الأمير على عيشون فأمر بضمه إلى الحبس . (ص ١١٥) ثم أمر الأمير بقتله ، فتم ذلك ثم صلب تحت القصر . ولما صار ولد حسين عند الأمير ، عاد إلى نفاقه ، فخرج إليه الأمير غازيا إلى سرقسطة . فعند ذلك نصب عليها المجانيق من كل جانب ، وضيق على أهلها أشد الضيق ، فترامى القوم إليه وأسلموا إليه حسينا ، فلم يقتل من أهل المدينة غيره . (ص ١١٦) ثم ثار محمد بن يوسف ابو الأسود ، فأقبل فيمن اتبعه من أهل الشرق ، حتى حل مدينة قسطلونه ،فخرج إليه الأمير ،فنازله بها أياما ، حتى فض جمعه فانهزم ، فأخذ إلى ناحية قورية ، فاتبعه الأمير من سنته فهرب إلى الغار ... وكانت آخر غزوات الأمير عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله .

---

(١) وهى Sautaver . (الترجمة الاسبانية ص ٢٦٩)

(٢) هذه المدن حسبما وردت فى الترجمة الاسبانية ، ص ١٠٥ ، هى Pamplona ، Colture ، Cerdana .

(٣) لعله Galindo Belascotenes (الترجمة الاسبانية ص ١٠٥) .

٣ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تأليف أحمد
ابن محمد المقري — نشر محمد محيي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٩ م . الجزء الأول

(ص ٣١٠) وخاطب عبد الرحمن قارله، ملك الفرنج ، وكان من طغاة الفرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة .

(ص ٣١٨ – وفي سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨/٨٠٧ م) جمع لذريق (لويس) ابن قارلة ملك الفرنج جموعه ، وسار إلى حصار طرسونة ، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن ، في العساكر فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافرا .

المصادر والمراجع

Abel & Simson : Jahrbücher des frankischen Reiches unter Karl dem Grossen. Leipzig I. 1888 II. 1883.

Annales Fuldenses ed. Kurz, Hannover 1891 (M.G.H.)

Annales Mettenses priores ed. B. von Simson (M G.H.)

Annales Regni Francorum. ed. Kurze. Hannover 1895. (M.G.H.)

Auzias : L'Aquitaine carolinigienne.

Bedier J. : Legendes epiques, Paris 1913-1914.

Blade : Le Sud-Ouest de la Gaule franque du royaume d'Aquitaine jusqu'à la mort de Charlemagne. (Ann.Fac, Lettres. Bordeaux T.XI. 1894).

Böhmer : Regesta imperii. Innsbrück. 1877.

Boissonnade, P. : Du nouveau sur la chanson de Roland Paris, 1928.

Buckeler. F. W. : Harun'l Rashid and charles the Great. Cambridge Mass. 1931.

Bury J. B. : A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.

Calmette J. : Charlemagne. Paris 1945.

Caiptularia Regum Francoram : (M.G.H.) T.I. 1883. ed. Boretius.

Coulet : La Voyage de Charlemagne en Orient. Paris 1907.

Dahlmann. F. C. & Waitz G : Quellenkunde der Deutschen Geschichte ed. H. Haering 1931.

Dictionary of Christian Biography. ed. W. Smith & H. Wace.

Dictionary of Christian Church ed. Cross. Oxford 1957.

Duchesne, L : Histoire Ancienne de l'Eglise. 3 vols. Paris 1923.

Ebert : Histoire générale de la litterature du moyen âge en Occident. Trad. Aymeric et Condamin T. III. Paris 1889.

Eginhard : Vie de Charlemagne. ed. Halphen. Paris 1947.

Epistola : H.G.H.III.(Merowingici et Karolini aevi 1) ed. Dummler. 1895.

IV (Karolini aevi II). ed, Dummler1895.

V (Karolini aevi) ed. Dummler. 1899.

VI (Karolini aevi IV). ed. Dummler1925.

VII (Karlorlui aevi V). ed. Kehr1928.

Fauriel, M. : Histoire de la Gaule meridionale sous la domination des conquérants germaines. Paris 1836. 4 vols.

Fichtenau, H. : The Carolingian Empire Oxford. 1957.

Freeman, E A. : Western Europe in the Eigth Century. London 1904.

Fustel de Coulanges : Histoire des Insititutiones de l'AucienneFrance. 6 vols. Paris 1888-1891.

Gasquet, A. : Etudes Byzantines. L'Empire byzantin et la monarchie franque. Paris 1888.

Gautier, Leon : Les epopées françaires. T. III. Paris 1889.

Giesebrecht, W. : Geschichte der Deutschen Kaiserzeit. 5 vols. Leipzig 1855-1888.

Glotz G. : Histoire du Moyen Age T. I. Paris 1941.

Guizot, M. : Histoire de la Civilisation en France, Paris 1868.

Halphen, Louis : Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne Paris. 1921.

Harnack, A. : Die Beziehungen des frankisch-italischen Reich unter der Regierung Karls der Grossen. Gottingen. 1880.

Hauréau, B. : Charlemagne et sa cours. Paris. 1868.

Hefel, C : Conciliengeschichte. 6 vols Freibnig. 1873-1890.

Hefel,C. & Leclerq H. : Histoire des Concilies. 8Vols. Paris 1907-1921.

Hincmar : De Ordine Palatii ed. M. Prou. Paris. 1885.

Hodgkin, Thomas : Italy and her Invaders. Oxford 1899. (vols. 7,8).

Jaffé : Monumenta Caroline 1867 (M.G.H.).

Joranson, E. : The Alleged Frankish Protectrat in Palestine AHR. XXXII (1927).

Kleinclausz A. : Charlemagne. Paris 1934.
L'Empire carolingien Paris 1902.
La Legende du Protectorat de Charlmagne sur la Terre Sainte. Syria III (1926).

Kraus : Geschichte des Institutes der Missi dominici.

Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane. T.I.LeCaire.1944.

Liber Pontificalis ed. : Duschesne, 2 vol 1886-1892.

Lokys. G. : Die Kampfe der Araber mit dem Karolingern bis zur Tode Ludwig II. Heidelberg 1906.

Marignan, A. : Etudes sur la civilisation française. vol. I Paris 1892.

Mansi J : Sacrorum conciliorum, 31vols. Florence & Venice.1759-1798.

Martine, H. : Charlmagne et l'empire Carolingien. Paris 1853.

Migne, J. : Patrologiae-Series latina 221 vols Paris 1844-1864.

Monnier, F. : Alcuin et Charlemagne. Paris 1863.

Monod, G. : Etudes Critiques sur les sources de l'histoire carolingienne. Paris 1898.

Muhlbacher E. : Dentsche Geschichte unter der Karolingern, Stuttgart 1896.
— Die regesten des Kaiser - reiches unter den Karolingern T. I. 1900 (Innsbrück).

Muller : Der Islam im Margen - und Abendland T. I. 1885.

Nithard : Histoire des fils de Louis le Pieu Trans. P. Lauer. Paris 1926.

Paris, Gaston : La Litterture française au moyen âge (XI-XIVe siecle) Paris 1914
— Legendes du moyen âge, Paris 1912.

Pertz : Annales Laureshamenses. Monumenta Germaniae Scriptores T. I

Reinaud, M. : Invasions des Sarrazins en France. Paris 1836.

Richthofen : Monumenta Germaniæ. Leges (M. G. H).

Richter, G. : Annalen den frankischen Reiches in Zeitalter der Merovinger. Halle 1873.

Richter, G. Koohl : Annalen den frankischen Reiches in Zeitalter der Karolinger. Halle 1887.

Thegan : Vita Ludovici imperatoris. M. G.H. Script, II.

Theophanes : Chronographia ed. de Boor. 2 vols 1883 - 1884.

Tomek, W. : Geschichte Böhmens.

Waitz, C. : Deutsche Verfassunggeschichte. 6 vols. Berlin 1880-1896.

Wilmotte : Une nouvelle theorie sur l'origine des chansons de geste. Revue historique T. CXX 1915.

Zeller. J. : Histoire de l'Allemagne, vol III. Paris 1884.

Zeumer : Formulæ Merowingici et Karolini aev: M.G.H. V. 1886.

Zeumer : Der Monch von Sankt Gallen (Historische Aufsatze dem Andenken an Georg Waitz).

Zotenberg, M. : Invasions des Visigoths et des Arabes en France. Toulouse. 1876.

كشاف

عما ورد من أسماء الأعلام والشعوب والقبائل والوقائع والمصطلحات والوظائف .

ع

غ

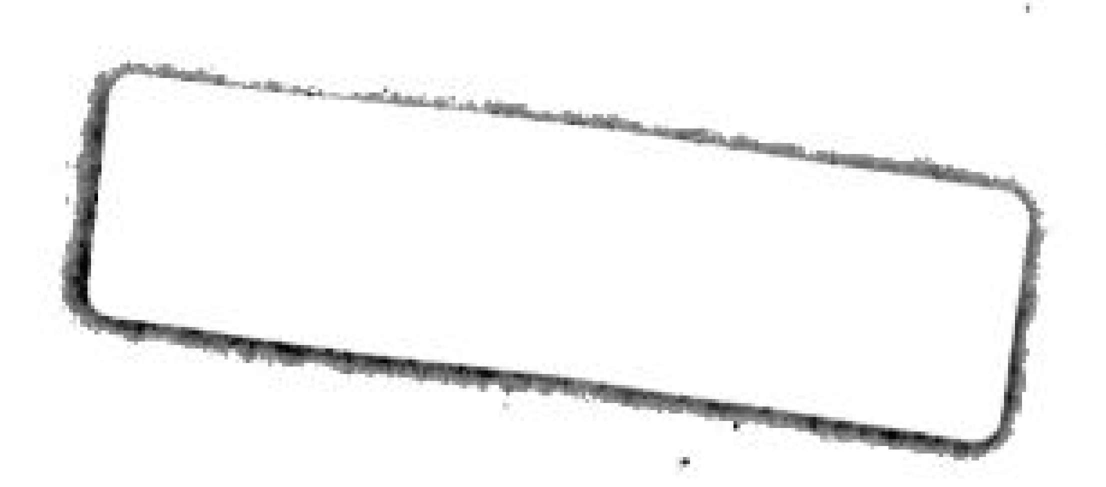
ف

ق

تصحيحات

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها	صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٦	٣	بانونيا	٤٥	١٩	بونيفاس
٨	٥	ادّعت	٥٣	٤	رأسه
٨	١٩	الفرنجة	٥٧	١٠	مزدوج
٨	١٩	البافاريين	٥٧	٢٣	ستيفن
١٢	١٦	ألمانيا	٦٢	٢	الفرنجة
١٣	١٩	التنافس عليها	٦٢	٣	جوارهم
١٤	٨	تدبير	٦٣	١٧	يوتروبيوس
١٦	١	يشيد	٦٤	١٧	كارلومان
١٦	١٥	يجتاز	٦٦	١	سنة ٧٧٢
١٦	١٧	حظ ضئيل	٧١	١٩	يشيرون إلى بأس
١٩	٢	تورنجيا	٧٤	٢	ايجنهارد
٢٠	١٢	الصدر	٨٠	٨	قضائي
٢١	١	التورنجيون	٨٥	٤	كتابته
٢٤	٧	نرمنديا	٨٧	١٠	الذين
٢٦	١٥	ضيعة	٨٨	٣	ثلاثة
٢٧	٢٣	ضيعاتهم	٩٧	١٨	سكسونيا
٢٩	٨	الكارولنجيون	٩٨	٢١	رجال
٣٠	٢	يتعرض	١٠١	١٧	وشقة
٣٦	٢٤	يتدرب	١٠٣	٧	الطرف
٤١	٨	تمت	١٠٧	٢٢،	هيوخشوب
٤٢	١٣	مآدبه	١١٣	١٢	للامبراطورين
٤٥	٩	تورنجيا	١١٧	١٩	نسّابة
٤٥	١٤	في حاجة	١٢٧	١٧	جيرانهم

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها	صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
١٢٩	١١	فوقها	٢٠٥	٧	الفيفاء
١٣٧	٩	لا يتفرّضون	٢٠٥	١٠	مترجو
١٣٩	١٤	ثمانية	٢٠٧	٩	إضافة
١٤٧	٣	تعتبر جوداً	٢٠٨	١٧	مدينة الله
١٥٧	١	التون	٢١٠	٢٣	De ordine
١٧٣	١٧	انكشفت	٢١٣	٢٠	غير
١٨٣	٣	إعداها	٢١٩	١٩	وأمر
١٨٣	٧	أوتو	٢٢٣	١٤	للفكر
١٨٢	٩	كابيه	٢٣٠	٢٠	الأمبراطورية
١٨٤	١٣	وحياة	٢٣٧	٢١	أيوب
١٨٤	١٤	الأب	٢٣٩	٨	كان فيه
١٩٦	١	من	٢٥٠	٢٢	بورشارد
١٩٨	٥	(بالمطلين)	٢٥٢	٢١	السلعين
٢٠١	٦	أشتورس	٢٥٣	١	فترة الشذور
٢٠٣	٤	وروى	٢٦٧	٢٣	الإثنين
٢٠٤	العنوان	الأمبراطور	٢٨٧	٢٣	Karoli




Bibliotheca Alexandrina
0460092

